المجلد الرابع

من

لطائف الإشارات

تفسير صوفى كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيرى

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور ابراهيم بسيونى

صدّر له

الأستاذ حسن عباس زكى

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

بالقاهرة

al-Qushayrī

Laṭāʾif



بسم الله الرحمن الرحيم

« . . . أهلُ الجنةِ طابت لهم حدائقُها ، وأهل النار أحاط بهم سرادقُها ، والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عن أنْ تعودَ إليه من تعذيب هؤلاء عائدة ، ولا من تنعيم هؤلاء فائدة . . جَلَّتْ الأحدية ، وتقدَّسَتْ الصمدية .

وَمَنْ وقَعَتْ عليه غَبَرَةٌ فى طريقنا لم تقع عليه قَتَرةُ فراقنا ، ومَنْ خطا خطوةً إلينا وَجدَ حُظْوَةً لدينا ، ومن نَقَلَ قَدَمَهَ نحونا غفرنا له ما قَدَّمه ، ومن رفَعَ إلينا يَدَاً أجزلنا له رَغَدَاً ، ومن التجأ إلى سُدَّةِ كَرَمِنا آويناه فى ظِلِّ نِعَمِنا ، ومن شكا فينا غليلاً ، مَهَّدْنا له فى دار فضلنا مقيلاً »

عبد الكريم القشيرى

عند

سورة الكهف

السورة التي يذكر فيها بنو إسرائيل[1]

قوله تعالى وتَقَدَّس : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

كلمةٌ ما سَمِعَها عابدٌ إلّا شكر عصمتَه ، وما سمعها سالكٌ إلا وَجدَ رحمتَه ، وما تَحَقَّقَها عارفٌ إلاَّ تعطَّرَ قلبُه بنسيمِ قُربته ، وما شهدها موحِّدٌ إلا تَقَطَّرَ دمُه لخوفِ فُرقته .

قوله جل ذكره : ﴿ سبحان الذى أسرى بِعَبْدِه ليلاً من
المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى
الذى باركْنا حَوْلَه لنُرِيَهُ من آياتِنا
إنَّه هو السميعُ البصيرُ ﴾

افتتح السورةَ بذِكْرِ الثناءِ على نَفْسه فقال : « سبحان الذى . . » : الحقُّ سبَّحَ نَفْسَه بعزيزِ خطابِه ، وأخبر عن استحقاقه لجلال قَدْرِه ، وعن توحُّدِه بعلوِّ نُعُوتِه .

ولمَّـا أراد أَنْ يَعْرِفَ العبادُ ما خَصَّ به رسولَه — صلى الله عليه وسلم — ليلةَ المعراجِ من عُلوِّ ما رقَّاه إليه ، وعِظَمِ ما لقَّاه به أزالَ الأُعْجوبةَ بقوله : « أسرى » ، ونفى عن نبيِّه خَطَرَ الإعجاب بقوله : « بعبده » ؛ لأنَّ مَنْ عَرَفَ ألوهيته، واستحقاقَه لـكمالِ العزِّ فلا يُتَعَجَّبُ منه أن يفعل ما يفعل . ومَنْ عرف عبوديةَ نَفْسِه ، وأنَّه لا يَمْلِكُ شيئاً من أمره فلا يُعْجَبُ بحاله . فالآية أوضحت شيئين اثنين : نَفْيَ التعجُّبِ من إظهارِ فِعْلِ اللهِ عزَّوجل ، ونفيَ الإعجابِ فى وصف رسول الله عليه السلام .

ويقال أخبر عن موسى عليه السلام — حين أكرمه بإسماعه كلامه من غير واسطة —

---

(١) يقول السيوطى فى الإتقان : « وتسمى أيضاً سورة الإسراء ، وسورة سبحان وسورة بنى إسرائيل » الإتقان ط الحلبى سنة ١٩٥١ حـ ١ ص ٥٤ .
أما القاضى البيضاوى (ص ٣٧٠) فيقول : سورة بنى إسرائيل أو سورة « أسرى » .

فقال : « ولما جاء موسى لميقاتنا »[1] ، وأخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم بأنه « أسرى بعبده » وليس مَنْ جاء بنفسه كمَنْ أُسْرِيَ به ربُّه ، فهذا مُتَحَمِّلٌ وهذا محمول ، هذا بنعت الفَرْقِ وهذا بوصف الجمع ، هذا مُرِيدٌ وهذا مُرَادٌ .

ويقال جعل المعراجَ بالليل عند غَفْلَةِ الرُّقَبَاءِ وغَيْبَةِ الأجانب ، ومن غير ميعاد ، ومن غير تقديم أُهْبَةٍ واستعداد ، كما قيل : [2]

ويقال جعل المعراجَ بالليل ليُظْهِرَ تصديقَ مَنْ صدَّقَ ، وتكذيبَ مَنْ تعجَّب وكَذَّبَ أو أنكر وجحد .

ويقال لما كان تعبُّدُه صلى الله عليه وسلم وتهجُّدُه بالليل جَعَلَ الحقُّ سبحانه المعراجَ بالليلِ

ويقال :

ليلةُ الوَصْلِ أَصْفَى من شهور ودهور سواها

ويقال أرسله الحقُّ — سبحانه — ليتعلَّم أهلُ الأرضِ منه العبادة ، ثم رَقَّاه إلى السماءِ ليتعلَّمَ الملائكةُ منه آدابَ العبادة ، قال تعالى في وصفه — صلى الله عليه وسلم — : « ما زاغ البصر وما طغى »[3] ، فما التفتَ يميناً ولا شمالا ، وما طمع في مقامٍ ولا في إكرام ؛ تجرَّد عن كلِّ طلبٍ وأَرَبٍ .

قوله : لنريه من آياتنا » : كان تعريفه بالآيات ثم بالصفات ثم كَشْفٌ بالذات .

ويقال من الآيات التي أراها له تلك الليلة أنه ليس كمثله — سبحانه — شيء في جلالِه وجماله ، وعِزِّه وكبريائه ، ومجده وسنائه .

ثم أراه من آياته تلك الليلة ما عَرَفَ به صلوات الله عليه — أنه ليس أحدٌ من الخلائق مثلَه في نبوته ورسالته وعلوِّ حالته وجلال رتبته .

---

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٢) هنا شاهد شعري مضطرب في الكتابة ، وأكثر أجزائه سلامة هو : والناس عما نحن فيه بمعزل.

(٣) آية ١٧ سورة النجم .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتَيْنَا موسى الكتابَ وجعلناه هُدًى لِبَنِي اسرائيل أَلَّا تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾

أرسل موسى عليه السلام بالكتاب كما أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولكنَّ نَبِيَّنَا — صلوات الله عليه — كان أوفى — سماعاً ، فإنَّ الشمسَ في طلوعها وإشراقها تكون أقربَ ممن طلعت له من حقائقها .

قوله جل ذكره : ﴿ ذُرِيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مع نُوحٍ إِنَّه كان عَبْداً شكوراً ﴾

أي يا ذريةَ مَنْ حملنا مع نوح — على النداء . . إنه كان عبداً شكوراً .

والشكور الكثير الشكر ، وكان نوح قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وكان يضرب في كل (. . .)[1] كما في القصة — سبعين مرة ، وكان يشكر . كما أنه كان يشكر الله ويصبر على قومه إلى أن أوحى الله إليه : أنه لن يؤمن إلا من قد آمن ، وأُمِرَ حين دعا عليهم فقال : « ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً[2] » .

ويقال الشكور هو الذي يكون شكره على توفيقِ اللهِ له لِشُكْرِه ، ولا يتقاصر عن شكره لِنِعَمِه .

ويقال الشكور الذي يشكر بماله، ينفقه في سبيل الله ولا يدَّخره ، ويشكر بنفْسِه فيستعملها في طاعة الله ، ولا يُبقِي شيئاً من الخدمة يدخره ، ويشكر بقلبه ربَّه فلا تأتي عليه ساعةٌ إلا وهو يذكره .

قوله جل ذكره : ﴿ وقَضَيْنَا إلى بني إسرائيلَ في الكتابِ

---

(١) مشتبهة .

(٢) آية ٢٦ سورة نوح ويكون المراد أنه لم يدع بإهلاكهم نتيجة نفاذ صبره أو عدم شكره بل حسبما أمره الله ، ولو وضعنا الفاصلة بعد (وأُمِرَ) يكون المعنى : إلا من قد آمن وأمر بالإيمان . وهذا التأويل لا يتعارض مع المذهب العام للقشيري ، فكل شيء عنده بأمر الله وتوفيقه .

لَتُفْسِدُنَّ فى الأرضِ مرتين ولَتَعْلُنَّ
عُلُوّاً كبيراً ﴾

القضاءُ هاهنا بمعنى الإعلام ، والإشارة فى تعريفهم بما سيكون فى المُسْتأنَفِ منهم وما يستقبلهم ، ليزدادوا يقيناً إذا لقوا ما أُخْبِروا به ، وليكونَ أبلغَ فى لزوم الحُجَّةِ عليهم ، وليحترزوا من مخالفة الأمر بجحدهم ، وليعلموا أن ما سَبَقَ به القضاءُ فلا محالةَ يحصل وإنْ ظُنَّ التباعدُ عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا جاء وَعْدُ أُولاهما بَعَثْنا عليكم
عباداً لنا أُولى بأسٍ شديدٍ فَجاسُوا
خِلالَ الدِّيارِ وكان وعداً مفعولاً ﴾

إن الله سبحانه يُعِدُّ أقواماً لأحوالٍ مخصوصةٍ حتى إذا كان وقتُ إرادته فيهم كان هؤلاء موجودين .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم رَدَدْنا لكم الكَرَّةَ عليهم
وأمددناكم بأموالٍ وبنينَ وجعلناكم
أكثرَ نفيراً ﴾

يدلُّ على أنه مُقَدِّرُ أعمالِ العباد ، ومدبِّرُ أفعالِهم ؛ فإنَّ انتصارَهم على أعدائهم من جملة أكسابهم ، وقد أخبر الحقُّ أنه هو الذى تولّاه بقوله : « رددنا لكم الكرة عليهم ... »

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ أحْسَنْتُم أحسنْتُم لأنْفُسِكم وإنْ
أَسَأْتُم فَلَهَا فإذا جاء وعدُ الآخرة
لِيَسُوءُوا وجوهَكم ولِيَدْخُلوا
المسجدَ كما دخلوه أوَّلَ مرَّةٍ
ولِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تتبيراً ﴾

إنْ أحسنتُم فثوابَكم كسبتم ، وإنْ أسأتم فعداءكم جلبْتم — والحقُّ أعزُّ مِنْ أنْ يعودَ إليه من أفعال عبادِه زَيْنٌ أو يلحقه شَيْنٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ عسى ربُّكم أنْ يرحمَكم ﴾

كلمةُ « عسى » فيها ترجية وإطماع ، فهو — سبحانه — وقفهم على حد الرجاء والأمل ، والخوف والوجل .

وقوله « عسى » : ليس فيه تصريح بغفرانهم ورحمتهم ، وإنما فيه للرجاء موجِبٌ قوىٌّ ؛ فبلطفه وعد أن يرحمكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ عُدْتُم عُدْنا وجعلنا جهنَّم للكافرين حصيراً ﴾

أى إنْ عُدْتُم إلى الزَّلةِ عُدْنا إلى العقوبة ، وإن استقمتم فى التوبة عدنا إلى إدامة الفضل عليكم والمثوبة .

ويقال إن عُدْتُم إلى نَقْضِ العَهْد عُدنا إلى تشديد العذاب .

ويقال إن عُدْتُم للاستجارة عدنا للإجارة .

ويقال إن عُدْتُم إلى الصفاء عدنا إلى الوفاء .

ويقال إن عُدْتُم إلى ما يليق بكم عُدْنا إلى ما يليق بكرمنا .

« وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » ، لأنهم (. . . .)(١) وهم ناس كثير فهذه جهنم ومن يسكنها من الكافرين .

و « حصيراً » أى محبساً ومصيراً . فالمؤمنُ — وإنْ كان صاحبَ ذنوب وإنْ كانت كبيرة — فإنَّ مَنْ خرج من دنياه على إيمانه فلا محالةَ يصل يوماً إلى غفرانه .

---

(١) هنا بياض فى النسخة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ هذا القرآنَ يَهْدِى للتى هى أقومُ ويُبَشِّرُ المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ أنَّ لَهُمْ أجْراً كبيراً ﴾

القرآنُ يدل على الحقِّ والصواب . و « أقوم » : هنا بمعنى المستقيم الصحيح كما كبر بمعنى الكبير ؛ فالقرآن يدل على الحق والصواب ، ولكنَّ الخللَ من جهة المُستَدِلِّ لاالدليل ، إذ قد يكون الدليل ظاهراً ولكنَّ المستدِلَّ مُعْرِضٌ ، وبآداب النظر مُخِلٌّ ، فيكون العيبُ في تقصيره لا فى قصور الدليل[1] .

القرآنُ نورٌ ؛ مَنْ استضاء به تَخَلَّصَ من ظُلُماتِ جَهْلِه ، وخرج من غمار شَكِّه . ومَنْ رَمِدَتْ عيونُ نظرِه التبس رُشْدُه .

ويقال الحَوَلُ ضَرَرُه أشدُّ من العَمَى ؛ لأنَّ الأعمى يعلم أنه ليس يُبْصِر فيَتْبَعُ قائدَه ، ولكن الأحولَ يتوهَّمُ الشىء شيئين ، فهو بتخيُّلِه وحسبانه يمارى مَنْ كان سليماً . . كذلك المبتدِعُ إذا سَلَكَ طريقَ الجَدَل ، ولم يضع النظر موضعه بَقِىَ فى ظُلُماتِ جَهْلِه ، وصال بباطل دعواه على خَصْمِه ، كما قيل :

بأطرافِ المسائلِ كيف يأتى — ولا أدْرِى لَعَمْرُكَ — مُبْطِلُوها ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ويَدْعُ الإنسانُ بالشرِّ دعاءه بالخيرِ وكان الإنسانُ عَجُولاً ﴾

من الأدب فى الدعاء ألَّا يسألَ العبدُ إلَّا عند الحاجة[2] ، ثم ينظر فإنْ كان شىء لا يعنيه ألا يتعرَّضَ له ؛ فإنَّ فى الخبر[3] : « مِن حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » . ثم من آداب الداعى إذا سأل من اللهِ حاجتَه ورأى تأخيراً فى الإجابة ألا يَتَّهِمَ الحقَّ — سبحانه — ويجب أن يعلم

---

(١) هذا نموذج مصغر لأسلوب القشيرى الجدلى .

(٢) وردت (نجاحه) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) وردت (الخير) بالياء

أن الخير فى ألا يجيبه ، والاستعجالُ — فيما يختاره العبد — غيرُ محمود ، وأَوْلى الأشياءِ السكونُ والرضا بحُكْمِه سبحانه ، إن لم يساعدْه الصبرُ وسَأَلَ فالواجبُ تَرْكُ الاستعجال ، والثقةُ بأنَّ المقسومَ لا يفوته ، وأَنَّ اختيارَ الحقِّ للعبد خيرٌ له من اختياره لنفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا الليلَ والنهارَ آيتين فَمَحَوْنا آيَةَ الليلِ وجعلنا آيَةَ النهارِ مُبْصِرةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ ربكم ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السنينَ والحِسَابَ وكُلَّ شىءٍ فصَّلْنَاه تفصيلاً ﴾

جعل الليلَ والنهارَ علامةً على كمال قدرته ، ودلالةً على وجوب وحدانيته ؛ فى تعاقبهما وتناوبهما ، وفى زيادتهما و نقصانهما .

ثم جعلهما وقتاً صالحاً لإقامة العبادة ، والاستقامة على معرفة جلال إلهيته ؛ فالعبادةُ شرطُها الدوامُ والاتصال ، والوظائف حقُّها التوفيق والاختصاص .

ولو وقع فى بعض العبادات تقصيرٌ أو حَصَلَ فى أداءِ بعضِها تأخيرٌ تَدَارَكَه بالقضاءِ حتى يَتَلَافَى التقصير .

ويقال من وجوه الآيات فى الليلِ والنهارِ إفرادُ النهار بالضياء من غير سبب ، وتخصيصُ الليل بالظلام بغير أمرٍ مكتسب[1] ، ومن ذلك قوله تعالى: «فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » : وهو اختلاف أحوال القمر فى إشراقه ومحاقه ، فلا يبقى ليلتين على حال واحدة ، بل هو فى كل ليلة فى منزل آخر ، إما بزيادة أو بنقصان .

وأمَّا الشمس فحالها الدوام .. والناس كذلك أوصافهم ؛ فأربابُ التمكينِ الدوامُ شرطُهم ، وأصحابُ التلوينِ التنقلُ[2] حَقُّهم ، قال قائلهم :

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً تتحير الألبابُ دون نزوله

---

(١) أى أن أفعال الله بمخلوقاته لا تخضع لعلة أو سبب ، أو حيلة أو كسب .
(٢) يقصد بالتنقل هنا التقلب فى الأحوال . . وليس التنقل من مكان إلى مكان .

قوله جل ذكره: ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألْزَمْناه طائِرَهُ فى عُنُقِه ونُخْرِجُ له يومَ القيامةِ كتاباً يَلْقاه منشوراً ﴾

ألزم كلَّ أحدٍ ما لَبِسَ بِجِيدِه . فالذين هم أهلُ السعادة أسرج لهم مركبَ التوفيق، فيسير بهم إلى ساحات النجاة، والذين هم أهل الشقاوة أركبهم مَطِيَّةَ الخذلان فأقْعَدَتْهم عن النهوض نحو منهج الخلاص، فوقعوا فى وَهْدَةِ الهلاك.

قوله جل ذكره: ﴿ اقْرَأْ كتابَكَ كفى بِنَفْسِكَ اليومَ عليكَ حسيباً ﴾

مَنْ ساعَدَتْه العنايةُ الأزليةُ حُفِظَ عند معاملاته مما يكون وبالاً عليه يوم حسابه، ومَنْ أبلاه بِحُكْمِه رَدَّه وأمْهلَه، ثم تركه وعَمَلَه، فإذا استوفى أَجَلَه عرف ماضَيَّعَه وأهمله، ويومئذ يُحَكِّمه فى حالِ نفسه، وهو لا محالةَ يحكم بنفسه باستحقاقه لعذابه عندما يتحقق من قبيح أعماله.. فكم من حسرةٍ يتجرَّعُها، وكم من خيبةٍ يتلقَّاها!

ويقال مَنْ حَاسَبَه بكتابه فكتابُه مُلازِمُه فى حسابه فيقول: رَبِّ: لا تحاسبنى بكتابى.. ولكن حاسِبْنِي بما قلتَ: إنَّكَ غافرُ الذَّنْبِ وقابلُ التوبِ.. لا تعاملنى بمقتضى كتابى؛ ففيه بوارى وهلاكى.

قوله جل ذكره: ﴿ مَنْ اهتدى فإنَّما يهتدى لِنَفْسِه ومَنْ ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عليها ﴾

قضايا أعمال العبد مقصورةٌ عليه؛ إنْ كانت طاعةً فضياؤها لأصحابها، وإنْ كانت زَلَّةً فبلاؤها لأربابها. والحقُّ غنيٌّ مُقَدَّسٌ، أحديٌّ مُنَزَّهٌ.

قوله جل ذكره: ﴿ ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى وما كُنَّا مُعَذِّبِين حتى نَبْعَثَ رسولا ﴾

كُلٌّ مُطَالَبٌ بجريرته. وكلُّ نَفْسٍ تحمل أوزارها لا وِزْرَ نَفْسٍ أخرى.. «وما كنا

معذبين حتى نبعث رسولا » : دلّ ذلك على أن الواجبات إنما تتوجّه من حيث السمع[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أردنا أنْ نُهْلِكَ قريةً أمرْنا مُتْرَفيها فَفَسَقُوا فيها فحَقّ عليها القولُ فدمّرْناها تدميراً ﴾

إذا كَثُرَ أهلُ الفسادِ غلبُوا ، وقلّ أهل الصلاح وفقدوا ، فعند ذلك (يغمر)[2] اللهُ الخَلْقَ ببلائه ، ولا يكون للناس ملجأ من أوليائه ليتكلموا فى بابهم ، ولا فيهم من يبتهل إلى الله فيُسْمَعُ دعاؤه ، فيَخْتَرِمُ[3] أولياءه ، ويُبْقِي أربابَ الفساد ، وعند ذلك يشتدُّ البلاء وتَعْظُمُ المِحَنُ إلى أن ينظرَ اللهُ تعالى إلى الخَلْق نَظَرَ الرحمةِ والمِنَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكَمْ أهْلَكْنا من القرونِ من بَعْدِ نوحٍ وكفى بربِّكَ بذنوبِ عبادِه خبيراً بصيراً ﴾

فى الآية تسليةٌ للمظلومين إذا استبطأوا هلاكَ الظالمين ، و (. . .)[4] قِصَرِ أيديهم عنهم . فإذا فكّروا فيما مضى من الأمم أمثالِهم وكيف بَنَوْا مَشِيداً ، وأمّلوا بعيداً . . فبادوا جميعاً ، يعلمون أنّ الآخرين — عن قريب — سينخرطون فى سلكهم ، ويُمْتَحَنُون بمثل شأنهم . وإذا أظلّتهم سُحُبُ الوحشةِ فاءوا إلى ظلِّ شهود التقدير ، فتزول عنهم الوحشة ، وتطيب لهم الحياةُ ، وتحصل الهيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كان يريدُ العاجلةَ عَجَّلْنا له فيها ما نشاء لِمَنْ نُرِيدُ ثم جَعَلْنا له جهنّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً ﴾

---

(١) نظن أن القشيرى يريد بذلك أن يرد على بعض اهل الكلام الذين يقولون إن الله يعذب الناس على ذنوبهم حتى ولو لم يبعث لهم رسولا لأن عقل الانسان مطالب بالتكليف قبل سماع الرسل .

(٢) وردت (يعمر) بالعين والصواب أن تكون بالغين لأن السياق يتطلب ذلك .

(٣) وردت (فيحترم) بالحاء والسياق يتطلب أن الله (يخترم) أولياءه أى يأخذهم إليه .

(٤) مشتبهة ، ونرجح أنها كلمة تؤدى إلى معنى (وأحسوا) قصر أيديهم عن الظالمين .

مَنْ رَضِيَ بالحظ الخسيس من عاجل الدنيا بَقِيَ عن نفيس الآخرة ، ثم لا يحظى إلا بِقدْر ما اشْتَهَّهُ ، ثم يكون آنسَ ما به قلباً وأشدَّ ما يكون به سكونا . . ثم يُخْتَطَفُ عن نعمته ، ولا يخصه بشيءٍ مما جمع من كرائمه ، ويمنعه من قربه فى الآخرة . . ولقد قيل :

يا غافلاً عن سماع الصوتْ إن لم تبادِرْ فهو الفوتْ
مَنْ لم تَزُلْ نعمته عاجلاً أزاله عن نعمته الموتْ

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لها سَعْيَها وهو مؤمنٌ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾

علامة مَنْ أراد الآخرةَ — على الحقيقة — أن يسعى لها سَعْيَها ؛ فإرادةُ الآخرة إذا تجرَّدَتْ عن العمل لها كانت مجردَ إرادة ، ولا يكون السعيُ مشكوراً . قوله : « وهو مؤمن » : أى فى المآلِ كما أنه مؤمنٌ فى الحال . ويقال وهو مؤمن أنَّ نجاته بفضله لا بسببه .

« فأولئك كان سعيهم مشكوراً » أى مقبولاً ، ومع القبول يكون التضعيف والتكثير ؛ فكما أن الصدقة يُرْبِيها كذلك طاعةُ العبدِ يُكَثِّرُها ويُنَمِّيها .

قوله جل ذكره ﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاءِ من عطاءِ رَبِّكَ وما كان عطاءُ رَبِّكَ محظوراً ﴾

يجازى كلاًّ بِقَدْرِه ؛ فَلِقَوْمٍ نجاة ولقومٍ درجات ، ولقوم سلامة ولقومٍ كرامة ، ولقومٍ مثوبتُه ، ولقومٍ قربتُه .

قوله جل ذكره ﴿ انظُرْ كيف فَضَّلْنا بعضَهم على بعضٍ وللآخِرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبر تفضيلا ﴾

التفضيلُ على أقسام ، فالعُبَّاد فَضَّلَ بعضَهم على بعض ولكن فى زكاء أعمالهم ، والعارفون فَضَّلَ بعضَهم على بعض ولكن فى صفاء أحوالهم ، وزكاء الأعمال بالإخلاص ، وصفاء الأحوال

بالاستخلاص ؛ فقومٌ تفاضلوا بصدق القَدَمِ ، وقوم تفاضلوا بعلوِّ الهِمَم . والتفضيل فى الآخرة أكبر : فالعُبَّادُ تفاضلهم بالدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنكم لَتَرَوْنَ أهلَ عِلِّيين كما ترون الكوكبَ الدريَّ فى أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم »

وأهلُ الحضرةِ تفاضُلُهم بلطائفهم من الأُنس بنسيم القربة بما لا بيانَ يصفه ولا عبارة ، ولا رمز يدركه ولا إشارة . منهم من يشهده ويراه مرةً فى الأسبوع ، ومنهم من لا يغيب من الحضرة لحظة ، فهم يجتمعون فى الرؤية ويتفاوتون فى نصيبِ كلِّ أحد ، وليس كلُّ مَنْ يراه يراه بالعين التى بها يراه صاحبه ، وأنشد بعضهم[1] :

لو يسمعون — كما سمعتُ حديثها   خرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسجودا

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَجْعَلْ مع اللهِ إلهاً آخَرَ فتَقْعُدَ مذموماً مخذولا ﴾

الذى أشرك بالله أصبح مذموماً من قِبَلِ الله ، ومخذولاً من قِبَلِ (مَنْ)[2] عَبَدَه من دون الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلا إيَّاه وبالوالدين إحسانا إمَّا يَبلُغَنَّ عندَكَ الكِبَرَ أحدُهما أو كلاهُما فلا تَقُلْ لهما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقُلْ لهما قَوْلاً كريماً ﴾

أمَرَ بإفراده — سبحانه — بالعبادة ، وذلك بالإخلاص فيما يستعمله العبدُ منها ، وأن يكون مغلوباً باستيلاءِ سلطانِ الحقيقةِ عليه بما يحْفَظُه عن شهودِ عبادته[3] .

وأمَرَ بالإحسان إلى الوالدين ومراعاةِ حقِّهما ، والوقوفِ عند إشارتهما ، والقيام بخدمتهما ،

---

(١) البيت لكثير صاحب عزة .

(٢) سقطت (مَنْ) والسياق يتطلبها ، والخذلان ناجم عن أنَّ أى معبود غير الله لا يملك لمن يعبده نفعاً ولا يدفع عنه ضراً .

(٣) فاخلاص العبد فى التحقق بحفظه عن التقصير فى أمور الشريعة .

وملازمة ما كان يعود إلى رضاهما وحُسْنِ عشرتهما ورعاية حُرْمَتِهما ، وألا يبدىَ شواهدَ الـكسلِ عند أوامرهما ، وأن يَبْذُل المُـكْـنَةَ فيما يعود إلى حفظ قلوبهما . . . هذا فى حال حياتهما ، فأمَّا بعد وفاتهما فبصِدْقِ الدعاء لهما ، وأداءِ الصَّدَقَةِ عنهما ، وحِفْظِ وصيتهما على الوجهِ الذى فَعَلاه ، والإحسانِ إلى مَنْ كان مِنْ أهلِ ودِّهما ومعارفهما .

ويقال إنَّ الحقَّ أمَرَ العبادَ بمراعاة حقِّ الوالدين وهما من جنس العبد . . فَمَنْ عجز عن القيام بحقٍّ جنسه أنَّى له أن يقومَ بحقٍّ ربه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ واخفِضْ لهما جناحَ الذُّلِّ من الرحمة وقُلْ ربِّ ارحَمْهُما كَمَا ربَّيَانى صغيراً ﴾

إخفض لهما جناحَ الذُّلِّ بحسن المداراة ولين المنطق ، والبدار إلى الخدمة ، وسرعة الإجابة ، وترك البَرَمِ بمطالبهما ، والصبر على أمرها ، وألا تدَّخِرَ عنهما ميسوراً .

قوله جل ذكره : ﴿ ربُّـكُمْ أعْلَمُ بما فى نفوسِـكم إنْ تـكونوا صالحين فإنَّه كان للأوابين غفوراً ﴾

إذا عَلِمَ اللهُ صِدْقَ قلبِ عبدٍ أمَدَّه بحسنِ الأمجاد، وأكرمه بجميل الامتداد[1] ، ويَسَّر عليه العسيرَ من الأمور ، وحفظه عن الشرور ، وعطف عليه قلوب الجمهور .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتِ ذا القُرْبَى حقَّه والمِسْـكينَ وابنَ السبيل ولا تبذِّر تبذيراً ﴾

إيتاء الحقِّ يـكون من المال ومن النَّفْس ومن القول ومن الفعل ، ومَنْ نَزَل على اقتضاء حقِّه ، وبذل الـكُلَّ لأجل ما طالبه به من حقوق . فهو القائم بما ألزمه الحقُّ سبحانه بأمره .

(١) أى الاستدامة والاستمرار دون وقفة أو فترة — وتلك من أعظم المنن فى نظر القشيرى ، وقد قال الرسول (ص) : « خير العمل أدومه وإن قل » .

والتبذيرُ مجاوزةُ الحدِّ عمَّا قدَّره الأمرُ والإذنُ . وما يكون لحظِّ النَّفْسِ — وإن كان سمسمة — فهو تبذيرٌ ، وما كان له — وإن كان الوفاء بالنَّفْس — فهو تقصيرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ المبذرين كانوا إخوانَ الشياطين وكان الشيطانُ لربِّه كفوراً ﴾

إنما كانوا إخوانَ الشياطين لأنهم أنفقوا على هواهم ، وجَرَوْا فى طريقهم على دواعى الشياطين ووساوسهم ، ولمَّا أفضى بهم ذلك إلى المعاصى فقد دعاهم إخوانَ الشياطين .

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا تُعْرِضَنَّ عنهم ابتغاء رحمةٍ من ربِّك ترجوها فقُلْ لهم قولاً ميسوراً ﴾

إن لم يُسَاعِدْكَ الإمكانُ على ما طالبوكَ من الإحسان فاصْرِفْهم عنكَ بوعدٍ جميلٍ إن لم تُسْعِفهم بنقدٍ جزيل .. وإنَّ وَعْدَ الكرامِ أَهْنأُ من نقد اللئام[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تجعلْ يَدَكَ مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلَّ البَسْطِ فتَقْعُدَ ملوماً محسوراً ﴾

لا تُمْسِكْ عن الإعطاء فتَكْدِى[2] ، ولا تُسْرِفْ فى البذلِ بكثرة ما تُسْدِى ، واسْلُكْ بين الأمرين طريقاً وَسَطاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ رَبَّكَ يَبْسُط الرزقَ لمن يشاء ويَقْدِرُ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾

إذا بَسَطَ لا تَبْقَى فاقة ، وإذا قبض استنفد كلَّ طاقة(٣) .

---

(١) وردت (الأيام) وقد أثبتنا (اللئام) فبها يقوى المعنى وتستقيم المقابلة .
(٢) تكدى أى تبخل ، قال تعالى : « وأعطى قليلا وأكدى » .
(٣) واضح أن القشيرى يوجه الإشارة إلى رزق الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقتلوا أولادَكم خَشْيَةَ إملاقٍ نحن نرزُقهم وإياكم إنَّ قتْلَهم كان خِطْئاً كبيراً ﴾

مَنْ عَرَفَ أنَّ الرازقَ هو الله خفَّ عن قلبه همُّ العيال[1] — وإنْ كَثُروا ، ومن خفى عليه أنه قَسَّمَ — قبل الخلْقِ — أرزاقَهم تطوح فى متاهات مغاليطه ، فيقع فيها بالقلب والبَدَنِ ثم لا يكون غير ما سبق به التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقربوا الزِّنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلا ﴾ .

ترَّجحَ[2] الزنا على غيره من الفواحش لأن فيه تضييعَ حُرْمَةِ الحقِّ ، وهتكَ حُرْمَةِ الخلْق ، ثم لِمَا فيه من الإخلال بالنَّسَبِ ، وإفسادِ ذات البين[3] من مقتضى الأَنَفَةِ والغضب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقتلوا النَّفْسَ التى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ ، ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليِّه سلطانا فلا يُسرِف فى القتلِ إنه كان منصوراً ﴾

لا يجوز قَتْلُ نَفْسِ الغير بغير الحق ، ولا للمرء أن يقتل نَفْسَه أيضاً بغير الحق . وكما أنَّ قتلَ النَّفْس بالحديد وما يقوم مقامه من الآلات مُحَرَّمٌ فكذلك القَصْدُ إلى هلاكِ المرءِ مُحَرَّمٌ .

ومن انهمك فى مخالفة ربه فقد سعى فى هلاك نفسه . « ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً » : أى تسلطاً على القاتل فى الاقتصاص منه ، وعلى معنى الإشارة : إن النصرة مِنْ قِبَلِ الله ، ومنصورُ الحقِّ لا تنكسر سِنَانُه ، ولا تطيشُ سِهَامُه[4] .

---

(١) وردت (القبال) بالقاف وهى خطأ فى النسخ .
(٢) ترجح = زاد وثقل .
(٣) وردت (اليمين) وهى خطأ فى النسخ
(٤) وردت (شهامه) بالشين وهى خطأ فى النسخ

قوله جل ذكره : ﴿ولا تقربوا مالَ اليتيمِ إلَّا بالتى هى أحسن حتى يبلغَ أشُدَّه وأوفوا بالعهدِ إنَّ العَهْدَ كان مسئولًا﴾

لمَّا لم يكن لليتيم مَنْ يهتم بشأنه أمَرَ — سبحانه — الأجنبيَّ الذى ليس بينه وبين اليتيم سَبَبٌ أنْ يتولَّى أمرَه ، ويقومَ بشأنِه ، وأوصاه فى بابه ؛ فالصبيُّ قاعد بصفة الفراغ والهوينى[1] ، والولىُّ ساعٍ بمقاساة العَنَا . .

فأمْرُ الحقِّ — سبحانه — للولىِّ أحظَى للصبيِّ مِنْ شفقةِ آلِه عليه فى حال حياتهم[2] .

قوله جل ذكره : ﴿وأوْفُوا الكيلَ إذا كِلْتُم وزِنُوا بالقسطاسِ المستقيمِ ذلك خيرٌ وأحْسَنُ تأويلًا﴾

كما تدين تدان ، وكما تعامِلُ تُجازَى ، وكما تكيل يُكَالُ لكَ ، وكما تكونون يكون عليكم ، ومَنْ وَفَى وفَوْا له ، ومَنْ خان خانوا معه ، وأنشدوا :

أَسَأْنا فساءوا . . عَدْلٌ بلا حيفٍ ولو عَدَلْنا لَخَلُصْنا من المِحَنِ

قوله جل ذكره ﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لك به عِلْمٌ إن السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسئولا ﴾

إذا غَلَبَتْ عليكَ مُجَوِّزَاتُ الظنونِ ، ولم يُطْلِعكَ الحقُّ على اليقين فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان ، وإذا أُشْكِلَ عليك شىء من أحكام الوقت فارجِعْ إلى الله ؛ فإنْ لاحَ لقلبك وَجْهٌ من الدليل على حَدِّ الالتباس فَكِلْ عِلْمَه إلى الله ، وقِفْ حيثما وقفت .

(١) الهوينى = الخفض والدعة .

(٢) ما يقوله القشيرى فى حالة اليتيم ينصرف — كما هو واضح — على حالة المريد بالنسبة لشيخه ؛ فالمريد يجد من شيخه مالا يجده عند ذويه ، ذلك يربى الأرواح وهؤلاء يربون الأشباح .

ويقال الفرق بين من قام بالعلم وبين من قام بالحق أنَّ العلماء يعرفون الشيء أولاً ثم يعلمون بعلمهم ، وأصحابُ الحقِّ يجْرِى عليهم بحكم التصريف شيء لا علمَ لهم به على التفصيل ، وبعد ذلك يُكشَف لهم وجهُه ، وربما يجرى على ألسنتهم شيء لايذرون وَجْهَه ، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهانُ ما قالوه ، ودليلُ ما نطقوا به من شواهد العلم[1] .

قوله : « إن السمع والبصر . . . . » هذه أمانة الحق — سبحانه — عند العبد ، وقد تقدم فى بابها بما أوضحته ببراهين الشريعة .

ومَنْ استعمل هذه الجوارح فى الطاعات، وصانها عن استعمالها فى المخالفات فقد سَلَّم الأمانةَ على وصف السلامة ، واستحق المدحَ والكرامة . ومَنْ دَنَّسَها بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة ، واستوجب الملامة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تمشِ فى الأرضِ مَرَحاً إنَّك لن تَخْرِقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولا ﴾

الخُيَلاء والتجبُّر ، والمدح والتكبُّرُ — كل ذلك نتائجُ الغيبة عن الذكر ، والحجبة عن شهود الحقِّ ؛ فإنَّ اللهَ إذا تجلَّى لشيءٍ خشع له — بذلك وَرَدَ الخبر . فأمَّا فى حال حضورِ القلبِ واستيلاءِ الذكر وسلطانِ الشهود . فالقلبُ مُطْرِقٌ ، وحُكْمُ الهيبة غالبٌ . ونعتُ المدحِ وصفةُ الزَّهْوِ وأسبابُ التفرقة — كل ذلك ساقط .

والناسُ — فى الخلاص من صفة التكبر — أصنافٌ : فأصحابُ الاعتبار إذْ عرفوا أنهم مخلوقونَ من نطفةٍ أمشاج ، وما تحمله أبدانهم مما يترشح من مسامهم من بقايا طعامهم وشرابهم .. تعلو هِمَمُهم عن التضييق والتدنيق[2] ، ويَبْعُدُ عن قلوبهم قيامُ أخْطارٍ للأشياء ، ولا يخطر على داخلهم إلا ما يزيل عنهم التكبر ، وينزع عنهم لباس التجبُّر .

---

(١) من هذه الوصية وما جاء بعدها يتضح رأى القشيرى فى التفرقة بين المعرفة عند أرباب العلوم والمعرفة عند أرباب الحقائق ، ويذهب القشيرى فى « رسالته » إلى أن باستطاعة كبار شيوخ أهل هذه الطريقة أن يُفتُوا فى مسائل الفقه إفتاءً يُعْتَمَدُ به حتى لوكان أحدهم أمياً (أنظر الرسالة ص ١٩٨ وقصة شيبان الراعى مع الشافعى وابن حنبل) .

(٢) دنَّق البخيل = بالغ فى التضييق فى النفقة .

وأمَّا أرباب الحضور فليس فى طلوع الحق إلا انخناس النَّفْس ، وفى معناه قالوا :

إذا ما بدا لى تعاظَمْتُه فأصدر فى حال من لم يرد

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ ذلك كان سَيِّئُه عند ربِّك مكروهاً * ذلك مما أوْحى إليكَ ربُّكَ من الحِكْمَةِ ولا تجعَلْ مع اللهِ إلهًا آخرَ فتُلْقَى فى جهنَّم مَلُوماً مدحوراً ﴾

إذا سَعِدَتْ الأقدامُ بحضور ساحاتِ الشهود ، وعَطِرَتْ الأسرارُ بنسيم القُرْب تجرَّدَتْ الأوقاتُ عن الحجبة ، واستولى سلطانُ الحقيقة ، فيحصل التنقِّى من هذه الأوصاف المذمومة .

وقال تعالى لنبيِّه : « ذلك مما أوحي إليك ربُّك من الحكمة » : بالوحى والإعلام ، ولأوليائه تعريف بحكم الإلهام .

قوله جل ذكره : ﴿ أفأصفاكم ربُّكم بالبنين واتَّخذ من الملائكةِ إناثا إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾

جَوَّزوا أن يكونَ لله — سبحانه — ولدٌ ، وفكَّروا فى ذلك ، ثم لم يَرْضَوْا حتى جعلوا له ما استنكفوا منه لأنفسهم ، فما زادوا فى تمرُّدِهم إلا عُتُوًّا ، وفى طغيانهم إلا غُلُوًّا ، وعن قبول الحقِّ إلا نُبُوًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ قلْ لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذاً لابْتَغَوا إلى ذى العرشِ سبيلاً * سُبْحانَهُ وتعالَى عمَّا يقُولُونَ عُلُوًّا كبيراً ﴾

بيَّن أنه لو كان الصانعُ أكثرَ من واحدٍ لَجَرَى بينهم تَضادٌ وتمانُعٌ ، وصحَّ عند ذلك فى صفتهم العجزُ ، وذلك من سِمات المحدثات .

ثم قال سبحانه — تنزيهاً له عن الشَّريك والظَّهير ، والمعين والنظير :

﴿ تسبِّحُ له السمواتُ السَّبعُ والأرضُ
ومَنْ فيهن وإنْ من شيءٍ إلا يُسبِّح
بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحَهم
إنه كان حليماً غفوراً ﴾

الأحياء من أهل السموات والأرض يُسبِّحون له تسبيحَ قالة[1] ، وغير الأحياء يسبح من حيث البرهان والدلالة . وما من جزءٍ من الأعيان والآثار إلا وهو دليل على الربوبية ، ولكنهم إذا استمعوا توحيداً للإله تعجبوا — لجهلهم وتَعسُّر إدراكهم — وأنكروا .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قرَأْتَ القرآنَ جعلنا بينك
وبين الذين لا يؤمنون بالآخرةِ
حِجاباً مستوراً ﴾ .

أي أدخلناك في إيواءِ حِفْظِنا ، وضربنا عليك سرادقاتِ عصمتنا ، ومنعنا الأيدي الخاطئةَ عنك بلطفنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكِنَّةً أنْ يفقهوه
وفي آذانهم وَقْراً وإذا ذكرتَ ربَّك
في القرآنِ وَحْدَه وَلَّوْا على أدبارهم
نفوراً[2] ﴾ .

صَرَّح بأنه خالقُ ضلالتهم ، وهو المثبت في قلوبهم ما استكنَّ فيها من فرط غوايتهم[3] .

« وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده . . » أحبوا أن تذكر آلهتَهم ، قد ختم الله على قلوبهم ، فلا حديثَ يُعجِبُهم إلاَّ مِمَّنْ لهم شَكْلٌ ومِثْلٌ .

---

(١) وردت (ماله) بالميم والصواب أن تكون (قالة) بمعنى أن تسبيح الأحياء بالقول والنطق .

(٢) يمكن أن تكون (نفورا) مصدراً من نَفَر ينفِر أي ولَّى ، ويمكن أن تكون جمع نافر كقاعد وقعود .

(٣) هذا رأي على جانب كبير من الخطورة ينبني على أصل في مذهب القشيري — نوهنا به سابقاً — وهو أن الله خالق كل شيء — على الحقيقة — حتى أكساب العباد ، هي له حكما ولهم فعلا .

قوله جل ذكره : ﴿ نحن أعْلَمُ بما يستمعون به إذ يستمعون
إليكَ وإذ هم نَجْوَى إذ يقول الظالمون
إنْ تَتَّبِعون إلاَّ رجلاً مسحوراً ﴾

لَبَّسُوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحوالَهم ، وأظهروا الوفاقَ من أنفسهم ، فَفَضَحَهم اللهُ تعالى ، وكَشَفَ أسرارَهم ، وبَيَّنَ مقابحَهم ، وهَتَكَ أستارَهم ، فما تنطوى عليه السريرة لابُدَّ أن يَظْهرَ لأهل البصيرة بما يبدو على الأَسِرَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ أنْظُرْ كيف ضربوا لكَ الأمثالَ
فَضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾

عابوه بما ليس بنقيصةٍ فى نفسه حيث قالوا : « إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً » أى ذا سِحْرٍ . وأىُّ نقيصة كانت له إذا كان — صلى الله عليه وسلم — من جملة البَشَر ؟ والحقُّ سبحانه وتعالى متولٍ نصرته ، ولم يكن تخصيصه ببِنْيَةٍ ، ولا بصورة ، ولا بِحِرْفةٍ ، ولم يكن منه شىء بسببه وإنما بأنَ شرفُه لجملة ما تعلَّق به لُطْفُه القديم — سبحانه — ورحمته .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا أئِذا كُنَّا عِظاماً ورُفَاتاً
أئِنا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جديداً ﴾

أقَرُّوا بأنَّ الله خَلَقَهم ، ثم أنكروا قدرته على إعادتهم بعد عَدَمِهم ، ولكن . . كما جاز أن يوجِدَهم أولاً وهم فى كتم العَدَمِ ولم يكن لهم عين ولا أثر ، ولكنهم كانوا فى متناول القدرة ومتعلق الإرادة ، فَمِنْ حقِّ صاحبِ القدرة والإرادة أن يعيدَهم إلى الوجود مرة أخرى.. وهكذا إذا رَمَدَت عينُ قلبٍ لم يستبصر صاحبه .

قوله جل ذكره : ﴿ قلْ كونوا حِجَارةً أو حديداً *
أو خَلْقاً مما يكبر فى صدورِكم
فسيقولون مَنْ يُعيدُنا قُلْ الذى

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مرةٍ فَسَيُنْغِضُون[1]
إليكَ رُءوسَهُم ويقولون متى هو ؟
قُلْ عسى أَنْ يكونَ قريباً »

أخبر — سبحانه وتعالى — أنه لا يتعصَّى عليه مقدورٌ لأنه موصوف بقدرة أزلية ، وقُدْرَتُه عامَّةُ التعلق ، فلا المشقة تجوز فى صفته ولا الرفاهية . فالخلْقُ الأول والإعادة عليه سِيَّان ؛ لا مِنْ هذا عائدٌ إليه ولا من ذاك ، لأن قِدَمَه يمنع تأثير الحدوث فيه .

قوله جل ذكره : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُم فَتَسْتَجِيبُون بِحَمْدِهِ
وتَظُنُّونَ إن لَبِثْتُمْ إلاَّ قليلا﴾

يدعوكم فتستجيبونه وأنتم حامدون . فالحمد بمعنى الشكر ، وإنما يشكر العبدُ على النعمة والآية تدل على أنهم — وهم فى قبورهم — فى نعمته .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلْ لعبادى يقولوا التى هى
أَحْسَنُ ، إنَّ الشيطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُم ،
إنَّ الشيطانَ كان للإنسانِ عدوًّا
مُبِيناً ﴾

القولُ الحسنُ ما يكون للقائل أن يقوله . ويجوز أن يكون الأحسن مبالغة من الحَسَنِ ، فعلى هذا الأحسن من القول ما لا يجوز تركُه . ويقال الأحسن من القول ما يخاف قائله من العقوبة على تركه . ويقال الأحسن من القول إقرار المُحِبِّ بعبودية محبوبه .

ويقال أحسنُ قولٍ من المذنبين الإقرارُ بالجُرْم ، وأحسنُ قولٍ من العارفين الإقرارُ بالعجز عن المعرفة ، قال صلى الله عليه وسلم : سبحانك لا أُحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

(1) ينغضون رءوسهم أى يحركونها تعجباً واستهزاء .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يرحمْكم أو إنْ يشأ يُعَذِّبْكم وما أُرسلناكَ عليهم وكيلا ﴾

سَدَّ على كلِّ أحدٍ طريقَ معرفته بنفسه ليتعلَّق كُلُّ قلبه بربه . وجَعَلَ المواقبَ على أربابها مشتبهةً ، فقال « ربكم أعلم بكم » . ثم قدَّمَ حديثَ الرحمةِ على حديثِ العذاب ، فقال : « إنْ يشأ يرحمكم أو إنْ يَشأ يعذبكم » وفى ذلك تَرَجٍّ للأمل أنْ يقْوى .

ويوصف العبدُ بالعلم ويوصف الربُّ بالعلم ، ولكن العبدَ يعلم ظاهرَ حاله ، وعِلْمُ الرب يكون بحاله وبمآله ، ولهذا فالواجبُ على العبد أن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى ، وهذا معنى : « إن يشأ يرحمكم أو إنْ يشأ يعذبكم » بعد قوله : « أعلم بكم » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد فَضَّلْنا بعضَ النبيين على بعض وآتَيْنَا داودَ زَبُوراً ﴾

فَضَّلَ بعضَ الأنبياءِ على بعضٍ فى النبوة والدرجة ، وفى الرسالة واللطائف والخصائص . وجعل نبيَّنا — صلى الله عليه وسلم — أفضلَهم ؛ فهم كالنجوم وهو بينهم بَدْرٌ ، وهم كالبدور وهو بينهم شمس ، وهم شموسٌ وهو شمسُ الشموس .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ادْعُوا الذين زَعَمْتُم من دونه فلا يَمْلِكون كَشْفَ الضُّرِّ عنكم ولا تحويلاً ﴾

استعينوا فيما يستقبلكم[1] بالأصنام التى عبدتموها من دون الله حتى تتحققوا أنه لا تنفعكم عبادةُ شيءٍ من دون الله ، ولا يضركم تَرْكُ ذلك ، ولقد قيل فى الخبر : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[2]

---

(١) أى ما يستقبلكم من البلايا

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة ، وأحمد عن الحسين بن على ؛ والعسكرى عن علىّ ، وأوضحه الشبخان فى تخريج الأربعين .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين يَدْعُون يبتغون إلى
ربِّهم الوسيلةَ أيُّهم أقربُ ويَرْجُون
رحمتَه ويخافونَ عذابَه ، إنَّ عذابَ
ربِّكَ كان محذوراً ﴾

يعنى الذين يعبدونهم ويدعونهم — كالمسيح وعُزَيْر والملائكة — لا يملكون نفعاً لأنفسهم ولا ضَرّاً ، وهم يطلبون الوسيلةَ إلى الله أىْ يتقربون إلى الله بطاعتهم رجاء إحسانِ الله ، وطمعاً فى رحمته ، ويخافون العذاب من الله . . . فكيف يرفعون عنكم البلاء وهم يرجون الله ويخافونه فى أحوال أنفسهم ؟

ويقال فى المَثَلِ : تعلُّقُ الخَلْقِ بالخَلْقِ تعلُّقُ مسجونٍ بمسجون .

ويقال : إذا انضمَّ الفقيرُ إلى الفقيرِ ازدادا فاقةً .

ويقال إذا قاد الضريرُ ضريراً سقطا معاً فى البئر ، وفى معناه أنشدوا :

إذا التقى فى حَدَبٍ واحدٍ سبعون أعمى بمقادير
وسَيَّروا بعضَهم قائداً فكُلُّهم يسقط فى البير

قوله جل ذكره : ﴿ وإن مِنْ قريةٍ إلا نحن مُهْلِكُوها
قبلَ يومِ القيامة أو مُعَذِّبُوها عذاباً
شديداً ، كان ذلك فى الكتابِ
مَسْطوراً ﴾

العذاب على أقسام : فالألم الذى يَرِدُ على النفوسِ والظواهر يتصاغر بالإضافة إلى ما يَرِدُ على القلوب والسرائر ؛ فعذابُ القلوبِ لأصحابِ الحقائقِ أَحَدُّ فى الشِّدَّةِ مِمَّا يُصيب أصحابَ الفقر والقلة .

ثم إن الحقَّ سبحانه أجرى سُنَّتَه بأن مَنْ وصلت منه إلى غيره راحةٌ انعكست الراحةُ إلى موصلها ، وبخلاف ذلك مَنْ وصلت منه إلى غيره وَحْشَةٌ عادت الوحشةُ إلى موصلها .

ومَنْ سام[1] الناس ظُلماً وخَسْفًا فبِقَدْرِ ظُلْمِهِ يعذّبُه اللهُ — سبحانه وتعالى — فى الوقت بتنغيص العَيْشِ ، واستيلاءِ الغضب مِنْ كلِّ أحدٍ عليه ، وتَترَجَّمُ ظنونُه وتتقسَّمُ أفكاره فى أحواله وأشغاله . ولو ذاق من راحة الفراغ وحلاوة الخلوة شظية لَعَلِمَ ما طعم الحياة . . ولكنْ حُرِموا النِّعَمَ ، وما علموا ما مُنُوا به من النِّقَمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما مَنَعَنَا أن نُرْسِلَ بالآياتِ إلّا أنْ كَذَّبَ بها الأولون وآتيْنَا ثمودَ الناقةَ مُبْصِرَةً فظلموا بها ﴾[2]

أجرى الله سُنَّتَه أنه إذا أظهر آية اقْتَرَحَتْها أُمَّةٌ من الأمم ثم لم تؤمن بها بعد إظهارها أنْ يُعَجِّلَ لها العقوبة ، وكان المعلومُ والمحكومُ به ألا يجتاحَ العذابُ القومَ الذين كانوا فى وقت الرسول — عليه السلام — لِأَجْلِ مَنْ فى أصلابهم مِنَ الذين عَلِمَ أنهم يؤمِنُون ؛ فلذلك أَخَّرَ عنهم العذاب الذى تعجّلوه[3] .

﴿ وما نُرْسِلُ بالآيات إلا تخويفا ﴾

التخويف بالآيات ذلك من مقتضى تجمله ؛ فإنْ لم يخافوا وَقَعَ عليهم العذاب . ثم إنه عَلِمَ أنه لا يفوته شىء بتأخير العقوبة عنهم فأَخَّرَ العذابَ ، وله أن يفعل ما يشاء بمقتضى حُكْمِهِ وعِلْمِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قُلْنَا لكَ إنَّ ربَّكَ أحاط بالناس وماجَعَلْنَا الرؤيا التى أريناكَ إلّا فتنةً للناسِ والشجرةَ الملعونةَ فى القرآن

---

(١) وردت (صام) بالصاد وهى خطأ فى النسخ .

(٢) اختار من الآيات التى اقترحها الأولون ناقة صالح (عم) لأن آثار هلاكهم قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم .

(٣) عن عائشة رضى الله عنها (. . . نادانى مَلَكُ الجبال فسلم علىّ ثم قال : يامحمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بأمرك فما شئت ؟ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين (جبلين يحبطان بمكة) فقال النبى (ص) : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً) .

ونُخَوِّفُهُم فما يزيدُهم إلَّا طُغياناً
كبيراً ﴾[1]

الإيمانُ بما خَصَصْناكَ به امتحانٌ لهم وتكليفٌ ، ليتميزَ الصادقُ من المنافقِ ، والمؤمنُ من الجاحد ؛ فالذين تَدَارَكَتْهُم الحمايةُ وقفوا وثبتوا ، وصَدَّقوا بماقيل لهم وحققوا . وأما الذين خَامَرَ الشكُّ قلوبَهم ، ولم تباشِرْ خلاصةُ التوحيد أسرارَهم ، فما ازدادوا بما امتُحِنُوا به إلا تحيُّراً وضلالاً و تَبَلُّداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قُلْنا للملائكةِ اسجُدُوا لآدمَ فَسَجَدُوا إلا إبليسَ قال أأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينا ﴾

امتنع الشقيُّ وقال : لا أسجد لغيرك بوجهٍ سَجَدْتُ لَكَ به ، وكان ذلك جهلاً منه ، ولو كان بالله عارفاً لكان لأمره مؤثِراً ، ولمحيط نفسه تاركاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قال أَرَأَيْتَكَ هذا الذى كَرَّمْتَ عليَّ لَئِنْ أَخَّرتنِ إلى يومِ القيامةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَه إلا قليلا ﴾

لو علقت به ذرَّةٌ من المعرفة والتوحيد لم يحطب[2] على نفسه بالإضلال والإغواء ، لكنَّه أقامه الحقُّ بذلكِ المقام ، وأنطقه بما هو لقلوبِ أهلِ التحقيق مُتَّضِح .

قوله جل ذكره : ﴿ قال اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ منهم فإنَّ جهنَّمَ جزاؤكم جَزَاءً موفوراً ﴾

(١) الرؤيا المقصودة هى التى سبقت يوم بدر ، وفيها بُشر بالنصرة وبأنه سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فسخروا منه . وربما كانت رؤيا المعراج عند من قال إن المعراج كان فى المنام .
والشجرة الملعونة هى الزَّقوم حيث قالوا كيف يزعم محمد أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول إن بها تنبت شجرة ! فجعلوها سخرية

(٢) حَطَبَ = جَنَى على نفسه لعدم تفقد أمره وكلامه .

﴿ واسْتفزِزْ مَنْ استطعتَ منهم بصوتِك
وأَجْلِبْ عليهم بِخَيْـلِكَ ورَجْلِك
وشارِكْهُم فى الأموالِ والأولادِ ،
وعِدْهُم ومايَعِدُهم الشيطانُ إلا غُروراً ﴾

هذا غاية التهديد ، وفيه إشارة وبيان بألا مراء ولا تفويت ، ولو أَخَّر عقوبةَ قومٍ فإن ذلك إمهالٌ لا إهمال ، ومكرٌ واستدراجٌ لا إنعامٌ وإكرامٌ .

« واستفزز من استطعت منهم بصوتك » : أى إفعلْ ما أمكنكَ ، فلا تأثيرَ لفعلك فى أحد ، فإنَّ المنشئ والمُبْدِعَ هو الله . . وهذا غاية التهديد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ عبادى ليس لَكَ عليهم سُلْطان
وكفى بربِّك وكيلاً ﴾

السلطان الحجة ، فالآية تدل على العموم[(١)] ،ولا حجة للعذر على أحد ، بل الحجة لله وحده .

ويقال السلطان هو التَّسَلُّط ، وليس لإبليس على أحدٍ تسلط ؛ إذ المقدور بالقدرة الحادثة لا يخرج عن محل القدرة الإلهية ، فالحادثاتُ كلها تحدث بقدرة الله ؛ فلا لإبليس ولا لغيره من المخلوقين تسلط من حيث التأثير فى أحد ، وعلى هذا أيضاً فالآية للعموم .

ويقال أراد بقوله : « عبادى » الخواصَ من المؤمنين الذين هم أهل الحفظ والرحمة والرعاية من قِبَلَ الله ؛ فإن وساوسَ الشيطان لا تضرُّهم لالتجائهم إلى الله ، ودوام استجارتهم بالله ، ولهذا فإن الشيطان إذا قَرُبَ من قلوب أهل المعرفة احترق بضياء معارفهم .

ويقال إنَّ فرار[(٢)] الشيطان من المؤمنين أشدُّ من فرار المؤمنين من الشيطان .

والخواص من عباده هم الذين لا يكونون فى أَسْرِ غيره ، وأَمَّا مَنْ استعبده هواه ،

---

(١) العموم هنا معناها الكافة أى الخواص وغير الخواص .

(٢) وردت (قرار) بالقاف وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

واستمكنت منه الأطماع ، واسترقته[1] كل خسيسة ونقيصة فلا يكون من جملة خواصه . .
وفى الخبر « تَعِسَ عبد الدرهم تعس عبد الدينار »[2]

ويقال فى « عبادى » هم المُتَفَيِّئُون فى ظلال عنايته ، المُتَبَرِّءُون عن حَوْلِهِم وقُوَّتِهِم ، المتفرِّدُون بالله بحسن التوكل عليه ودوام التعلُّق به .

قوله جل ذكره : ﴿ ربُّكم الذى يُزْجِى لكم الفُلْكَ فى البحر لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إنه كان بكم رحيماً ﴾

تعرَّف إلى عباده بخَلْقِهِ وإنعامه ، فما من حادثٍ من عينٍ أو أثرٍ أو طَلَلٍ أو غَبَرٍ إلا وهو شاهِدٌ على وحدانيته ، دالٌّ على ربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فى البحر ضَلَّ مَنْ تَدْعُون إلَّا إياه فلمَّا نجَّاكم إلى البرِّ أعْرَضْتم وكان الإنسانُ كفوراً ﴾

جُبِلَ الإنسانُ على أنه إذا أصابته نقمةٌ ، أو مَسَّتْهُ محنة فَزِعَ[3] إلى الله لاستدفاعها ، وقد يُعْتَقَدُ أنهم لن يعودوا بعدها إلى ما ليس فيه رضاء الله ، فإذا أزال اللهُ تلك النِّقمة[4] وكَشَفَ تلك المحنة عادوا إلى ما عنه تابوا ، كأنهم لم يكونوا فى ضُرٍّ مَسَّهم ، وفى معناه أنشدوا :

فكم قد جهلتم ثم عُدْنا بِحِلْمِنا أحباءنا كم تجهلون ! وَتَحْلُمُ !

---

(١) وردت (ويسرقه) ولا معنى لها هنا .
(٢) فى رسالة القشيرى ص ٩٩ جاء هذا الخبر مضافاً إليه (. . تعس عبد الخميصة) .
(٣) وردت (فرغ) بالراء والأفضل أن تكون بالزاى .
(٤) وردت (النعمة) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَأَمِنتُم أَنْ يَخْسِفَ بكم جانبَ البرِّ أو يُرْسِلَ عليكم حاصِبًا ثم لا تجدُوا لكم وكيلاً * أم أَمِنتُم أن يُعِيدَكم فيه تارةً أخرى فيرسلَ عليكم قاصِفًا من الريحِ فيُغْرِقَكم بما كَفَرْتُم ثم لا تجِدُوا لكم علينا به تَبِيعًا ﴾

الخوفُ ترقُّبُ العقوبات مع مجارى الأنفاس — كذلك قال الشيوخ[1] . وأعرفُهم بالله أخوفُهم من الله . وصنوفُ العذابِ كثيرة ؛ فكم من مسرورٍ أوَّلَ ليْلِه أصبح فى شِدَّة ! وكم من مهموم بات يتقلب على فراشه أصبح وقد جاءته البشرى بكمال النِّعم ! وفى معناه قالوا : إن من خاف البيات لا يأخذه السُّبات . ووصفوا أهل المعرفة فقالوا :

مستوفزون على رِجْلٍ كأنهمو يريدون أن يمضوا ويرتحلوا

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد كَرَّمْنَا بنى آدمَ وحَمَلْنَاهُم فى البرِّ والبحرِ ورزقناهم من الطيباتِ وفَضَّلْنَاهم على كثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تفضيلاً ﴾ .

المراد من قوله : « بنى آدم » هنا المؤمنون لأنه قال فى صفة الكفار : « ومَنْ يُهِنِ الله فما له من مُكْرِمٍ »[2] . والتكريم التكثير من الإكرام ، فإذا حَرَمَ الكافرَ الإكرامَ .. فمتى يكون له التكريم ؟ .

ويقال إنما قال : « كَرَّمْنا بنى آدم » ولم يقل المؤمنين أو العابدين أو أصحاب الاجتهاد

---

(١) هذه العبارة للجنيد كما جاء فى رسالة القشيرى ص ٦٥ فى رواية أبى عبد الله الصوفى عن على بن ابراهيم العكبرى .

(٢) آية ١٨ سورة الحج .

توضيحاً بأن التكريم لا يكون مقابلَ فِعْلٍ، أو مُعَلَّلاً بِعِلةٍ ، أو مُسَبَّباً باستحقاقٍ يوجبُ ذلك التكريم .

ومن التكريم أنهم متى شاءوا وقفوا معه على بساط المناجاة .

ومن التكريم أنه على أى وصف كان من الطهارة وغيرها إذا أراد أن يخاطبه خاطبه ، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سأله .

ومن التكريم أنه إذا تاب ثم نقض توبته ثم تاب يقبل توبته ، فلو تكرر منه جُرْمُه ثم توبته يضاعف له قبولَه التوبة وعفوَه .

ومن التكريم أنه إذا شَرَعَ فى التوبة أَخَذَ بيده ، وإذا قال : لا أعود — يقبل قولَه وإنْ عَلِمَ أنه ينقض توبته .

ومن التكريم أنه زَيَّنَ ظاهرَهم بتوفيق المجاهدة ، وحَسَّنَ باطنَهم بتحقيق المشاهدة .

ومن التكريم أنه أعطاهم قبل سؤالهم ، وغفر لهم قبل استغفارهم ، كذا فى الأثر : « أعطيتكم قبل أن تسألونى ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى » .

ومن تكريم جملتهم أنه قال لهم : « فاذكرونى أذكركم »[1] ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن .

وكما خصَّ بنى آدم بالتكريم خصَّ أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — منهم بتكريمٍ مخصوص ، فمن ذلك قوله تعالى : « يحبهم ويحبونه »[2] و « رضى الله عنهم ورضوا عنه »[3] وقوله « والذين آمنوا أشد حباً لله »[4] .

ومن التكريم قوله : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً »[5].

---

(١) آية ١٥٢ سورة البقرة .
(٢) آية ٥٤ سورة المائدة .
(٣) آية ١١٩ سورة المائدة .
(٤) آية ١٦٥ سورة البقرة .
(٥) آية ١١٠ سورة النساء .

ومن التكريم ما ألقى عليهم من محبة الخالق حتى أحبوه.

ومن التكريم لقومٍ توفيقُ صِدْق القَدَم، ولقومٍ تحقيقُ علوِّ الهِمَم. قوله: «وحملناهم في البرِّ والبحر»: سخَّر البحر لهم حتى ركبوا في السفن، وسخَّر البرَّ لهم حتى قال: «لا تسجدوا للشمس ولا للقمر».

ويقال محمولُ الكرامِ لا يقع، فإنْ وَقَعَ وَجَدَ مَنْ يأخذ بيده.

ويقال الإشارة في حملهم في البرِّ ما أوصل إليهم جهراً[1]، والإشارة بحديث البحر ما أفردهم به من لطائف الأحوال سِرًّا.

ويقال لمَّا حَمَلَ بنو آدم الأمانة[2] حملناهم في البر، فحَمْلٌ هو جزاء حَمْلٍ، حَمْلٌ هو فِعْلُ مَنْ لم يكن[3] وحَمْلٌ هو فَضْلُ من لم يزَل.

قوله: «ورزقناهم من الطيبات»: الرزق الطيب ما كان على ذكر الرازق؛ فمَنْ لم يكن غائباً بقلبه[4] ولا غافلاً عن ربِّه استطاب كُلَّ رزقٍ، وأنشدوا:

يا عاشقي إني سَعِدْتُ شرابا لو كان حتى علقماً أو صابا

قوله: «وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلا»: أي الذين فضلناهم على خلقٍ كثير، وليس يريد أن قوماً بقوا لم يفضلهم عليهم، ولكن المعنى أنا فضلناهم على كلِّ مَنْ خَلَقْنا، وذلك التفضيل في الخِلْقة. ثم فَاضَلَ بين بني آدم في شيء آخر هو الخُلُق الحسن، فجَمَعَهم في الخِلْقة — التي يفضلون بها سائر المخلوقات — ومَايَزَ بينهم في الخُلُق.

ويقال: «كَرَّمْنَا بني آدم»: هذا اللفظ للعموم، والمراد منه الخصوص، وهم المؤمنون، وبذلك يفضل قومٌ على الباقين، ففَضَّل أولياءه على كثير ممن لم يبلغوا استحقاقَ الولاية.

---

(١) وردت (خيراً) والصواب أن تكون (جهراً) لتقابل سراً) وبذلك يقوى السياق ويتماسك.

(٢) وردت (الاهانة) بالهاء ومن المؤكد أن الميم التبست على الناسخ والمراد (الأمانة) إشارة إلى قوله تعالى: «إنا عرضنا الأمانة... الآية».

(٣) (من لم يكن) هو الإنسان و (من لم يزل) هو الرب سبحانه وتعالى.

(٤) غيبة القلب عن علم مايجرى من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه، ثم يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره (الرسالة ص ٤٠).

ويقال فضَّلهم بألاَّ ينظروا إلى نفوسهم بعين الاستقرار ، وأن ينظروا إلى أعمالهم بعين الاستصغار .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ ندعو كُلَّ أُناسٍ بإمامِهِم فمَنْ أوتى كتابَهُ بيمينه فأولئك يقرءون كتابَهم ولا يُظْلَمون فتيلاً ﴾

إمامُ كلِّ أحدٍ مَنْ يَقْتَدِي به ، ولكن .. مِنْ إمامٍ يهتدى به مُقْتَدِيه ، ومن إمام يتردَّى به مقتديه .

« فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم » : لكمالِ صحوهم وقيادة عقلهم ، والذين لا يؤتون كتابهم بيمينهم فهم لخوفهم وتَرَدُّدِهم لا يقرأون كتابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأَضَلُّ سبيلاً ﴾

فى الآخرة أعمى عن معاينته ببصيرته .

فى الآخرة عذابُه الفُرقةُ وتضاف إليها الحُرْقَة — لهذا فهو « أضَلُّ سبيلاً » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ كادوا لَيَفْتِنُونَكَ عن الذى أَوْحَيْنا إليكَ لِتَفْتَرِيَ علينا غيرَه وإذاً لا تَّخذوكَ خليلاً ﴾

ضربنا عليكَ سرادقاتِ العصمة ، وآويناكَ فى كنف الرعاية ، وحفظناك عن خطر اتباعك هواك ، فالزَّلَّةُ منك محال[1] ، والافتراء فى نعتك لا يجوز . . ولو جَنَحْتَ لحظةً إلى الخلاف لَتضاعَفَتْ عليكَ تشديداتُ البلاء ، لكمالِ قدْرِك وعُلُوِّ شأنك ، فإنَّ مَنْ كان أعلى درجةً فَذَنْبُه — لو حصل — أشدُّ تأثيراً .

(١) وردت (مجال) بالجيم وهى خطأ فى النسخ ، ومن قول القشيرى يتضح أنه يؤيد عصمة الأنبياء من الزلات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلولا أنْ ثَبَّتْنَاكَ لقد كِدْتَ تَرْكَنْ
إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأَذقناكَ
ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ المماتِ ثم لاتجدُ
لَكَ علينا نصيراً ﴾

لو وكلناكَ ونَفْسَكَ ، ورفعنا عنك[1] ظِلَّ العصمة لألْمَمْتَ بشيءٍ مما لا يجوز من مخالفة أمرنا ، ولكننا أفردناكَ بالحفظ ، فلا تتقاصر عنكَ آثاره ، ولا تَغْرُبُ عن ساحتك أنوارُه .

قوله : « إذاً لأذقناك . . . الآية » هبوطُ الأكابر على حسب صعودهم ، ومِحَنُ الأَحِبَّةِ وإنْ قَلَّتْ جَلَّتْ ، وفي معناه أنشدوا :

أنت عيني وليس من حقِّ عيني غضُّ أجفانها على الأقذاء

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ كادوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ من الأرضِ لِيُخْرِجوكَ منها وإذاً لا يلبثون خِلافَكَ إلَّا قليلا ﴾

مَنْ ظنَّ (أنه يستمتع بحياته بعد مضيّ الأَعِزَّة)[2] والأكابر غَلِطَ في حسابه ، وإن الحسودَ لا يسود :

وفي تعبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشمسَ ضوءها (ويجهد أن يأتي لها)[3] بضريب

والأرض كلها ملْكٌ لنا ، ونُقَلِّب أولياءنا في ترددهم في البلاد وتطوافهم في الأقطار ، تردداً على بساطنا ، وتقلباً في ديارنا ، فالبقاع لهم سواء ، وأنشدوا :

(فَسِرْ أو أَقِمْ)[4] وَقْفٌ عليكَ محبتي مكانُكَ من قلبي عليك مصونُ

---

(١) وردت (عليك) والملائم للسياق أن تكون (عنك) .
(٢) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .
(٣) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .
(٤) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .

قوله جل ذكره: ﴿سُنَّةَ مَنْ قد أرسلنا قَبْلَكَ من رُسُلِنا ولا تجدُ لِسنَّتِنا تحويلًا﴾

الحقُّ أمضى سُنَّتَه مع الأولياء بالإنعام، ومع أعدائه بالإدغام[1]، فلا لهذه أو هذه تحويل.

قوله جل ذكره: ﴿أَقِمْ الصلاةَ لدلوكِ الشمسِ إلى غَسَقِ الليلِ وقرآنَ الفَجْرِ إنَّ قرآنَ الفجرِ كان مشهوداً﴾

الصلاةُ قَرْعُ باب الرزق. والصلاةُ الوقوفُ فى محل المناجاة.

والصلاةُ اعتكافُ القلبِ فى مشاهد التقدير.

ويقال هى الوقوف على بساط النجوى. وفَرَّقَ أوقات الصلاة ليكون للعبد عَوْدٌ إلى البساط فى اليوم والليلة مراتٍ.

«إن قرآن الفجر كان مشهوداً»: تشهده ملائكة الليل والنهار — على لسان العلم. وأمّا على لسان القوم فإن قرآن الصبح — الذى هو وقت إتيانه — يُبْعِدُ من النومِ وكَسَلِ النفس فله هذه المزية.

قوله جل ذكره: ﴿ومِنَ الليل فتهجَّدْ به نافلَةً لك عسى أَنْ يَبْعَثَكَ ربُّك مقَامًا محموداً﴾

الليل لأحدِ أقوام: لطالبي النجاة وهم العاصون مَنْ جَنَح[2] منهم إلى التوبة، أو لأصحاب الدرجات وهم الذين يجِدُّون فى الطاعات، ويسارعون فى الخيرات، أو لأصحاب المناجاة مع المحبوب عندما يكون الناس فيما هم فيه من الغفلة والغيبة.

ويقال الليل لأحد رجلين: للمطيع والعاصى: هذا فى احتيال أعماله، وهذا فى اعتذاره عن قبيح أفعاله.

---

(١) أدغمه الله إدغاماً أى سود وجهه وأذله (الوسيط).
(٢) وردت (نجح) وهى خطأ فى النسخ.

والمقام المحمود هو المخاطبة فى حال الشهود ، ويقال الشهود .

ويقال هو الشفاعة لأهل الكبائر . ويقال هو انفراده يوم القيامة بما خُصَّ به — صلى الله عليه وسلم[1] — بما لا يشاركه فيه أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلْ ربِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعل لى مِنْ لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً ﴾

أى أدخلنى إدخالَ صدقٍ وأخرجنى إخراجَ صدقٍ . والصدقُ أن يكون دخولُه فى الأشياء بالله لله لا لغيره ، وخروجه عن الأشياء بالله لله لا لغيره .

« واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » : فلا ألاحظ دخولى ولا خروجى .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلْ جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً ﴾

أراد بالحقِّ ها هنا الإسلام والدين ، وأراد بالباطل الكفر والشِّرْك ، والحقُّ المطلق هو الموجود الحق ، والحق المقيد ما كان حسناً فى الاعتقاد والفعل والنطق ، والباطل نقيض الحق . واللهُ حقٌّ : على معنى أنه موجود وأنه ذو الحق وأنه مُحِقُّ الحق[2] .

ويقال الحقُّ ما كان لله ، والباطل ما كان لغير الله .

ويقال الحقُّ من الخواطر ما دعا إلى الله ، والباطلُ ما دعا إلى غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ونُنَزِّلُ من القرآنِ ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيدُ الظالمين إلا خَسَاراً ﴾ .

القرآن شفاءٌ من داء الجهل للعلماء ، وشفاءٌ من داء الشِّرْكِ للمؤمنين ، وشفاءٌ من داء

---

(١) إضافة من جانبنا حتى يتضح السياق .

(٢) قارن ذلك بنظرية « وحدة الوجود » وما تراه في معنى « الوجود » و « الحق » .

السكرة للعارفين ، وشفاء من لواعج الشوق للمحبين ، وشفاء من داء الشطط للمريدين والقاصدين ، وأنشدوا :

وكُتْبُكَ حَوْلِي لا تفارق مضجعي ... وفيها شفاء للذى أنا كاتمُ

قوله : « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » : الخطاب خطابٌ واحد ، والكتابُ كتابٌ واحد ، ولكنه لقومٍ رحمةٌ وشفاء ، ولقوم سخطٌ وشقاء . قومٌ أنار بصائرهم بنور التوحيد فهو لهم شفاء ، وقوم أغشى على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أَنْعَمْنا على الإِنسانِ أَعْرَضَ ونَأى بجانبه ، وإذا مَسَّه الشرُّ كان يَئُوساً ﴾ .

إذا نزعنا عنه موجباتِ الخوفِ ، وأرخينا له حَبْلَ الإمهال ، وهَيَّأْنا له أسبابَ الرفاهية اعترته مغاليطُ النسيانِ ، واستولت عليه دواعي العصيان ، فأعرض عن الشكر ، وتباعد عن بساط الوفاق .

ويقال إعراضُه فى هذا الموضوع نسيانُ ، ورؤية الفضل منه لا من الحقِّ ، وتوهمه أنَّ ما به من النِّعم فباستحقاق طاعةٍ أخلصها أو شدةٍ قاساها . . وهذا فى التحقيق شِرْكٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شاَكِلَتِه فربُّكم أعْلَمُ بِمَنْ هو أهدى سبيلاً ﴾ .

كُلٌّ يترشح بِمُودَعِ باطنه ، فالأَسِرَّةُ تدل على السريرة ، وما تُكِنُّهُ الضمائرُ يلوح على السرائر ، فَمَنْ صفا مِنَ الكدورة جوهرُه لا يفوح منه إلا نَشْرُ مناقبه ، ومنْ طبِعَتْ على الكدورةِ طينتُه فلا يشمُّ مَنْ يحوم حولَه إلا ريحَ مثالبه .

ويقال حركات الظواهر تدلُّ وتُخْبِرُ عن بواطنِ السرائر .

ويقال حَبٌّ (. . .)[1] لا يُنْبِتُ غضَّ العود .

---

(١) مشتبهة .

ويقال من عُجِنَتْ بماء الشِّقوةِ طينتُه ، وطُبِعَتْ على النَّكِرَةِ جِبِلَّتُه لا تسمح بالتوحيد قريحتُه ، ولا تنطِقُ بالتوحيد عبارتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونَكَ عن الروحِ قُلْ الروحُ مِنْ أمرِ ربي وما أُوتيتم من العلمِ إلا قليلاً ﴾

أرادوا أن يجادلوه ويُغَلِّطُوه فأَمَرَه أن ينطق بلفظٍ يُفْصِحُ عن أقسام الروح ؛ لأَنَّ ما يُطْلَقُ عليه لفظُ « الروحِ » يدخل تحت قوله تعالى :

﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾

ويقال إن روح العبد لطيفة أودعها الله سبحانه في القالب ، وجعلها محل الأحوال اللطيفة والأخلاق المحمودة ، (وكما يصح أن يكون البَصَرُ محلَّ الرؤية والأذنُ محلَّ السمعِ .. إلى آخره ، والبصير والسامع إنما هو الجملة — وهو الإنسان — فكذلك محل الأوصاف الحميدة الروح ، ومحل الأوصاف المذمومة النَّفْس ، والحكمُ أو الاسمُ راجعٌ إلى الجملة)[1] .

وفي الجملة الروح مخلوقة ، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ما دام الروح في جسده .

والروح لطيفة تفررت للكافة طهارتها ولطافتها ، وهي مخلوقة قبل الأجساد بألوفٍ من السنين . وقيل إنه أدركها التكليف ، وإن لها صفاء التسبيح ، وصفاء المواصلات ، والتعريف من الحق .

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » : لأن أحداً لم يشاهد الروح ببصره .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذي أَوْحَيْنا إليكَ ثم لا تجدُ لكَ به علينا وكيلا ﴾

---

(١) ما بين القوسين مضطرب اضطراباً شديداً في النسخ ، وقد عدنا إلى رسالة القشيري فاعتمدنا عليها في تنظيم السياق بقدر الإمكان . (أنظر الرسالة ص ٤٨) .

سُنَّةُ الحقِّ — سبحانه — مع أحبائه وخواص عباده أن يُديمُ لهم افتقارهم إليه، ليكونوا في جميع الأحوال مُنْقادين لجريانِ حُكْمِه، وألا يتحركَ فيهم عِرْقٌ بخلافِ اختياره، وعلى هذه الجملة خاطب حبيبَه — صلوات الله عليه — بقوله: «ولو شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك»: (فمن كان استقلاله بالله يقدِّم)[1] مرادَ سيده — فى العزل والولاية — على مراد نفسه.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا رحمةً مِنْ ربِّك إنَّ فضله
كان عليك كبيراً﴾

والمقصودُ (من هذا إدامة تَفَرُّدِ سِرِّه)[2] صلى الله عليه وسلم به — سبحانه — دونَ غيره.

قوله جل ذكره: ﴿قلْ لَئِنْ اجتَمَعَتْ الإنْسُ والجِنُّ
على أنْ يَأْتوا بِمِثْلِ هـذا القرآنِ
لا يأتونَ بِمِثْلِه ولو كان بعضُهم
لبعضٍ ظهيراً﴾

(سائر الأنبياء)[3] معجزاتُهم باقيةٌ حُكْماً، ونبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — معجزته باقيةٌ عيناً، وهى القرآن (الذى نتلوه، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه)[4] ولا مِنْ خَلْفِه.

قوله جل ذكره: ﴿ولقد صَرَّفْنا للناسِ فى هذا القرآنِ
من كُلِّ مَثَلٍ فأَبَى أكثرُ الناسِ
إلا كُفُوراً﴾

لا شىء أَحْظَى عند الأحباب من كتاب الأحباب، فهو شفاء من داء الضنى، وضياء لأسرارهم عند اشتداد البَلاَ، وفى معناه أنشدوا:

وكتبك حولى لا تفارق مضجعى وفيها شفـاء للذى أنا كاتم

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) مدونة في أعلى الورقة بعلامات مميزة لمكانها من النص، وقد أثبتنا كلا فى موضعه.

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لن نُؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لنا من الأرضِ يَنْبُوعاً * أو تكونَ لَكَ جنَّةٌ من نخيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهارَ خلالها تفجيرا * أو تُسقِطَ السماءَ كما زَعَمْتَ علينا كِسَفاً أو تأتى بالله والملائكةِ قَبيلاً * أو يكونَ لَكَ بَيْتٌ من زُخْرُفٍ أو ترقى فى السماء ، ولن نُؤْمِنَ لِرُقِيِّك حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً نَقْرَؤُه قُلْ سبحان ربى هل كُنْتُ إلاَّ بشَرَاً رَسُولاً ﴾

اقترحوا الآياتِ بعد إزاحةِ العِلَّة وزوالِ الحاجة ، فَرَكَضُوا فى مضمارِ سوءِ الأدب ، وحُرِموا الوُصْلة والقُربة . ولو أُجيبوا إلى ما طلبوا ما ازدادوا إلا جُحْداً ونَكرَةً ، وقد قيل :

إنَّ الكريمَ إذا حباكَ بودِّه ... سَتَرَ القبيحَ وأظهر الإحسانا
وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً ... مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

« قلْ سبحان ربى هل كنتُ إلا بشراً رسولا » : قل يا محمد : سبحان ربى ! مِنْ أين لى الإتيان بما سألتم من جهتى ؟ فهل وَصْفِى إلا العبودية ؟ وهل أنا إلا بَشَر ؟ قال تعالى : « لن يستنكفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله »[1]

قوله جل ذكره : ﴿ وما مَنَعَ النــاسَ أن يُؤْمِنُوا إذ جاءَهُم الهُدَى إلاَّ أَنْ قالوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرَاً رسولا ﴾

---

(١) آية ١٧٢ سورة النساء .

تعجَّبوا[1] مما ليس بمحلِّ شُبهة ، ولكن حَمَلَهم على ذلك فَرْطُ جَهْلِهم ، ثم أَصَرُّوا على تكذيبهم وجحدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لو كانَ في الأرضِ ملائكةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنين لَنَزَّلنا عليهم من السماءِ مَلَكاً رسولاً ﴾

الجنسُ إلى الجنسِ أميلُ ، والشكلُ بالشكلِ آنَسُ ، فقال سبحانه لو كان سكانُ الأرضِ ملائكةً لَجَعَلْنا الرسولَ إليهم مَلَكاً ، فلمَّا كانوا بَشَراً فلا ينبغي أن يُسْتَبعدَ إرسالُ البشرِ إلى البشرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كَفَى باللهِ شهيداً بيني وبينَكم إنَّه كان بعبادِه خبيراً بصيراً ﴾

الحقُّ — سبحانه — هو الحاكم وهو الشاهد ، ولا يُقَاسُ حُكْمُه على حُكْمِ الخَلْقِ ، ولا يجوز في صفةِ المخلوقِ أنْ يكونَ الحاكمُ هو الشاهد ، فكما لا تشبه ذاتُه ذاتَ الخَلْقِ لا تشبه صفتُه صفةَ الخَلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ يَهْدِ اللهُ فهو المُهْتَدِ ومَنْ يُضْلِلْ فلَنْ تَجِدَ لهم أولياءَ مِنْ دونه ونحشرهم يومَ القيامةِ على وجوهِهم عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً مأواهم جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهم سعيراً ﴾

مَنْ أراده بالسعادةِ في آزاله استخلصه في آباده بأفضاله ، ومَنْ عَلِمَه في الأزل بالشقاء وَسَمَه في أبده بِسِمةِ الأعداء . فلا لِحُكْمِه تحويل ، ولا لِقَوْلِه تبديل .

---

(1) وردت (تعجلوا) والمعنى يقتضي (تعجبوا) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا
وقالوا أئذا كُنَّا عِظاماً ورُفاتا
أئنا لمبعوثون خَلْقاً جديداً ﴾

لمَّا أصرُّوا على تكذيبهم جازاهم الحقُّ بإدامة تعذيبهم ، ولو ساعدهم التوفيقُ لوُجِدَ منهم التحقيق ، لكنهم عَدِمُوا التأييد فحُرِموا التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ أوَلَمْ يَرَوْا أنَّ اللهَ الذى خَلَقَ
السموات والأرضَ قادرٌ على أنْ
يَخْلُقَ مِثْلَهم وجَعَلَ لهم أجَلاً لاريبَ
فيه فَأَبَى الظالمون إلا كُفُوراً ﴾

مَهَّدَ بهذه الآية طريق إثبات القياس[1] ، فلم يغادر فى الكتاب شيئاً من أحكام الدِّين لم يؤيده بالدليل والبيان[2] ، فَعَلِمَ الكُلُّ أن الركونَ إلى التقليد عينُ الخطأ والضلال .

قوله جل ذكره : ﴿ قل لو أنتم تَمْلِكُون خزَائِنَ رحمةِ
ربى إذاً لأمْسَكْتُم خشيةَ الإنفاقِ
وكان الإنسانُ قَتُوراً ﴾

إذ البُخْلُ غريزةُ الإنسان ، والشحُّ سجيته [(. . . .)[3] المعروف لايعرف الخلقة][4]

---

(١) من هذا نعرف أن القشيرى مؤمن بأهمية القياس العقلى ضمن ما هو معروف من مصادر الشريعة وفى هذا رد على من يتهم الصوفية بالتنكر للعقل ، مع أنهم حريصون كل الحرص على تصحيح الإيمان فى مراحل البداية عن طريق الوسائل العقلية .

(٢) وربما كانت (البرهان) بدل (البيان) ، فالبرهان أقرب إلى (الدليل) وإلى (القياس) كما أن البيان — فى مذهب القشيرى المعرفى — مرحلة قلبية وليست عقلية .
ومع ذلك فقد يكون المقصود أن كتاب الله لم يغادر شيئاً إلا أيده (بالدليل العقلى) و (البيان) القلبى.

(٣) هنا بياض فى الأصل :

(٤) ما بين القوسين الكبيرين ورد هكذا وفيه غموض ناتج عن سقوط ما سبق .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع[1] آيات
بينات ﴾

هى أمارات كرامته وعلامات محبته .

قوله جل ذكره : ﴿ فقال له فرعونُ إنِّى لأَظُنك يامُوسَى
مسحوراً * قال لقد علمتَ ماأنزلَ هؤلاءِ
إلا ربُّ السموات والأرض بصائرَ
وإنِّى لأظنك يا فرعونُ مثبوراً ﴾

أنت — يا فرعون — سلكتَ طريق الاستدلال فعلمتَ أن مثل هذه الأشياء لا يكون أمرها إلا منْ قِبَلِ الله ، ولكنَّكَ رَكَنْتَ إلى الغفلة فى ظلمات الجهل .

قوله جل ذكره : ﴿ فأراد أَنْ يَسْتَفِزَّهُم من الأرضِ
فأغرقناه ومَنْ معه جميعاً ﴾

أراد فرعونُ إهلاكَ بنى إسرائيل واستئصالَهم ، وأراد الحقُّ — سبحانه — نصرتهم وبقاءهم ، فكان ما أراد الحقُّ لا ما كاد اللعين .

قوله جل ذكره : ﴿ وقلنا منْ بَعْدِه لبنى اسرائيلَ
اسكُنُوا الأرضَ فإذا جاء وَعْدُ
الآخرةِ جِئْنا بكم لفيفاً ﴾

أورثهم منازلَ أعدائهم ، ومكَّنهم من ذخائرهم ومساكنهم ، واستوصى بهم شُكْرَ نعمته ، وعرَّفهم أنهم إنْ سلكوا في العصيان مَسْلَكَ مَنْ تقدَّمَهم ذاقوا من العقوبة مثلَ عقوبتهم .

---

(1) عن ابن عباس أنها العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذى نتقه على بنى اسرائيل . وعن الحسن أنها الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور .

قوله جل ذكره: ﴿ وبالحقِّ أنزلناه وبالحقِّ نزَل
وما أرسلناكَ إلا مُبَشِّرا ونذيراً *
وقرآناً فرَقْناه لِتقْرأَه على الناسِ
على مُكْثٍ ونَزَّلْناه تنزيلا ﴾

القرآن حقٌّ، ونزوله بحق، ومُنَزِّلُه حق، والمُنزَّلُ عليه حق، فالقرآن بحقٍّ نزل ومِنْ حقٍّ نزل وعلى حقٍّ نزل. وقد فَرَّقَ القرآنَ لِيُهَوِّنَ عليه — صلوات الله عليه — حِفْظَه، وليكثر تردد الرسول من ربِّه عليه، وليكون نزوله فى كل وقت وفى كل حادثة وواقعة دليلاً على أنه ليس مما أعان عليه غيره.

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ آمِنوا به أو لا تُؤْمِنوا إنَّ
الذين أوتوا العِلْمَ مِنْ قبْلِه إذا
يُتْلَى عليهم يَخِرُّون للأذقان
سُجَّداً * ويقولون سُبحان رَبِّنا إنْ
كان وعدُ ربِّنا لَمَفْعولاً ﴾.

إنْ آمنتم حَصَلَ النفعُ لكم، وإنْ جَحَدْتُم ففى إيمان مَنْ آمن مِنْ أوليائنا عنكم خَلَفٌ، وإنَّ الضَّرَرَ عائدٌ عليكم.

وإنَّ مَنْ أَضَأْنا عليهم شموسَ إقبالنا لَتُشْرِقُ أنوارُ معارفهم؛ فإذا تُليت عليهم آياتُنا سَجَدُوا بَدَلَ جُحْدِهم، واستجابوا بدل تمردهم، وقابلوا بالتصديق ما يقال لهم.

قوله جل ذكره: ﴿ ويَخِرُّون للأذقانِ يبكون ويزيدُهم
خشوعاً ﴾.

تأثيره فى قلوب قوم يختلف؛ فتأثير السماع فى قلوب العلماء بالتبصُّر، وتأثير السماع

فى أنوار الموحِّدين بالتحير[1]، تبصُّر العلماء بصحة الاستدلال ، وتحيُّر الموحدين فى شهود الجمال والجلال .

وبكاء كل واحدٍ على حسب حاله : فالتائب يبكى لخوف عقوبته لما أسْلَفَهُ من زلّته وحَوْبته ، والمطيعُ يبكى لتقصيره فى طاعته ، ولكيلا يفوته ما يأمله من مِنَّتِهِ .

وقوم يبكون لاستبهام عاقبتهم وسابقتهم عليهم .

وآخرون بكاؤهم بلا سبب متعين . وآخرون يبكون تحسراً على ما يفوتهم من الحق .

والبكاء عند الأكابر معلول[2]، وهو فى الجملة يدل على ضعف حال الرجل ، وفى معناه أنشدوا :

خُلِقْنا رجالا للتجلدِ والأَسَى وتلك الغوانى للبُكا والمآتِمِ

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ ادعوا اللهَ أو ادعوا الرحمنَ أيًّاً ما تدعوا فَلَهُ الأسماء الحُسْنَى﴾

مِنْ عظيم نعمته — سبحانه — على أوليائه تَنَزُّهُهم بأسرارهم فى رِياض ذِكْرِه بتعداد أسمائه الحسنى من روضة إلى روضة ، ومن مَأْنَسٍ إلى مأنس .

ويقال الأغنياء ترددهم فى بساتينهم ، والأولياء تنزههم فى مشاهد تسبيحهم ، يستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تَجْهَرْ بصلاتِكَ ولا تُخَافِتْ بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ .

لا تجهر بجميعها ، ولا تخافت بكُلِّها ، وارفع صوتك فى بعضها دون بعض .

ويقال ولا تجهر بها جهراً يَسْمَعُهُ الأعداء ، ولا تخافت بها حيث لا يسمع الأولياء .

« وابتغ بين ذلك سبيلاً » : يكون للأحباب مسموعاً ، وعن الأجانب ممنوعاً .

---

(١) ليس (التحير) هنا ناجماً عن الشك ، وإنما ناجم عن شدة الوله وعنف الأخذ .

(٢) لأن الأكابر في حال التمكين لا التلوين .

ويقال « ولا تجهر بصلاتك » : بالنهار ، « ولا تخافت بها » : بالليل .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلْ الحمدُ لله الذى لم يتخذْ وَلَدًا ولم يَكُنْ له شريكٌ فى المُلْكِ ولم يَكُنْ له ولىٌّ من الذُّلِّ وكَبِّره تكبيراً ﴾ .

إِحْمَدْه بذكر تقدسه عن الولد ، وأنه لا شريك له ؛ ولا ولى له من الذل ؛ إما على أنه لم يَذَلَّ فيحتاج إلى ولى ، أو على أنه لم يوالِ أحداً من أجل مذلة به فيدفعها بموالاته . ويقال اشكره على نعمته العظيمة حيث عرَّفك بذلك .

ويقال له الأولياء ولكن لا يعتريهم بِذُلِّهم ، إذ يصيرون بعبادته أعِزَّةً .

« وكَبِّرْه تكبيراً » بأنْ تَعلَمَ أنَّك تصل إليه به لا بتكبيرك .

السورة التى يذكر فيها الكهف

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ما سَعِدَتْ القلوبُ إلا بسماعِ اسم الله ، وما استنارت الأسرارُ إلا بوجود الله ، وما طَرِبَتْ الأرواح إلا بشهود جلال الله .

سماع « بسم الله » راحةُ القلوبِ وضياؤُها ، وشفاء الأرواح ودواؤها .

« بسم الله » قُوتُ العارفين ؛ بها يزول كدُّهم وعناؤهم ، وبها استقلالهم وبقاؤهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ الحمدُ للهِ الذى أَنْزَلَ على عَبْدِه الكتابَ ولم يَجْعَلْ له عِوَجًا ﴾

---

(١) لاحظ الربط بين تفسير البسملة فى أول هذه السورة وبين قصة أهل الكهف ، الذين فنوا عن أنفسهم لبقائهم بالله .

إذا حُمِلَ « الحمدُ» هنا على معنى الشكر فإنزالُ الكتابِ من أَجلِّ نِعَمِه ، وكتابُ الحبيب لدى الحبيب أجلُّ مَوْقِعٍ وأشرفُ محلٍّ ، وهو من كمال إنعامه عليه ، وإنْ سمَّاه — عليه السلام — عَبْدَه فهو من جلائل نِعَمه عليه لأَنَّ من سمَّاه عَبْدَه جَعَلَه من جملة خواصِّه .

وإذا حُمِلَ « الحمدُ » فى هذه الآية على معنى المدح كان الأمر فيه بمعنى الثناء عليه — سبحانه ، بأنَّه الملِكُ الذى له الأمرُ والنهيُ والحكمُ بما يريد ، وأنه أعدَّ الأحكامَ التى فى هذا الكتاب للعبيد ، وسمَّاه صلى الله عليه وسلم عبدَه لمَّا كان فانياً عن حظوظه ، خالصاً لله بقيامه بحقوقه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شديداً مِنْ لَدُنه ﴾

« قَيِّماً » : أى صانه عن التعارض والتناقض ، فهو كتابٌ عزيزٌ من ربٍّ عزيز .

« والبأس الشديد » : مُعَجَّلُه الفراق ، ومؤجَّلُه الاحتراق .

ويقال هو البقاء عن الله تعالى ، والابتلاء بغضب الله .

ومعنى الآية لينذرهم ببأس شديد .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحاتِ أَنَّ لهم أجراً حسناً ﴾ .

والعملُ الصالحُ ما يصلح للقبول ، وهو ما يُؤَدَّى على الوجهِ الذى أُمِرَ به . ويقال العمل الصالح ما كان بنعتِ الخلوص ، وصاحبُه صادقٌ فيه .

ويقال هو الذى لا يستعجل عليه صاحبه حَظّاً فى الدنيا مِنْ أَخْذِ عِوَضٍ ، أو قَبُولِ جاهٍ ، أو انعقادِ رياسة . . . وما فى هذا المعنى .

وحصلت البشارةُ بأَنَّ لهم أجراً حسناً ، والأجرُ الحَسَنُ مالا يجرى مع صاحبه استقصاء فى العمل .

ويقال الأجر الحَسَنُ ما يزيد على مقدار العمل .

ويقال الأجر الحَسَنُ ما لا يُذَكِّر صاحبَه تقصيرَه ، ويستر عنه عيوبَ عمله .

قوله جل ذكره : ﴿ ما كثين فيه أبداً ﴾

البشارة منه أنَّ تلك النِّعم على الدوام غير منقطعة ، وأعظم من البشارة بها قوله[1] :

﴿ وينذرَ الذين قالوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدَاً *
مالهم به من عِلْمٍ ولا لآبائهم كَبُرَتْ
كلمةً تخرُجُ من أفواهِهِم إنْ يقولونَ
إلا كَذِباً ﴾

قالتُهم القبيحةُ نتيجةُ جَهْلِهم بوحدانيةِ الله ، ولقد توارثوا ذلك الجهلَ عن أسلافهم ؛ والحيَّةُ لا تَلِدُ إلا حَيَّةً !

كبُرَتْ كلمتُهم فى الإثم لمَّا خَسَّت فى المعنى . ومَنْ نطق بما لم يحصل له به إذن لَحِقَه هذا الوصف . ومَنْ تكلَّمَ فى هذا الشأن قبل أوانه فقد دخل فى غمار هؤلاء[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَك على آثارهم إنْ لم يُؤْمِنُوا بهذا الحديثِ أَسَفاً ﴾

مِنْ فَرْطِ شفقته — صلى الله عليه وسلم — داخَلَه الحزنُ لامتناعهم عن الإيمان ، فهوَّن الله — سبحانه — عليه الحالَ ، بما يشبه العتابَ فى الظاهر ؛ كأنه قال له : لِمَ كل هذا ؟ ليس فى امتناعهم — فى عَدِّنا — أثر ، ولا فى الدِّين من ذلك ضرر . . فلا عليكَ من ذلك .

ويقال أشهده جريانَ التقدير ، وعَرَّفَه أنه — وإنْ كان كُفْرُهم مَنْهِيّاً عنه فى الشرع — فهو فى الحقيقة مُرَادُ الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا جَعَلْنَا ما على الأرضِ زِينَةً لها ﴾

---

(١) البشارة بالآية التالية أعظم لأن المؤمن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

(٢) فى هذه الإشارة غمزة بمن ينطقون — بدعوى المحو — بما لا يليق .

ما على الأرض زينة لها تُدْرَكُ بالأبصار ، وممن على الأرض من هو زينة لها يُعْرَفُ بالأسرار . وإنَّ قيمةَ الأوطانِ لقُطَّانها ، وزينة المساكن فى سُكَّانها .

ويقال العُبَّاد بهم زينة الدنيا ، وأهلُ المعرفة بهم زينة الجنة .

ويقال الأولياء زينةُ الأرض وهم أمانُ مَنْ في الأرض .

ويقال إذا تلألأت أنوار التوحيد فى أسرار الموحدين أشرقت جميع الآفاق بضيائهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لِنَبْلُوَهم أيُّهم أحسنُ عملًا ﴾

أحسنهم عملًا أصدقهم نِيَّةً ، وأخلصهم طويةً .

ويقال أحسنهم عملًا أكثرهم احتسابًا ؛ إذ لا ثوابَ لمن لا حسبة له ، وأعلى من هذا بل وأَوْلى من هذا فأحسنهم عملًا أشدُّهم استصغارًا لفعله ، وأكثرهم استحقارًا لطاعته ؛ لشدة رؤيته لتقصيره فيما يعمله ، ولانتقاصه أفعاله فى جنب ما يستوجبه الحقُّ بحقِّ أمره .

ويقال أحسنُ أعمال المرءِ نَظَرُه إلى أعماله بعين الاستحقار والاستصغار ، لقول الشاعر :

وأكبرُ من فِعْله وأعظمُه تصغيرُه فِعْلَه الذى فَعَله

معناه : أكبرُ مِنْ فعلِه — الذى هو عطاؤه وبَذْلُه — تقليلُه واستصغارُه لِمَا يُعْطِيه ويجود به .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّا لجاعلون ما عليها صعيدًا جُرُزًا ﴾

كَوْنُ ما على الأرض زينةً لها فى الحال سُلِبَ قَدْرُه بما أخبر أنه سيُفْنيه فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ أمْ حَسِبْتَ أنَّ أصحابَ الكهفِ والرقيم كانوا من آياتنا عَجَبًا ﴾

أزال الأعجوبةَ عن أوصافهم بما أضافه إلى ربِّه بقوله : « من آياتنا » ؛ فَقَلْبُ العادةِ مِنْ قِبَلِ اللهِ غيرُ مُسْتَنْكَرٍ ولا مُبْتَدَعٍ .

ويقال مكثوا في الكهف مدةً فأضافهم إلى مُسْتَقَرِّهم فقال : « أصحاب الكهف » ، وللنفوس مَحَالٌ ، وللقلوب مَقَارٌّ ، وللهمم مَجَال ، وحيثما يعتكف يُطْلَبُ أبداً صاحبه[1] .

ويقال الإشارة فيه ألا تَتَعَجَّبَ من قصتهم ، فحالُكَ أعجبُ في ذهابك إلينا في شطر من الليل حتى قاب قوسين أو أدنى[2] ، وهم قد بقوا في الكهف سنين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ
فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

آواهم إلى الكهف بظاهرهم ، وفي الباطن فهو مُقيلُهم في ظلِّ إقباله وعنايته ، ثم أخذهم عنهم ، وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون عن شواهدهم[3] .

وأخبر عن ابتداء أمرهم بقوله . « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً » : أي أنهم أخذوا في التبرِّي مِنْ حَوْلِهم وقُوَّتِهِم ، ورجعوا إلى الله بِصِدْقِ فاقتهم ، فاستجاب لهم دعوتَهم ، ودفع عنهم ضرورتَهم[4] ، وبوَّأهم في كنف الإيواء مقيلا حسناً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا ﴾ .

أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائقِ ما كاشفناهم به من شهود الأحدية ، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية .

---

(١) معنى العبارة يطلب صاحب المكان من حيث المكان الذي يعتكف فيه .

(٢) يشير القشيري بذلك إلى المنزلة الرفيعة التي وصل إليها المصطفى — صلوات الله عليه — ليلة الإسراء والمعراج ، وكيف أنه انتهى في ليلة واحدة إلى ما لم يصل إليه أصحاب الكهف في سنين .

(٣) واضح أن القشيري يعالج قصة أهل الكهف في ضوء حال الفناء وحال البقاء . . وهذا من النماذج التي يقدمها التصوف لتفسير الظواهر العجيبة التي تقلب فيها العادة ، ويحار فيها العقل .

(٤) يقصد من الضرورة هنا ما يلزم الإنسان من طعام وشراب وتخلص من بقاياها . . ونحو ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ثم بعثناهم لنعلم أىُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمدًا﴾

أى رددناهم إلى حال صحوهم وأوصاف تمييزهم ، وأقمناهم بشواهد التفرقة بعد ما محوناهم عن شواهدهم بما أقمناهم بوصف الجمع .

قوله جل ذكره : ﴿نحن نقصُّ عليك نبأهُم بالحقِّ إنَّهم فتيةٌ آمنوا بربِّهم﴾

لمَّا كانوا مأخوذين عنهم تولَّى الحق — سبحانه — أنْ قصَّ عنهم ، وفرْقٌ بين من كان عن نفسه وأوصافه قاصًّا ؛ لبقائه فى شاهده وكونه غيرَ منتفٍ بجملته .. وبين من كان موصوفاً بواسطة غيره ؛ لفنائه عنه وامتحائه منه وقيام غيره عنه .

ويقال لا تُسَمعُ قصةُ الأحباب أعلى وأَجلّ مما تُسمَعُ من الأحباب ، قال عزَّ من قائل : « نحن نقص عليك » ، وأنشدوا :

وحَدَّثْتَني يا سَعْدُ عنها فَزِدْتنى حنيناً فَزِدْنى من حديثك يا سعدُ

قوله : « إنهم فتية آمنوا بربهم » : يقال إنهم فتية لأنهم آمنوا — على الوهلة — بربِّهم ، آمنوا من غير مهلة ، لمَّا أتتهم دواعى الوصلة[1] .

ويقال فتية لأنهم قاموا لله ، وما استقروا حتى وصلوا إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿وزِدْناهم هُدًى * ورَبَطْنا على قلوبهم﴾

لاَطفهم بإحضارهم ، ثم كاشفهم فى أسرارهم ، بما زاد من أنوارهم ، فلقَّاهم أولاً التبيين ، ثم رقَّاهم عن ذلك باليقين .

---

(١) لاحظ أهمية ذلك فى فهم معنى (الفتوة) عند الصوفية .

« وربطنا على قلوبهم » : بزيادة اليقين حتى منع نهار[1] معارفهم ، واستضاءت شموسُ تقديرهم ، ولم يَبْقَ للتردد مجالٌ فى خواطرهم ، و (. . .)[2] فى التجريد أسرارهم ، وتَمَّتْ سكينةُ قلوبهم .

ويقال « ربطنا على قلوبهم » : بأن أفنيناهم عن الأغيار ، وأغنيناهم عن التفكُّر بما أوليناهم من أنوار التبصُّر .

ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسْكَنَّا فيها من شواهدِ الغيب ، فلم تسنح فيها هواجسُ التخمين ولا وساوس الشياطين .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السمواتِ والأرضِ ﴾

قاموا لله بالله ، ومَنْ قام بالله فُقِدَ عمَّا سوى الله .

ويقال من قام لله لم يقعد حتى يصلَ إلى الله .

ويقال قعدت عنهم الشهوات فَصَحَّ قيامُهم بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ لن نَدْعُوَ مِنْ دونِه إلهاً ، لقد قُلْنَا إذاً شَطَطاً ﴾ .

مَنْ أحال الشيء على الحوادثِ فقد أشرك بالله ، ومَنْ قال إنَّ الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً مِنْ دون الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هؤلاءِ قومُنا اتخذوا من دونه آلهـةً لولا يأتون عليهم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّن افترى على الله كذباً ﴾

---

(١) متوع النهار اصطلاح يأتى فى مذهب القشيرى بعد اللوائح والطوالع واللوامع ، وهو يلتقى مع المعنى من حيث اللغة (يقال متع النهار أى بلغ غاية ارتفاعه) .

(٢) مشتبهة وهى قريبة فى الرسم من (واتخذوا) ومصوبة فى الهامش (وانحدروا) لأجل هذا لم نستطع أن نحسم فيها برأى ، وهى على العموم كلمة تفيد خلوص أسرارهم فى التجريد وإلا لما حدثت سكينة قلوبهم .

لمَّا لم يكن لهم حجة اتضح فيما ادعوه كذبُهم ، فمن اكتفى بِدَفْى القالة دون ما يشهد لقوله من أدلته فهو معلول فى نِحلته .

« فَمَنْ أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟ » فمن ذَكَرَ فى الدِّين قولاً لم يؤيَّد ببرهان عقلى أو نقلى فهو مفترٍ ، ومَنْ أظهر مِنْ نَفْسه حالاً لم يوجبه صدق مجاهدته أو منازلته فهو على الله مُفْتَرٍ . والذى يصدق فى قوله — فى هذه الطريقة — فهو الذى يسمع من الحق بسرِّه ، ثم ينطق بلفظه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا
الله ، فَأْوُوا إلى الكهفِ يَنْشُرْ
لكم ربُّكم مِنْ رحمته ويُهَيِّئ لكم
من أمرِكم مِرْفقاً ﴾

العزلةُ عن غير الله توجِبُ الوصلة بالله . بل لا تحصل الوصلةُ بالله إلا بعد العُزْلَةِ عن غير الله .

ويقال لما اعتزلوا ما عُبِدَ من دون الله آواهم الحقُّ إلى كنف رعايته ، ومهد لهم مثوىً فى كهفِ عنايته .

ويقال مَنْ تبرَّأ مِنَ اختياره فى احتياله ، وصَدَقَ رجوعه إلى الله فى أحواله ، ولم يستَعِنْ — بغير الله — من أشكاله وأمثاله آواه إلى كَنَفِ أفضاله ، وكفاه جميعَ أشغاله ، وهيَّأ له مَحَلاًّ يتفيؤ فيه فى بَرْدِ ظِلالِه ، بكمالِ إقباله .

قوله جل ذكره : ﴿ وترى الشمسَ إذا طلعت تزاور[2]
عن كهفهم ذاتَ اليمينِ وإذا غربَتْ

---

(١) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة فى قضية هامة من قضايا التصوف ، كانت لها في بعض الأحيان عواقب جسيمة : وهى هل يفصح الصوفي الواله أم يكتم ؟ ونلاحظ أن القشيرى ربط القضية بعنصر أساسى هو الصدق . . .

(٢) تزاور من الزور وهو الميل ، والزور الميل عن الصدق .

تَقْرِضهم(1) ذات الشمال وهم فى فجوةٍ منه ذلك من آياتِ الله ﴾

كانوا فى مُتَّسَعٍ من الكهف ، ولكن كان شعاعُ الشمس لا ينبسط عليهم مع هبوب الرياح عليهم .

ويقال أنوار الشمس تتقاصر وتتصاغر بالإضافة إلى أنوارهم(2) .

إن نورَ الشمسِ ضياءٌ يستضىء به الخَلْقُ ، ونور معارفهم أنوار يُعْرَفُ بها الحق ، فهذا نور يظهر فى الصورة ، وهذا نور يلوح فى السريرة . وبنور الشمس يدرك الخَلْق وبنورهم كانوا يعرفون الحق .

وفى قوله — عزَّ اسمه : « ذلك من آيات الله » فيه دلالة على أن فى الأمر شيئاً بخلاف العادة ، فيكون من جملة كرامات الأولياء ؛ ويحتمل أن يكون شعاعُ الشمسِ إذا انتهى إليهم ازورَّ عنهم ، ومضى دونَهم بخلاف(3) ما يقول أصحاب الهيئة ، ليكونَ فعلاً ناقضاً للعادة فلا يبعد أن يقال إن نور الشمس يُستَهْلَكُ فى النور الذى عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فهو المُهْتَدِ ومَنْ يُضلِلْ فَلَنْ تجِدَ له وليّاً مُرْشِداً ﴾

فالله يَهْدِى قوماً بالأدلةِ والبراهين ، وقوماً بكشف اليقين ؛ فمعارفُ الأولين قضية الاستدلال ، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال ، فهؤلاء مع برهان ، وهؤلاء على بيان كأنهم أصحاب عيان :

« ومَنْ يُضلِلْ الله » : أى مَنْ وسَمَه بِسِمَةِ الحرمان فلا عرفانَ ولا علمَ ولا إيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ وتَحْسَبُهُم أيْقَاظاً وهم رقودٌ ونُقَلِّبُهم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ ﴾

---

(1) تقرضهم أى تقطعهم أى تتركهم وتعدل عنهم .

(2) بالإضافة إلى أنوارهم أى إذا قيست بأنوارهم .

(3) أى هذا على لسان أهل التفسير أما على لسان أهل الإشارة . وهذه أول مرة يطلق القشيرى (أصحاب الهيئة) هذا الوصف عليهم فى « لطائفه » ، لهذا نبهنا إليه .

هم مسلوبون عنهم ، مُخْتَطَفُون منهم ، مُستَهلَكون فيما كوشِفوا به من وجود الحق ؛ فظاهرهم — فى رأى الخَلْق — أنهم بأنفسهم ، وفى التحقيق : القائمُ عنهم غيرُهم . وهم محوٌ فيما كوشفوا به من الحقائق .

ثم قال : « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » : وهذا إخبارٌ عن حُسْنِ إيوائه لهم ؛ فلا كشفقةِ الأمهات بل أتم ، ولا كرحمة الآباء بل أعزّ . . . وبالله التوفيق .

ويقال إن أهلَ التوحيد صفتهم ما قال الحقُّ — سبحانه — فى صفة أصحاب الكهف : « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود » فَهُمْ بشواهد الفَرْقِ فى ظاهرهم ، لكنهم بعين الجمع بما كُوشِفوا به فى سرائرهم ، يُجْرِى عليهم أحوالَهم وهم غير متكلِّفين ، بل هم يثبتون — وهم خمودٌ عما هم به — أن تصرفاتِهم القائمُ بها عنهم سواهم ، وكذلك فى نطقهم(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وكَلْبُهم باسِطٌ ذِراعيه بالوصيدِ
لو اطَّلعتَ عليهم لَوَلَّيْتَ منهم فِراراً
ولَمُلِئْتَ منهم رُعْباً ﴾

كما ذَكَرَهم ذَكَرَ كلبَهم ، ومَنْ صَدَقَ فى محبة أحدٍ أحبَّ مَنْ انتسب إليه وما يُنْسَبُ إليه .

ويقال كلبٌ خَطَا مع أحبائه خطواتٍ فإلى القيامة يقول الصبيان — بل الحق يقول بقوله العزيز — : « وكلبهم باسط . . . . » فهل ترى أنَّ مُسْلِماً يصحب أولياءه من وقت شبابه إلى وقت مشيبه يردُّه يوم القيامة خائباً . ؟ إنه لا يفعل ذلك .

ويقال فى التفاسير إنهم قالوا للراعى الذى تبعهم والكلب معه : إصرف هذا الكلب عنَّا . . . فقال الراعى : لا يمكننى ، فإنى أنا دينه .

ويقال أنطق الله سبحانه — الكلبَ فقال لهم : لِمَ تضربوننى ؟

فقالوا : لِتَنْصَرِفَ عنَّا .

فقال : لا يمكننى أن أنصرف . . لأنه ربَّانى .

ويقال كلبٌ بَسَطَ يده على وصيد الأولياء فإلى القيامة يقال « وكلبهم باسط ذراعيه

---

(١) فنطق العبد الواله وتصرفه يكونان بالله .... تذكر قصة الحلاج .

بالوصيد » . . . فهل إذا رَفَعَهَا مسلمٌ إليه خمسين سنة ترى يردُّها خائبةً ؟ هذا لا يكون .

ويقال لما صَحِبَهم الـكلبُ لم تضره نجاسةُ صِفتِهِ ، ولا خساسةُ قيمته .

ويقال قال فى صفة أصحاب الـكهف إن كانوا «سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم » ، أو خمسة سادسهم كلبهم فقد قال فى صفة هذه الأمة : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم » . .

وشتَّان ما هما !

ويقال كُلٌّ يُعامَلُ بما يليق به من حالته ورتبته ؛ فالأولياء قال فى صفتهم : « و نقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » ، والـكلب قال فى صفته : « و كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » .

ويقال كما كَرَّر ذِكرَهم ، كرر ذِكْرَ كلبِهم .

وجاء فى القصة أن الـكلبَ لما لم ينصرفْ عنهم قالوا : سبيلنا إذا لم ينصرف عنَّا أنْ نَحْمِلَه حتى لا يُستَدَلَّ علينا بأثر قَدَمِه لحملوه ، فـكانوا فى الابتداء (بل إياه)[1] وصاروا فى الانتهاء مطاياه . . كذا مَنْ اقتفى أَثَرَ الأحباب .

ويقال في القصة إن الله أنطق الـكلب معهم ، وبِنُطْقِه رَبَطَ على قلوبهم بأَنْ ازدادوا يقيناً بسماع نطقه ، فقال : لِمَ تضربونى ؟ فقالوا : لتنصرف ، فقال : أنتم تخافون بلاءً يصيبكم فى المستقبل وأنتم بلائى فى الحال .

ثم إنَّ بلاءكم الذى تخافون أنْ يصيبكم من الأعداء ، وبلائى منـكم وأنتم الأولياء .

ويقال لما لزم الـكلبُ محلَّه ولم يجاوزْ حَدَّه فوضع يديه على الوصيد بقى مع الأولياء . . . كذا أدب الخدمة يوجب بقاء الوُصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ لو اطَّلَعْتَ عليهم لولَّيتَ منهم فراراً ولَمُلِئْتَ منهم رُعْبًا ﴾

---

(١) وردت هكذا ونرجح أنها (بلاياه) بدليل ما سيأتى بعد ذلك : (وأنتم بلائى فى الحال) .

الخطاب له — صلى الله عليه وسلم . والمرادُ منه غيره .

ويقال لو اطلعتَ عليهم من حيث أنت لوليت منهم فراراً ، ولو شاهدتَهم من حيث شهود تولِّى الحق لهم ابقيت على حالك .

ويقال لو اطلعتَ عليهم وشاهدتَهم لوَلَّيْت منهم فراراً مِنْ أنْ تُرَدَّ عن عالى منزلتك إلى منزلتهم ؛ والغنىُّ إذا رُدَّ إلى منزلة الفقير فَرَّ منه ، ولم تَطِبْ به نَفْسُه . « ولملئت منهم رعباً » بأن يُسْلَبَ عظيمُ ما هو حالك ، وتُقَامَ فى مثل حالهم النازلة عن حالك .

ويقال : « لوليت منهم فراراً » لأنك لا تريد أن تشهد غيرنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائلٌ منهم كَمْ لبِثْتم قالوا لَبِثْنا يوماً أو بعض يومٍ ﴾

استقلوا مدة لُبْثهم وقد لَبِثُوا (طويلاً) ، ولكنهم كانوا مأخوذين عنهم ، ولم يكن لهم عِلْمٌ بتفصيل أحوالهم ، قال قائلهم :

لست أدرى أطال لَيْلِىَ أم لا ؟ كيف يدرى بذاك من يتقلّى ؟
لو تَفَرَّغْتُ لاستطالةِ لَيْلِي ورعيت النجومَ كنتُ مُخِلاَّ

ويقال أيامُ الوصالِ عندهم قليلة — وإنْ كانت طويلة ، ولو كان الحال بالضدِّ لكان الأمر بالعكس ، وأنشدوا :

صَبَاحُكَ سُكْرٌ والمساء خُمار[1] نَعِمْتَ وأيامُ السرورِ قِصارُ

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ربُّكم أعلم بما لَبِثْتُم ﴾

لأنه هو الذى خَصَّكُم بما به أقامكم .

(١) الخمار = ماخالط الإنسان من سُكْر الخمر .

قوله جل ذكره : ﴿ فابعثوا أحَدَكُم بوَرِقِكم هذه إلى المدينة فَلْيَنظُرْ أيها أزكى طعاماً فَلْيَأْتِكُم برِزْقٍ منه ﴾

ما داموا مأخوذين عنهم لم يكن لهم طلبٌ لأكلٍ ولا شربٍ ولا شيء من صفة النَّفْس ، فلمَّا رُدُّوا إلى التميز أخذوا فى تدبير الأكل أوَّلَ ما أحسوا بحالهم ، وفى هذا دلالة على شدة[1] ابتداء الخَلْق بالأكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ولا يُشْعِرَنَّ بكم أحداً ﴾

تَوَاصَوْا فيما بينهم بحسن التَّخَلقِ وجميل الترفُّقِ ، أى ليتلطف مع من يشترى منه شيئاً .

ويقال أوصوا مَنْ يشترى لهم الطعامَ أنْ يأتيهم بألطف شىءٍ وأطيبه ، ومن كان من أهل المعرفة لا يوافقه الخشن من الملبوس ولا المبتذل فى المطعم من المأكول .

ويقال أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات طعامهم الخشن ولباسهم كذلك[2] .

والذى بلغ المعرفة لا يوافقه إلا أكل لطيف ، ولا يستأنس إلا بكل مليح .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّهم إنْ يَظْهَروا عليكم يَرْجُمُوكم أو يعيدوكم فى مِلَّتِهم ولن تُفْلِحُوا إذاً أبداً ﴾

تواصوا فيما بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب[3] وأخبر أنهم إن اطلعوا عليهم وعلى أحوالهم بالغوا فى مخالفتهم إمَّا بالقتل وإما بالضرب وبما أمكنهم من وجوه الفعل ، ولا يرضون

---

(١) شدة هنا معناها ضرورة .

(٢) معنى هذا ان القشيرى يميز بين مطعم وملبس أصحاب الرياضات ومطعم وملبس أهل المعرفة ، وربما كان سبب ذلك أن أهل المعرفة الواجب عليهم ستر أحوالهم عن الخلق ، بدليل قوله فيما بعد : « تواصوا فيما بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب » .

(٣) من هذا نفهم ضرورة أن يكتم أرباب الأحوال اسرارهم ، وإلا تعرضوا لأذى الذين لا يدركون حقائق أحوالهم ، وقد يصل الأذى إلى حد الضرب والقتل (تذكر قصة الحلاج وغيره) .

إلا بردِّهم إلى ما منه تخلصوا ، فمَنْ احترق كدسُه فما لم يحترق كدس غيره لا تطيب نَفْسُه .

ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار .

ويقال مَنْ أظْهرَ لأعدائه سِرَّه فقد جَلَبَ باختياره ضُرَّه ، وفَقَدَ ما سَرَّه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أعْثَرْنا عليهم لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌ وأَنَّ الساعةَ لا ريبَ فيها إذْ يتنازعون بينهم أمرَهم فقالوا ابنوا عليهم بُنْياناً رَبُّهم أعْلَمُ بِهِم قال الذين غَلَبُوا على أَمْرِهِم لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مَسْجِداً ﴾

جعل أحوالَهم عِبْرَةً لِمَنْ جاء بَعْدَهم حين كشف لأهل الوقت قصتهم ، فعاينهم الناس ، وازداد يقين مَنْ كان يؤمن بالله حين شاهدوا بالعيان ما كان نَقْضاً للعادة المستمرة .

ثم إن الله تعالى ردَّهم إلى ما كانوا عليه من الحالة ، كانوا مأخوذين عن التمييز ، متقلبين فى القبضة على ما أراده الحق ، مستودعين فيما كوشفوا ، مستهلكين عنهم فى وجود الحق — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سيقولون ثلاثةٌ رابعُهم كلْبُهم ، ويقولون خمسةٌ سَادِسُهم كلبُهم رَجْماً بالغيبِ ، ويقولون سبعةٌ وثامِنُهم كلبُهم ﴾

أخبر أنَّ علومَ الناسِ متقاصرةٌ عن عددهم ؛ فالأحوالُ التى لا يطلع عليها إلا اللهُ فى أسرارهم وقلوبهم .. متى يكون للخَلْق عليها إشرافٌ ؟

أشكل عليهم عددهم ، وعددهم يُعْلَم بالضرورة ، وهم لا يُدْرَكون بالمشاهدة .

(١) يقول الشبلى واصفاً سبب محنة الحلاج : « كنت والحسين بن منصور شيئاً واحداً ولكنه أظهر وأنا كتمت » .

ويقال سَعِدَ الكلبُ حيث كَرَّرَ الحقُّ — سبحانه — ذِكْرَهم وذَكَرَ الكلبَ معهم على وجه التكرار ، ولمَّا ذَكَرَهم عَدَّ الكلبَ فى جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ربى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهم ما يَعلَمُهُم إلا قليلٌ ﴾

لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواصُّ عباده ، ومَنْ كان قريباً فى الحالِ منهم ؛ فهم فى كنَف الغَيْرة وإيواء الستر لا يَطَّلِعُ الأجانبُ عليهم ؛ ولا يعلمهم إلا قليلٌ ؛ لأنَّ الحق — سبحانه — يستر أولياءه عن الأجانب ، فلا يعلمهم إلا أهل الحقيقة ؛ فالأجانب لا يعرفون الأقارب ، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب . كذلك قال شيوخ هذه الطائفة : « الصوفية أهل بيتٍ واحدٍ لا يدخل فيهم غيرهم »(1) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَسْتَفْتِ فيهم مِنْهُم أحداً ﴾

كما لا يعرفهم من كان بمعزلٍ عن حالتهم ، ولا يهتدى إلى أحكامهم من لا يعرفهم . . فلا يصحُّ استفتاء مَنْ غاب علمهم عنه فى حالهم . ومَنْ لم يكن قلبُه محلاً لمحبة الأحباب لا يكون لسانُه مقراً لذكرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقولنَّ لشىءٍ إنى فاعلٌ ذلك غداً * إلَّا أَنْ يشاء اللهُ ﴾

إذا كانت الحوادثُ صادرةً عن مشيئة الله فَمَنْ عَرَفَ اللهَ لم يَعُدَّ من نفسه ما علم أنه لا يتم إلا بالله .

ويقال مَنْ عَرَفَ الله سقط اختيارُه عند مشيئته ، واندرجت أحكامه فى شهوده لحكم الله .

ويقال المؤمن يعزم على اعتناق الطاعة فى مستقبله بقلبه ، لكنه يتبرأ عن حَوْلِه وقُوَّتِه

---

(1) هذا القول للجنيد (ص ١٣٩) الرسالة .

بِسِرِّه ، والشرعُ يستدعى منه نهوض قلبه فى طاعته ، والحقُّ يقف سِرَّه عند شهود ما منه لمحبوبه تحت جريان قسمته[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ وقُلْ عسَىَ أنْ يَهْدِيَنِ ربِّى لأقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدا ﴾

إنْ طَرأَتْ عليك طوارقُ النسيان — لا بتعمدك — فجرِّدْ بذكرك قَصْدَكَ عن أوطان غفلتك .

ويقال « واذكر ربك إذا نسيت » : فى الحقيقة نَفْسُك تمنعك من استغراقك فى شهود ذكرك .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت ذكرك لربِّك : فإن العبدَ إذا كان ملاحظاً لذكره كان ذلك آفة فى ذكره[2] .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت حَظَّك منه .

ويقال واذكر ربَّك إذا نسيت غيرَ ربِّك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَبِثُوا فى كَهْفِهِم ثلاثمِائةٍ سنينَ وازدادوا تِسْعاً ﴾

كانوا مأخوذين عنهم فى إحساسهم بأنفسهم فلم يقفوا على تطاول مدتهم ، وفى المثل : « أيام السرور قصار » ، والدهور فى السرور شهور ، والشهور فى المحن دهور ، وفى معناه :

أَعُدُّ الليالى ليلةً بعد ليلةٍ وقد كنت قبلاً لا أعد اللياليا

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ اللهُ أَعْلَمُ بما لَبِثُوا له غَيْبُ

---

(١) معنى هذه الفقرة انه قد يبدو فى الظاهر ان للعبد إرادة فى الامتثال للطاعة وفى إجراء أحكام الشريعة ، ولكن فى الحقيقة أن الحق سبحانه يتولى تبرئته من حوله وإرادته ، وتهيئة سره للتجرد عن كل غير وسوى .

(٢) لأن أعلى درجات الذكر أن يفنى الذاكر فى المذكور .

السموات والأرضِ أبْصِرْ به وأسمِعْ
ما لهم مِنْ دونِه من وليٍّ ولا يُشْرِكُ
في حُكْمِهِ أحدًا ﴾

مَنْ لم يعد أيامَه لاشتغاله بالله أحصى اللهُ أنفاسَه التي لله ، قال تعالى : « أحصى كل شيءٍ عددًا » .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ ما أُوحي إليكَ من كتابِ ربِّك ﴾

تَسَلَّ — حينما تتنوع عليك الأحوال — بما نُطْلِعُكَ عليه من الأخبار ، وإنَّ كُتُبَ الأحبابِ فيها شفاء لأنها خطابُ الأحباب للأحباب .

قوله جل ذكره : ﴿ لا مُبَدِّلَ لكلماتِهِ ولن تَجِدَ من دونه مُلْتَحَدًا ﴾

أي لا تغيير لِحُكْمِهِ ، فَمَنْ أقصاه فلا قبولَ له ، ومَنْ أدناه فلا وصولَ له ، ومَنْ قَبِلَه فلا رَدَّ له ، ومَنْ قَرَّ به فلا صَدَّ له .

قوله جل ذكره : ﴿ واصبِرْ نَفْسَكَ مع الذين يدعون ربَّهم بالغداةِ والعَشِيِّ يريدون وجْهَه ﴾

قال : « واصبر نفسَك » ولم يقل : « قلبَك » لأن قلبه كان مع الحقِّ ، فأمره بصحبته جَهْرًا بجهر ، واستخلص قلبه لنفسه سِرًّا بِسِرٍّ .

ويقال « يريدون وجهه » : معناها مريدين وجهه أي في معنى الحال ، وذلك يشير إلى دوامِ دُعائِهم ربهم بالغداة والعشيّ وكون الإرادة على الدوام .

ويقال « يريدون وجهه » : فآويناهم في دنياهم بعطائنا ، وفي عقباهم بكرائمنا .

ويقال « يريدون وجهه » : فكشف قناعَهم ، وأظهر صفتَهم ، وشَهَرَهم بعدما كان قد سَتَرَهم ، وأنشدوا :

وكشفنا لكَ القناعَ وقلنا نعم وهتكنا لك المستورا

ويقال لما زالت التُّهمُ سَلِمَتْ لهم هذه الإرادة ، وتحرروا عن إرادةِ كلِّ مخلوقٍ وعن محبةِ كل مخلوق .

ويقال لمَّا تقَاصَرَ لسانُهم عن سؤالِ هذه الجملة مراعاةً منهم لهيبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحُرْمَةِ باب الحقِّ — سبحانه — أَمَرَه بقوله : « واصبر نفسك » وبقوله :

﴿ ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تريدُ زينةَ الحياةِ الدنيا ﴾

أى لا ترفع بَصَرَكَ عنهم ، ولا تُقْلِعْ[1] عنهم نظرك .

ويقال لما نظروا بقلوبِهم إلى الله أَمَرَ رسولَه — عليه السلام — بألا يرفعَ بَصَرَه عنهم ، وهذا جزاء فى العاجل .

والإشارة فيه كأنه قال: جعلنا نظرك اليوم إليهم ذريعةً لهم إلينا ، وخَلَفاً عما يفوتهم اليوم من نظرهم إلينا ، فلا تَقْطَعْ اليومَ عنهم نَظَرَكَ فإنا لا نمنع غداً نظرهم عنا[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُطِعْ مَنْ أغفلنا قلبَه عن ذِكْرِنا واتَّبَعَ هواه وكان أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾

هم الذين سألوا منه — صلى الله عليه وسلم — أن يُخْلِيَ لهم مجلسَه من الفقراء ، وأن يطردَهم يوم حضورهم من مجلسه — صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

ومعنى قوله . « أغفلنا قلبه عن ذكرنا » : أى شغلناهم بما لا يعنيهم .

ويقال « أغفلنا قلبه عن ذكرنا » أى شغلناهم حتى اشتغلوا بالنعمة عن شهود المُنْعِم .

ويقال هم الذين طوّح قلوبَهم فى التفرقة ، فهم فى الخواطر الرَّدِيَّة مُشَتَّتُون ، وعن شهود مولاهم محجوبون .

---

(١) لا تقلع عنهم نظرك أى لا تكف وتبعد .

(٢) تهم هذه الإشارة فى تقدير مدى تصور الصوفية لشخصية محمد (ص) .

ويقال أغفلنا عن ذكرنا الذين ابتلُوا بنسيان الحقيقة ولا يتأسَّفُون[1] على ما مُنُوا به ولا على ما فاتَهم

ويقال الغفلةُ تزجيةُ الوقتِ فى غيرِ قضاءِ فَرْضٍ أو أداء نَفْلٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقلْ الحقُّ من ربِّكم فَمنْ شاء فَلْيؤْمِنْ ومَنْ شاء فَلْيَكفُرْ ﴾

قُلْ يا محمد : مايأتيكم من ربِّكم فهو حقٌّ ، وقوله صِدْقٌ .. فَمَنْ شاء فليومِنْ ، ومن شاء فليكفر . . هذا غاية التهديد ، أى إنْ آمنتم ففوائدُ إيمانكم عليكم مقصورة ، وإنْ أبيْتُم فعَذَابُ الجحود موقوفٌ عليكم ، والحقُّ — سبحانه — عزيزٌ لايعود إليه بإيمان الكافة — إذا وَحَّدُوا — زَيْنٌ ، ولا مِنْ كُفْرِ الجميع — إنْ جحدوا — شَيْنٌ .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ إنَّا أَعْتَدْنا للظالمين ناراً أحاطَ بهم سُرَادِقُها وإنْ يستغيثوا يُغَاثوا بماءٍ كالمُهْلِ يَشْوِى الوجوهَ بِئْسَ الشرابُ وساءتْ مُرْتَفَقاً ﴾

العقوبة الكبرى لهم أن يشغلهم بالألَمِ حتى لا يتفرغوا عنه إلى الحسرة على ما فاتهم من الحقِّ ، ولو علموا ذلك لَعَلَّه كان يرحمهم . والحقُّ — سبحانه — أكرم من أن يعذِّبَ أحداً يتَّهِمُ لأجْلِه .

ويقال لو علموا مَنْ الذى يقول : « وساءت مرتفقاً » لعلَّه كان لهم تَسَلٍّ ساعةً ، ولكنهم لا يعرفون قَدْرَ مَنْ يقول هذا ، وإلا فهذا شِبْهُ مرتبةٍ لهم ، والعبارة عن هذا تدق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ إنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أولئكَ لهم جنَّاتُ عَدْنٍ تجرى مِنْ

---

(١) وردت (ولا يتنافسون) والمعنى يرفضها مما يرجح خطأ الناسخ فى نقلها .

تحتهم الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أَسَاوِرَ
مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُون ثيابًا خُضْرًا
من سُنْدُسٍ وإستبرقٍ مُتَّكِئِينَ
فيها على الأرائكِ نِعْمَ الثوابُ
وحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾

أهلُ الجنة طابتْ لهم حدائقُها ، وأهلُ النار أحاط بهم سُرادِقُها .

والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يعودَ إليه من تعذيبِ هؤلاء عائدة ولا من تنعيم هؤلاء فائدةٌ . . . جَلَّتْ الأحديةُ ، وتَقَدَّسَتْ الصمدية !

ومَنْ وَقَعَتْ عليه غَبَرَةٌ فى طريقنا لم تَقَعْ عليه قَتَرَةُ فراقنا ، ومَنْ خطا خطوةً إلينا وَجَدَ حظوةً لدينا ، ومَنْ نقَلَ قَدَمَهُ نحونا غفرنا له ما قَدَّمَه ، ومَنْ رَفَعَ إلينا يَدًا أجْزَلْنا له رَغَدًا ، ومَنْ التجأ إلى سُدَّةِ[1] كَرَمِنا آويناه فى ظِلِّ نِعَمِنا ، ومن شكا فينا غليلا[2] مَهَّدْنا له — فى دار فضلنا — مقيلاً .

« أجر مَنْ أَحْسَنَ عملا » : العملُ أحسنُه ما كان مضبوطًا بشرائط الإخلاص .

ويقال « مَنْ أَحْسَنَ عملا » بأن غاب عن رؤية إحسانه .

ويقال مَنْ جَرَّدَ قَصْدَه عن كلِّ حظٍّ ونصيب .

ويقال الإحسان فى العمل ألا ترى قضاء حاجتك إلا فى فَضله ، فإذا أخلصتَ فى تَوَسلِكَ إليه بفضله ، وتوصُّلِكَ إلى ما مَوَّلَكَ من طَوْلِه بِتَبَرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك استوجبتَ حُسْنَ إقباله ، وجزيل نواله .

قوله « أولئك لهم جنات عَدْنٍ تجرى من تحتها الأنهار » أولئك هم أصحابُ الجِنان ، فى رَغَدِ العيش وسعادة الجَدِّ[3] وكمال الرِّفد[4] ، يلبسون حُلَلَ الوُصلة ، ويُتَوَّجون بتاج القُربة ،

---

(١) وردت (سبده)
(٢) وردت (عليلا) بالعين .
(٣) الجد = الحظ .
(٤) الرفد = العطاء والصلة .

ويُحْمَلون على المباسط ، ويَتَّكِئون على الأرائك ، ويشمون رياحينَ الأُنْس ، ويقيمون في مجال الزُّلفة ، ويُسْقَوْنَ شرابَ المحبة ، ويأخذُون بيَدِ الزلفة ما يتحفهم الحقُّ به من غير واسطة ، ويسقيهم شراباً طهوراً يُطَهِّر قلوبَهم عن محبة كلِّ مخلوقٍ .

« نِعْمَ الثوابُ وحسنتْ مُرْتَفَقاً » : نِعْمَ الثوابُ ثوابُهم ، ونعم الربُّ ربُّهم ، ونعم الدارُ دارُهم ، ونعم الجارُ جارُهم ، ونعم الحالُ حالُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واضرِبْ لهم مثلاً رجلين جَعَلْنا لأَحدِهما جَنَّتين من أعنابٍ وحَفَفْناهما بنَخْلٍ وجَعَلْنا بينهما زَرْعاً * كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها ولَمْ تَظْلِمْ منه شيئاً وفجَّرْنا خِلالَهما نَهَراً * وكان له ثَمَرٌ فقال لصاحبِه وهو يحاوِرُه أنا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وأَعَزُّ نَفَراً * ودَخَلَ جَنَّتَه وهو ظالِمٌ لِنَفْسِه قال ما أظُنُّ أن تبيدَ هذه أبداً * وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ولئِن رُدِدْتُ إلى ربي لأَجِدَنَّ خيراً منها مُنْقَلَباً * قال له صاحبُه وهو يحاوِرُه أكفرتَ بالذى خَلَقَكَ من تُرابٍ ثم من نُطْفَةٍ ثم سوَّاكَ رَجُلاً * لـكِنَّا هو اللهُ ربى ولا أُشْرِكُ بربِّىَ أحداً * ولَوْلا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاء الله لا قوةَ إلا بالله إنْ تَرَنِ أنا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً ووَلَداً * فعسى ربى أن يُؤْتِيَنِ خيراً

من جَنَّتِكَ ويُرْسِلَ عليها حُسْبانًا
من السماءِ فتُصْبِحَ صعيداً زَلَقاً *
أو يُصْبِحَ ماؤُها غَوْرَاً فلن تستطيعَ
له طَلَباً *

أخبر أنه خَلَقَ رجلين جعل لهما جنتين على الوصف الذى ذكَرَه ، فَشَكَرَ أحدُهما لخالقِه وكَفَرَ الآخرُ برازقه ، فأصبح الكافرُ وجنَّتُه أصابتها جائحةٌ ، وندم على ما ضَيَّعه من الشكر ، وتوجَّه عليه اللومُ .

وفى الإشارة يخلقُ عَبْدين يُطَيِّبُ لهما الوقت ، ويُمَهِّدُ لهما بساط اللطف ، ويمكِّن لهما من البَسْط . . فيستقيم أحَدُهما فى الترقى إلى النهاية من مقامات البداية بحُسْن المنازلة وصدق المعاملة ، فتميز له المجاهدةُ ثمراتِ أحسن الأخلاق فيعالجها بحسنِ الاستقامة ، ثم يتحقق بخصائص الأحوال الصافية ، ثم يُخْتَطَفُ عنها بما يُكاشَفُ به من حقائق التوحيد ، ويصبح مُنْتَفِيً عن جملته باستهلاكه فى وجود ما بان له من الحقائق .

والثانى لا يُقَدِّرُ قَدْرَ ما أَهَّلَ له من حُسْن البداية فيرجعُ إلى مألوفاته ، فينتكسُ أمرُه ، بانحطاطه إلى ذميم عاداته ، فيرتدُّ عن سلوكِ الطريقة ويتردَّى[1] فى ظلمةِ الغفلة ، فيصيرُ وقته ليلاً مظلما ، ويتطوحُ فى أودية التفرقة ، ويُوسَمُ الطردَ ، ويُسقَى شرابَ الإهانة ، وينخرطُ فى سلك الهَجْر . . وذلك جزاء مَنْ لم يَرَهُم الحقُّ لو صلته أهْلاً ، ولم يجعل لولائهم فى التحقيق والقبول أصْلاً : .

تبدَّلَتْ وتبدلنا يا حسرةً لِمَنْ ابتغى عوضا لسلمى فلم يَجِدِ

قوله جل ذكره : ﴿ وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فأصبحَ يُقَلِّبُ
كَفَّيْه على ما أَنْفَقَ فيها وهى خاويةٌ
على عُرُوشِها ويقول ياليتنى لم أُشْرِكْ
بِرَبِّى أَحَدَاً * ولم تَكُنْ له فِئَةٌ

(١) وردت (ويرتدى) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

يَنْصُرُونَه مِنْ دونِ اللهِ وما كان
مُنْتَصِراً ﴾

إذا ظَهَرَ خسرانُ مَنْ آثر حظَّه على حقِّ الله ، قَرَعَ بابَ ندامته ، ثم لا ينفعه .

ولو قرع باب كَرَمِهِ فى الدنيا — حين وَقَعَتْ له الفترةُ — لأشكاه[1] عند ضرورته ، وأنجاه من ورطته . . ولكنه رُبِطَ بالخذلان ، ولُبِّسَ عليه الأمرُ بحُكْمِ الاستدراج .

قوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه » : مَنْ اشْتَهَرَ أمرُهُ بِسُخْطِ السلطانِ عليه لم ينظر إليه أحدٌ من الجُنْدِ والرعية ، كذلك مَنْ وَسَمَهُ الحقُّ بكَيِّ الهَجْرِ لم يَرْثِ له مَلَكٌ ولا نبيٌّ ، ولم يَحْمِهِ صديقٌ ولا وليٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ هنالك الوَلايةُ للهِ الحقِّ هو خيرٌ
ثواباً وخيرٌ عُقْباً ﴾ .

هو الحقُّ المتفرِّدُ بنعتِ ملكوته ، لا يشرك فى جلال سلطانه من الحدثان أحداً ، وإذا بدا من سلطان الحقيقة شظية فلا دعوى ولا معنى لبشر ، ولا وزن فيما هنالك لحدثان ولا خطر ، كلاَّ . . بل هو الله الخلاَّق الواحد القهار .

هنالك الوِلاية لله أى القدرة — والواو هنا بالكسر ،

وهنالك الوَلاية لله أى النصرة — والواو هنا بالفتح[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ واضرِبْ لهُمْ مَثلَ الحياةِ الدنيا
كماءٍ أنزلناه مِنَ السماءِ فاختلَطَ به
نباتُ الأرض فأصبح هَشِيماً تذروه
الرِّياحُ ، وكان اللهُ على كلِّ شىءٍ
مُقْتَدِراً ﴾ .

---

(١) أشكاه : أزال سبب شكواه ، وأعانه .

(٢) الولاية (بالكسر) بمعنى القدرة أى : السلطان والملك كله لله ، يتولى الله كل مضطر فيكون قوله : « لم أشرك بربى أحدا » كلمة ألجىء إليها فقالها جزعاً من شؤم كفره — ولولا ذلك لم يقلها . أو على الولاية (بالفتح) بمعنى النصرة تقريراً لقوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله »

مَنْ وَطَّنَ النَّفْسَ على الدنيا وبهجتها غَرتْهُ بأمانيها ، وخدعته بالأطماع فيها . ثم إنها تُخْفِى الصَّابَ فى شرابها ، والحنظلَ فى عَسَلها ، والسرابَ فى مآربها ؛ تَعِدُ ولا تفى بِعِدَاتِها ، وتُوفِى آفاتُها على خيراتها . . نِعَمُها مشوبةٌ بِنِقَمِها ، وبؤسُها مصحوبٌ بأنوسها ، وبلاؤها فى ضمن عطائها . المغرورُ مَنْ اغترَّ بها ، والمغبونُ مَنْ انخدع فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ المالُ والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾

مَنْ اعتضد بعتاده ، واغترَّ بأولاده ، ونَسِىَ مولاه فى أوان غَفَلَاتِهِ . . خَسِرَ فى حاله ، ونَدِمَ على ما فاته فى مآله .

ويقال زينةُ أهل الغفلة فى الدنيا بالمال والبنين ، وزينة أهل الوصلة بالأعمال واليقين . . فهؤلاء رُتَبُهم لظواهرهم . . وهؤلاء زينتهم لعبوديته ، وافتخارهم بمعرفة ربوبيته .

ويقال ما كان للنَّفْس فيه حظٌّ فهو من زينة الحياة الدنيا ، ويدخل فى ذلك الجاهُ وقبول المدح ، وكذلك تدخل فيه جميع المألوفات والمعهودات على اختلافها وتفاوتها .

ويقال ما كان للإنسان فيه شِرْبٌ ونصيبٌ فهو معلول : إن شئت فى عاجله وإن شئت فى آجله .

قوله جل ذكره : ﴿ والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أَمَلاً ﴾ .

وهى الأعمال التى بشواهد الإخلاص والصدق .

ويقال « الباقيات الصالحات » : ما كان خالصاً لله تعالى غيرَ مَشُوب بطمعٍ ، ولا مصحوبٍ بِغَرَضٍ .

ويقال « الباقيات الصالحات » : ما يلوح فى السرائر من تحلية العبد بالنعوت ، ويفوح نَشْرُه فى سماءِ الملكوت .

ويقال هى التى سبقت من الغيب لهم بالقربة وشريف الزلفة .

ويقال هى ضياء شموسِ التوحيد المستكنِّ (فى السرائر مما لا يتعرَّضُ لـكسوف الحجبة)[1]

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ نُسَيِّر الجبالَ وتَرَى الأرضَ بارِزَةً وحَشَرْنَاهُم فَلَمْ نُغَادِرْ منهم أحداً ﴾

كما تُسَيَّرُ جبالُ الأرض[2] يوم القيامة فإنها تُقْتَلَع بموت الأبدال الذين يديم بهم الحقُّ — اليومَ — إمساكَ الأرض ، فهؤلاء السادة — فى الحقيقة — أوتادُ العالَمَ .

قوله : « فلم نغادر منهم أحداً » : الإشارة منه أنه ما من أحد إلا ويُسْقَى كأسَ المنية ، ولا يغادر الحقُّ أحداً اليوم على البسيطة إلا وينخرط عن نظامه . وإنَّ شَرَّفَهم فى الدرجات فى تَوَقّيهم عن مساكنة الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ وعُرِضوا على ربك صَفًّا ﴾

يقيم كُلَّ واحدٍ يومَ العَرْضِ فى شاهد مخصوص ، ويُلْبِسُ كُلاً ما يُؤَهِّله له ؛ فَمِنْ لباسِ تقوى ، ومن قميصِ هوى ، ومن صِدَارِ وَجْدٍ ، ومن صُدْرَةِ محبة ، ومن رداءِ شوقٍ ، ومن حُلَّةِ وُصْلَةٍ .

ويقال يجرِّدهم عن كل صفة إلا ما عليه نظرهم يوم القيامة . وينادِي المنادى على أجسادهم : هذا الذى أَتَى وَوَجَدَ ، وهذا الذى أَبَى وجَحَدَ . وهذا الذى خالَفَ فأَصَرَّ ، وهذا الذى أنعمنا عليه فَشَكَرَ ، وهذا الذى أَحْسَنَّا إليه فَذَكَرَ . وهذا الذى أسقيناه شرابنَا ، ورزقناه محابَّنا ، وشَوَّقناه إلى لقائنا ، ولَقَّيْنَاه خصائص رِعَائِنا[3] .

وهذا الذى وَسَمْنَاه بحجبتنا ، وحرمناه وُجُوهَ قربتنا . وألبسناه نطاق فراقنا ، ومنعناه توفيق وفاقنا ، وهذا ، وهذا . . .

---

(١) تـكملة فى أسفل الصفحة موضحة فى المتن بالعلامة X .

(٢) نلاحظ كثيراً أن القشيرى يتحدث عن الأوتاد والأبدال والقطب كلما ورد فى القرآن ذكر للجبال ، فـكما أن الله يمسك بها الأرض ويثبتها كذلك يقوم هؤلاء بحفظ الخلق ، وبكرامتهم يندفع البلاء عنهم .

(٣) الرعاء : المراعاة والمحافظة .

واخجلتى من وقوفى وَسْطَ دارِهِمُ ! وقال لى مُغْضَباً : مَنْ أنت يا رجلُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ لقد جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بل زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لكم مَوْعِداً ﴾

جئتمونا بلا شفيعٍ ولا ناصر ، ولا مُعينٍ ولا مُظاهِر .

قوم يُقال لهم : سلامٌ عليكم . . . كيف أنتم ؟ وكيف وَجَدْتُم مقيلَكم ؟ وكم إلى لقائنا اشتقتم !

وقوم يُقال لهم : ما صنعتُم ، وماضَيَّعْتُم ؟ ما قدَّمْتُم ، وما أخرتم ؟ ما أعلنتم ، وما أسررتُم ؟

قُلْ لى بألسنةِ التنفُّس[1] كيف أنت وكيف حالك ؟

ويقال يجيب بعضهم عند السؤال فيُفْصِحون عن مكنون قلوبهم ، ويشرحون ماهم به من أحوال مع محبوبهم . وآخرون تملكهم الحيرة وتُسْكِتهم الدهشة ، فلا لهم بيان ، ولا ينطق عنهم لسان . وآخرون كما قيل :

قالت سكينةُ مَنْ هذا فقلتُ لها : أنا الذى أنتِ من أعدائه زَعَمُوا

قوله جل ذكره : ﴿ ووُضِعَ الكتابُ فترى المجرمين مُشفِقين مما فيه ﴾

إنما يصيبهم ما كُتِبَ فى الكتاب الأول وهو المحفوظ ، لا ما فى الكتاب الذى هو كتاب أعمالهم نَسَخَه ما فى اللوح المحفوظ .

ويقال إنْ عامَلَ عبداً بما فى الكتاب الذى أثبته المَلَكُ عليه فكثيرٌ من عباده يعاملهم بما فى كتاب المَلَكِ — سبحانه ، وفرقٌ بين من يُعَامَل بما فى كتاب الحقِّ من الرحمة[2] والشفقة وبين مَنْ يحاسبه بما كَتَبَ عليه المَلَكُ من الزَّلة[3] .

---

(١) التنفس : الاستراحة من الكد والتعب .

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى « كتب على نفسه الرحمة » (آية ١٢ سورة الأنعام) وإلى قوله تعالى : « فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » (آية ٥٤ سورة الأنعام) .

(٣) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « بلى ورسلنا لديهم يكتبون » (آية ٨٠ سورة الزخرف) .

ويقال إذا حاسبهم فى القيامة يتصور لهم كأنهم فى الحال ما فارقوا الزَّلّة ، وإن كانت مباشرةُ الزَّلّةِ قد مَضَت عليها سنون كثيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب
لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها
ووجدوا ما عَمِلُوا حاضراً ولا يظلم
ربُّكَ أحداً ﴾

يملك الحزنُ قلبَه لأنه يعلم أنه يرى فى عمله سيئةً فهو فى موضع الخجل لتقصيره . وإنْ رأى حسنةً فهو فى موضع الخجل أيضاً لِقِلّةِ توقيره ؛ فَخَجْلَةُ أهلِ الصدقِ عند شهود حسناتهم توفى وتزيد على خجلة أهل الغفلة إذا عثروا على زلاَّتهم .

ويقال أصحابُ الطاعةِ إذا وجدوا ما قدَّموا من العبادات فلهم السرور والبهجة وحياة القلب والراحة ، وأمَّا أصحاب المخالفات فإنما يجدون فيما قدَّموا مجاوزةَ الحدِّ ونقضَ العهْدِ ، وما فى هذا الباب من الزِّلة وسوء القصد .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدمَ
فسجدوا إلا إبليسَ كان من الجن
فَفَسَقَ عن أمرِ ربِّه ﴾

أَظْهَرَ للملائكة شَظِيَّة مما استخلص به آدم فسجدوا بتيسيرٍ من الله — سبحانه ، وسَكَّرَ بَصَرَ اللعينِ فما شهد منه غير الْعَيْن[1] ففسق عن أمر ربه ، ولا صدق فى قوله : « أنا خير منه » لمّا فَسَقَ عن الأمر ، ولكن أدركته الشقاوة الأصيلة فلم تنفعه الوسيلة بالحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ أفتتخذونه وذُرِّيَتَه أولياء مِنْ

---

(١) أى نظر إبليس إلى الجسد المادى لآدم فقال : خلقتنى من نار وخلقته من طين ، ولم ينظر إلى الجوهر ، والسبب فى ذلك في رأى القشيرى أن الله أغلق عليه .

دونى وهم لكم عَدُوٌّ بِئْسَ للظالمين بَدَلاً ﴾

فى الآية إشارة إلى أنَّ مَنْ يُفْرِدْه بالولاية فلا يقتفى غَيْرَه ولا يخافُ غيرَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ما أشْهدتُهُمْ خَلْقَ السَّموات والأرضِ ولا خَلْقَ أنفسهم وما كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّين عَضُداً ﴾ .

أكذبَ المنجمين والأطباء الذين يتكلمون فى الهيئات والطبائع بقوله : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » : وبَيَّنَ أن ما يقولونه من إيجاب الطبائع لهذه الكائنات لا أصلَ له فى التحقيق .

« وما كنت متخذ المضلين عضداً » : أى لم أجعل للذين يُضِلُّون الناسَ عن دينهم بِشُبَهِهِمْ فى القول بالطبائع حجةً ، ولم أعطهم لتصحيح ما يقولونه برهاناً .

ويقال إذا تقاصرت علومُ الخَلق عن العلم بأنفسهم فكيف تحيط علومُهم بحقائق الصمدية ، واستحقاقِه لنعوته إلا بمقدار ما يخصُّهم به من التعريف على ما يليق برتبة كل أحد بما جعله له أهلاً ؟

ويقال أخبرَ أنَّ علومَهم تتقاصر عن الإحاطة بجميع أوصافهم وجميعِ أحوالهم وعن كُلِّ ما فى الكون ، ولا سبيلَ لهم إلى ذلك ، ولاحاجةَ بهم إلى الوقوف على ما قَصَرَتْ علومُهم عنه ، إذ لا يتعلَّق بذلك شىء من الأمور الدينية . فالإشارة فى هذا أن يَصْرِفُوا عنايتَهم إلى طلب العلم بالله وبصفاته وبأحكامه ، فإنه لابُدَّ لهم — بحكم الديانة — من التحقق بها ؛ إذ الواجبُ على العابد معرفة معبوده بما يزيل التردد عن قلبه فى تفاصيل مسائل الصفات والأحكام[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يقولُ نادُوا شُرَكائِيَ الذين

---

(١) فى هذا أبلغ رد على من يتهمون الصوفية بمجافاتهم للعلوم ، وكيف يجافونها وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ؟

زَعَمْتُم فَدَعَوْهم فلم يستجيبوا لهم
وجعلنا بينهم مَوْبِقاً ﴾

علِمَ الحقُّ — سبحانه — أنَّ الأصنامَ لا تغنى ولا تنفع ولا تضر ، ولـكن يعرِّفهم فى العاقبة بما يُصَيِّر معارفَهم ضرورية[1] حَسْماً لأوهام القوم ؛ حيث توهموا أنَّ عبادتهم للأصنام فيها نوع تقرب إلى الله على وجه التعظيم له كما قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[2] .

فإذا تحققوا بذلك صدقوا فى الندم ، وكان استيلاء الحسرة عليهم ، وذلك من أشد العقوبات لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ورأى المجرمون النارَ فظنوا أنهم
مواقِعوها ولم يَجِدُوا عنها مَصْرِفا ﴾

إذا صارت الأوهامُ منقطعةً ، والمعارفُ ضروريةً ، والنارُ مُعَايَنَةً استيقنوا أنهم واقعون فى النار ، فلا يُسْمَعُ لهم عُذْرٌ ، ولا تنفع لهم حيلةٌ ، ولا تُقْبَلُ فيهم شفاعة ، ولا يؤخذ منهم فداء ولا عدل . . لقد استمكنت الخيبةُ ، وغَلَبَ اليأسُ ، وحَصَلَ القنوط ، وهذا هو العذاب الأكبر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد صَرَّفْنَا فى هذا القرآن من كل
مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أكثر شىء
جَدَلاً ﴾

أوضح للـكافة الحججَ ، ولـكن لَبَّسَ على قوم النهج فوقعوا فى العوَج .

« وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » الجدَلُ فى الله محمود مع أعدائه ، والجدل مع الله شِرْكٌ لأنه صَرْفٌ إلى مخالفةٍ تُوهِمُ أن أحداً يعارض التقدير ، وتجويزُ ذلك انسلاخُ

---

(١) المعارف إما ضرورية أو كسبية ، والضرورية من الحق ، والـكسبية من الخلق .
(٢) آية ٣ سورة الزمر .

عن الدِّين . ومن أمارات السعادة للمؤمن فَتْحُ بابِ العملِ عليه ، وإغلاقُ بابِ الجدل دونه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما مَنَعَ الناسَ أَنْ يؤمنوا إذْ جاءهُم الهُدَى ويستغفِروا ربَّهم إلَّا أَنْ تأتِيَهم سُنَّةُ الأولين أو يأتِيَهم العذابُ قُبُلاً ﴾

لا عُذْرَ لهم إذا لجأوا إلى ما تعاطوه من العصيان وتَرْكِ المبادرة إلى المأمور ، ولا توفيقَ يساعدهم فيخرجهم عن حوار الداعى إلى عزم الفعل ، فَهُمْ — وإن لم يكونوا بنعت الاستطاعة على ما ليسوا يفعلونه — ليسوا عاجزين عن ذلك ، ولكنهم بحيث لو أن العبدَ منهم أراد ما أُمِرَ به لَتَأَتَّى منه ذلك ، وتعذَّر عليه ؛ ففى الحال ليس بقادرٍ على ما ليس يفعله ولا هو عاجزٌ عنه ، وهذا يسميه القوم حال التخلية وهى واسطة بين القدرة والعجز .

قوله جل ذكره : ﴿ وما نُرْسِل المُرْسَلين إلا مبشرين ومنذِرين ويجادِلُ الذين كفروا بالباطلِ لِيُدْحِضوا به الحقَّ واتَّخَذُوا آياتى وما أُنْذِرُوا هُزُواً ﴾

أرسل الرسلَ — عليهم السلام — تترى ، وأَيَّدَهم بالحجج والبراهين ، وأمرهم بالإنذار والتخويف ، والتشريف فى عين التكليف ، وتضمين ذلك بالتحقيق ، ولكن سَعِدَ قومٌ باتباعهم ، وشَقِىَ آخرون بخلافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّر بآياتِ ربِّه فأَعْرَضَ عنها ونَسِىَ ما قدَّمتْ يداه إنَّا جعلنا على قلوبِهم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوه وفى آذانِهم وَقْرًا وإنْ تَدْعُهُم إلى الهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إذًا أَبدًا ﴾

لا أحدَ أظلمُ مِمَّنْ ذُكِّر ووُعِظَ بما لوَّح له من الآيات ، وبما شاهده وعرفه من أمرٍ أُصْلِحَ أو شُغْلٍ كُفِيَ أو دعاءٍ أُجِيب له ، أو سوءِ أدبٍ حصل منه ، فأُدِّبَ بما يكون تنبيهاً له ، أو حصلت منه طاعةٌ وكوفِئ فى العاجل إمَّا بمعنًى وَجدَه فى قلبه من بَسْطٍ أو حلاوةٍ أو أُنْس ، وإمَّا بكفاية شُغْلٍ أو إصلاح أمرٍ .. ثم إذا استقبله أمرٌ نَسِيَ ما عُومل به ، أو أعرض عن تَذَكُّرِه ، ونَسِيَ ما قَدَّمَتْ يداه من خيره وشرِّه ، فوجد فى الوقت موجبه .. ومَنْ كانت هذه صِفَتُه جعل على قلبه ستراً وغفلةً وقسوةً حتى تنقطع عنه بركاتُ ما وُهِبَه .

ويقال مَنْ أظلم ممن يستقبله أمرٌ مجازاةً لما أسلفه من تَرْكِ أَدَبِه فيتَّهِمُ رَبَّه ، ويشكو مما يلاقيه ، ويَنْسَى حُرْمةَ الذى بسببه أصابه ما أصابه ؟ وكما قيل :

وعاجزُ الرأيِ مِضياعٌ لِفُرصته حتى إذا فاتَ أمرٌ عَاتَبَ القَدَرَا

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وربُّك الغفورُ ذوالرحمةِ لو يُؤَاخِذهم بما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لهم العذابَ ، بل لهم مَوْعِدٌ لن يجدوا من دونه مَوْئِلا ﴾

« غفور » : لأنه ذو الرحمة ، ورحمته الأزلية أوجَبَتْ المغفرةَ لهم .

ويقال « الغفور » : للعاصين من عباده ، و « ذوالرحمة » بجميعهم فيُصلح أحوالَ كافتهم .

« لو يؤاخذهم بما كسبوا » : لعجَّل لهم العذابَ ؛ أى عامَلَهم بما استوجبوه من عصيانهم ، فعجَّلَ لهم العقوبة ، لكنه يؤخرها لمقتضى حكمته ، ثم فى العاقبة يفعل ما يفعل على قضية إرادته وحكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لمَّا ظَلَمُوا وجعلنا لِمَهْلِكِهِم مَوْعِداً ﴾

لمَّا لم يشكروا النِّعم ولم يصبروا فى المحن عَجَّلنا لهم العقوبة .

ويقال لمَّا غَفَلُوا عن شهود التقدير ، وحُرِمُوا رَوْح الرضا وَكَلْناهم إلى ظُلُماتِ تدبيرهم ، فطاحوا فى أودية غفلاتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قال موسى لفتاه لا أبْرَحُ
حتَّى أبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين أو أمْضِىَ
حُقُبًا * فلمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهما
نَسِيَا حُوتَهما فاتَّخَذَ سبيلَه فى البحر
سَرَبًا ﴾

لما صَحَّتْ صحبة يوشع مع موسى عليهما السلام استحقَّ اسم الفتوة ، ولذا قال : « وإذ قال موسى لفتاه » وهو اسم كرامة لا اسم علامة .

جعل دخول السمك الماء علامة لوجود الخضر هنالك[1] ، ثم أدخل النسيان عليهما ليكونَ أبلغَ فى الآية ، وأبْعَدَ من اختيار البَشَر .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا جَاوَزَا قال لفتاه آتِنا غداءنا
لقد لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَبًا ﴾

كان موسى فى هذا السَّفرِ مُتَحَمِّلاً ، فقد كان سَفَر تأديبٍ واحتمالِ مشقةٍ ، لأنه ذهب لاستكثار العلم . وحالُ طلب العلم حالُ تأديبٍ ووقتُ تحمُّلِ المشقة ، ولهذا لَحِقَهُ الجوعُ ، فقال : « لقينا من سفرنا هذا نَصَباً » .

وحين صام فى مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً ، ولم يلحقه الجوعُ ولا المشقةُ ، لأن ذهابَه فى هذا السفر كان إلى الله ، فكان محمولاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قال أرأيتَ إذْ أوَيْنَا إلى الصَّخرةِ
فإنى نَسِيتُ الحوتَ وما أنسانيه
إلاَّ الشيطانُ أنْ أذْكُرَه واتخذ
سبيلَه فى البحر عجباً * قال ذلك

---

(١) كان الحوت سمكة مملوحة ، فنزلا ليلة على شاطىء عين الحياة ونام موسى ، فلما أصاب السمكة الماء عاشت ووقعت فى الماء (النسفى) .

ما كُنَّا نَبْغِ فارتدَّا على آثارهما
قَصَصاً ﴾[1]

طال عليهما السفر لأنهما احتاجا إلى الانصرافِ إلى مكانهما ، ثم قال يوشع : « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » : الله — سبحانه — أدْخَلَ عليه النسيانَ ليكونَ الصَّيْدُ من تكلفه ، ثم قال : « ذلك ما كنا نبغ » : يعنى دخول السمك الماء وكان مشوياً ، فصار ذلك معجزة له ، فلما انتهيا إلى الموضع الذى دخل السمك فيه الماء لقيا الخضر .

قوله جل ذكره : ﴿ فوجداً عَبْدًا مِنْ عبادِنا آتيناه
رحمةً مِنْ عندنا ، وعَلَّمْنَاهُ مِنْ
لَدُنَّا عِلْماً ﴾

إذا سمى الله إنساناً بأنه عَبْدُه جَعَلَه من جملة الخواص ، فإذا قال : « عبدى » جعله من خاص الخواص .

« آتيناه رحمةً من عندنا » : أى صار مرحوماً من قِبَلِنا بتلك الرحمة التى خصصناه بها من عندنا ، فيكون الخضر بتلك الرحمة مرحوماً ، ويكون بها راحماً على عبادنا .

« وعلّمناه من لدناً علماً » : قيل العلم من لدن الله[2] ما يتحصل بطريق الإلهام دون التكلف بالتَّطَلُّب .

ويقال ما يُعَرِّف به الحقُّ — سبحانه — الخواصَ من عباده .

ويقال ما يعرِّف به الحق أولياءه فيما فيه صلاح عباده .

---

(١) قال الزجاج : القصص اتباع الأثر ، فقص قصصاً : اتبع الأثر .

(٢) يتخذ الصوفية من قصة الخضر وموسى مصدراً ثرياً لاستمداد كثير من أصولهم فيما يتصل بالعلم اللدنى وعلم الوراثة ، والولاية والنبوة ، والعلاقة بين المريد والشيخ ، وفكرة الظاهر والباطن ، والملامة على ظاهر مستشنع باطنه سليم ... ونحو ذلك .
وقد نجد خلال إشارات القشيرى شيئاً من ذلك .

وقيل هو ما لا يعود منه نَفْعٌ إلى صاحبه ، بل يكون نفعُه لعباده مِمَّا فيه حقٌ الله — سبحانه .

ويقال هو ما لا يَجِدُ صاحبُه سبيلاً إلى جحده ، وكان دليلاً على صحة ما يجده قطعاً ، فلو سألتَه عن برهانه لم يجد عليه دليلاً ؛ فأقوى العلوم أبعدها من الدليل[1].

قوله جل ذكره : ﴿ قال له موسى هل أَتَّبِعُكَ على أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

تَلَطَّفَ في الخطاب حيث سَلَكَ طريق الاستئذان ، ثم صَرَّح بمقصوده من الصحبة بقوله : « على أن تعلمني مما علمت رشداً » .

ويقال إن الذى خُصَّ به الخضرُ من العلم لم يكن تَعَلَّمَه من أستاذ ولا من شخص ، فما لم يكن بتعليم أحد إياه . . متى كان يعلمه غيره ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قال إِنَّكَ لن تستطيعَ معي صَبْرًا * وكيف تَصْبِرُ على ما لم تُحِطْ به خُبْرًا * قال ستجدنى إنْ شاء اللهُ صابراً ولا أَعْصِي لكَ أمراً ﴾

سؤال بذلك العطف وجوابٌ بهذا العطف !

ثم تدارك قلبَه بقوله : « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ؟ » ، فأجابه موسى : « قال ستجدنى . . . » وعد من نفس موسى بشيئين : الصبر ، وبأن لا يعصيَه فيما يأمر به ، فأمَّا الصبر فقَرَنَه بالاستثناء بمشيئة الله فقال : « ستجدنى إن شاء الله صابراً » فصبر حتى وُجِدَ صابراً ، فلم يقبض على يدى الخضر فيما كان منه من الفعل ، والثانى قوله : « لا أعصى

---

(١) وسر قوة العلم الذى يبعد عن الدليل أنه من الحق ، وبقدر ما تختفى الجوانب الإنسانية فى العلم وتبرز المنن الإلهية فيه تكون نصاعة برهانه وقوة بيانه .

لك أمراً » : أطلقه ولم يُقْرِنْه بالاستثناء ، فما استثنأ لِأَجْله لم يخالفه فيه ، وما أطلقه وقع فيه الخُلْفُ(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فإن اتَّبَعْتَنِي فلا تسألني عن شيءٍ حتى أُحْدِثَ لكَ منه ذِكْراً ﴾

فإنه ليس للمريد أن يقول : « لا » لشيخه ، ولا التلميذ لأستاذه ، ولا العاميّ للعالِم المفتى فيما يفتى ويحكم .

قوله جل ذكره : ﴿ فانطلقا حتى إذا رَكِبَا فى السفينةِ خَرَقَها قال أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لقد جِئْتَ شيئاً إِمْراً ﴾

لما ركبوا الفُلْكَ خرقها وكان ذلك إبقاءً على صاحبها لئلا يرغبَ فى السفينةِ المخروقةِ المَلِكُ الطامعُ فى السفن .

وقوله : « لتغْرق أهلها » أى لتؤدىَ عاقبةُ هذا الأمر إلى غَرَقِ أهلها ؛ لأنه علم أنه لم يكن قَصَدَ إغراقَ أهلِ السفينة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾

أى أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم ، وإنّا نُجْرِيه من حيث الحُكْم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال لاتؤاخِذْنى بما نسيتُ ولاتُرْهِقْنى من أمْرِى عُسْراً ﴾

طالَبه بما هو شرط العلم حيث قال : « لاتؤاخذنى بما نسيت » ؛ لأن الناسىَ لايدخل تحت التكليف ، وأَيَّدَ ذلك بما قَرَنَ به قوله : « ولا ترهقنى من أمرى عسراً » فالمُتَمَكِّنُ من حقه

---

(٢) الخُلْف = الإخلاف ، فقد خالف موسى الأمر حين كان ينسى ويتساءل عقب كل حادثة فى القصة ، وكان الخضر فى كل مرة يقول : « ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً » .

التكليف ، ومَنْ لا يصحُّ منه الفعلُ والتَرْكُ لا يتوجه (   )[1] والناسى[2] من جملتهم.

قوله جل ذكره : ﴿ فانطلقا حتى إذا لَقِيا غلاماً فقَتَلَه ، قال أقتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بغيرِ نَفْسٍ لقد جِئْتَ شيئا نُكْراً ﴾

كان بِخُلُقِ العلم واجباً على موسى — عليه السلام — قَصْرُه حيث يرى فى الظاهر ظُلْماً ، ولكن فيما عرف من حال الخضر من حقه التوقف ريثما يعلم أنه أَلَمَّ بمحظورٍ أو مُباحٍ ، ففى ذلك الوقت كان قلب العادة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾

كرَّر قوله : « إنك لن تستطيع . . . » لأنه واقف بشرط العلم ، وأمَّا فى محل الكشف فَشَرَطَ عليه موسى عليه السلام فقال :

﴿ قال إنْ سألتُكَ عن شيءٍ بَعْدَها فلا تُصاحِبْنى قد بَلَغْتَ من لَدُنِّى عُذْراً ﴾

بلغ عصيانه ثلاثاً ، والثلاثةُ آخِرُ حَدِّ القِلَّة وأوَّلُ حَدِّ الكثرة ، فلم يَجِدْ المُسَامَحَةَ بعد ذلك[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أَهْلَ قريةٍ استطعما أهْلَها فأَبَوْا أن يُضَيِّفُوهما فوجدا فيها جداراً يريد أنْ يَنقَضَّ فأقامه قال لو شِئْتَ لتَّخذْتَ عليه أجْراً ﴾

---

(١) بياض فى النسخة ، ونرجح أن المفقود (عليه لوم) او مؤاخذة .

(٢) وردت (والناس) والسياق يتطلب (والنامى) بالياء إذ جاء فى الآية (. . . بما نسيت) .

(٣) قد تكشف هذه العبارة عن نصور القشيرى لأقصى درجات الذنب القابل للتوبة .

كان واجباً فى ملتهم على أهل القرية إطعامهما ، ولم يعلم موسى أنه لا جدوى من النكير عليهم ؛ ولو كان أغْضَى على ذلك منهم لكان أحسن .

فلمَّا أقام الخضر جدارهم ولم يطلب عليه أجراً لم يقل موسى إنك قُمْتَ بمحظور ، ولكنه قال له : « لو شئت لتخذت عليه أجراً » أى إن لم تأخذ بسببك فلو أخذت بسببنا لكان أَخْذُكَ خيراً لنا من تركك ذلك ، ولئن وَجَبَ حقُّهم فَلِمَ أخللتَ بحقنا ؟

ويقال إنَّ سَفَرَه ذلك كان سفرَ تأديب فَرُدَّ إلى تحَمُّلِ المشقة ، وإلاَّ فهو حين سقى لبنات شعيب فإنَّ ما أصابه من التعبِ وما كان فيه من الجوع كان أكثر[1] ، ولكنه كان فى ذلك الوقت محمولاً وفى هذا الوقت مُتَحَمِّلاً . فلما قال موسى هذا قال له الخضر :

﴿ قال هذا فِراقُ بينى وبينِكَ
سَأُنَبِّئُكَ بتأويلِ ما لم تَستَطِعْ
عليه صبْراً ﴾

أى بعد هذا فلا صحبة بيننا .

ويقال قال الخضر إنَّك نبيٌّ . . وإنما أؤاخذك بما قُلْتَ ، فأنت شَرَطْتَ هذا الشرط ؛ وقلتَ : إنْ سألتُك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ؛ وإنما أعاملك بقولك .

ويقال لمّا لم يصبر موسى معه فى تَرْكِ السؤال لم يصبر الخضرُ أيضاً معه فى إدامة الصحبة فاختار الفراق .

ويقال ما دام موسى عليه السلام سأله لأجل الغير — فى أمر السفينة التى كانت للمساكين ، وقَتْلِ النَّفس بغير حق — لم يفارقه الخضر ، فلمَّا صار فى الثالثة إلى القول فيما كان فيه حَظٌّ لنفسه من طلب الطعام ابْتُلِىَ بالفرقة ، فقال الخضر : « هذا فراق بينى وبينك » .

ويقال كما أن موسى ـ عليه السلام ـ كان يحب صحبة الخضر لما له فى ذلك من غرض الاستزادة من العلم فإن الخضر كان يحب تَرْكَ صحبة موسى عليه السلام إيثاراً للخلوة بالله عن المخلوقين .

---

(١) ومع ذلك لم يطلب اجراً ، ولم يفكر في ذلك ألبتة . . لأنه كان بحق الله ؛ ولكنه فى هذا الموقف كان متكلفا ، فهو يفكر بحظ نفسه ، ولذا فكر فى الأجر وطلب الطعام .

قوله جل ذكره : ﴿ أمَّا السفينةُ فكانت لمساكين
يعملون فى البحرِ فأردْتُ أنْ أعيبَها
وكان وراءهم مَلِكٌ يأخذ كل سفينة
غَصْباً ﴾

لما فارق الخضرُ موسى عليه السلام لم يُرِدْ أنْ يبقى فى قلبِ موسى شِبْهُ اعتراضٍ ؛ فأزَالَ عن قلبه ذلك بما أوضح له من الحال ، وكشف له أنَّ السِّرَّ فى قصده من خَرْقِ السفينة سلامتُها وبقاؤُها لأهلها حيث لن يطمعَ فيها المَلِكُ الغاصبُ ، فبقاء السفينةِ لأهلها — وهى معيبةٌ — كان خيراً لهم من سلامتها وهى مغصوبة .

قوله جل ذكره : « وأمَّا الغلامُ فكان أبواه مُؤْمِنَيْن
فخشينا أنْ يُرهِقَهما طُغْيانًا وكُفْرًا *
فأردنا أنْ يُبْدِلَهما ربُّهما خيراً منه
زكاةً وأقْرَبَ رُحْمًا ﴾

بيَّن له أنَّ قَتْلَ الغلامِ لِمَا سَبَقَ به العلمُ مضى من الله الُحكْمُ أنَّ فى بقائه فتنةً لوالديه ، وفى إبدال الخَلَفِ عنه سعادةً لهما .

قوله جل ذكره : ﴿ وأمَّا الجدارُ فكان لِغُلاَمين يتيمين
فى المدينة وكان تحته كَنْزٌ لهما وكان
أبوهما صالحًا فأراد ربُّكَ أنْ يَبْلُغَا
أشُدَّهما ويَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُما رحمةً
من ربِّك وما فَعَلْتُه عن أمرى ،
ذلك تأويلُ ما لم تَسْطِعْ عليه
صَبْراً ﴾

أما تسوية الجدار فلاستبقاءِ كنز الغلامين وترك طلب الرفق من الخَلْق .

قوله جل ذكره ﴿ حتى إذا بَلَغَ مطْلِعَ الشَّمْسِ وَجدَها
تَطْلُعُ على قومٍ لم نَجْعَلْ لهم من
دونها سِتْراً * كذلك وقد أَحطْنا
بما لديه خُبْراً * ثم أَتْبَعَ سببًا ﴾

أقوامٌ هم أهل مطلع الشمس الغالب عليهم طولُ نهارهم ، وآخرون كانوا من أهل مغرب الشمس الغالب عليهم استتار شمسهم .. كذلك الناس فى طلوع شمس التوحيد : منهم الغالب عليهم طلوع شموسهم ، والحضور نعتهم والشهود وصفهم والتوحيد حقُّهم ، وآخرون لهم من شموس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأرذل .

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا بَلَغَ بين السَّدَّيْنِ وَجدَ مِنْ
دونهما قومًا لا يكادون يفقهون
قولاً * قالوا ياذا القرنين إنَّ يأجوجَ
ومأجوجَ مُفْسِدُون فى الأرضِ فهل
نجعلُ لكَ خَرْجًا على أن تجعل بيننا
وبينهم سَدًّاً * قال ما مَكَّنِّى فيه
ربِّى خيرٌ فأَعِينُونِى بقوةٍ أَجْعَلْ
بينكم وبينهم رَدْمًا ﴾

أى ما كانوا يهتدون إلا إلى لسانِ أنفسِهم ، وما كانوا يفقهون فقهَ غيرِهم فالجئوا إلى عَبَرَاتهم فى شرح قصتهم ، ورفعوا إليه — فى باب ياجوج وماجوج — مظالمَهم ، وضمنوا له خراجاً يدفعونه إليه ، فأجابهم إلى سؤلهم ، وحقَّق لهم بُغْيَتَهم ، ولم يأخذ منهم ما ضمنوا له من الجباية ، لمَّا رأى أنَّ من الواجب عليه حق الحماية على حسب المُكْنَة .

قوله جل ذكره : ﴿ آتونى زُبَرَ الحديدِ حتَّى إذا ساوَى
بين الصَّدَفَيْنِ قال انفخوا حتى إذا

جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه
قطراً ﴾

استعان بهم فى الذى احتاج إليه منهم من الإمداد بما قال : « آتونى زبر الحديد » فلمّا فعلوا ما أمرهم به ، ونفخوا فيه النار جعل السد بين الصدفين أى جانبي الجبل . ثم أخبر أنه إنما يبقى ذلك إلى أنْ يأذنَ اللهُ له فى الخروج ، وتندفعَ عن الناس عادية (....)[1] إلى الوقت المضروب لهم فى التقدير .

وبعد ذلك يكون مِنْ شأنهم ما يريد الله . وبيَّنَ — سبحانه — أنَّ خروجَهم من وراء سَدِّهم مِنْ أشراط الساعة .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين كانت أعْيُنُهم فى غِطاءٍ
عن ذِكْرِى وكانوا لا يستطيعون
سمعاً ﴾

نظروا بأعين رءوسهم لأنهم فقدوا نظر القلب من حيث الاعتبار والاستدلال ، ولم يكن لهم سمع الإجابة لِمَا فقدوا من التوفيق ، فتوجه عليهم التكليف ولم يساعدهم التعريف .

قوله : « وكانوا لا يستطيعون سمعاً » : لأنهم فقدوا من قِبَلِهِ — سبحانه — الإسماع ؛ فلم يستطيعوا لهم القبول .

قوله جل ذكره : ﴿ أفَحَسِبَ الذين كفروا أن يتخذوا
عبادِى من دونى أولياء إنَّا أعْتَدْنا
جهنَّمَ للكافرين نُزُلاً ﴾

أى توهموا أنه ينفعهم ما فعلوه حسب ظنهم ، واعتقدوا فى أصنامهم استحقاقَ التعظيم ، وكانوا يقولون : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[2] ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

---

(١) مشتبهة .
(٢) آية ٣ سورة الزمر .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هل نُنَبِّئُكم بالأخْسَرِينَ أعمالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهم فى الحياةِ الدنيا ﴾

ضلَّ سعيُهم لأنهم عَمِلُوا لغيرِ اللهِ . . وما كان لغيرِ الله فلا ينفع .

ويقال الذين ضلَّ سعيُهم هم الذين قرَنُوا أعمالَهم بالرياء ، ووصفوا أحوالَهم بالإعجاب ، وأبطلوا إحسانهم بالملاحظات أو بالمَنِّ .

ويقال هم الذين يُلاحِظُون أعمالَهم وما مِنْهُم بعينِ الاستكثار(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وهم يَحْسَبُون أنَّهم يُحْسِنُون صُنْعًا ﴾

لم يكونوا أصحاب التحقيق ، فعَمِلوا من غير عِلْمٍ ، ولم يكونوا على وثيقة(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين كفروا بآياتِ ربِّهم ولقائه فَحَبِطَتْ أعمالُهم فلا نُقيمُ لهم يومَ القِيامَةِ وَزْنًا ﴾

عموا عن شهود الحقيقة فبقوا فى ظلمة الجحد ، فتفرَّقَتْ بهم الأوهام والظنون ، ولم يكونوا على بصيرة ، ولم تستقر قلوبُهم على عقيدة مقطوعٍ بها ؛ فليس لهم فى الآخرة وزنٌ ولا خَطَرٌ ، اليومَ هم كالأنْعام ، وغداً واقعون ساقطون (. . .)(٣) الأقدام .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك جَزَاؤُهم جَهَنَّمُ بِما كفروا واتخذوا آياتى ورُسُلِى هُزُواً ﴾

---

(١) ملاحظة الأعمال واستكثارها من أخطر دعاوى النفس ، كثيراً ما حذَّر منهما أهل الملامة فى نيسابور — موطن القشيرى .

(٢) الوثيقة ما يضبط به الأمر ويُحْكَم .

(٣) مشتبهة ، وقد ضبطنا (الأقدام) بفتح الهمزة مراعاة للانسجام مع (الأنعام) على عادة القشيرى فى ضبط الموسيقى الداخلية للجمل والفقرات ، ومع ذلك فإنَّ صحة ضبطها تتوقف على معرفة الكلمة المشتبهة .

هم اليومَ فى عقوبة الجحد ، وغداً فى عقوبة الردّ . اليوم هم فى ذُلِّ الفراق ، وغداً فى أليمِ الاحتراق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ كانت لهم جنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾

لهم جنات مُعَجَّلة سراً ، ولهم جنان مؤجلة جهراً .

اليوم جنان الوصل وغداً جنان الفضل .

اليوم جنان العرفان وغداً جنان الرضوان .

قوله جل ذكره : ﴿ خالدين فيها لا يَبْغُونَ عنها حِوَلاً ﴾

عرَّفنا — سبحانه — أن مايخوِّله لهم غداً يكون على الدوام ، فهم لا ينفكون عن أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ؛ فهم أبداً فى الجنة ، ولا إخراج لهم منها . وأبداً لهم الرؤية ، ولا حجاب لهم عنها[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لو كان البحرُ مِدَاداً لكلماتِ ربى لنَفِدَ البحرُ قَبْلَ أن تَنْفَدَ كلماتُ ربى ولو جِئْنَا بِمِثْلِه مَدَداً ﴾

أى لا تُعَدُّ معانى كلمات الله لأنه لانهايةَ لها ؛ فإنَّ متعلقاتِ الصفةِ القديمةِ لانهاية لها ؛ كمعلوماتِ الحقِّ — سبحانه — ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته .

والذى هو مخلوقٌ[2] لا يَسْتَوْفِى ما هو غير مُتَنَاهٍ — وإنْ كَثُرَ ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحَى إلىَّ أنَّما إلهُكُم إلهٌ واحِدٌ ﴾

---

(١) القشيرى من الباحثين الذين يصرحون بالرؤية بالأبصار فى الآخرة ، أما فى الدنيا فيقول : الأقوى فيه أنه لا يجوز ، الرسالة ص ١٧٥ .

(٢) يقصد (البحر) إذا صار مداداً ؛ فالبحر يتناهى ، وكلمات الله لا تتناهى .

أَخْبِرْ أَنَّكَ لهم من حيث الصورة والجنسية مُشاكِلٌ ، والفَرْقُ بينكَ وبينهم تخصيصُ الله — سبحانه — إياكَ بالرسالة ، وتَرْكِه إياهم فى الجهالة .

ويقال : قل اختصاصى بما لى من (الاصطفاء)[1] ، وإن كنا — أنا وأنتم — فى الصورة أكفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ فمَنْ كان يَرْجُو لقاءِ ربِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّهِ أَحَداً ﴾

حَمْلُ الرجاءِ فى هذه الآية على خوف العقوبة ورجاء المثوبة حَسَنٌ ، ولكنَّ تَرْكَ هذا على ظاهره أَوْلَى ؛ فالمؤمنون قاطبةً يرجون لقاء الله .

والعارف بالله — سبحانه — يرجو لقاء الله والنظرَ إليه .

والعمل الصالح الذى بوجوده يصل إلى لقائه هو صَبْرُه على لواعجِ اشتياقه ، وأَنْ يُخْلِصَ فى عمله .

« ولا يشرك بعبادة ربه » : أى لا يُلاحِظُ عَمَلَه ، ولا يستكثر طاعته ، ويتبرأ من حَوْلِه وقُوَّتِه .

ويقال العمل الصالح هنا اعتقاد (وجود الصراط ورؤيته وانتظار وقته)[2]

---

(١) هنا كلمة مبهمة فى الخط ، فوضعنا كلمة (الاصطفاء) من عندنا فهى أليق بالمعنى والسياق .

(٢) هكذا في ص وليس واضحاً عودة الضمير فى (رؤيته) هل هى على الصراط أم على الحق . فنحن نعلم أن القشيرى شافعىٌّ من حيث مذهبة الفقهى ، ونعلم كذلك أن الشافعى يقول : لو علم ابن إدريس أنه لا يرى ربَّه يوم القيامة ما عَبَدَه .

انتهت سورة الكهف بهذا التذييل فى النسخة ص .

[تمّ بعون الله تعالى وحسن توفيقه نصف أول از تفسير

محقق إمام أبو قاسم القشيرى رحمة الله عليه بتاريخ ١٢ شهر شوال سنة ١١٣٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

سورة مريم عليها السلام

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله ، اسم عزيز مَنْ عَبَدَه واصَلَ جِهادَه ، ومَنْ طَلَبه وَدَّعَ وِسادَه ، ومَنْ عرَفَه أنكر أحبابَه . ومَنْ يَسَّر له أوقفه على محبته .

مَنْ ذكره نَسِيَ اسْمَه ، ومن شَهِدَه فَقَدَ عقلَه ولُبَّه (١) .

اسم عزيز جُبِلَتْ القلوبُ على محبته ، وكل قلب ليس يوقفه على محبته ، فليس بحيلةٍ يصل .

اسمٌ ما اتصفت أشباحُ الأبرارِ إلا بعبادته ، وما اعتكفتِ أرواحُ الأحرارِإلا بمشاهدته .

اسم عزيز مَنْ عَرَفَه اعترف أنه وراء ما وصفه .

قوله جل ذكره : ﴿ كهيعص ﴾

تعريفٌ للأحباب بأسرار معانى الخطاب ، حروف خَصَّ الحقُّ المُخَاطَبَ بها بفهم معانيها ، وإذا كان للأخيار سَماعُها وذِكْرُها ، فللرسولِ — عليه السلام — فَهْمُها وسِرُّها .

ويقال أشار بالكاف إلى أنه الكافى فى الإنعام والانتقام ، والرفع والوضع على ما سبق به القضاء والحُكْم .

---

(١) المقصود بفقد العقل واللب هنا غيبة التمييز فى حال الشهود .

ويقال فى الكاف تعريفٌ بكونه مع أوليائه ، وتخويفٌ بخفىِّ مكرِه فى بلائه .

ويقال فى الكاف إشارة إلى كتابته الرحمةَ على نفْسِه قبل كتابة الملائكةِ الزَّلَّةَ على عباده .

والهاء تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عرفانه ، وتعريف خواصه باستحقاق جلال سلطانه ، وما له من الحق بحكم إحسانه .

والياء إشارة إلى يُسْرِ نِعَمِه بعد عُسْرِ مِحَنِه . وإلى يده المبسوطة بالرحمة للمؤمنين من عباده .

والعين تشير إلى عِلْمِه بأحوالِ عَبْدِه فى سِرِّه وجَهْرِه ، وقُلِّه وكُثْرِه ، وحالِه ومآلِه ، وقدْرِ طاقته وحق فاقته .

وفى الصاد إلى أنه الصادق فى وعده .

قوله جل ذكره : ﴿ ذِكْرُ رحمةِ ربِّكَ عَبْدَه زكريا ﴾

تخصيصه إياه بإجابته فى سؤال وَلَدِه ، وما أراد أن يتصل بأعقابه من تخصيص القربة له ولجميع أهله .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ نادَى ربَّه نداءً خَفِيًّا ﴾ .

وإنما ذلك لئلا يَطَّلعَ أحدٌ على سِرِّ حاله فأخفى نداءه عن الأجانب وقد أمكنه أن يخفيه عن نفسه بالتعامى عن شهود محاسنه ، والاعتقاد بالسُّوء فى نفسه ، ثم أخفى سِرَّهُ عن الخلق لئلا يقعَ لأحدٍ إشرافٌ على حاله ، ولئلا يَشْمَتَ بمقالته أعداؤه .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ إنى وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي واشتعل الرأسُ شيباً ﴾ .

أى لَقِيتُ بضعفى عن خدمتك ما لا أُحِبُّه ، فطعنتُ فى السنِّ ، ولا قوةَ بعد المشيب ، فهَبْ لى ولداً ينوب عنى فى عبادتك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولم أكُنْ بدعائِك ربِّ شَقِيًّا ﴾ .

أي إني أسألكِ واثقاً بإجابتك ، لِعلمى بأنى لا أَشْقَىَ بدعائِك فإنَّك تحِبُّ أن تُسأل .

ويقال إنك عوّدتني إجابة الدعاء، ولم تردّني في سالف أيامي إذا دعوتُك.

قوله جل ذكره: ﴿ وإني خِفْتُ الموالِيَ مِنْ ورائى وكانت امرأتى عاقِراً فَهَبْ لى مِنْ لدُنْكَ وَليّاً * يرثُني ويرثُ من آلِ يعقوبَ واجعلْه ربِّ رَضِيّاً ﴾.

إني خِفْتُ أنْ تذهبَ النبوة من أهل بيتي، وتنتقل إلى بني أعمامي فهبْ لى وَلَداً يعبدك، ويكون من نَسلِي ومن أهلي.

وهو لم يرِدْ الولدَ بشهوةِ الدنيا وأخْذِ الحظوظِ منها، وإنما طلبَ الولدَ ليقومَ بحقِّ الله، وفى قوله: « يرثنى » دليلٌ على أنه كما سأل الولدَ سأل بقاء ولده؛ فقال: ولداً يكون وارثاً لى؛ أى يبقى بَعْدِى، ويرث من آل يعقوب النبوةَ وتبليغ الرسالة.

واجعله ربِّ رضيا: رَضِىّ فعيل بمعنى مفعول أى ترضى عنه فيكون مَرْضِيّاً لك. ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل أى راضياً منك، وراضيا بتقديرك.

قوله جل ذكره: ﴿ يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجْعَلْ له من قبلُ سَمِيًّا ﴾.

أى استجبنا لدعائك، ونرزقك ولداً ذَكَراً اسمُه يحيى؛ تحيا به عُقْرَةُ أُمِّه، ويحيا به نَسَبُكُ، ويحيا به ذِكْرُك، وما سألتَه من أن يكون نائبا عنك؛ فيحيا به محلُّ العبادة والنبوة في بيتك.

«لم نجعل له من قبل سمِيّا»: انفراده — عليه السلام — بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة؛ أى لم يكن له سَمِىٌّ قَبْلَه؛ فلا أحَدَ كُفْؤٌ له فى استجماع أوصافِ فَضْلِه.

ويقال لم نجعل له من قبل نظيراً؛ لأنه لم يكن أحد لا ذنبَ له قَبْلَ النبوة ولا بعدها غيره [1].

---

(١) هذا رأى في مذهب القشيرى الكلامي يتصل بقضية هامة: هل يكون من النبي ذنب؟

قوله جل ذكره : ﴿ قال رَبِّ أنَّى يكون لى غُلامٌ وكانت امرأتى عاقِراً وقد بَلَغْتُ من الكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ .

سأل الوَلَدَ فلمَّا أُجيب قال أنَّى يكون لى غلام ؟ ومعنى ذلك — على ماجاء فى التفسير — أن بين سؤاله الولد وبين الإجابة مدةً طويلةً ؛ فكأنه سأل الولدَ فى ابتداء حال سِنِّه ، واستجيبت دعوتُه بعد ماتناهى فى سِنِّه ، فلذلك قال : « أنَّى يكون لى غلام ؟ » .

ويقال أراد أن يعرف ممن يكون هذا الولد . . أمِنْ هذه المرأة وهى عاقر أم من امرأة أخرى أتزوج بها مملوكة أستفرشها ؟ فالسؤال إنما كان لتعيين مَنْ منها يكون الولد . فقال تعالى :

﴿ قال كذالك قال ربك هو علىَّ هين ﴾

معناه إجابة الولد لك فيها معجزة ودلالة فى هذا الوقت الذى فيه حسب مستقرِّ العادة ولادة مثلِ هذه المرأة دلالةٌ ومعجزةٌ لك على قومك ؛ فتكون للإجابة بالولد مِنْ وَجْهٍ معجزةٌ ، ومن وجهٍ راحةٌ وكرامةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقد خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ولم تَكُ شيئا ﴾

دلَّت الآيه على أن المعدومَ ليس بشىء ؛ لأنه نفى أن يكون قبل خَلْقِه له كان شيئا .

قوله جل ذكره : ﴿ قال رَبِّ اجعل لى آية قال آيَتُكَ ألاَّ تُكلِّمَ الناسَ ثلاثَ ليالٍ سَوِيًّا ﴾

أراد علامةً على علوق المرأة بالولد ، ولم يُرِدْ علامةً يَسْتَدِلُّ بها على صِدْق ما يقال له . فأخبره تعالى : أُنبئُكَ علامةَ وقت إجابتك . . إنَّ لسانَك لا ينطق معهم بالمخاطبة — ولو اجتهدتَ كُلَّ الجهد — ثلاثةَ أيام ، وعليكَ أن تخاطبنى ، وأن تقرأ الكتب المُنَزَّلةَ التى كانت فى وقتك . فكان لا ينطق لسانه إذا أراد أن يُكلِّمَهم ، وإذا أراد أن يقرأ الكتبَ أو يسبِّحَ اللهَ انطلق مع الله لسانُه .

قوله جل ذكره : ﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أنْ سَبِّحوه بُكْرَةً وعَشِيًّا ﴾

أى فلمّا خرج عليهم عرّفهم — من طريق الإشارة[1] — أنّ اللسانَ الذى كان يخاطبهم به ليس الآن منطلقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يا يحيى خُذْ الكتابَ بقوةٍ وآتيناه الحُكْمَ صبيًّا * وحناناً مِنْ لَدُنَّا وزكاةً وكان تقيّا ﴾

أى قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة مِنَّا ، خَصَصْناكَ بها .. لا قوةَ يدٍ ولكن قوة قلبٍ ، وذلك خيرٌ خَصَّه اللهُ تعالى به وهو النبوة .

ودلّت الآية على أنه كان من الله له كتاب .

« وآتيناه الحكم صبيا » أى النبوة ، بَعَثَه اللهُ بها إلى قومه ، وأوحى إليه وهو صبىّ .

ويقال الحُكْمُ بالصوابِ والحقِّ بين الناس .

ويقال الحكم هو إحكام الفعل على وجه الأمر .

قوله « وحنانا من لدنا . . . » أى آتيناه رحمةً من عندنا ، وطهارةً وتوفيقاً لمجلوبات التقوى وتحقيقاً لموهوباتها ؛ فإن التقوى على قسمين : مجموعٍ ومجلوبٍ يتوصَّلُ إليه العبدُ بتكلُّفِه وتعلُّمِه ، وموضوعٍ من الله تعالى وموهوبٍ منه يصل إليه العبدُ ببَذْله سبحانه وبفضله .

قوله جل ذكره : ﴿ وبَرّاً بوالديه ولم يَكُنْ جبَّاراً عَصِيًّا ﴾

« براً بوالديه » كأمر الله — سبحانه — له بذلك لا لمودَّةِ البَشَرِ وموجِبِ عادة الإنسانية .

ولم يكن متمرداً عن الحق ، جاحداً لربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وسلامٌ عليه يومَ وُلِدَ ويومَ يموتُ ويومَ يُبْعثُ حَيّاً ﴾

أى له مِنّا أمانٌ يوم القيامة ، ويوم ولادته فى البداية ، ويوم وفاته فى النهاية ، وهو أن يصونَه عن الزَّيْغِ والعِوَجِ فى العقيدة بما يُشْهِدُه على الدوام من حقيقة الإلهية .

---

(١) كأنما يقصد القشيرى إلى بيان أن الإشارة تغنى عن العبارة وأنها بأمر إلهى .

وكذلك هو فى القيامة له منه – سبحانه – الأمان ؛ فهو فى الدنيا معصومٌ عن الزَّلَّة ، محفوظٌ عن الآفة . وفى الآخرة معصومٌ عن البلاء والمحنة .

قوله جل ذكره: ﴿وَاذْكُرْ فى الكتاب مريمَ إذ انْتَبَذَتْ مِنْ أهلِها مَكانا شرقيا * فاتخذت من دونهم حِجَابًا فأَرْسَلْنا إليها روحَنا فتمثَّلَ لها بَشَرًا سَوِيًّا﴾

اعتزلت عنهم لتحصيلٍ يطهرها ، فاستترت عن أبصارهم .

فلمَّا أبصرت جبريلَ فى صورةِ إنسانٍ لم تتوقعه أَحَسَّتْ فى نفسها رُعْبًا ، ولم تكن لها حيلةٌ إلا تخويفه بالله ، ورجوعها إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إنْ كنتَ تقياً﴾

قالت مريمُ لجبريل – وهى لم تعرفه – إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت ممن يجب أن يُخَافَ ويُتَقَّى منه ؛ أى إنْ كنتَ تَقْصِد السوء . ومعنى قولها « بالرحمن » ولم تقل : « بالله » – أى بالذى يرحمنى فيحفظنى منك .

ويقال يحتمل أن يكون معناه : إن كنتَ تعرف الله وتكون متقيا مخالفة أمره فإنِّى أعوذ بالله منك وأحذر عقوبته .

قوله جل ذكره . ﴿قال إنَّما أنا رسولُ ربِّك لأَهَبَ لَكَ غُلاما زَكِيًّا﴾

تعرَّف جبريلُ إليها بما سكَّن رَوْعَها ، وقَرَنَ مقالته بالتبشير لها بعيسى عليه السلام .

﴿قالت أنَّى يكونُ لى غلامٌ ولم يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ولم أَكُ بَغِيًّا * قال كذلك قال ربُّك هو علىَّ هَيِّنٌ

ولنجعله آيةً للناسِ ورحمةً مِنَّا وكان
أمراً مقضيًّا ﴾

قالت أنى يكونُ لى وَلَدٌ ولم أُلِمّ بزَلَّةٍ ولا فاحشةٍ ؟ فقال جبريلُ — عليه السلام — : الأمرُ كما قلتُ لَكِ ، فلا يتعصّى ذلك على الله تعالى ، إذ هو أقدرُ أنْ يجعل هـذا الوَلَدَ دلالةً على كمال قدرته ، ويكون هذا الولدُ رحمةً منه — سبحانه — لِمَنْ آمَنَ ، وسَبَبَ جهلٍ للآخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ به مكاناً
قَصِيًّا ﴾

لمَّا ظهر بها الحَمْلُ ، وعَلِمَتْ أنَّ الناسَ يستبعدون ذلك ، ولم تَثِقْ بأحدٍ تُفْشِى إليه سِرَّها . . مَضَتْ إلى مكانٍ بعيد عن الخَلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَجاءها المخاضُ إلى جِذْعِ النخلة
قالَتْ يا ليتنى مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ
نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾

أَلْجَأَها وَجعُ الولادةِ إلى الاعتماد إلى جِذْع النخلة . ولمَّا أخذها الطَّلْقُ ، ودَاخَلَها الخَجَلُ مِنْ قومِها نَطَقَتْ بلسانِ العَجزِ ، وقالت : « يا ليتنى مِتُّ قبل هذا » .

ويقال يحتمل أنها قالتها إشفاقاً من قومها ، لأنها عَلِمَتْ أنَّهم سيبسطون لسانَ الملامةِ فيها بلسانِ الفُجْرِ ، وينسبونها إلى الفحشاء .

ويقال قالتها شفقةً على قومها لئلا تُصِيبَهم بِسَبَبِها عقوبةٌ .

ويقال قالت : «يا ليتنى مِتُّ قبل هذا » حتى لم أسمع مَنْ قال فى الله تعالى بسببى إن عيسى ابن الله وابن مريم ، وإن مريمَ زوجتُه . . . تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً !

ويقال « يا ليتنى مت قبل هذا » : فى الوقت الذى كنتُ مرفوقاً بى ، ولم تستقبلنى هذه الخشونةُ فى الحالةِ التى لحِقَتْنى .

ويقال « ياليتنى مِتُّ قبل هذا » : فى الوقت الذى لم يكن قلبي متعلقاً بسبب .

قوله جل ذكرهُ : ﴿ فناداها مِنْ تحتِها ألاَّ تَحزَنى قد جَعَل رَبُّكِ تحتكِ سَرِيًّا ﴾[1]

فى التفسير أن المُعْنِيَّ بقوله «من تحتها» : جبريلُ عليه السلام ، وقيل عيسى عليه السلام . والمقصودُ منه تسكينُ ما كان بها من الوحشة ، والبشارة بعيسى عليه السلام ، أى يرزقك الله ولداً سرياً .

قوله جل ذكره : ﴿ وهُزِّى إليكِ بجذعِ النخلةِ تُساقِطْ عليكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾

وكان جِذْعاً يابساً أخرج اللهُ تعالى منه فى الوقتِ الثمرةَ ، وهى الرُّطَبُ الجَنىُّ ، وكان فى ذلك آية ودلالة لها ؛ فالذى قدر على فعل مثل هذا قادر على خلق عيسى — عليه السلام — من غير أبٍ .

ويقال عندما كانت مُجَرَّدَةً بلا علاقة ، فقد كان زكريا — عليه السلام — يَجِدُ عندها رزقاً من غير أن أُمِرَتْ بتكلف ، فلمَّا جاءتْ علاقةُ الولدِ أُمِرَتْ بهزِّ النخلةِ اليابسةِ — وهى فى أضعف حالها ؛ زمان قرب عهدها بوضع الولد ، لِيُعْلَمَ أنَّ العلاقةَ توجِبُ العناء والمشقة .

ويقال بل أُمِرَتْ بهزِّ النخلة اليابسة ، وكان تمكنُها من ذلك أوضحَ دلالة على صدقها فى حالها .

ويقال لمّا لم يكن لها فى هذه الحالة مَنْ يقوم بتعهدها تولَّى الله تعالى كفايتها ؛ ليَعْلَمَ العالمون أنه لا يضيع خواصَّ عبادِه فى وقت حاجتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلى واشرَبِى وقَرِّى عيناً ،

---

(1) السرى = السيد الكريم ، وقيل هو نهر صغير أو جدول .

فإمَّا تَرَينَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً ،
فقولى إنِّي نَذَرْتُ للرحمنِ صَوْماً
فلن أُكلِّمَ اليومَ إنْسِيًّا ﴾

كفاها أسبابَ ما احتاجت إليه مِنْ أكْلِها وشرْبِها ، وسَكَّنَ من خوفها ، وطيَّبَ قلبَها .

« فإما ترين من البشر أحداً » : فلا تخاطبيهم وعرِّفيهم - بالإشارة - أنَّكِ نَذَرْتِ للرحمنِ الصمتَ مع الخَلْق ، وتَرْكَ المخاطبةِ معهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَتَتْ به قَوْمَها تحمله قالوا :
يا مريمُ لقد جِئْتِ شيئاً فَرِياً *
يا أُخْتَ هارونَ ما كان أبوكِ امْرَأَ
سَوْءٍ وما كانت أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

بسط قومُها فيها لسانَ الملامةِ لما رَأَوْها قد وَلَدَتْ - وظاهرُ الحالِ كان معهم - فقالوا لها على سبيل الملامة : يا مَنْ كنا نَعُدُّكِ فى الصلاح بمنزلة هارون المعروف بالسداد والصلاح . . مِنْ أين لكِ هذه الحالة الشنعاء ؟

ويقال كان أخوها اسمه هارون . ويقال كان هارون رجلاً فاسقاً فى قومهم ، فقالوا : يا شبيهتَه فى الفساد . . ما هذا الولد ؟

ويقال كان هارون رجلاً صالحاً فيهم فقالوا : يا أخت هارون ، ويا مَنْ فى حسابنا وظَنِّنا ما كان أبواكِ فيهما سوء ولا فساد . . كيف أتيتِ بهذه الكبيرة الفظيعة ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ فأشارَتْ إليه قالوا كيف نُكَلِّمُ
مَنْ كان فى المَهْدِ صَبِيًّا ؟ ﴾

فى الظاهر أشارت إلى الولد ، وفى الباطن أشارت إلى الله ، فأخذهم ما قرب وما بعد وقالوا : كيف نكلِّم مَنْ هو أهل بأن يُنَوَّم فى المهد ؟ !

فـ « كان » ها هنا فى اللفظ صلة .. وحملوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها .

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنى عبدُ الله آتانىَ الكتابَ
وجعلنى نبيّاً ﴾

لما قالوا ذلك أنطق اللهُ عيسى حتى قال : إنى عبد الله ، فظهرت براءةُ ساحتها بكلام عيسى قبل أن يتكلم مثلُه . وجرى على لسانه حتى قال : إنى عبد الله ؛ ليُقَال للنصارى إنْ صَدَقَ عيسى أنه عبدُ الله بطل قولُكم إنه ثالث ثلاثة ، وإن كذب فالذى يكذب لا يكون ابناً لله ، وإنما يكون عبداً لله ، وإذا لم يكن عَبْدَ هواه ، ولا فى أَسْرِ شىء سواه فمَنْ تحرر مِنْ غيره فهو فى الحقيقة عَبْدُه .

« وآتانى الكتاب » : أى سيؤتينى الكتاب أو آتانى فى سابق حكمه .

« وجعلنى نبياً » بفضله . وفى الآية ردٌّ على من يقول إن النبوة تُسْتَحقُّ بكثرة الطاعة لأنه قال ذلك فى حال ولادته ، ولم تَكُنْ منه بَعْدُ عبادةٌ وأخبر أن الله جعله نبياً[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وجَعَلنى مُبارَكاً أينما كُنْتُ
وأوصانى بالصلاةِ والزكاةِ ما دُمْتُ
حَيّاً * وبَرّاً بوالدتى ولم يَجْعلنى
جَبَّاراً شقيّاً ﴾ .

أى نافعا للخلق يرشدهم إلى أمور دينهم ، ويمنعهم من ارتكاب الزَّلةِ التى فيها هلاكهم ، ومَنْ استضاء بنوره نجا . . فهذه بركاتُه التى كانت تصل إلى الخلْق . ومَنْ بركاتِه إغاثةُ الملهوف ، وإعانةُ الضعيف ، ونصرة المظلوم ، ومواساة الفقير ، وإرشاد الضال ، والنصيحة للخلْق ، وكفُّ الأذى عنهم وحَمْلُ الأذى منهم .

« وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً » أى لم يجعلنى غيرَ قابلٍ للنصيحة .

---

(١) فى موضع آخر حاول القشيرى ان يوضح ضرورة استقلال عمل الإنسان والنظر إليه بعين الاستصغار رغبة منه فى ربط كل شىء بالفضل والاجتباء الإلهيين ، فاستشهد بأن عيسى صار نبياً — وهو بعد لم تكن منه طاعة ولا عمل .

ويقال « شقياً » : أى متكبراً متجبراً . ويقال مختوماً بكفرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ والسلامُ علىَّ يومَ وُلِدْتُ ويومَ أموتُ ويوم أُبْعَثُ حيّاً ﴾

قال عيسى عليه السلام : « والسلام علىَّ » ، وقال لنبينا عليه السلام ليلة المعراج : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » . . فشتان ما هما !

والسلام بمعنى السلامة ، أى سلامة لى يوم الولادة مما نسبوا إلىَّ من قول النصارى في مجاوزة الحدِّ فى المدح ، ومما وصفنى به اليهود من الذمِّ[1] ، فلَمَسْتُ كما قالت الطائفتان جميعاً .

وسلام علىَّ يوم أموت ؛ ففى ذلك اليوم تكون لى سلامة حتى تكون بالسعادة وفاتى .

وسلام علىّ يوم أُبعَثُ ؛ أى سلامةٌ لى فى الأحوال مِمَّا يُبْتَلَى به غيرُ أهل الوصال .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك عيسى ابنُ مريمَ قَوْلَ الحقِّ الذى فيه يَمْتَرُون ﴾

أى الذى قال ما أخبر الله عنه هو عيسى ابن مريم . . . أيكون بقول إله ؟

وقد شكَّ فيه أكثر الخَلْق فَرَدَّه قومٌ وقَبِلَه قومٌ ، والفرق بينهما فى استحقاقه[2] .

وقوله : « قولِ الحق » أى يكون بقوله الحق وهو :

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان لله أنْ يتَّخِذَ من وَلَدٍ سبحانه إذا قضى أمراً فإنَّما يقول له كن فيكون * وإنَّ اللهَ رَبِّى وربكم فاعبدوه هذا صِراطٌ مستقيم ﴾

لا يجوز أن يكون له وَلَدٌ على الحقيقة ؛ لأنه واحد ، والوَلَدُ بعضُ والده .

---

(١) فقد اتهم اليهود امه بالزنا .

(٢) أى فى نصيبه من الحق الفارق بين الردِّ والقبول .

ولأنه لا داعي له إلى صحبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة. ولا يجوز عليه التبنى لأحدٍ لعَدَمِ الجنسية بينهما.

وقوله: «وإذا قضى أمراً ...» إذا أراد إحداثَ شيءٍ خَلَقَه بقدرته، وخاطَبَه بأمر التكوين[1]، ولا يتعصَّى عليه — فى التحقيق — مقدور.

«وإنَّ الله ربى وربكم» أى أمرنى بأن تعلموا ذلك؛ وأمرنى بتبليغ رسالتى، واتباع ما شَرَعَ اللهُ من العبادات.

قوله جل ذكره: ﴿فاختلف الأحزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ للذين كفروا مِنْ مَشْهَدِ يومٍ عظيم﴾

فَمَنْ عُجِنَتْ بماءِ السعادةِ طينتهُ أَطَاعَ فى عاجله وما ضاع فى آجله، ومَنْ أَقْصَتْه القِسْمَة السابقة لم تُدْنِه الخِدْمَةُ اللاحقة، وسَيَلْقَوْنَ غِبَّ هذا الأمر.

قوله جل ذكره: ﴿أَسْمِعْ بهم وأَبْصِرْ يومَ يأتونَنا لكِنْ الظالمونَ اليومَ فى ضلالٍ مبينٍ﴾

تصير معارفهم ضروريةً، وأحوالُهم كلُّها معكوسةً، والحُجَّة تتأكَّد عليهم، والحاجةُ لا تُسْمَعُ منهم، والرحمةُ لا تتعلَّق بهم، فلا تُرْحَم شكاتُهم، ولا يُسْمَعُ نِداؤُهم.

قوله جل ذكره: ﴿وأَنْذِرْهم يومَ الحسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأَمْرُ وهُمْ فى غَفْلَةٍ وهم لا يؤمِنون﴾

تقوم الساعةُ بغتةً، وتصادفهم القيامةُ وهم غيرُ مستعدين لها فيتحسَّرون على ما فاتهم.

ويقال يوم الحسرة يوم القسمة حين سَبَقَتْ لقومٍ الشقاوةُ — وهم فى محو العَدَمِ، ولآخرين السعادة — وهم بنعت العدم، ولم يكن من أولئك جُرْم بَعْدُ، ولا مِنْ هؤلاء وِفاقٌ بعدُ.

---

(1) أى كن فيكون.

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا نحن نَرِثُ الأرضَ ومَنْ عليها وإلينا يُرْجَعون ﴾

يريد به إذا قَبَضَ أرواحَ بنى آدم بجملتهم ، ولم يبقَ على وجه الأرض منهم واحدٌ ، وليس يريد به استحداث مُلْكِه ، وهو اليومَ مالِكُ الأرض ومَنْ عليها ، ومالكُ الكونِ وما فيه .

ويقال إن زكريا قال — لمَّا سأل الولد : « يرثنى ويرث من آل يعقوب » وقال تعالى فى صفة بنى إسرائيل : « كذلك وأورثناها بنى إسرائيل »[1] وقال : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده »[2] ، ولما انتهى إلى هذه الأمة[3] قال : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها » . . فشتان بين مَنْ وارِثه الوَلَدُ وبين مَنْ وارِثُه الأَحَدُ !

ويقال هان على العبد المسلم إذا مات إذا كان الحقُّ وارثَه . . وهذا مخلوق يقول فى صفة مخلوق :

فإنْ يكُ عتَّابٌ مضى لسبيله   فما مات من يبقى له مِثْلُ خالدِ

وقال تعالى : « ولا تحسبنَّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء »[4] لماذا ؟ لأَنَّ وارثَهم اللهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ واذْكُرْ فى الكتابِ ابراهيمَ إنَّه كان صِدِّيقًا نبيًّا ﴾

الصِدِّيق الكثير الصدق ، الذى لا يمازج صِدْقَه شوبٌ .

ويقال هو الصادق فى أقواله وأعماله وأحواله .

ويقال الصِدِّيق لا يناقِضُ سِرُّه عَلَنَه .

---

(١) آية ٥٩ سورة الشعراء .

(٢) آية ١٢٨ سورة الأعراف .

(٣) يقصد امة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

(٤) آية ١٦٨ سورة آل عمران .

ويقال هو الذى لا يشهد غيرَ الله مُثْبِتاً ولا نافياً .

ويقال هو المستجيب لِمَا يطالَب به جملةً وتفصيلاً .

ويقال هو الواقفُ مع اللهِ فى عموم الأوقات على حدِّ الصدق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قالَ لأبيه يا أبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عنكَ شيئاً ﴾ .

دلَّت الآيةُ على استحقاقِ المعبودِ الوصفَ بالسمع والبصرِ على الكمال دون نُقْصانٍ فيه ، وكذلك القول فى القدرة على الضَّرِّ والنفع .

وإذا رجع العبدُ إلى التحقيق عَلِمَ أن كلَّ الخَلْق لا تَصلُحُ قدرةُ واحدٍ منهم للإبداع والإحداث ، فمن عَلَّقَ قلبه بمخلوق ، أو توَهَّمَ شظية منه من النفى والإثبات فَقَدْ ضَاهَى عَبَدَةَ الأصنام .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أبَتِ إنِّى قد جاءنى مِنْ العِلْمِ ما لم يأتِكَ فاتَّبِعْنِي أهْدِكَ صِراطاً سوياً ﴾

أمَرَه باتباعه لمَّا ترجح عليه جانبُه فى كَوْنِ الحقِّ معه — وإنْ كان أكبرَ منه سِنّاً ، وبيَّن أن الخلاص فى اتباع أهل الحقِّ ، وأنَّ الهلاكَ فى الابتداع والتطوح فى مغاليط الطرق .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أبَتِ لا تَعْبُدْ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كان للرحمنِ عَصِيّاً ﴾ .

بيَّن أنَّ العلةَ فى منعه من عبادة الشيطان عصيانه للرحمن فبانَ أنه لا ينبغى أنْ تكون طاعةٌ لِمَنْ يَعْصِى اللهَ بحالٍ .

ويقال أساسُ الدِّين هِجْرانُ أربابِ العصيان .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أبت إنِّى أخافُ أنْ يَمَسَّكَ عذابٌ مِنَ الرحمنِ فتكونَ للشيطان وَلِيّاً ﴾

لم يغادِرْ الخليل شيئاً من الشفقة على أبيه ، ولم ينفعه جميل وعظه ، ولم تنجع فيه كثْرَةُ نُصْحه ، فإنَّ مَنْ أقْصَتْه سوابِقُ التقدير لم تُخَلِّصْه لواحقُ التدبير .

قوله جل ذكره : ﴿قال أراغِبٌ أنتَ عن آلهتي ياابراهيم﴾

منَّاه ابراهيمُ بجميل العُقْبَى ، فقابلَه بتوعُّد العقوبة فقال :

﴿لئنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهجُرْنى مَلِيًّا﴾ .

فأجابه الخليل بمقتضى سكون البصيرة فقال :

﴿قال سلامٌ عليكَ سأستَغْفِرُ لكَ ربى إنَّه كان بى حَفِيًّا﴾ .

وهذا قبل أن ييأسَ من إيمانه ، إذ كانت لديه بعدُ بقيةٌ من الرجاء فى شانه ، فلمَّا تحقق أنه مختومٌ له بالشقاوة قال له :

﴿وأعتزِلكُم وما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وأدْعُو ربى عَسَى ألاَّ أكونَ بِدُعاءِ ربى شَقِياً﴾ .

« ما تدعون » : أى ما تعبدون ، « وأدعو ربى » : أى أعبده .

قوله جل ذكره : ﴿فَلمَّا اعتزَلَهم وما يَعْبُدُون مِنْ دونِ اللهِ وَهبْناَ له إسحقَ ويعقوبَ وكلاًّ جعَلْنا نبياً﴾ .

لما أَيِسَ من أصلِه آنَسَه اللهُ بما أكرمه من نَسْلِه ، فأنبتهم نباتاً حسناً ، ورزقهم النبوةَ، ولسان الصدق بالذكر لهم على الدوام[1] فقال :

---

(١) وربما يشير القشيرى بذلك إلى : (الصلاة على ابراهيم وعلى آل ابراهيم) فى تشهد كل صلاة .

﴿ ووَهَبْنَا لهم مِنْ رَحْمَتِنَا وجَعَلْنَا لهم لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكُرْ فى الكتابِ موسى إنَّه كان مُخْلَصًا وكان رسولا نبيا ﴾

مُخْلَصًا خالصا لله ، ولم يكن لغيره بوجهٍ ، فلم تأخذه فى الله لومةُ لائم ، ولم يستفزه طمع نحو إيثار حظٍ ، ولم يُغْضِ فى اللهِ على شىءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وناديناه من جانبِ الطور الأيمن وقَرَّبْنَاه نجيًّا ﴾ .

للنجوى مزية على النداء ، فجمع له الوصفَيْن : النداء فى بدايته ، والسماعَ والنجوى فى نهايته ؛ فوقَفَه الحقُّ وناداه ، وفى جميع الحالين تولاّه .

« من جانب الطور » : ترجع إلى موسى فموسى كان بجانب الطور[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ووهبنا له أخاهُ هارون نبيًّا ﴾ .

من خصائص موسى أنه وهب له أخاه هارون نبيًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر فى الكتابِ اسماعيلَ إنَّه كان صادِقَ الوعدِ وكان رسولا نبياً * وكان يأمُرُ أهْلَه بالصلاةِ والزكاةِ وكان عند ربِّه مَرْضياً ﴾ .

كان صادق الوعد إذ وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه[2] ، وصبر على ذلك إلى أن ظهر الفِداء . وصدق الوعد لأنه حفظ العهد . وكان يأمر أهله بالصلاة — بأمر الله إياه — وبالزكاة ، ويشتمل هذا على ما أمره إياهم بالعبادة البدنية والمالية حينما وكيفما كان .

---

(١) بهذا يتجنب القشيرى مزلقاً خطراً فلا يكون النداء الإلهى من جهة . وعلى هذا تكون (وقربناه) تقريب مكانة لا مكان .

(٢) من هذه الاشارة نعرف أن القشيرى يرى أن اسماعيل — لا إسحاق — هو مدار قصة الذبح والفداء .

« وكان عند ربه مرضيا » وكان هذا أشرفَ خصاله وأجلَّ صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر فى الكتاب إدريس إنّه كان صِدِّيقاً نبيًّا * ورفعناه مكاناً عَلِيًّا ﴾ .

الصدِّيق كثير الصدق ، لا يشوب صدقه مَذْقٌ[1] ، ويكون قائما بالحقّ للحق ، ولا يكون فيه نَفَسٌ لغير الله .

« ورفعناه مكانا عليا » : درجة عظيمة فى التربية لم يُساوِه فيها أحَدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين أنْعَمَ اللهُ عليهم من النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ومِمَّنْ حَمَلْنا مع نوحٍ ومِنْ ذُرِّيَّةِ إبرهيمَ وإسرائيلَ ومِمَّنْ هَدَيْنا واجْتَبَيْنا إذا تُتْلَى عليهم آياتُ الرحمن خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا ﴾

أقامهم بشواهد الجمع ، وأخبر أن مِنَّته كامِنَةٌ فى تخصيصهم بأحوالهم ، وتأهيلهم لِماَ رقَّاهم إليه من المآل ، وأنه بفضله اختارهم واجتباهم . ومما أنعم به عليهم من الخصائص رِقَّةُ قلوبهم ؛ فهم إذا تُتلَى عليهم الآياتُ سجدوا ، وسجودُ ظواهرِهم يدل على سجودِ سرائرهم بما حقَّقَ لهم من شواهد الجمع ، وأمارة صحته ما وفقهم إليه من عين الفرق ؛ فبوصف التفرقة قاموا بحق آداب العبودية ، وبِنَعت الجمع تحققوا بحقائق الربوبية[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهم خَلْفٌ أضاعوا

---

(١) مَذَقَ اللبن والشراب بالماء مَذْقاً اى، مَزَجَه وخَلَطَه ، ومذق الود اى شابه ولم يُخْلِصْه .

(٢) هذا من أشد البراهين نصاعة على تمسك القشيرى بالشريعة ؛ فإن صدق العبد فى التوجه أمارته ان يكون محفوظاً — من قِبَل الحق — كى يؤدى فرائض الشرع .

الصلاةَ واتَّبعُوا الشهواتِ فسوف
يَلْقَوْن غيًّا ﴾

الذين حادوا عن طريقهم ، وضيَّعوا حقَّ الشرع ، وتخطوا واجبَ الأمر ، وزاغوا عن طريق الرشد ، وأخلوا بآداب الشرع ، وانخرطوا فى سِلكِ متابعة الشهوات — سيلقون عن قريبٍ ما يستوجبونه ، ويُعامَلون بما يستحقونه .

قوله جل ذكره : ﴿ إلاَّ مَنْ تاب وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً
فأولئك يدخلون الجنةَ ولا يُظْلَمون
شيئاً * جنَّاتِ عَدْنٍ التى وَعَدَ الرحمنُ
عِبادَه بالغيبِ إنَّه كان وَعْدُه مَأْتِيًّا
* لا يَسْمَعونَ فيها لَغْواً إلا سَلاَماً ﴾

فأولئك الذين تداركتْهم الرحمةُ الأزليةُ ، وسيبقون فى النعم السرمدية . يستنجز الحقُّ لهم عِداتِهم ، ويُوَصِّلُهم إلى درجاتِهم ، ويُحَقِّق لهم ما وعدهم .

« إنه كان وعده مأتيا » : لأن ما أُتيتَه فقد أتاك أو ما أَتاكَ فقد أتيته[1] .

« لا يسمعون فيها لغواً » : فإن أسماعَهم مصونةٌ عن سماعِ الأغيارِ ، لا يسمعون إلا من اللهِ وبالله ، فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولهم رِزْقُهُم فيها بُكرةً وعَشِيًّا ﴾

كانوا يعدون مَنْ عنده طعام البكرة والعشية مِنْ جملة المياسيرِ والأغنياءِ لكونهم فقراء ، إنْ وجدوا غداءهم ففى الغالب يَعْدِمُون عشاءهم ، وإنْ وجدوا عشاءهم فَقَلَّما كانوا يجدون غداءهم . ويقال فى « لهم ما يشتهون فيها » : بمقدار الغدو والعشى من الزمان فى الجنة أى كالوقت . ثم إن الأرزاق تختلف فى الجنة ؛ فللأشباحِ رِزْقٌ من مطعومٍ ومشروب ، وللأرواحِ رزقٌ من سماعٍ وشهود ، ولكلٍ — على قَدْرِ استحقاقه — قِسْطٌ معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك الجنَّةُ التى نُورِثُ مِنْ عِبادِنا
مَنْ كان تَقِيًّا ﴾

---

(1) أى أن (مأتيا) إما اسم مفعول ، أو اسم مفعول بمعنى اسم الفاعل مثل مجروح وجريح .

فالجنةُ للأتقياء من هذه الأمة مُعَدَّةٌ لهم ، والرحمةُ لعصاةِ المسلمين مُدَّخرةٌ لهم ، الجنةُ لُطفٌ من الله تعالى ، والرحمةُ وَصفٌ لله تعالى . وقوله : « من عبادنا » : فَعَبْدُه على الخصوصية مَنْ كان اليومَ فى قيد أمره . وقوله : « من كان تقيا » : قوم يتقون المعاصى والمخالفات ، وقوم يتقون الشهواتِ ، وآخرون يتقون الغفلاتِ ، وآخرون يتقون شهودَ كُلِّ غير .

قوله جل ذكره : ﴿ وما نتنزَّلُ إلا بأمْرِ ربِّك له ما بين أيْدِينا وما خَلْفَنا وما بين ذلك وما كان ربُّك نَسِيًّا ﴾

إن الملائكةَ — عليهم السلام — أبداً يَنْزِلون بإذنِ الحقِّ تعالى ، فبعضهم بإنجاد المظلومين ، وبعضهم بإغاثة الملهوفين ، وبعضهم بتدمير الجاحدين ، وبعضهم بنصرة المؤمنين ، وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمور الناس أجمعين . واللهُ — سبحانه — لا يترك جاحداً ولا عابداً من حِفظٍ وإنعامٍ ، أو إمهالٍ ونَكالٍ . . .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما فاعْبُدْه واصْطَبِرْ لِعبادَتِه هل تَعْلَمُ له سَمِيًّا ﴾

بحق الإظهار يجب أن يكون هو ربَّها ، ويكون مالكها ، ويكون قادراً عليها .

وإذا وجدت فهو فاعلها ، فمعنى كون فعل الشىء لفاعله أنه فى مقدوره وُجوده .

ويقال إذا كان ربَّ الأكابرِ من الأقوياء فهو أيضاً ربُّ الأصاغر من الضعفاء ، وقيمةُ العَبْدِ بمالِكه وقَدْرِه[1] ، لا بثمنه فى نَفْسِه وَخَطَرِه .

قوله : « فاعبده » أى قِفْ حيثما أمرك ، ودَعْ ما يقع لك ، وخَلِّ رأيك وتدبيرك .

قوله : « واصطبر لعبادته » : الاصطبار غاية الصبر .

قوله : « هل تعلم له سميا » : أى كفوا ونظيراً . ويقال هل تعرف أحداً يسمى « الله » غيرَ اللهِ ؟ ويقال أنَّى بالنظير . . . وهو بالقِدَمِ متوحد ! والتشبيه يقتضى التسوية بين المتشابهين ، ولا مثْلَ له . . لا موجوداً ولا موهوماً .

---

(١) أى قدر هذا المالك

قوله جل ذكره : ﴿ ويقول الإنسانُ أئذا مامِتُّ لسوف أُخْرَجُ حيًّا * أو لا يذكر الإنسانُ أنَّا خَلَقْناه من قَبْلُ ولم يَكُ شيئا ﴾

أنكروا حديثَ البعثِ غاية الإنكار ، فأقام الحجّةَ عليهم بالنشأة الأولى ؛ فقال : إن الذى قدر على خَلْقِ الخَلْقِ فى الابتداء وهم نُطَفٌ ضعفاء ، وقَبْلُ كانوا فى أصلاب الآباءِ وأرحامِ الأمهاتِ ففَطَرَهم ، وعلى ما شاء صَوَّرَهم ، وفى الوقت الذى أراد — عن[1] بطون أمهاتهم أَخْرَجَهم .

قوله : « ولم يك شيئاً » فيه دليل على صحة أهل البصائر أنّ المعدومَ لم يك شيئاً فى حال عَدَمِه[2] .

ويقال أبطل لهم كلَّ دعوى حيث ذَكَّرَهم نَسَبَهم وكَوْنَهم مِنَ العَدَمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهم والشياطينَ ثم لَنُحْضِرَنَّهم حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾

نحشرهم جميعاً فيجتمعون فى العَرْصَةِ[3] . ثم يختلف مُنْقَلَبُهم ؛ فيصير قومٌ إلى النار ثم إلى دَرَكاتٍ بعضها أسفل من بعض — واسمُ جهنم يجمع أماكنهم . ويصير قومٌ إلى الجنة ثم هى دَرَجاتٌ بعضها أعلى رتبةً ودرجةً من بعض — واسمُ الجنة يشتمل على جميع مساكنهم .

ويقال التفاوتُ فى الجنةِ بين الدرجاتِ أكثرُ من التفاوت بين أهل الدارين .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم لَنَنْزِعَنَّ من كل شِيعَةٍ أيُّهم أشَدُّ على الرحمن عِتِيًّا ﴾

---

(١) الأصوب أن تكون (من) كما ورد فى الآية ٧٨ سورة النحل : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » .

(٢) وفيه ردٌّ على القائلين بأن المادة لاتستحدث .

(٣) العرصة = ساحة الدار أو صفيحة من الحديد توضع فى التنور لينضج عليها الخبز وغيره (الوسيط) .

مَنْ تَقَدَّمَ عليهم فى الإضلال والضلال ضوعف عليه غداً العذاب والأغلال .

﴿ ثم لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هم أَوْلَى بها صِلِيًّا ﴾ .

ينزل فى كل دَرَكَةٍ من دركاتها من هو أهل لها ، فمن كان عتوُّه اليومَ أشدَّ غلوا كان فى النار أبعدَ من الله وأشدَّ عقوبةً وإذلالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن منكم إلا وَارِدُها كان على رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ﴾

كلٌّ يَرِدُ النارَ ولكن لا ضيْرَ منها ولا احتباسَ بها لأحدٍ إلا بمقدار ما عليه من (...)[1] والزلل ؛ فأشدُّهم انهماكاً أشدهم بالنار اشتعالاً واحتراقاً . وقوم يردونها — كما فى الخبر : « إن للنار عند مرورهم عليها إذوابةً كإذوابةِ اللَّبَن ، فيدخلونها ولا يحسون بها ، فإذا عبروها قالوا : أوليس وعدنا جهنم على طريق ؟ فيقال لهم . عبرتم وما شعرتم[2] !

قوله جل ذكره : ﴿ ثم نُنَجِّى الذين اتَّقَوْا ونَذَرُ الظالمين فيها جِثِيًّا ﴾

يُنَجِّى مَنْ كان مؤمناً ، بعضهم قَبْلَ بعض ، وبعضهم بَعْدَ بعض ، ولكن لا يبقى من

---

(١) مشتبهة وهى في الرسم هكذا (الالتبات) وربما كانت فى الأصل (الالتباس) أى الوقوع فى (اللبس) والالتباس مناسبٌ (للزلل) .

(٢) الإذوابة : الزبد حين يوضع فى البرمة ليذاب (مقاييس اللغة لابن فارس ج ٢ ص ٣٦٢) .

وعن جابر أنه عليه السلام سئل عن ذلك فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار ؟ فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة (القاضى البيضاوى ط الحبشال بجدة) ص ٤١٠ .

وعن جابر أيضاً ، الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم » [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١١ ص ١٣٦ سلسلة التراث] .

وعن الحسن « ليس الورود الدخول ، إنما تقول وردت البصرة ولم أدخلها ؛ فالورود أن يمروا على الصراط « وقد استند كثير إلى رأى الحسن واحتجوا بقوله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها .

المؤمنين مَنْ لا ينجيهم . ويترك الكفار فيها بنعت الخيبة عن الخروج منها ، وعند ذلك يشتدُّ عليهم البلاء ، وتُطْبِقُ عليهم أبوابُ جهنم ، وينقطع منهم الرجاء والأمل .

وإنما ينجو القوم بحسب تقواهم ؛ فزيادة التقوى توجب لهم التعجيل فى النجاة ؛ فمن سابقٍ ومن لاحقٍ ، ومن منقطع ، ومن محترق . . إلى كثيرٍ من الأصناف والألوان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيناتٍ قال الذين كَفَرُوا للذين آمَنُوا أىُّ الفريقين خَيْرٌ مقاماً وأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾

يعنى إذا قُرِئَتْ عليهم آياتُ القرآن قابلوها بالردِّ والجحد والعتو والزيغ ، ويَدَّعُون أنهم على حقٍ ، ولا يعتمدون فى ذلك إلا على الحَدْسِ والظَّنِّ .

قوله جل ذكره ﴿ وكم أَهْلَكنا قَبْلَهُمْ من قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أثاثا ورِئْياً ﴾

أى إن هؤلاء ينخرطون فى سِلْكِ مَنْ تَقَدَّمهم ، كما سلكوا فى الريب مناهجهم ، وسَيَلْقَوْن ما يستوجبونه على سوء أعمالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ[1] مَنْ كان فى الضلالةِ فَلْيَمْدُدْ له الرحمنُ مَدّاً حتى إذا رَأَوْا مايُوعَدُون إمَّا العذابَ وإمَّا الساعةَ فَسَيَعْلَمون مَنْ هو شَرٌّ مَكاناً وأَضْعَفُ جُنْدا ﴾

إن الله تعالى يُمْهِلُ الكفارَ ليركنوا إلى أباطيل ظنونهم ، ويَغْترُّوا بسلامةِ أحوالهم ، فينسونه فى غفلة الإمهال والاغترار بسلامة أحوالهم ، ثم يغشاهم التقدير بما يستوجب حسبانهم قوله « حتى إذا رأوا ما يوعدون . . . » أى يحل بهم موعودُ العقوبة عاجلاً أو قيام

---

(١) سقطت (قل) من الناسخ فأثبتناها .

الساعة[1] آجلاً ، فعند ذلك يتضح لهم ما تعامَوْا عنهُ من شدة الانتقام ، وسيعلمون عند ذلك ما فاتهم وما أصابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويزيدُ اللهُ الذين اهتدَوْا هُدىً ﴾

أى يُغْنيهم بنور البدر عن الاستضاءة بنور النجم ، ثم بطلوع الفجر قبل طلوع الشمس ، فإذا متَعَ نهارُ العرفانِ فلا ظلمة ولا تهمة .

﴿ والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ
عِنْدَ ربِّكَ ثواباً وخيرٌ مَرَدّاً ﴾

« الباقياتُ الصالحات » : الشهادةُ بالربوبيةِ خيرٌ من غيرها مما لا يوجد فيه صدق الإخلاص .

ويقال « الباقيات الصالحات » : التى تبقى عند الله مقبولة .

قوله تعالى : « خير » لأن فى استحقاقِ القبول زيادةً للهدى ؛ فيصير عِلْمُ اليقين عينَ اليقين ، وعينُ يقينهم حَقَّ اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ أفَرَأَيْتَ الذى كَفَرَ بآياتِنا وقال
لأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً ﴾

أَخْبِرْ بقصة ذلك الكافر[2] الذى قال بيمين — من غير حجة — لأُعطَيَنَّ مالاً وولداً ، ورأى أن يكون ليمينه تصديق ، فهل هو :

﴿ أَطَّلَعَ الغيبَ أم اتَّخَذَ عِنْدَ
الرحمن عهداً ؟ ﴾

---

(١) وردت (السرعة) والصواب أن تكون (الساعة) فهكذا الآية .

(٢) عن الحسن : أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة . والمشهور انها فى العاص بن وائل فقد روى ان خباب ابن الأرت صاغ للعاصى حليا فاقتضاه الأجر فقال : إنكم تزعمون انكم تبعثون وان فى الجنة ذهباً وفضة فأنا اقضيك ثم فإنى اوتى مالا وولداً حينئذٍ !

وقد ذكر الواحدى ثلاث روايات تؤيد ذلك عن مسروق وعن الكلبى وعن مقاتل . (أسباب النزول ط مؤسسة الحلبى) ص ٢٠٤ .

ورواه البخارى عن الحميدى عن سفيان ، ورواه مسلم عن الأعمش .

هل يقول ما يقول بتعريفٍ منا؟ أم هل اتخذ مع الله عهداً؟ ليس الأمر كذلك.

ودليل الخطاب يقتضى أن المؤمن إذا ظن بالله تعالى ظناً جميلاً، أو أمَّلَ منه أشياء كثيرة فالله تعالى يحققها له، ويَصْدُقُ ظنُّه لأنه على عهد مع الله تعالى، والله تعالى لا يخلف عهده.

قوله جل ذكره: ﴿كلا سَنَكْتُبُ ما يقولُ ونَمُدُّ له من العذابِ مَدًّا * ونَرِثُه ما يقولُ ويأتينا فرداً﴾

كلا.. ليس الأمر على ما يقول، وليس لقولهم تحقيق، بل سنمد لهم من العذاب مداً أى سنطيل فى العذاب مدتهم..

«ونرثه ما يقول...» لن نُمَتِّعَه بأولاده وحَشَمِه وخَدَمِه وقَوْمه، ويعود إلينا منفرداً عنهم.

قوله جل ذكر: ﴿واتخذوا مِنْ دونِ اللهِ آلِهةً ليكونوا لهم عِزّاً * كلا سَيَكْفرون بعبادَتِهم ويكونون عليهم ضِدّاً﴾

حكموا بظنهم الفاسدِ أنَّ أصنامَهم تنفعهم، وأنَّ ما عبدوه من دون الله تعالى توجِبُ عبادتهم لهم عند الله تعالى وسيلةً.. وهيهات! هيهات أن تكون لمغاليط حسبانهم تحقيق، بل إذا حُشِرُوا وحُشِرَتْ أصنامُهم تبرَّأتْ أصنامُهم منهم، وما أمَّلُوا نفعًا منها عاد ضرراً عليهم.

ويقال طلبوا العِزَّ فى أماكن الذل، فأخفقوا فى الطلب، ونُفُوا عن المراد.

قوله جل ذكره: ﴿ألم تَرَ أنَّا أرْسَلْنا الشياطينَ على الكافرين تَؤُزُّهم أزّاً﴾

تؤزهم أى تزعجهم، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وغُمَّة، وخاطر الحقِّ يكون بَرَوْحٍ وسكينة، وهذه إحدى الدلائل بينهما.

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً ﴾

الأنفاس فى الحكم معدودة ؛ فمن لم يستوف فلا انقضاء لها . وإذا انتهى الأجلُ فلا تنفع بعد ذلك الحِيَلُ ، وقبل انقضائه لا يزيد ولا ينقص بالعلل .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾

قيل ركبانا على نجائب طاعاتهم ، وهم مختلفون ؛ فمِنْ راكبٍ على صدور طاعاته ، ومن راكبٍ على مراكب هِمَمِهِ ، ومن راكبٍ على نجائب أنواره . ومِنْ محمولٍ يحمله الحقُّ فى عقباه كما يحمله اليومَ فى دنياه . وليس محمولُ الحقِّ كمحمول الخلْق !

قوله جل ذكره ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾

فأولئك يُساقون بوصف العِزِّ ، وهؤلاء يُساقون بنعت الذُّلِّ ، فيجمعهم فى السَّوْقِ ، ولكن يُغَايِر بينهم فى معانيه .. فشتَّان ما هما !!

قوله جل ذكره : ﴿ لا يَمْلِكُون الشفاعةَ إلاَّ مَنْ اتَّخَذَ عند الرحمنِ عَهْداً ﴾

وذلك العهدُ حِفْظُهم فى دنياهم ما أُخِذَ عليهم — يومَ الميثاق — من القيام بالشهادة بوحدانية مولاهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا اتَّخَذَ الرحمنُ وَلَداً * لقد جِئْتُم شيئاً إِدّاً * تَكَادُ السمواتُ يتَفَطَّرْنَ منه وتَنْشَقُ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هدّاً * أَنْ دَعَوْا للرحمنِ وَلَداً ﴾

ما أعظم بهتانَهم فى مقالتهم ! وما أشدَّ جرأتهم فى قبيح حالتهم ! لكنَّ الصمديةَ متقدِّسةٌ عن عائدٍ يعود إليها من زَيْنٍ بتوحيدِ مُوَحِّد ، أو شَيْنٍ بإلحاد مُلْحِد ... فما شاهت إلَّا وجوهُهم بما خاضوا فيه من مقالهم ، وما صاروا إليه من ضلالهم . كما لم يتجمَّلْ بما قاله الآخرون إلا القائل ، وما عاد إلا على القائل مقابلٌ من عاجلٍ أو آجل .

قوله جل ذكره: ﴿ وما ينبغي للرحمن أَنْ يتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كلُّ مَنْ في السموات والأَرض إلا آتي الرحمنِ عَبْدًا * لقد أحصاهم وعَدَّهم عَدًّا * وكُلهم آتيه يومَ القيامةِ فَرْدًا ﴾

أنَّى بالولد وهو واحد ؟! وأنَّى بالولادة ولا جنسَ له وجوباً[1] ولا جوازاً ؟!

« لقد أحصاهم . . » : لا يَعْزُب عن عِلْمِهِ معلومٌ ، ولا ينفكُّ عن قدرته — مما يصح أن يقال حدوثه — موهوم .

« وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » : لا خَدَمَ يصحبهم ، ولا حَشَمَ يلحقهم ، كلٌّ بِنفْسِه مشتغِلٌ ، وعن غيره منفرد .

قوله جل ذكره: ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ سيجعلُ لهم الرحمن وُدًّا ﴾

يجعل في قلوبهم وداً لله نتيجةً لأعمالهم الخالصة ، وفي الخبر : « لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى يحبني وأحبه »[2] .

ويقال يجعل لهم الرحمن وداً في قلوب عباده ، وفي قلوب الملائكة ، فأهل الخير والطاعة محبوبون مِنْ كلِّ أحد من غير استحقاق بفعل[3] .

---

(١) وردت (وجوداً) والأرجح ان تكون (وجوباً) لتتلاءم مع (جوازا) اى لايجب عليه ولا يجوز في وصفه — لتقدسه وتنزهه — ان يكون له جنس .

(٢) (... فإذا احببته كنت عينه التي يبصر بها ، وسمعه الذي يسمع به ، ويده التي يبطش بها) وهو حديث قدسيّ رواه البخاري عن ابي هريرة ، واحمد عن عائشة ، والطبراني في الكبير عن ابي امامة ، وابن السني عن ميمون ، وقد اخطأ من زعم ان البخاري انفرد بروايته .

(٣) اخرج مسلم والترمذي عن ابي هريرة ان النبي (ص) قال إذا احب الله عبداً نادى جبريل ؛ إني قد احببت فلاناً فأحبه ، فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في الأرض . . وذلك قوله تعالى : « سيجعل لهم الرحمن وداً » .
السيوطي في إتقانه ص ١٩٩ جـ ٢ ط مصطفى الحلبي .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنما[1] يَسَّرْناه بلسانك لتُبشِّرَ به المتقين وتُنْذِرَ به قوماً لُدّاً ﴾

الكلام واحد والخطاب واحد ، وهو لقوم تيسير ، ولآخرين تخويف وتحذير . فطوبى لِمَنْ يُسِّر لما وفِّق به ، والويل لمن خُوِّف بل خُذِلَ فيه . والقومُ بين موفقٍ ومَخْذُولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكَمْ أهْلَكْنا قَبْلَهم من قَرْنٍ هل تُحِسُّ منهم منْ أحَدٍ أو تَسْمَعُ لهم رِكْزاً ﴾ .

أثبتهم وأحياهم ، وعلى ما شاء فطرهم وأبقاهم ، ثم بعد ذلك — لما شاء — أماتهم وأفناهم ، فبادوا بأجمعهم ، وهلكوا عن آخرهم ، فلا كبير منهم ولا صغير ، ولا جليل ولا حقير ، وسَيُطَالَبُونَ — يومَ النشور — بالنقير والقطمير .

سورة طه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله اسم عزيز مَنْ تحقَّق بجلالِ عِزَّته تمحض[2] فى خلوصِ عبوديته ، وإذا وصل إلى ضياء صفوته نزل عن سماء نعوته .

اسم عزيز مَنْ عرفه سَمَتْ هِمَّتُه ، وإذا سمت همته سقطت عن الدارين طِلْبتُه .

اسم مَنْ عَرَفَه زال كَرْبُه وطابَ قلبُه ، دِينُه ربُّه[3] وجنّتُه حُبُّه .

اسم عزيز من وَسَمَه بعبوديته حَرَّرَه من رِقِّ شهواته ، وأعتقه من أسْرِ مَطَالِبه ، فلا له لمحبوبٍ طلبٌ ، ولا يستفزُّه لمحذورٍ هربٌ .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها (وإنما)

(٢) المحض = اللبن الخالص ، وتمحض = خلص من الشوائب .

(٣) أى عبادته لربه لذاته ، لا طلباً لثواب ولا خوفاً من عقاب كما هو الشأن فى العبادة التقليدية .

قولهُ جل ذكره : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لِتشقى ﴾

الطاء إشارة إلى قلبه — عليه السلام — من غير الله ، والهاء إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله .

وقيل طَأْ بِسرِّك بساطَ القربة فأنتَ لا تهتدى إلى غيرنا .

ويقال طوينا عن سرِّك ذِكْرَ غيرنا ، وهديناك إلينا .

ويقال طوبى لمن اهتدى بك . ويقال طاب عيشُ مَنْ اهتدى بك .

« ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » : أى ليس المقصود من إيجابنا إليك تعبدك ، وإنما هذا استفتاحُ الوُصلة ، والتمهيد لبساط القُرْبَة .

ويقال إنه لما قال له : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم »[1] وقف بِفَرْدِ قدم تباعدا وتنزهاً عن أن يقرب من الدنيا استمتاعاً بها بوجهٍ فقيل له : طأ الأرض بقدميك .. لِمَ كل هذا التعب الذى تتحمله ؟ فزاد فى تعبده ، ووقف ، حتى تقدمت قدماه[2] وقال : « أفلا أكون عبدا شكورا » أى لما أهلني من التوفيق حتى أعبده .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا تَذْكِرةً لِمَنْ يَخْشى ﴾

فالقرآنُ تَبْصِرةٌ لذوى العقول ، تذكرة لذوى الوصول ، فهؤلاء به يستبصرون فينالون به راحةَ النَّفْسِ فى آجِلِهم ، وهؤلاء به يذكرون فيجدون رَوْحَ الأُنْسِ فى عاجِلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأرضَ والسموات العُلَى ﴾

---

(١) آية ٨٨ سورة الحجر .

(٢) نرجح انها (تورمت قدماه) لأن السياق يذكرنا بالحديث :

[انه كان يصلى حتى تورمت قدماه فقيل له : يارسول الله « أليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً] الشيخان ، والنسائى . والترمذى عن المغيرة بن شعبة .

(وسيعود القشيرى إلى فكرة « طأ بقدميك الأرض .. » فى آخر السورة عند تفسير آية : « ولا تمدن عينيك .. آية ١٣١) .

جَعَلَ الأرض قراراً لِعبادِهِ . و نفوسُ العابدين أرضٌ و قرارٌ لطاعتهم ، وقلوبُ العارفين قرارٌ لمعارفهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الرحمٰنُ على العرشِ استوَى ﴾

استواء عَرْشِه في السماء معلوم ، وعَرْشه في الأرض قلوبُ أهل التوحيد .

قال تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم ثمانية »[1] وعرش القلوب : قال تعالى : « وحملناهم في البر والبحر »[2] . أمَّا عرش السماء فالرحمن عليه استوى ، وعرشُ القلوبِ الرحمنُ عليه استولى . عرشُ السماءِ قِبْلَةُ دعاءِ الخَلْق ، وعرشُ القلبِ مَحَلُّ نظَرِ الحق . . فشتَّان بين عرشٍ وعرش !

قوله جل ذكره . ﴿ له ما في السمواتِ وما في الأرضِ وما بينهما وما تحت الثَّرى ﴾

له الأشياء على العموم مِلْكاً ، والأولياء تخصيصاً وتشريفاً . له ما بين السموات والأرض مما أظهر من العَدَم ؛ فالكلُّ له إثباتاً وخَلْقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ تَجْهَرْ بالقولِ فإنه يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى ﴾

النَّفْسُ لا تقف على ما في القلب ، والقلبُ لا يقف على أسرار الرُّوح ، والروح لا سبيل له إلى حقائق السرِّ . والذي هو أخفى من السِّرِّ فهو ما لا يَطَّلِعُ عليه إلا الحق[3] .

ويقال الذي هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان ، ولا يكتبه المَلَكَانِ ، ويستأثِرُ بعِلْمه الجبَّارُ ، ولا تقف عليه الأغيار .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ لا إلٰهَ إلَّا هُوَ له الأسماء الحُسنى ﴾

---

(1) آية ١٧ سورة الحاقة .

(2) آية ٧٠ سورة الإسراء .

(3) يسميه القشيري في مواضع أخرى من مصنفاته (سر السر) أو (عين السر) الرسالة ص ٤٨

نَفَى كل موهوم من الحدثان بأن يكونَ شىء منه صالحا للإبداع ، وأثبت كُلَّ ما فى الوجود له باستحقاق القِدَم .

« له الأسمـاء الحسنى » أى صفاته ، على انقسامها إلى صفة ذات وصفة معنى [1] .

ويقال « له الأسماء الحسنى » : تعريفٌ للخَلْق بأنَّ استحقاقَ العلو والتقدُّس عن النقائص له على وصف التفرُّد به .

قوله جل ذكره ﴿ وهل أتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾

سؤال فى صيغة الاستفهام والمراد منه التقرير [2] والإثبات . وأجرى — تعالى — سُنَّتَهَ فى كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام فى أكثر المواقع التى يذكر فيها حديث نبينا صلى الله عليه وسلم ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام .

﴿ إذرأى ناراً فقال لِأهلِهِ امكثُوا
إنِّى آنَسْتُ ناراً لَعلِّى آتيكم مِنْها
بقَبَسٍ أو أجِدُ على النارِ هُدَىً ﴾

ألاح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها ، وكان المقصودُ إخراجَه من بينهم ، فكان موسى عليه السلام يدنو والنار تنأى ، وقال لأهلِهِ :

« امكثوا إنى آنست ناراً » فقال أهلُه : كيف تتركنا والوادى مسبع ؟

فقال : لأجلِكُم أفارقكم ؛ فلَعَلِّى آتيكم من هذه النار بقبس .

ويقال استولى على موسى عند رؤيته النار الانزعاجُ ، فلم يتمالك حتى خرج . ففى القصة أنه لما أتاها وَجَدَ شجرةً تشتعل من أولها إلى آخرها ، فجمع موسى — عليه السلام — حشائشَ ليأخذ من تلك النار ، فعرف أن هذه النار لا تسمح نَفْسُها بأَنْ تُعْطِىَ إلى أحدٍ شعلة :

---

(١) الأرجح — حسب الذى ذكره القشيرى فى كتابه التحبير فى التذكير — أنها (. وصفه فعل) .
(٢) وردت (التقدير) والصواب أن تكون (التقرير) فهذا هو المصطلح البلاغى الذى يطلق على مثل هذا الاستفهام .

وقُلْنَ لنــا نحن الأَهِلَّةُ إنما نضىءُ لِمَنْ يَسْرِى بليلٍ ولا نُقْرِى

يا موسى هذه النارُ تضىء ولـكن لا تعطى لأحدٍ منها شعلة . يا موسى هذه النارُ تحرق القلوبَ لا النفوس .

ويقال كان موسى عليه السلام فى مزاولة قَبسٍ من النار فـكان يحتال كيف يأخذ منها شيئاً ، فبينما هو فى حالته إذ سمع النداء من الحقِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا أتاها نُودِى ياموسى * إنِّى أنا ربُّكَ فاخلَعْ نَعْلَيْكَ إنَّكَ بالوادى المُقَدَّسِ طُوَىً ﴾

علم موسى أنه كلامُ الحق — سبحانه — لمَّا سَمِعَ فيه الترتيبَ والتنظيمَ والتركيب ، فعَلِمَ أنه خطاب الحق .

ويقال إنما عرف موسى — عليه السلام — أنه كلامُ الله بتعريفِ خصَّه الحق — سبحانه — به من حيث الإلهام دون نوعٍ من الاستدلال .

« قوله : « فاخلع نعليك . . » فإن بِسَاطَ حضرةِ الملوكِ لا يُوطَأُ بنَعْلٍ .

ويقال ألقِ عصاك يا موسى ، واخلع نعليك ، وأَقِمْ عندنا هذه الليلةَ ولا تَبْرَحْ .

ويقال الإشارة في الأمر بخلع النعلين تفريغ القلب من حديث الدارَيْن ، والتجرد للحقِّ بنعت الانفراد .

ويقال «اخلع نعليك» : تَبَرَّأْ عن نَوْعَىْ أفعالك[1] ، وامْحُ عن الشهود جِنْسَىْ أحوالِك من قربٍ وبُعْدٍ ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ ، وارتياح واجتياح ، وفناء وبقاء . . وكُنْ بوصفنا ؛ فإنما أنت بحقنا .

أَثْبَتَه فى أحواله حتى كان كالمجرد عن جملته ، المُصْطَلَم عن شواهده .

---

(١) ربما حدث سقوط ، فالكلام يحتاج إلى توضيح (نوعى أفعالك) قياساً على ما ذكر فى (جنسى أحوالك) ونرجح أن نوعى الفعل هما الأمر والنهى ، أو المأمور به والمزجور عنه . . أو ما فى هذا المعنى .

قوله : « إنك بالوادى المقدس طوى » : أى إنك بالوادى المقدس عن الأعلال ؛ وساحاتُ الصمدية تَجِلُّ عن كل شَيْن ، وإيمانٍ وزَيْن ؛ عن زَيْنٍ بإحسان وشَيْنٍ بعصيان ؛ لأنَّ للربوبية سطَاَوَاتِ عِزٍّ تقهر كل شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنا اخْتَرْتُكَ فاستمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾

وعلى علمٍ منى بك اصطفيتُك ، وجرَّدْتُكَ ونَقَّيْتُكَ عن دَنَسِ الأوهام وكلِّ ما يُكَدِّرُ صفوَكَ .

ويقال بعدما اخترتُك فأنت لى وبى ، وأنت محو فى فنائك عنك .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّنى أنا اللهُ لا إلهَ إلَّا أنا فاعبُدْنى﴾

تقدَّستُ عن الأعلال فى أزلى ، وتنزهت (. . . . . .)[1] والأشكال باستحقاق جلالى وجمالى .

ويقال « لا إله إلا أنا » : الأغيارُ فى وجودى فَقْدٌ ، والرسومُ والأطلالُ عند ثبوتِ حَقِّى محوٌ .

قوله : « فاعبدنى » : أى تَذَلَّلْ لِحُكْمى ، وأنفِذْ أمرى ، واخضعْ لجبروتِ سلطانى .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقِمْ الصلاة لِذِكْرِى ﴾

إقامتُها من غير ملاحظة مُجْرِيها ومنْشِيها يُورِثُ الإعجاب . وإذا أقام العبدُ صلاتَه على نعت الشهود والتحقق بأن مجريها غيره[2] كانت الصلاة بهذا فتحاً لباب المواصلة ، والوقوف على محل النجوى ، والتحقق بخصائص القرب والزلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الساعةَ آتِيَةٌ أكادُ أُخفِيها لتُجْزَى كلُّ نَفْسٍ بما تَسْعَى ﴾

الفائدة فى تعريف العبادِ بِقُرْبِ الساعةِ أن يستفيقوا من غفلات التفرقة ، فإذا حضروا

---

(١) حدث هنا طمس أفقدنا بقية الجملة ، وربما كانت (عن الأمثال) .

(٢) الضمير فى (غيره) يعود على العبد والمقصود أن يتحقق العبد بأن الرب هو الذى يجرى عليه تعبده .

بقلوبهم ـ فنى حال استدامة الذكر ـ فما هو موعودٌ فى الآجل أكثره للحاضرين موجودٌ فى العاجل ؛ والحاضرة لهم كالآخرة . وكذلك جعلوا من أمارات الاستقامة شهودَ الوقتِ قيامة[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا يَصُدَّنَّكَ عنها مَنْ لا يؤمِنُ بها واتَّبَعَ هواه فَتَرْدَى ﴾

إذا أكرمه اللهُ بحُسْنِ التنبيه ، وأحضره بنعت الشهود فلا ينبغى أن ينزل عن سماء صفاته إلى جحيم أهل الغفلة فى تطوحهم فى أودية التفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما تِلْكَ بيمينِكَ يا موسى ﴾

كرَّرَ عليه السؤالَ فى غير آية عن عصاه لمَّا كان المعلوم له سبحانه فيها من إظهاره فيها عظيم المعجزة .

ويقال إنما قال ذلك لأنه صَحِبَتْهُ هيبةُ المقام عند فَجْأةِ سماعِ الخطاب ؛ فَلِيُسَكِّنَ بعضَ ما به من بَوَادِهِ الإجلال . . رَدَّهُ إلى سماعِ حديث العصا ، وأراه ما فيها من الآيات .

ويقال لو تركه على ما كان عليه من غَلَبَاتِ الهيبة لعلَّه كان لا يعى ولا يطيق ذلك . . فقال له : وما تلك بيمينك يا موسى ؟

﴿ قال هى عَصَاىَ أتوكَّأُ عليها وأَهُشُّ بها على غَنَمِى ولِىَ فيها مآرِبُ أخرى ﴾

قال هى عصاى ، وأخذ يُعدِّد ما له فيها من وجوه الانتفاع فقال له :

﴿ قال أَلْقِها يا موسى ﴾

---

(١) (فالقيامة عند هؤلاء تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق) و (جهنم الفراق اشد هولا من جهنم الاحتراق) . اللطائف فى مواضع أخرى .

فإنَّك بنعت التوحيد[1] ، واقفٌ على بساط التفريد ، ومتى يصحّ ذلك ، ومتى يَسْلَمُ لك أن يكون لكَ معتمدٌ تتوكأ عليه ، ومستند عليه تستعين ، وبه تنتفع ؟

ثم قال : « ولى فيها مآرب أخرى » : أوَّلُ قَدَمٍ فى الطريق تَرْكُ كلِّ سَبَبٍ ، والتَّنَقِّى عن كل طَلَبٍ ؛ فكيف كان يَسْلَمُ له أن يقول : أَفْعَلُ بها ، وأمتنع[2] ، ولى فيها مآرب أخرى .

ويقال ما ازداد موسى — عليه السلام — تفصيلاً فى انتفاعه بعصاه إلا كان أقوى وأَوْلى بأن يؤمن بإلقائها ، والتنقى عن الانتفاع بها على موجب التفرُّد لله .

ويقال التوحيد التجريد ، وعلامةُ صحته سقوط الإضافات[3] بأَسْرِها ؛ فلا جَرَمَ لما ذكر موسى — عليه السلام — ذلك أُمِرَ بإلقائها فجعلها اللهُ حَيَّةً تسعى ، وولَّى موسى هارباً ولم يُعَقِّب . وقيل له يا موسى هذه صفة العلاقة ؛ إذا كُوشِفَ صاحبُها بِسِرِّها يهرب منها .

ويقال لمَّا باسطه الحقُّ بسماع كلامه أخذته أريحية سماع الخطاب ، فأجاب عما يُسْأَل وعمَّا لم يُسْأَل فقال : « ولى فيها مآرب أخرى » ، وذَكَرَ وجوها من الانتفاع ؛ منها أنه قال تؤنسنى[4] فى حال وحدتى ، وتضىء لى الليلَ إذا أظلم ، وتحملنى إذ عَيِيتُ فى الطريق فأركبُها ، وأَهُشُّ بها على غنمى ، وتدفع عنى عَدَوِّى . وأعظم مأربٍ لى فيها أنَّكَ قُلْتَ : « وما تلك بيمينك ؟ » وأيةُ نعمةٍ أو مأربٍ أو منفعةٍ تكون أعظمَ مِنْ أَنْ تقولَ لى : وماتلك ؟ ويقال قال الحقُّ — بعد ما عدَّد موسى وجوهَ الآياتِ وصنوفَ انتفاعِهِ بها — ولَكَ يا موسى فيها أشياء أخرى أنت غافلٌ عنها وهى انقلابُها حيةً ، وفى ذلك لك معجزةٌ وبرهانُ صِدْقٍ .

---

(١) إذا صح نقل هذه العبارة عن الأصل فالقشيرى يقصد بها (فانك موحد) ، والموحد أعلى درجات العارفين .

(٢) أى تكون لى بها منعة وقوة ، وربما كانت (وأنتفع) وكلاهما صحيح فى المعنى .

(٣) سقوط الإضافات أى لا يقول لى ولا بى ولامنى — وهذه آية صحة التوحيد عندهم (أنظر الرسالة ص ١٤٩) .

(٤) وردت (تسعى) ، وقد وجدنا (تؤنسنى) أقرب إلى المعنى وإن كانت بعيدة فى الرسم ، فآثرناها ونبهنا إلى الأصل : أو ربما سقطت (معى) بعد (تسعى) ويكون السياق آنذاك منسجماً .

ويقال جميعُ ما عَدَّدَ من المنافع في العصا كان من قِبَلِ الله . . فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه ، ولهذا قالوا :

يا جنّةَ الخُلْدِ ، والهدايا إذا تُهدَى إليك فما مِنْكِ يُهْدَى

ويقال قال موسى لما رآها حيةً تهتز : لقد عَلِمْتُ كلَّ وصفٍ بهذه العصا ، أمَّا هذه الواحدة فلم أعرفها .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ألقِها يا موسى * فألقاها فإذا هِيَ حَيَّةٌ تسعَى * قال خُذْها ولا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَها الأُولى ﴾

لا عِبْرةَ بما يوهِمُ ظاهرُ الأشياء ؛ فقد يُوهِمُ الظاهرُ بشيء ثم يبدو خِلافُه في المستقبل ؛ فعصا موسى صارت حيةً .

ثم قال المقصودُ بذلك أن تكون لك آيةً ومعجزةً لا بلاءً وفتنةً[1] .

قوله : « قال خذها ولا تخف . . . » : أشْهَدَه — بانقلاب العصا من حالٍ إلى حال ؛ مرةً عصا ثم ثعباناً ثم عصا مرةً أخرى — أنَّه يُثَبِّتُ عِبَادَه في حال التلوين مرةً ومرةً ؛ فَمِنْ أخْذٍ ومِنْ رَدٍّ ، ومن جَمْعٍ ومن فَرْقٍ إلخ[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ واضْمُمْ يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بيضاءَ مِنْ غيرِ سُوءٍ آيةً أُخْرى * لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنا الكُبْرَى ﴾

كما أراه آيةً من خارجٍ أراه آيةً من نَفْسِه ، وهي قلْبُ يَدِه بيضاء ؛ إذْ جَعَلَها في جيبه من غير البَرَص . قال تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[3]

---

(١) وهذا الكلام ينطبق كذلك على الكرامة التي تظهر على يدي الولي ، وهذا فرق بين المعجزة والكرامة من ناحية وبين السحر من ناحية أخرى .

(٢) حتى يصلوا إلى حال (التمكين) .

(٣) آية ٥٣ سورة فصلت .

وإنما قال : أَدْخِلْ يَدَكَ فى جيبِكَ ولم يقل كُمِّكَ لأنه لم يكن لِمَا عليه من اللِّباس كُمَّان .

قوله : « لنريك[1] من آياتنا الكبرى » : الآية الكبرى هى ما كان يجده فى نفسه من الشهود والوجود ، وما لا يكون بتكلُّفِ العبد وتصرُّفِه من فنون الأحوال التى يدركها صاحبُها ذوقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْهَبْ إلى فرعونَ إنَّهُ طَغَى ﴾

بعدما أسمعه كلامه من غير واسطة ، وشَرَّفَ مقامَه ، وأَجْزَلَ إكرامَه أَمَرَه بالذهاب ليدعوَ فرعونَ إلى الله — مع عِلْمِهِ بأنه لا يؤمن ولا يجيب ولا يسمع ولا يَعْرِف — فشَقَّ على موسى ذهابُه إلى فرعون ، وسماعُ جَحْدِه منه ، بعد ما سمع من الله كلامه سبحانه ، ولكنه آثر أَمْرَ محنته على مرادِ نفسه .

ويقال لمَّا أَمَرَه بالذهاب إلى فرعونَ سأل اللهَ أُهْبَةَ النَّقْلِ وما به يتمُّ تبليغ ما حمل من الرسالة ، ومن ذلك قوله :

﴿ قال ربِّ اشرح لى صدرى * ويَسِّرْ لى أمرى * واحلُلْ عقدةً مِنْ لسانى * يفقهوا قولى ﴾

لِيُعْلَمَ أنَّ مِنْ شَرْطِ التكليفِ التَّمَكُّنَ مِنْ أداءِ المأمور به .

ويقالِ إنَّ موسى لما أَخَذَ فى المخاطبة مع الله كاد لا يسكت من كثرة ما سأله فظل يدعو : « ربِّ اشرح لى صدرى ، ويَسِّرْ لى أمرى . . . » وهكذا إلى آخر الآيات والأسئلة .

قوله « قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى » : حتى أُطِيقَ أَنْ أَسمعَ كلامَ غيرِك بعدما سمِعْتُ منك . « واحلل عقدة من لسانى » : حتى ينطلقَ بمخاطبة غيرك ، وقَوِّنى حتى أَرُدَّ ما أَرُدُّ . . . بِكَ لا بى .

قوله جل ذكره : ﴿ واجعل لى وزيراً مِنْ أهلى * هارون أخى * اشْدُدْ به أَزْرِى ﴾

---

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها (لنريه) .

سَأَلَ أنْ يَصْحَبَ أخاه معه ، ولما ذهب لسماع كلام الله حين قال تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة »[1] كان بمفرده ، لأن الذهاب إلى الخَلْق يوجب الوحشة ؛ فَطَلَبَ من أخيه الصحبة لِيُخَفِّفَ عليه كلفة المشقة .

ويقال إن المحبة توجبُ التجرُّدَ والانفراد وألا يكونَ للغيرِ مع المحبِّ مساغ ؛ ففى ذهابه إلى فرعون استصحب أخاه ، ولمَّا كان الذهابُ إلى الميقاتِ لم يكن للغيرِ سبيلٌ إلى صحبته ، إذ كان المقصود من ذهابه أن يكونَ مخصوصاً بحاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كى نُسَبِّحَكَ كثيراً * ونَذْكُرَكَ كثيراً * إنك كُنْتَ بنا بصيراً ﴾

بيَّن أنَّ طَلَبَه مُشاركةَ أخيه له بحقِّ ربه لا بحظِّ نَفْسِه حيث قال : « كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً » .

قوله جل ذكره : ﴿ قال قد أُوتيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾

أعطيناكَ ماسألتَ ، وتناسيت ابتداء حالِكَ حين حفظناك فى اليمِّ ونَجَّيْنَا أُمَّكَ من ذلك الغمِّ ، ورَبَّيْنَاكَ فى حِجْرِ العَدُوِّ . . فأين — حينذاك — كان سؤالُكَ واختيارُكَ ودعاؤُك[2] ؟

وأثبتنا فى قلب امرأة فرعون شفقتك ، وألقينا عليكَ المحبةَ حتى أحبَّكَ عدوُّك ، وربَّاكَ حتى قَتَلَ بِسَبَبِكَ ما لا يُحْصَى من الولدان ، والذى بَدَأَكَ بهذه المِنَنِ هو الذى آتاك سُؤْلَكَ ، وحقَّقَ لك مأمولَكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ أوحينا إلى أمِّك ما يوحى * أنِ اقذفيه فى التابوتِ فاقذفيه فى اليمِّ ، فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بالساحلِ ، يأخذه عَدُوٌّ لى وعَدُوٌّ له ﴾

(1) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(2) أى أن فضل الله دائم ، وسابق للدعاء ، وغير مرتبط بالاختيار الإنسانى ولا بالعمل الإنسانى ، وهذه نظرة فى الشمول قلما يفطن إليها غير الصوفية . وأين منهم المعتزلة الذين يوجبون على الله ؟! ذلك أحد المرامى البعيدة التى يقصد إليها القشيرى .

كان ذلك وحيَ إلهامٍ ؛ ألقى اللهُ فى قلبها أن تجعلَه فى تابوتٍ ، وتلقيه فى اليم يعنى نهر النيل ، ففعلتْ ، فألقاه النهر على الساحل ، فحُمِلَ إلى فرعون . فلمَّا وقعَ بصرُ امرأةِ فرعون عليه باشر حبُّه قلبَها ، وكذلك وقعت محبتُه فى قلبِ فرعون ، ولكنها كانت أضعفَ قلباً ، فسبقت بقولها « قرة عين لى ولك لا تقتلوه . . »[1] ، ولولا أنها عَلِمَتْ أنه أخذ شعبةً من قلبِ فرعون ما أخذ من قلبها لم تقل : « قرة عينٍ لى ولك » .

قوله : « يأخذه عدو لى وعدو له » : رباَّه فى حِجْرِ العدو وكان قد قَتَلَ بسببه ألوفاً من الولدان . . ولكنْ منْ مَأْمنِهِ يُؤْتَى الحَذِرُ ! وبلاء كلِّ أحدٍ كان بَعْدَه إلا بلاء موسى عليه السلام فإنه تَقَدَّمَ عليه بسنين ؛ ففى اليومِ الذى أخذ موسى فى حِجْرِه كان قد أمر بقتل كثير من الولدان ، ثم إنه رباَّه ليكونَ إهلاكُ مُلْكِهِ على يده . . لِيُعْلَمَ أنَّ أسرارَ الأقدار لا يعلمها إلا الجبارُ .

ويقال كان فرعون يُسَمَّى والدَ موسى وأباه — ولم يكن . وكان يقال لأُمِّ موسى ظئر[2] موسى — ولم تكن ؛ فَمِنْ حيثُ الدعوى بالأبوة لم يكن لها تحقيق ، ومن حيث كان المعنى والحقيقة لم يكن عند ذلك خبر ولا عند الآخر من ذلك معرفة . . هكذا الحديث والقصة[3] .

ولقد جاء فى القصة أن موسى لمَّا وُضِعَ فى حِجْرِ فرعون لَطَمَ وجهه فقال : إنَّ هذا من أولاد الأعداء فيجب أنْ يُقْتَلَ ، فقالت امرأتُه : إنه صبيٌّ لا تمييزَ له ، ويشهد لهذا أنه لا يُمَيِّزُ بين النار وبين غيرها من الجواهر والأشياء ، وأرادت أن يصدِّق زوجُها قالتَها ، فاستحضرت شيئاً من النار وشيئاً من الجواهر ، فأراد موسى عليه السلام أن يمدَّ يَدَه إلى الجواهر فأخذ جبريلُ عليه السلام بيده وصَرَفَها إلى النار فأَخَذَ جَمْرةً بيده ، وقرَّ بها مِنْ فِيه فاحترقَ لِسانُه — ويقال إنَّ العقدةَ التى كانت على لسانه كانت من ذلك الاحتراق — فعند ذلك قالت امرأةُ فرعون : ها قد تبينَّ أن هذا لا تمييزَ له ؛ فقد أخذ الجمرةَ إلى فيه . وتخلَّص موسى بهذا مما حصل منه من لَطْمِ فرعون .

---

(١) آية ٩ سورة القصص . (٢) الظئر . المرضعة لغير ولدها .

(٣) يقصد بالحديث والقصة التصوف وأهله ؛ فلقب العبد مرتبط بقلبه. وحقيقة باطنه لا بما يستفاد من ظاهره ورأى الناس فيه ، وهذا أصل من أصول أهل الملامة النيسابورية .

ويقال إنهم شاهدوا ولم يشعروا أنه لم يحترق مِنْ أخذِ الجمرة وهو صبيٌّ رضيع، ثم احترق لسانه، فعلم الكلُّ أن هذا الأمر ليس بالقياس. فإنه سبحانه فعَّال لما يريد.

قوله جل ذكره: ﴿ وألقيتُ عليكَ محبةً منى ﴾

أى أحببتك. ويقال فى لفظ الناس: فلانٌ ألقى محبته على فلان أى أَحَبَّه. ويقال «ألقيت عليك محبة منى»: أى طَرَحْتُ فى قلوب الناس محبةً لك، فالحقُّ إذا أحبَّ عبداً فكلُّ مَنْ شاهده أحبَّه. ويقال للملاحةِ فى عينيه؛ فكان لا يراه أحدٌ إلا أَحَبَّه.

ويقال «ألقيت عليك محبةً منى»: أى أَثْبَتُّ فى قلبك محبتى؛ فإن محبةَ العبدِ لله لا تكون إلا بإثباتِ الحق — سبحانه — ذلك فى قلبه، وفى معناه أنشدوا:

إنَّ المحبةَ أَمرُها عَجَبُ ... تُلْقَى عليكَ وما لها سَبَبُ

قوله جل ذكره: ﴿ ولِتُصْنَعَ على عينى ﴾

أى برأىٍ منى. ويقال لا أُمَكِّن غيرى بأَنْ يستَبْعِدَكَ عنى.

ويقال أحفظك من كل غَيْرٍ، ومن كلِّ حديثٍ سوى حديثنا. ويقال ما وَكَلْنَا حِفْظَكَ إلى أحدٍ.

قوله جل ذكره: ﴿ إذْ تَمْشِى أُخْتُكَ فتقولُ هل أَدُلُّكُم على مَنْ يَكْفُلُه فرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّك كى تَقَرَّ عينُها.. ﴾

البلاء على حَسَبِ قوة صاحبه وضعفه، فكلما كان المرء أقوى كان بلاؤه أوفى[1]، وكلما كان أضعف كان بلاؤه أخف. وكانت أمُّ موسى ضعيفةً فَرَدَّ إليها وَلَدَها بعد أيام، وكان يعقوبُ أقوى فى حاله فلم يُعِدْ إليه يوسفَ إلا بعد سنين طويلة.

قوله جل ذكره: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ ﴾

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» رواه الترمذى، وابن ماجه والحاكم عن سعد بن أبى وقاص.

أجرى اللهُ عليه ما هو فى صورةِ كبيرةٍ من قَتْلِ النَّفْسِ بغير حق ، ثم بيَّن اللهُ أنه لايضره ذلك ، فليست العِبْرةُ بفعل العبد فى قِلَّته وكثرته إنما العِبرةُ بعناية الحقِّ بشأنِ أحدٍ أو عداوته .

ويقال قد لايموت كثيرٌ من الخلْقِ بفنون من العذابِ ، وكم من أناسٍ لا يموتون وقد ضُرِبُوا ألوفاً من السياط ! وصاحبُ موسى عليه السلام ومقتولُه مات بوكزةٍ ! إيش[1] الذى أوجب وفاتَه لولا أنه أراد به فتنةً لموسى ؟ وفى بعض الكتب أنه — سبحانه — أقام موسى كذا وكذا مقاماً ، وأسمعه كلامه كل مرة بإسماع آخر ، وفى كل مرة كان يقول له : « وَقَتَلْتَ نَفْساً » . .

« فنجيناك من الغم » : أريناكَ عينَ الجمع حتى زال عنك ماداخَلَكَ من الغمِّ بصفة مقتضى التفرقة ، فلمَّا أريناكَ سِرَّ جريانِ التقديرِ نجَّيْناكَ من الغم .

قوله جل ذكره : ﴿ وفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ .

استخلصناكَ لنا حتى لا تكون لغيرنا . ويقال جَنَّسْناَ عليك البلاء ونَوَّعناه حتى جَرَّدْنَاكَ عن كل اختيارٍ وإرادة ، ثم حينئذٍ رَقَّيْنَاكَ إلى ما استوجَبْتَه من العِلم الذى أَهَّلْنَاكَ له .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ .

وكنتَ عند الناسِ أنك أجيرٌ لشعيب ، ولم يظهر لهم ما أودعنا فيك ، وكان يكفى — عندهم — أن تكون خَتَنَاً[2] لشعيب .

﴿ ثم جئتَ على قَدَرٍ ياموسى ﴾ .

أى عَدَدْنا أيامَ كونك فى مدين شعيب ، وكان أهل حضرتنا من الملائكة الذين عرفوا شرَفَكَ ومحبتَّكَ منتظرين لك ، فجئتَ على قَدَرٍ .

---

(١) أى (أى شىء) وهى لفظة ترد فى مصنفات القشيرى من حين إلى آخر . وجاء فى الوسيط جـ ١ ص ٣٤ أن العرب تكلمت بها .

(٢) أى زوجاً لابنته ، وفي الحديث « علىٌّ ختن رسول الله »

ويقال إنَّ الأَجلَ إذا جاء للأشياء فلا تأخيرَ فيه ولا تقديم ، وأنشدوا في قريب من هذا المعنى :

بينما خاطرُ المنى بالتلاقي سابحٌ في فؤاده وفؤادي
جمع اللهُ بيننا فالتقينا هكذا بغتةً بلا ميعادِ

قوله جل ذكره : ﴿ واصطنعتُكَ لِنفسى ﴾ .

استخلصتُكَ لى حتى لا تَصْلُحَ لأحدٍ غيرى ، ولا يَتأَتَّى شيء منك غير تبليغ رسالتى ، وما هو مرادى منك .

ويقال أفردْتُ سِرَّكَ لى ، وجعلْتُ إقبالَكَ علىَّ دون غيرى ، وحُلْتُ بينك وبين كل أحدٍ ممن هو دونى .

ويقال « واصطنعتك لنفسى » : قَطَعَهُ بهذا عن كلِّ أحـدٍ ، ثم قال له : « اذهب إلى فرعون » .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْهَبْ أَنْتَ وأخـوكَ بآياتى ولا تَنِيا فى ذِكْرِى * إذهبا إلى فِرْعَونَ إنَّهُ طَغَى ﴾ .

تعلَّلَ موسى عليه السـلام لمـَّا أرسـله الحقُّ إلى فرعون بوجوهٍ من العِلل مثل قوله : « يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى » [1] ، « إنى قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » [2] .. إلى غير ذلك من الوجوه ، فلم ينفعه ذلك ، وقال الله : « إننى معكما أسمع وأرى » ، فاستقل [3] موسى عليه السلام بذلك ، وقال : الآن لا أبالى بعد ما أنت معى .

قوله جل ذكره : ﴿ فقولا له قَوْلاً لَيِّنًا لَعلَّهُ يتذكَّر أو يَخْشَى ﴾ .

---

(١) آية ١٣ سورة القصص .
(٢) آية ٣٣ سورة القصص
(٣) الاستقلال هنا معناه الاكتفاء .

إنما أمرهما بالملاينة معه فى الخطاب لأنه كان أول مَنْ دَعَوْه إلى الدِّين ، وفى حال الدعوة يجب اللِّين [١] ؛ فإنه وقت المُهلة ، فلا بدَّ من الإمهال ريثما ينظر [٢] ؛ قال الله لنبينا صلى الله عليه وسلم : « وجادلهم بالتى هى أحسن [٣] » : وهو الإمهال حتى ينظروا ويستدلوا ، وكذلك قال : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنّة » [٤] .

ثم إذا ظهر من الخصمِ التمرُّدُ والإباء فحينئذٍ يُقابَلُ بالغلظة والختف .

ويقال علَّمهما خطابَ الأكابرِ ذوى الحشمة ؛ ففرعونُ — وإن كان كافراً — إلا أنه كان سلطانَ وقتِه ، والمتسلِّطَ على عِبادِ الله .

ويقال إذا كان الأمرُ فى مخاطبة الأعداء بالرِّفق والملاينة .. فكيف مع المؤمن فى السؤال ؟

ويقال فى هذا إشارة إلى سهولة سؤال المَلَكَيْن فى القبر للمؤمن .

ويقال إذا كان رِفقُه بِمَنْ جَحَدَه فكيف رِفقُه بِمَنْ وَحَّدَه ؟

ويقال إذا كان رِفْقُه بالكفَّارِ فكيف رفقُه بالأبرار ؟

ويقال إذا كان رفقه بمن قال : أنا .. فكيف رفقه بمن قال : أنت ؟

ويقال إنه [٥] أحسَنَ تربيةَ موسى عليه السلام ؛ فأراده أن يرفق به اليومَ فى الدنيا على جهة المكافأة .

وقيل تفسير هذا ما قال فى آية أخرى « فقُلْ هل لك إلى أن تزكَّى » [٦] .

وقوله : « لعله يتذكر أو يخشى » : أى كُونَا على رجاء أن يؤْمِنَ . ولم يخبرهما أنه لا يؤمن

---

(١) وردت (التمكين) وهى خطأ فى النسخ وقد انتبه أحد القراء إلى هذا الخطأ فوضع علامة استفهام صغيرة .

(٢) النظر هنا معناها التفكر فى الأمر .

(٣) آية ١٢٥ سورة النحل .

(٤) آية ٤٦ سورة سبأ .

(٥) اى فرعون .

(٦) آية ١٨ سورة النازعات .

لئلا تتداخلهما فترةٌ فى تبليغ الرسالة عِلْماً منه[1] بأنه لا يؤمن ولا يقبل .

قوله جل ذكره : ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾

فى الآية دليلٌ على أنَّ الخوفَ[2] الذى تقتضيه جِبْلَةُ الإنسانِ غيرُ ملومٍ صاحبُه عليه ، حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام : « إنَّنا نخاف » .

ثم إنَّه سبحانه سَكَّنَ ما بهما من الخوف بوعد النصرة لهما .

ويقال لم يخافا على نَفْسَيْهما شفقةً عليهما ، ولكن قالا : إننا نخاف أن تحل بنا مكيدةٌ من جهته ، فلا يحصل فيما تأمرنا به قيامٌ بأمرك ، فكان ذلك الخوفُ لأجل حقٍّ الله لا لِأَجْل حظوظ أنفسهما .

ويقال لم يخافا من فرعون ، ولكن خافا من تسليط الله إياه عليهما ، ولكنهما تأدَّبا فى الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾

تَلَطَّفَ فى استجلاب هذا القول من الحق سبحانه ، وهو قوله : « إننى معكما » بقولهما : « إننا نخاف » ، وكان المقصود لهما أن يقول الحق لهما : « إننى معكما » وإلا فأنَّى بالخوف لِمَنْ هو مخصوصٌ بالنُّبُوَّةِ ؟ !

ويقال سَكَّنَ فيهما الخوف بقوله : « إننى معكما » ، فَقَوِيا على الذهاب إليه ، إذ مِنْ شَرْطِ التكليف التمكين .

قوله جل ذكره : ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾

---

(١) وردت (منهم) وهى خطأ فى النسخ لأن المقصود : مع انه سبحانه عليم بانه لن يؤمن ولن يقبل .

(٢) فى هذه الإشارة توضيح هام لاصطلاح (الخوف) .

طالَ البلاء ببنى اسرائيل من جهة فرعون ، فقدرًا كَهُم الحقُّ سبحانه ولو بعد حين ، بذلك أجرى سُنَّتَهُ أنه يُرخى عِنَانَ الظالم ، ولكن إذا أَخَذَهُ فإنَّ أَخْذَهُ أليمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قد جِئْناكَ بآيةٍ مِنْ ربِّك ﴾

من شَرْطِ التكليفِ التمكينُ بالبيِّنة والآيةِ للرسولِ حتى يَتَّضِحَ ما يَدُلُّ على صِدْقِه فيما يدعو إليه من النبوة . ثم إن تلك الآية وتلك البيِّنة ما نفعتهم ، وإنما تأكدتْ بهما عليهم الحُجَّةُ ، فإذا عَمِيَ بَصَرُ القلبِ فأَنَّى تنفع بصيرةُ الحجة ؟ وفي معناه قالوا :

وفى نَظَرِ الصادى إلى الماء حَسْرَةٌ إذا كان ممنوعاً سبيلَ المواردِ

قوله جل ذكره : ﴿ والسَّلامُ على مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى ﴾

إنما يَتَّبِــع الهُدَى مَنْ كَحَّلَ قلبَه بنور العرفان ، فأما من كانت على قلبه غشاوة الجهل . . فمتى يستمع إلى الهُدَى ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا قد أُوحِيَ إلينا أنَّ العذابَ على مَنْ كَذَّبَ وتَوَلَّى ﴾

ما بعث اللهُ نبياً إلاَّ وقد أنْذَرَ قومَه بالعذابِ على تَرْكِ الأمر ، وبَشَّرَهُم بالثوابِ على حِفْظِ الأمر . والعذابُ مُعَجَّلٌ ومؤجَّلٌ ، فمؤجَّلُه لا يُوقَفُ على تفصيله الأعداء وكذلك مُؤَجَّل الثوابُ ، قال تعالى : « فلا تعلم نَفْسٌ ما أُخفى لهم من قرة أعين »[1] .

وأما مُعَجَّلُ العقوبةِ فأنواع ، وعلى حسب مقامِ المرءِ تَتَوَجَّهُ عليه المُطَالَبَاتُ ، والزيادةُ فى العقوبةِ تَدُلُّ على زيادةِ استحقاقِ الرُّتْبَةِ ، كالحرِّ والعَبْدِ فى الحَدِّ . وقسوةُ القلبِ نوعُ عقوبة ، وما يتداخل الطاعة نوعُ عقوبة ، وخسرانُ نصيبٍ فى المالِ والأنْفُس نوعُ عقوبة . . إلى غير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا موسى * قال رَبُّنا الذى أعطَى كُلَّ شيءٍ خَلْقَه ثم هَدَى ﴾

---

(١) آية ١٧ سورة السجدة .

« فمن ربكما » على التثنية ، ثم قال : « يا موسى » فأفرده بالخطاب بعدما قال : « فَمَنْ ربكما ؟ » : فيحتمل أن ذلك لمشاكلة رءوسِ الآى ، ويحتمل أن موسى كان مُقدَّما على هارون فخَصَّهُ بالنداء .

وإنما أجاب موسى عن هذا السؤال بالاستدلال على فِعْلِه — سبحانه فقال : « ربنا الذى أعطى كل شىء خَلْقه » ليُعْلَمَ أنَّ الدليلَ على إثباته — سبحانه — ما دلَّتْ عليه أفعاله .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فَمَا بَالُ القرونِ الأُولى * قال عِلْمُها عِنْدَ ربى فى كتابٍ لا يَضِلُّ ربى ولا يَنْسَى ﴾

لا يمكننى أن أُخْبِرَكُمْ إلا بما أخبرنى به ربى ، فما عَرَّفَنِى عَرَّفْتُ ، وما ستره علىَّ وَقَفْتُ .

قوله جل ذكره : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ مَهْدَاً وسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً وأنزَلَ من السماءِ ماءً فأَخْرَجْنَا به أزواجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾

جَعَلَ الأرضَ مستقراً لأبدانهم ، وجعل أبدانَهم مستقراً لعبادته ، وقلوبهم مستقراً لمعرفته[1] ، وأرواحهم مستقراً لمحبته ، وأسرارهم مستقراً لمشاهدته .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُوا وارْعَوْا أنعامَكم إنَّ فى ذلك لآياتٍ لأُولى النُّهَى ﴾

هَيَّأَ لهم أسبابَ المعيشة ، وكما نَظَرَ إليهم وَرَزَقَهم رَزَقَ دوابَّهم التى ينتفعون بها ،

---

(١) وردت (وارواحهم مستقراً لعبادته) والصواب ان تكون (وقلوبهم مستقراً لمعرفته) حسبما نعرف من مذهب القشيرى فى ترتيب الملكات الباطنية (انظر بحثنا فى الدكتوراه عن الإمام القشيرى وتصوفه) ط مؤسسة الحلبى .

وأمرَهُم أنْ يَتقَوَوْا بما تَصِلُ إليه أيديهم ، وأنْ ينتفِعُوا — ما أمكنهم — بأَنعامِهم لِيَكْمُلَ لديهم إنْعامُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ منها خَلَقْناكُمْ وفيها نُعِيدُكُمْ ومنها نُخْرِجُكُمْ تارةً أُخْرى ﴾

إذ خَلَقْنا آدمَ من الترابِ ، وإذ أخرجنا كم من صُلْبه . . فقد خلقناكم من الترابِ أيضاً. والأجسادُ قوالِبُ والأرواحُ ودائعُ ، والقوالب نسبتها التُّربة[1] ، والودائع صفتها القُرْبة[2] ، فالقوالب يزيِّنها بأفضاله ، والودائع يحييها بكشف جلاله ولطف جماله . وللقوالب اليوم اعتكافٌ على بساطِ عبادته ، وللودائع اتصافٌ بدوام معرفته .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أَرَيْناه آياتِنا كُلَّها فكذَّب وأبَى ﴾

أمره بجهره ، وأعماه عن شهود ذلك بِسِره ، فما نَجَعَ فيه كلامُه ، وما انتفعَ بما حذَّره من انتقامه ، ويَسَّرَ له من إنعامه .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أجئتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أرْضِنا بِسِحْرِكَ يا موسى * فلنأتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِه فاجْعَلْ بَيْنَنا وبَيْنكَ موعِداً لا نُخْلِفُهُ نحن ولا أنتَ مَكاناً سُوىً ﴾

دعاهم موسى إلى الله ، وخاطَبَهُم فى حديث الآخرة من تبشيرٍ بثواب ، وإنذارٍ بعذاب ، فلم يُجِيبُوا إلاَّ من حيث الدنيا ، وما زادهم تذكيراً إلا ازدادوا غفلة وجهالة .

---

(١) ، (٢) وردتا (البرية) و (القوية) ولم نجد للجملتين معنى على ذلك — فى حدود ما نعرف — بينما لو صارت النسبة إلى (التربة) كما تشير الآية وكما يشير كلام المصنف فى بداية الفقرة ، ثم لو جعلنا (القربة) بدل (القوية) لا نسجم السياق ، ونحن فى هذا لا نصدر إلا عن استخدام القشيرى لهذا الاسلوب فى مواضع مماثلة — والله اعلم .

كذلك صفةُ مَنْ وَسَمه الحقُّ بالإبعاد ، لم يكن له عرفان ، ولا بما يقال إيمان ، ولا يتأسَّفُ على ما يفوته ، ولا تصديق له بحقيقة ما هو بصدده .

قوله : « فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه . . » تأهَّبوا لِمُناصَبةِ الحقيقة ، وتشمَّروا للمُخالفة ، فقصَمَتْهم المشيئةُ ، وكَبَسَتْهُم القدرة ، وكما قيل :

استقبلني وسيفُه مسلول وقال لي واحدنا معذول

قوله جل ذكره : ﴿ قال مَوْعِدُكُم يَوْمُ الزِّينَةِ وأَنْ يُحْشَرَ النَّاسَ ضُحًى ﴾

فكان في ذلك اليوم افتضاحهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَوَلَّى فِرعونُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثم أَتَى ﴾

كادَ فرعونَ فَكِيدَ له ، وأراد فارتدَّ إليه ، ودعا للاستعداد فأُذِلَّ وأُذِيقَ البأسَ . ولم يَدَعْ موسى شيئاً من الوعظ والرِّفْقِ ، ولم يغادِرْ فرعونَ شيئاً من البَلَهِ والحُمْق ، ولكن :

« قال لهم موسى وَيْلَكُم لا تَفْتَرُوا على اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بعذاب وقد خابَ من افترى * فتنازَعُوا أَمْرَهم بينهم وأسَرُّوا النجوى »

إعلموا أنه لا طاقةَ لأحدٍ مع الله — سبحانه — إذا عَذَّبَه ، فحملوا مقالتَه على الإفك ، ورَمَوْا معجزته بالسحر فقالوا :

﴿ قالوا إنْ هذان لَساحِران يريدان أَنْ يُخْرِجاكُم من أَرْضِكم

---

(١) يشير القشيري بذلك إلى شاهد شعري سبق وروده :

من تحلى بغير ما هو فيه فضحته شواهد الامتحان

ويهدف إلى ان يثبت ان تزين الظاهر لا جدوى منه في الحقيقة .

بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى ﴾

هما فى دعواهما كاذبان يقْصِدان إلى إخراجكم من بَلَدِكم ، والتشويشِ عليكم فى مُعْتَقَدِكم .

﴿ قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى ﴾

أظهروا من أنفسهم التجلُّدَ ظنًّا بأنَّ النصرةَ لهم ، وإخلاداً إلى ما كان السَّحَرَةُ يُسَوِّلُون لهم ، فخَيَّروا موسى فى الابتداء بناءً على ما توهموا من الإلقاء ، فقال لهم موسى :

﴿ قالَ بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى * وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى * قالَ ءامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى ﴾

قال لهم موسى بل ألقوا أنتم ، وليس ذلك إذناً لهم فى السحر ، ولـكن أراد الحقُّ إظهارَ تمويههم ، فلمَّا خيَّلوا للناس بإلقاءِ الحبال أنها حياتٌ ابتلَعَتْ عصا موسى جُمْلَةَ ما صَنَعُوا ، وتحقَّقَ السَّحَرةُ أنَّ ذلك أمرٌ سماويٌّ حيث تلاشى عين ما كان معهم من أوقار[1] الحِبَال ، وصار الثعبانُ عَصًا كما كان ، فسجدوا لله مؤمنين ، وانقلب فرعونُ وقومُه خائبين ، وتَوَعَّدَهم بالقتل والصَّلْبِ ، وفنونٍ من العذابِ الصعب ، وبعدما كانوا يقْسِمُون بعِزَّةِ فرعونَ صاروا يَحْلِفُونَ بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لن نُؤْثِرَكَ على ما جَاءنا من البينات والذى فَطَرَنا فاقْضِ ما أنت قاضٍ إنما تَقْضِي هذه الحياةَ الدنيا ﴾

أى بالله الذى فطرنا إنَّا لن نُؤْثِرَكَ على ما جاءنا من البينات . ولما طلعت فى أسرارهم شموسُ العرفان ، وانبسطت عليهم أنوار العناية أبصروا الحقَّ سبحانه بأسرارهم ، فنطقوا ببيان التصديق ، وسجدوا بقلوبهم لمشهودهم ، ولم يحتشموا مما توعدهم به من العقوبة ، ورأوا ذلك من الله فاستعذبوا البلاء ، وتحملوا اللأواء[2] ، فكانوا فى الغَدَاةِ كُفَّاراً سَحَرَةً ، وأَمْسَوْا أخياراً بَرَرَةً[3] .

قوله « فاقضِ ما أنت قاضٍ . . . » عَلِمُوا أنَّ البلاء فى الدنيا يَنْقَضِى — وإنْ تمادى ، وينتهى وإن تناهى[4] .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَا آمنا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لنا خَطَايانا وما أَكْرَهْتَنا عليه من السِّحْرِ والله خَيْرٌ وأَبْقَى ﴾ .

أهمُّ الأشياء — على مَنْ عَرَفَه — مغفرتُه لخطاياه ؛ فهذا آدمُ — عليه السلام — لما

---

(١) الأوقار جمع وقر = الحمل الثقيل .
(٢) اللأواء = ضيق المعيشة وشدة المرض (الوسيط) .
(٣) فى هذه الإشارة فتح لباب الأمل امام العصاة نظراً لقصر المسافة بين الكفر والايمان ، فهى كما بين الغداة والمساء .
(٤) أى وإن تناهى فى الشدة .

استكشف[1] من حاله ، وحلَّ به ماحلَّ قال : « ربِّ إنى ظلمتُ نفسى ... »[2] وقال لنبينا — صلى الله عليه وسلم — « واستغفِرْ لذنبك »[3] . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة »[4] . ومَنَّ عليه بقوله : « ليغفرَ لك اللهُ ماتقدَّم من ذنبك وما تأخر »[5] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقَدْ أَوْحَيْناَ إلى موسى أنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فاضْرِبْ لهم طريقاً فى البحر يَبَساً لا تخَافُ دَرَكا ولا تخْشَى * فأَتبعَهُم فِرعونُ بجنودِه فَغَشِيَهم من اليَمِّ ما غَشِيَهُم * وأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قومَه وما هَدَى ﴾ .

لما عبَرَ موسى ببنى إسرائيل البحر ، وقرب منه فرعون ، ورأى البحرَ منفلقاً والطريقَ فيه يَبَساً غَيَّرَ قَوْمَه بتلبيسه فقال : « إنه بحشمتي انفلق ، فأنا ربكم الأعلى ! » وحصل — كما فى القصة — من دخوله بعَسْكَرِه البحرَ حتى دخل آخرهم ، وهمَّ أن يخرج أَوَّلُهم ، فأمر اللهُ البحرَ حتى التطمت أمواجه ففرقوا بجملتهم ، وآمن فرعون لما ظهر له اليأسُ[6] ، ولم ينفعه إقراره ، وكان ينفعه لو لم يكن إصرارُه ، وقد أدركتْه الشقاوةُ التى سَبَقَتْ له من التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ يابنى اسرائيلَ قد أَنجَيْنَاكُم من عَدُوِّكُم وواعدناكم جانبَ الطورِ الأيمن ونزَّلنا عليكم المَنَّ والسَّلْوَى ﴾

---

(١) يقصد القشيرى حين (بدت لهما سوآتهما وانكشفت) وربما كانت فى الأصل (استنكف) اى خجل مما فعل فهى قريبة فى الكتابة وملاءمة السياق .

(٢) آية ١٦ سورة القصص .

(٣) آية ٥٥ سورة غافر .

(٤) عن اغر مزينة رضى الله عنه قال : قال رسول الله : إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله تعالى فى اليوم والليل مائة مرة . أخرجه مسلم وأبو داود .

(٥) آية ٢ سورة الفتح .

(٦) ربما كانت (البأس) بالباء فهى ملاءمة للسياق .

يذكرهم آلاءه، ويعدُّ عليهم نعماءه، ويأمرهم بالتزام الطاعة والقيام بالشكر لِمَا أسبغ عليهم من فنون النِّعم، ثم يذكرهم مامَنَّ به على أسلافهم من إنزال المنِّ والسلوى، وضروب المِحَنِ وفنون البلوى.

قوله جل ذكره: ﴿ كُلُوا مِنْ طيباتِ ما رَزَقْناكم ولا تطغَوْا فيه ﴾.

الطيبُ ما كان حلالا. ويقال الطيب من الرزق مالا يَعْصِي اللهَ مُكْتَسِبُهُ. ويقال الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرزاق. ويقال الطيب من الرزق ماحَصَل منه الشكرُ. ويقال الطيب من الرزق ما يأخذه العبدُ من اللهِ ؛ فما لأهل الجنةِ مُؤَجَّلٌ فى عقباهم جهراً، معجّلٌ لأصفيائه فى دنياهم سِرّاً، قال تعالى: « آخذين ما آتاهم ربهم[1] ».

والأرزاقُ مختلفةٌ ؛ فلأقوام حظوظُ النفوس ولآخرين حقوقُ القلوب، ولأقوامٍ شهودُ الأسرار ؛ فرزق النفوس التوفيق، ورزق القلوب التصديق، ورزق الأرواح التحقيق[2].

قوله: « ولا تطغوا فيه »: بمجاوزة الحلالِ إلى الحرامِ.

ويقال « لا تطغوا فيه »: بالزيادة على الكفاف[3]، وما لابُدَّ منه مما زاد على سدٍّ الرمق.

ويقال « لاتطغوا فيه »: بالأكل على الغفلة والنسيان.

قوله جل ذكره: ﴿ فيَحِلَّ عليكم غَضَبِي ومَنْ يَحْلِلْ عليه غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾.

فيحل عليكم غضبى بالخذلانِ لمتابعة الزَّلَّة بعد الزَّلَّة.

ويقال فيحل عليكم غضبى لِفَقْدِكم التأسّفَ على مافاتكم.

ويقال بالرضا بما أنتم فيه من نقصان الحال.

---

(١) آية ١٦ سورة الذاريات.

(٢) نضع ذلك فى اعتبارنا عند بحث الملكات الباطنية، ووظائفها وآفاتها ... وأرزاقها.

(٣) الكفاف من الرزق ماكان على مقدار الحاجة من غير زيادة ولا نقصان.

قوله جل ذكره : ﴿ وإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً ثم اهْتَدَى ﴾ .

الغفَّار كثيرُ المغفرة ؛ فمِنْكَ التوبةُ عن زَلّةٍ واحدةٍ ومنه المغفرة لذنوبٍ كثيرةٍ ، ومنه السِّرِّيةُ التى لا اطلاعَ لأحدٍ غيره عليها وما للملائكة عليها اطلاع . وهو يغفر لِمَنْ عَمِلَ مثل عَمَلِكَ ، وهو يغفر لِمَنْ قَلْبُكَ مُرِيدٌ له بالخير والنعمة ، وكما قالوا .

إنى — على جَفَوَاتِها — فبِرَبِّها وبكل مُتَّصِلٍ بها متوسِّلُ
وأُحِبُّها وأُحِبُّ منزلَها الذى نَزَلَتْ به وأُحِبُّ أهلَ المنزلِ

قوله « وإنى لغفار لمن تاب وآمن » : فلا تَصِحُّ التوبةُ إلا لمن يكون مؤمناً .

وقوله هنا : « وآمن » : أى آمن فى المآلِ كما هو مؤمنٌ فى الحال .

ويقال آمن بأنه ليست نجاته بتوبته وبإيمانه وطاعته ، إنما نجاتُه برحمته .

ويقال « وإنى لغفارٌ لمن تاب » : مِنَ الزَّلَّة « وآمن » : فلم يَرَ أعمالَه من نَفْسه ، وآمن بأن جميعَ الحوادثِ من الحقِّ — سبحانه — « وعمل صالحاً » : فلم يُخِلَّ بالفرائض ثم اهتدى للسُّنَّةِ والجماعة[1] .

ويقال « ثُمَّ » : للتراخى ؛ أى آمن فى الحال « ثم » اهتدى فى المآل .

ويقال مَنْ سَمِعَ منه « وإنِّي » لا يقول بعد ذلك : « إنِّى »[2] .

ويقال من شَغَلَه سماعُ قوله : « وإنى » اسْتُهْلِكَ فى استيلاءِ ما غَلَبَ عليه من ضياء القربة ، فإذا جاءت « لَغَفَّارٌ » صار فيه بعين المحو ، ولم يتعلق بذنوب أصحابه وأقاربه وكل من يعتنى بشأنه .

ويقال « إنى لغفار » كثير المغفرة لمن تاب مرةً ، فيغفر له أنواعاً من ذنوبه التى لم يَتُبْ منها سِرِّها وجَهْرِها ، صغيرِها وكبيرِها ، وما يتذكر منها وما لا يتذكر . ولا ينبغى أنْ يقولَ :

---

(١) واضح حرص القشيرى السنى على التمسك بسنيته — وهذا أصل ثابت فى مذهبه سواء فى علم الكلام أو فى علم التصوف .

(٢) فالتوحيد الصادق إسقاط الياءات ونفى كل دعوى للنفس .

عملت « عملاً صالحاً » : بل يلاحظُ عَمَلَه بعينِ الاستصغارِ ، وحالتَه بغيرِ الاستقرار .

وقوله « ثم اهتدى » : أي اهتدى إلينا بنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أعْجَلَكَ عن قَوْمِكَ يا موسى ﴾

أَخْرَجَهُمْ مع نَفْسِه لمَّا استصحبهم ، ثم تقدَّمَهم[1] بخطوات فتأخروا عنه ، فقيل له فى ذلك مراعاةً لحقِّ صحبتهم .

ويقال قومٌ يُعاتَبون لتأخرهم وآخرون لتقدمهم . . فشتان ماهما !

قوله جل ذكره : ﴿ قال هم أُولاءِ على أَثَرِى وعَجِلْتُ إليكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾

أى عَجِلْتُ إليكَ شوقاً إليك ، فاستخرج منه هـذا الخطاب ، ولولا أنه استنطقه لَمَا أخبر به موسى[2] .

قوله « هم أولاء على أثرى . . » أى ما خلَّفْتُهم لتضييعى أيامى ، ولـكنى عَجِلْتُ إليك لترضى . قال : يا موسى إنَّ رِضائى فى أن تـكون معهم وألَّا تَسْبِقَهم ، فـكونُكَ مع الضعفاءِ الذين استصحبْتَهم — فى معانى حصول رضائى — أبلغَ مِنْ تَقَدُّمِكَ عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فإنَّا قد فَتَنَّا قومَكَ من بَعْدِكَ ﴾

فَتَنَّا قومَك فَضَلُّوا وعبدوا العِجْلَ ؛ فأخبر الحقُّ — سبحانه — أنَّ ذلك منه تقدير ، وفى هذا تـكذيبٌ لِمَنْ جَحَدَ القولَ بالقَدَرِ .

ويقال طَلَبَ موسى — عليه السلام — رِضَاء الحق ، وقدَّر الحقُّ — سبحانه — فتنةَ قَوْمِه فقال : « إنا قد فتنا قومك من بعدك » ، ثم الحُكْمُ لله ، ولم يكن بُدٌّ لموسى عليه السلام من الرضاء بقضاء الله — فلا اعتراضَ على الله — ومِنَ العلم بحقِّ اللهِ فى أنْ يفعلَ ما يشاء ، وأنشدوا :

أُريد وِصَالَه ويريد هجرى ... فأتركُ ما أُريد لما يُريد

---

(١) حين ذهب لميقات ربه .

(٢) وإلا كان دعوى من النفس . ويفيدنا هذا الرأى فى قضية الإفصاح والـكتمان .

قوله جل ذكره: ﴿ وأَضَلَّهُم السَّامِرِيُّ ﴾

بدعائه إياهم إلى عبادة العجل، وهو نوع من التغرير، وحصل ما حصل، وظهر ما ظهر من (...)[1].

قوله جل ذكره: ﴿ فَرَجَعَ موسى إلى قومِهِ غَضْبانَ أسِفًا ﴾

ورجع نبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — من المعراج بنعت البسط، وجاء بالنجوى[2] لأصحابه فيما أوجب الله عليهم من الصلاة، وأكرمهم به من القربة بالزلفة.. فشتان ماهما!

ورجع موسى إلى قومه بوصف الغضب والأسف، وخاطبهم ببيان العتاب:

﴿ قال يا قومِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكم وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عليكم العَهْدُ؟ أم أردتم أَنْ يَحِلَّ عليكم غَضَبٌ من ربكم فأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي ﴾

ظنوا بنبيِّهم ظنَّ السَّوْءِ فى خلفه الوعد، فَلَحِقَهُمْ شؤمُ ذلك حتى زاغوا عن العهد، وأشركوا فى العقد.. وكذلك يكون الأمر إذا لم يَفِ المرء بعقده، فإنه ينخرط فى هذا السِّلْكِ.

قوله جل ذكره: ﴿ قالوا ما أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمِلْكِنا ولكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزَارًا من زِينةِ القومِ فَقَذَفْناها فكذلك أَلْقَى السامِرِيُّ ﴾

قالوا لم نكن فى ابتداءِ حالِنا قاصدين إلى ما حَصَلَ مِنَّا، ولا عالمين بما آلَتْ إليه عاقبةُ

---

(١) مشتبهة، وهى قريبة فى الخط من (التعدية) وربما كانت صحيحة بمعنى التعدى؛ لأنهم تركوا عبادة الله إلى عبادة العجل فظلموا أنفسهم وتجاوزوا حدودهم.

(٢) ربما كانت (بالنجاة) حيث تتضح المقابلة بين أمة عاد إليها نبيها من عند ربه (بالنجاة) وأمة عاد إليها نبيها منذراً بالعقوبة ومع ذلك فقد قبلنا (النجوى) على أساس أنها جوهر الصلاة.

حالنا ، وإن الذى حملنا من حُلِيِّ القبط صاغَ السامرىُّ منه العجلَ . . وكذلك الحرامُ من حطام الدنيا لا يخلو من شؤم أثره . فلقد كانت الغنيمة وأموال المشركين حراماً عليهم ، فاستعاروا الحلىَّ من القبط ، وآل إليهم ما كان فى أيديهم من المُلْكِ ، فكان سبب عبادتهم العجْل . . كذلك مَنْ انهمك فى طلب الدنيا من غير وجهِ حلالٍ يكون على خَطَرٍ من رِقَّةِ دِينهِ ، قال تعالى : « أفرأيتَ من اتخذ إلٰهه هواه »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فأَخْرَجَ لهم عِجْلاً جَسَداً له خُوَارٌ فَقَالُوا هـذا إلٰهُـكُم وإلٰهُ موسى فَنَسِيَ * أفلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إليهم قَوْلاً ولا يَمْلِكُ لهم ضَرّاً ولا نَفْعاً ﴾

يقال إنهم لمَّا مَرُّوا على قومٍ يعبدون أصناماً لهم قالوا لموسى : اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة ، وكان ذلك الصنم على صورة العجل فكان مَيْلُهم إلى عبادته مُسْتَكِناً فى قلوبهم ، فصاغ السامرىُّ العجلَ على تلك الصورة . وفى هذه إشارة إلى أن خفايا الهوى إذا استكنَّت فى القلب فما لم يُنْقَش ذلك الشرك بمنقاش المنازلة يُخْشَى أن يَلْقَى صاحبُه (. . .)[2] .

ويقال إن موسى — عليه السلام — خرج من بين أمته أربعين يوماً فَرَضِىَ قومُه بعبادة العجل ، ونبيُّنا — عليه السلام — خرج من بين أمته وأتت سنون كثيرة ولو ذَكَرَ واحدٌ عند مَنْ أخلص مِنْ أمته فى التوحيدِ حديثاً فى التشبيه لعدوا ذلك منه كبيرةً ليس له منها مَخْلَص[3] .

كذلك فإنهم استحفظوا كتابهم فبدَّلوه تبديلاً ، بينما ضَمِنَ الحقُّ — سبحانه — إعزازَ هذا الكتاب بقوله : « إنا نحن نَزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون »[4] .

---

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

(٢) مشتبهة وهى فى الرسم تقرب من (نعيبه) والنعيب صوت الغراب .. فهل يقصد القشيرى — ما ذكره منذ قليل — أن صاحبه يلقى شؤم أثر ذلك ؟ أم أن اللفظة فى الأصل غير ذلك؟ ربما كانت (محبه) أو (نعيه) أو (مغبته) .

(٣) لأن المشبهة يدنون بتصورانهم المادية عن الألوهية من عبدة العجل .

(٤) آية ٩ سورة الحجر .

وقال : « ليظهره على الدِّين كُلِّهِ »(١) .

قوله : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً . . . » بيَّن أنَّ مَنْ لا قول له لا يتكلم ، ومن لا يملك الضر والنفع لا يستحق العبادة ، وفيه رَدٌّ على مَنْ لم يُثْبِتْ له فى الأَزَلِ القولَ ، ولم يَصِفْه بالقدرة على الخير والشر :

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد قال لهم هارونُ من قَبْلُ ياقومِ إنَّما فُتِنْتُم به وإنَّ ربَّكم الرحمنُ فاتَّبِعونِ وأَطِيعوا أمرى ﴾

إنهم لم يحفظوا أمر موسى وهو فوق هارون ، والإشارة فى هـذا أن من لم يحفظ أمر مَنْ هو أعلى رتبةً كيف يحفظ أمر من هو أدنى منزلةً ؟ فَمَنْ تَرَكَ أَمْرَ الحقِّ . . كيف يُطْمَعُ فيه أن يحترم الشيوخَ وأكابرَ الناس ؟ لهذا قيل : لا حُرْمَةَ لفاسق ؛ لأنه إذا تَرَكَ حقَّ الحقِّ فمتى يحفظ حَقَّ الخَلْق ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لَنْ نَبْرَحَ عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾

كان ذلك تَعَلُّلاً منهم بالباطل ، فقالوا إنهم كانوا عازمين على تَرْكِ عبادة العجل ؛ إذ به يتحققون أن موسى عليه السلام دعاهم إلى التوحيدِ وتَرْكِ عبادةِ غيرِ اللهِ . . ولكنْ كلُّ مُتَعَلِّلٍ يَسْتَنِدُ إلى ما يحتج به من الباطل .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ياهارون ما مَنَعَكَ إِذْ رأيتَهم ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾

ضاق قلبُ موسى — عليه السلام — لمَّا شاهد من قومه بالمعاينة عبادة العجل ، ولقد كان سمع من الله أنَّ السامرىَّ أَضَلَّهم حين قال : « إنَّا قد فتنا قومك » ، ولكن قديماً قيل : ليس الخبر كالعيان ، فلمَّا عايَنَ ذلك ضاق قلبُه ، فكان يقول لأخيه ذلك فظهر منه ما ظهر(٢) ،

---

(١) آية ٢٨ سورة الفتح .

(٢) إشارة إلى أنه أخذ بشعر رأسه بيمينه ، ولحيته بشماله غضباً ، وغيرة فى الله .

وقيل : مَنْ ضاق قلبُه اتسع لسانُه . ولما ظهر لموسى — عليه السلام — ما ظهر أخذ هارون يقابله بالرفق واللطف وحسن المداراة . . وكذلك الواجب فى الصحبة لئلا يرتقى الأمرُ إلى الوحشة ، فاستلطفه فى الخطاب واستعطفه بقوله :

﴿ قال يا ابن أُمَّ لا تأْخُذْ بلحيتى
ولا برأسى إنّى خَشِيتُ أنْ تقولَ
فَرَّقْتَ بين بنى إسرائيلَ ولم تَرْقُبْ
قَوْلى ﴾

أنتَ أمَرْتَني ألَّا أُفَارِقَهم . وقد يُقال إن هارون لو قال لموسى :فى الوقتِ الذى احتَجْتَ أنْ تَمْضِىَ إلى فرعون قلتَ : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا » ، وقلت : « أرْسِلْه معى » ، وقلت حين مضيتَ إلى سماع كلام الحق : « اخلفنى فى قومى » . . . فما اكتفيت بأَنْ لم تستصحبنى . . وخَلَّفْتَنى ! وقد عَلِمْتَ أنى برىءُ الساحةِ مما فعلوا فأخذتَ بلحيتى وبرأسى . . . ألم ترضَ بما أنا فيه حتى تزيدنى حَرْياً على حَرْيِ[1] ؟! ... لو قال ذلك لكان مَوْضعَه ، ولكنْ لِحلْمِه ، ولِعِلْمِه — بأنَّ ذلك كُلَّه حُكْمُ ربهم — فقد قابَلَ كلَّ شىءٍ بالرضا .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فما خَطْبُكَ يا سَامِرِىُّ ؟ ﴾

سأل موسى كلَّ واحدٍ منهم بنوعٍ آخر ، وإن معاتبته مع قومه ، ومطالبته لأخيه ، وتغيُّرَه فى نَفْسِه ، واستيلاء الغضب عليه — لم يغيِّرْ التقدير ، ولم يؤخِّرْ المحكوم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا به
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً من أَثَرِ الرسولِ
فَنَبَذْتُها وكذلِكَ سَوَّلَتْ لى نَفْسِى ﴾

عَلِمْتُ ما لم يعلمه بنو إسرائيل فرأيتُ جبريلَ ، فقبضتُ الترابَ من موضعِ حافرِ

(١) الحرى = الغضب (الوسيط جـ ١ ص ١٦٩)

دابته ، وأُلقِيَ في رَوْعي أن ذلك سببُ حياةِ العجل فطرحْتُها في جوفه . . . هكذا زَيَّنَتْ لي نفسي فاتَّبَعْتُ هواها .

ثم كان هلاكُه . . لئلا يأمَنَ أحدٌ خفيَّ مَكْرِ التقدير ، ولا يركَنَ إلى ما في الصورة من رِفْقٍ فَلَعَلَّه — في الحقيقة — يكون مكراً ، ولقد أنشدوا :

فأَمِنْتُه فأَتَاحَ لي من مَأْمَنِي مَكْراً ، كذا مَنْ يَأْمَنُ الأحبابا

قوله جل ذكره : ﴿ قال فاذهب فإنَّ لك في الحياة أَنْ تقولَ لا مِسَاسَ وإنَّ لكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾

لم يَخْفَ على موسى — عليه السلام — تأثيرُ التقديرِ وانفرادُ الحقِّ بالإبداع ، فلقد قال في خطابه مع الحق : « إن هي إلا فتنتك » ، ولكنه لم يدع — مع ذلك — بإحلال العقوبةِ بالسامري والأمر في بابه بما يستوجبه ؛ ليُعْلَمَ أن الحُكْمَ في الإبداع والإيجاد — وإنْ كان لله — فالمعاتبةُ والمطالبة تتوجهان على الخَلْقِ في مقتضى التكليف ، وإجراء الحقِّ ما يُجْرِيه ليس حُجَّةً للعبد ولا عُذْراً له .

قوله جل ذكره : ﴿ وانظُرْ إلى إلٰهكَ الذي ظَلْتَ عليه عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثم لَنَنْسِفَنَّهُ في اليمِّ نَسْفًا ﴾

كلُّ ما تَعَلَّقَ به القلبُ من دون الله يَنْسِفُهُ الحقُّ — سبحانه بِمُحِبِّهِ[1] ؛ ولهذا يُلْقِي الأصنامَ غداً في النار مع الكفار ، وليس لها جُرْمٌ ، ولا عليها تكليف ، ولا لها عِلْمٌ ولا خبر . . وإنما هي جماداتٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما إلٰهُكُمُ اللهُ الذي لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شيءٍ عِلْمًا ﴾

إن إلهكم الذي تجب عليكم عبادتُه بحقِّ أمره هو اللهُ الذي لا إله إلا هو ، وهو بوصف الجلال ، والذي لا يخفى عليه شيء من المعلومات هو الله ، وليس مِثْلَ الذي هو جماد لا يَعْلَمُ

---

(١) الباء هنا معناها (مع) .

ولا يَقْدِرُ ، ولا يحيا ولا يسمع ولا يبصر . ويمكنه أن يَسْحَقَ هذا الجمادَ ويحرقه .

قوله جل ذكره : ﴿ كذلك نَقُصُّ عليكَ من أنباءِ
مَا قد سَبَقَ وقد آتيناكَ من لَدُنَّا
ذِكْرًا ﴾

نعرِّفك أحوالَ الأولين والآخرين لئلا يَلْتَبِسَ عليكَ شيء من طُرُقِهم ؛ فتتأدبَ بآدابِهم وتجتمعَ فيك متفرِّقاتُ مناقِبِهم .. ولكن اعلمْ أَنَّا لم نُبلِغْ أحداً مَبْلَغَكَ ، ولم يكن لأحدٍ منّا مالَكَ ؛ آتيناك من عندنا شرفاً وفخرا لم يشركك فيهما أحدٌ ، وذكَّرْناك ما سَلَفَ لكَ من العهد معنا ، وجَدَّدْنا لك بينهم تخصيصَنا إياك ، وكريمَ إقبالِنا عليك .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عنه فإنَّه يَحْمِلُ يومَ
القيامة وِزْراً ﴾

المعْرِضُون عنه شركاه يحملون غداً وِزْراً وثِقْلاً ، أولئك بَعُدُوا عن محلِّ الخصوصية ، ولم يكن لهم خَطَرٌ في التحقيق ؛ فعقوبتُهم لا تزيد على آلام نفوسِهم وإحراقِ أشباحهم ، وأمَّا أهل الخصوصية فلو غفلوا عنه ساعةً ونَسَوْه لحظةً لدَارَ — في الحالِ — على رءوسهم البلاء بحيث تتلاشى في جَهنَّم عقوبةُ كلِّ أحدٍ (بالإضافة إلى هذه العقوبة)(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ في الصُّورِ ونَحْشُرُ
المجرمين يومئذٍ زُرْقاً * يَتَخَافَتُون
بينهم إنْ لبِثْتُم إلاَّ عَشْراً * نحن
أَعْلَمُ بِمَا يقولون إذْ يقولُ أَمْثَلُهُم
طريقةً إنْ لَبِثْتُم إلاَّ يوماً ﴾

قومٌ يومُ القيامة لهم مؤَجَّل ، وهو بعد النفخ في الصُّور على ما وَرَدَ في الكتاب وفي الخبر المأثور .

---

(١) ما بين القوسين أضفناه من عندنا ليتضح المعنى المطلوب حسبما نعرف من مذهب الصوفية أن عذاب الفراق أشد من عذاب الاحتراق .

وللآخرين قيامةٌ معجّلةٌ[1] ؛ فيها محاسبة وعليهم فيها مطالبة ، وهوان حاضر وعذاب حاصلٌ ، فكما تَرِدُ على ظواهرِ قومٍ فى الآخرة عقوباتٌ ، تَرِدُ على سرائر آخرين عقوباتٌ فى الحياة الحاضرة ، والمعاملةُ مع كلٍّ أحدٍ تخالف المعاملةَ مع صاحبه .

قوله « يتخافتون بينهم . . . » مَنْ تَفَرَّغَ لِمَدِّ الأوقاتِ والتمييز بين اختلاف الحالات فنوعٌ غيرُ مستوفٍ فى بلائه ، وأمره سهلٌ . . . ومَنْ كان يُرَادُ المعنى من حديثه لا يتفرغ إلى نعت الحال ؛ فالأحوال تخبر عنه وهو لا يُسْأَلُ عن الخبر .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونكَ عن الجبالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا ربى نَسْفاً * فيذَرُها قاعاً صَفْصَفاً *
لا تَرَى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً ﴾

كما أنَّ فى القيامةِ الموعودةِ تُغَيَّرُ الجبالُ عن أحوالِها فهى كالعِهْنِ المنفوش فكذلك فى القيامة الموجودة . . . فلا يخبرك عنها إلا الأكابر الذين هم كالرواسى ثباتاً ؛ فإنه يُدْخِلُ عليهم من الأحوال ما يمحقهم عن شواهدهم ، ويأخذهم عن أقرانهم . . . كذا سُنَّتُهُ سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ يومئذٍ يَتَّبِعُون الداعىَ لا عِوَجَ له وخَشَعَتْ الأصواتُ للرحمنِ فلا تَسْمَعُ إلا هَمْساً ﴾

تنقطع الأوهام ، وتقف الأفهام ، وتنخنس العقول ، وتندرس العلومُ ، وتتحير المعارفُ ، ويتلاشى ما هو نَعْتُ الخلْق ، ويستولى سلطانُ الحقيقة . . فعند ذلك لا عينٌ ولا أثرٌ ، ولا رسم ولا طلل ولا غَبَرٌ ، فى الحضور خرَسٌ ، وعلى البساط فَنَاء[2] ، وللرسوم امتحاء ، وإنما الصحة على الثبات .

قوله جل ذكره : ﴿ يومئذٍ لا تَنْفَعُ الشفاعةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ له الرحمنُ ورَضِىَ له قَوْلاً ﴾

---

(١) أى القيامة التى تحل بأرباب القلوب فى هذه الحياة الدنيا .
(٢) لأنه يكون فانياً عن نفسه ، والقائم عنه ربُّه .

دليلُ الخطابِ أنَّ مَنْ أَذِنَ له فى الشفاعةِ تنفعه الشفاعةُ ، وإذا قُبِلَتْ شفاعة أحدٍ بإذن الرحمن فَمِنَ المُحالِ ألاَّ تُقْبَلَ شفاعةُ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — وهو أفضل الكافة ، وشفاعةُ الأكابرِ من صفوته مقبولةٌ فى الأصاغرِ في المُؤَجَّل وفى المُعَجَّل . والحقُّ سبحانه يُشَفِّعُ الشيوخَ فى مريديهم اليوم[1] .

ويقال شفاعة الرسول عليه السلام غداً للمطيعين بزيادة الدرجة ، وللعاصين بغفران الزَّلَّة ، كذلك شفاعة الشيوخ — اليوم — للمريدين على قسمين : للذين هم أصحاب السلوك فبزيادة التحقيق والتوفيق ، وللذين هم أصحاب التَّخَبُّطِ والغِرَّة فبالتجاوز عنهم ، وعلى هذا يُحْمَلُ قولُ قائلهم :

إذا مَرِضْتُم أَتَيْنا كُم نعودُ كُم وتُذْنِبُون فنأتيكم ونعتَذِرُ !

وحكاياتُ السَّلفِ من الشيوخ مع مريديهم فى أوقات فترتهم معروفة ، وهى مُشَاكِلةٌ لهذه الجملة ، وإن شفاعتَهم لا تكون إلا بتعريفٍ من قِبَلِ الله فى الباطن ، ويكون ذلك أدباً لهم فى ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْلَمُ ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ولا يُحِيطون به عِلْماً ﴾

لا يخفى على الحق شىء مما مضى من أحوالهم ولا مِنْ آتيها ، ولا يحيطون به عِلْماً . والكناية[2] فى قوله : « به » يحتمل أن يعود إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، ويحتمل أن يعود إلى الحقِّ — سبحانه — ، وهو طريقة السَّلَف ؛ يقولون : يعلم الخلْقَ ولا يحيط به العلم ، كما قالوا : إنه يُرَى ولا يُدْرَك .

قوله جل ذكره : ﴿ وعَنَتْ الوجوهُ للحيِّ القيوم وقد خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ .

---

(١) بينما ينكر المعتزلة الشفاعة (أنظر الملل والنحل للشهرستانى) يثبت القشيرى الشفاعة لا للرسول فقط بل للأولياء فى الدارين ، وللشيوخ في هذه الحياة الدنيا .. على نحو ما هو واضح من إشارته.

(٢) الكناية فى تعبير القشيرى معناها (الضمير) ، وهو هنا الهاء فى (به) .

ذلَّتْ له الرقاب واستسلم لحكمه الخلْقُ ، وخضعت له الجبابرةُ ، ومَنْ اقترف الظلمَ بقى فى ظُلُماته ، وعلى حسب ذلك فى الزيادة والنقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ يَعْمَلْ من الصالحاتِ وهو مؤْمِنٌ فلا يخافُ ظُلماً ولا هَضْمَا ﴾ .

العمل الصالح مايصلح للقبول ، وفاعِلُه هو المتجرِّدُ عن الآفاتِ الواقفة لحقيقة الأمر .

ويقال العمل الصالح مالم يستعجل عليه صاحبُه أجراً .

قوله : « وهو مؤمن » : أى فى المـآل كما هو مؤمن فى الحال .

ويقال هو مؤمنٌ مصدِّق لربِّه أنه لايعطى المؤمنَ لأَجْلِ إيمانه شيئا ، ولكن بفضله ، وإيمانه أمارةٌ لذلك لاموجِبٌ له [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآناعربيا وصَرَّفنا فيه من الوعيدِ لعلَّهم يتقون أو يُحدِثُ لهم ذِكْرًا ﴾ .

أتْبَعْنا دليلا بعد دليل ، وبعثنا رسولا بعد رسول ، وحَذَّرْناهم بوجوهٍ من التعريفات ، وإظهارِ كثيرٍ من الآيات .

قوله جل ذكره : ﴿ فتعالى اللهُ الملِكُ الحقُّ ﴾ .

تعالى اللهُ فى كبريائه ، وكبرياؤه : سناؤه وعُلاه ومَجْدُه ورِفْعَتُه وعَظَمَتُه ، كل ذلك بمعنًى واحد ، وهو استحقاقه لأوصاف الجلال والتعظيم .

و « الملِكُ » : مبالغةٌ من المالك ، وحقيقة الملك القدرة على الإيجاد ، والانفراد بذلك .

و « الحقُّ » : فى وصفه — سبحانه — بمعنى الموجود ، ومنه قوله عليه السلام : « العين حق » [2] أى موجود .

---

(١) على خلاف قول المعتزلة الذين يوجبون على الله أن يثيب من أطاع ويعاقب من أذنب .

(٢) يقول القشيرى فى تحبيره ص ٦٨ « الحق من أسمائه سبحانه بمعنى الموجود الكائن ، وكذا معناه فى اللغة ، ومنه قوله عليه السلام : « السحر حق » أى كائن موجود ، وكذا يقال الجنة حق ، والنار حق .

ويكون الحق بمعنى ذى الحقّ ، ويكون بمعنى مُحِقّ الحق . كل ذلك صحيح .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَعْجَلْ بالقرآن من قَبْلِ أن يُقْضَى إليكَ وَحيُه وقُلْ رَبِّ زِدْنى عِلْماً ﴾ .

كان يتعجل بالتلقف من جبريل مخافةَ النسيان ، فأمَرَه بالتثبت فى التلقين ، وأمَّنَه من طوارق النسيان ، وعرَّفه أن الذى يحفظ عليه ذلك هو الله .

والآية تشير إلى طَرَفٍ من الاحتياط فى القضاء بالظواهر قبل عرضها على الأصول ، ثم إنْ لم يوجد ما يُوجِبُ بالتحقيق أجراه على مقتضى العموم بحقِّ اللفظ ، بخلاف قول أهل التوقف .

فالآية تشير إلى التثبت فى الأمور وضرورة التمكث واللبث قصداً للاحتياط [1] .

قوله : (وقل ربِّ زدنى علماً) : فإذا كان أعْلَمُ البَشَرِ ، وسيِّدُ العرب والعجم ، ومَنْ شهد له الحقُّ بخصائص العلم حين قال « وعلَّمَكَ مالم تكن تعلم » [2] يقال له : « وقل رب زدنى علماً » — علِمَ أنَّ ما يخصُّ به الحقُّ أولياءه من لطائف العلوم لاحَصْرَ له .

ويقال أحاله على نفسه [3] فى استزادة العلم . وموسى عليه السلام أحاله على الخضر حتى قال له : « هل أتبعك على أن تُعَلِّمَنِ مما علمت رشداً » فشتان بين عبدٍ أحيل على عبدٍ فى ذلك ثم قيل له : « إنك لن تستطيع معى صبراً » ثم بعد كل ذلك التلطف قال له فى آخر الأمر : « هذا فراق بينى وبينك » . . . وبين عبدٍ أمَرَه عند استزادة العلم بأن يطلبه من قِبَلِ ربه فقال : قُلْ يامحمد : « وقل ربٌّ زدنى علماً » !

ويقال لما قال عليه السلام : « أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له » [4] ، قال له : « وقل رب زدنى علماً » لِيُعْلَمَ أنَّ أشرفَ خِصالِ العبدِ الوقوفُ فى محلِّ الافتقار ، والاتصاف بنعت الدعاء دون الوقوف فى مَعْرِض الدعوى [5] .

---

(١) هذا يوضح مدى تحفظ المصنف واحتياطه في تناول النص النقلى .

(٢) آية ١١٣ سورة النساء .

(٣) (على نفسه) الضمير هنا يعود على الحق سبحانه كما سيتضح بعد قليل .

(٤) البخارى عن أنس : (والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له) .
والشيخان عن عائشة : (والله إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية) .

(٥) أى أن يكون العبد داعياً لا دعيا .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ من قَبلُ فَنَسِيَ ولم نَجِدْ له عَزْماً ﴾

لم نجد له قوةً بالكمال ، وانكماشاً فى مراعاة الأمر حتى وقعت عليه سِمَةُ العصيان بقوله: « وعصى آدم ربَّه »[1] .

ويقال « لم نَجِدْ له عزماً » : على الإصرار على المخالفة .

ويقال لم نجد له عزماً فى القصد على الخلاف[2] ، وإنْ كان.. فذلك بمقتضى النسيان ، قال تعالى « فَنَسِيَ ولم نجد له عزماً » على خلاف الأمر ، وإنْ كان منه اتباعٌ لبعض مطالبات الأمر .

ويقال شرح قصة آدم — عليه السلام — لأولاده على حجة التسكين لقلوبهم حتى لا يقنطوا من رحمة الله ؛ فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرقم ، واستقبلته هذه الخطيئة ، وقوله تعالى « فنسى » من النسيان ، ولم يكن فى وقته النسيان مرفوعاً عن الناس .

ويقال عاتبه بقوله : « فنسى » ثم أظهر عُذْرَه فقال : « ولم نجد له عزماً » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قُلْنا للملائكةِ اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلاَّ إبليس أَبَى ﴾

السجود نوع من التواضع وإكبار القَدْر ، ولم تتقدم[3] [من آدم عليه السلام طاعة ولا عبادة فَخَلَقه الحقُّ بيده ، ورَفَعَ شأنَه بعدما علَّمه ، وحُمِلَ إلى الجنة ، وأمَرَ الملائكةَ فى كل سماءٍ أن يسجدوا له تكريماً له على الابتلاء ، واختباراً لهم . فسجدوا بأجمعهم ، وامتنع ابليسُ من بينهم ، فَلَقِيَ من الهوان ما سبق له فى حكم التقدير . والعَجَبُ ممن يخفى عليه أنَّ مثل هذا يجرى من دون إرادة الحقِّ ومشيئته وهو عالمٌ بأنه كذلك يجرى ، واعتبروا الحكمةَ فى أفعاله وأحكامه ، ويزعمون أنه علم ما سيكون من حال إبليس وذريته ، وكثرة مخالفات

---

(١) آية ١٢١ من السورة نفسها .

(٢) الخلاف = المخالفة .

(٣) ابتداء من هذا الموضع وحتى ينتهى الكلام بين القوسين الكبيرين وضعه الناسخ خطأ فيما بين الورقة ٤١٨ والورقة ٤٢٢ عند تفسير سورة الفرقان أى فى مكان متأخر كثيراً وقد صححنا وضعه ، ونبهنا إلى ذلك فى مدخل هذا الكتاب (المجلد الأول)

أولاد آدم ، وكيف أن الشيطان يوسوس لهم . . . ؛ ثم يقولون إن الحقَّ سبحانه أراد خلاف ما علِمَ ، وأجرى فى سلطانه ما يكرهه وهو عالِمٌ ، وكان عالما بما سيكون ! ثم خلق إبليس ومكَّنه من هذه المعاصى مع إرادته ألا يكون ذلك ! ويدَّعُون حُسْنَ ذلك فى الفعل اعتباراً أنما هو الحكمة . . . فسبحان مَنْ أعمى بصائرَهم ، وعمَّى حقيقةَ التوحيد عليهم !

قوله جل ذكره : ﴿ فَقُلْنَا يا آدمُ إنَّ هذا عدوٌّ لَكَ ولزوجكَ فلا يخرجنكما من الجنة فَتَشْقَى ﴾

وما كان ينفعهم النُّصْحُ وقد أراد بهم ما حذَّرَهم ، وعَلِمَ أنهم سيلقون ما خوَّفهم به .

قوله : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » : علِم أنهم سيلقون ذلك الشقاء : وأمَّا إنَّه أضاف الشقاءَ إلى آدم وحدَه — وكلاهما لحِقَه شقاء الدنيا — فذلك لمضارعة رءوس الآى ، أو لأن التعبَ على الرجال دون النساء . ومَنْ أصغى إلى قول عدوِّه فإنه يتجرَّعُ النَّدَمَ ثم لا ينفعه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ لَكَ ألاَّ تجوعَ فيها ولا تَعْرَى * وأنَّكَ لا تظمأُ فيها ولا تَضْحَى ﴾

لا تصديقَ أتمُّ من تصديقِ آدم ، ولا وعظَ أشدُّ رحمةً من الله ، ولا يقينَ أقوى من يقينه . . ولكن ما قاسى آدمُ الشقاء قبل ذلك ، فلمَّا استقبله الأمرُ وذاق ما خُوِّف به من العناءِ والكدِّ نَدِمَ وأطال البكاء ، ولكن بعد إبرام التقدير .

« وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » أُوثِرَ بكل وجه ؛ فلم يعرف قَدْرَ العافيةِ والسلامةِ ، إلى أن جرى ما هو محكومٌ به من سابقِ القسمة .

ويقال تنعَّمَ آدمُ فى الجنة ولم يعرف قدر ذلك إلى حين استولى فى الدنيا عليه الجوعُ والعطشُ ، والبلاء من كل (. . .)[1] .

---

(١) هنا طمس أخفى لفظة فى نهاية السطر وهى أقرب إلى أن تكون (فن) ونحن نتقبلها ، فالقشيرى يستعملها فى مواضع مماثلة (أنظر مثلا استعماله (فنون الخذلان) عند تفسير الآية التى ستأتى بعد قليل : ومن اعرض عن ذكرى ...) ، و (فن) تكون بمعنى (نوع) كما سيأتى فى العبارة التالية .

وكان آدم عليه السلام إذا تجدَّدَ له نوعٌ من البلاء أخذ فى البكاء، وجبريل عليه السلام يأتى ويقول : « ربك يقرئك السلامَ ويقول : لِمَ تبكى ؟ فكان يُذَكِّر جبريلَ عليه السلام وهو يقول : أهذا الذى قُلْتَ : « وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » . . ! وغير هذا من وجوه الضمان والأمن ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَسْوَسَ إليه الشيطانُ قال يا آدمُ
هل أَدُلُّكَ على شجرةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ
لا يَبْلَى ﴾

وسوس إليه الشيطان وكان الحقُّ يعلم ذلك ولم يذكُرْ آدمُ فى الحال أن هذا من نزغات مَنْ قال له — سبحانه : « إن هذا عدو لك » .

ويقال : لو عَمَّى على إبليس تلك الشجرة حتى لم يعرفها بعينها ، ولو لم يكن (. . .)[1] حتى دلَّه على تلك الشجرة (إيش)[2] الذى كان يمنعه منه إلا أَنَّ الحكمَ منه بذلك سَبَقَ ، والإرادةَ به تعلَّقت ؟

ويقال إن الشيطان ظهر لآدم عليه السلام بعد ذلك فقال له : يا شقىُّ ، فعلتَ وصنعتَ . . !

فقال ابليس لآدم : إنْ كنتُ شيطانَكَ فَمَنْ كان شيطانى[3] ؟

ويقال سُمِّى الشيطان شيطاناً لبعده عن طاعة الله ، فكلٌّ بعيدٍ عن طاعة الله يُبْعِدُ الناسَ عن طاعة الله فهو شيطان ، ولذلك يقال : شياطين الإِنْسِ ، وشياطين الإِنْسِ شرٌّ من شياطين الجن .

ويقال لما طمع آدم فى البقاء خالداً وَجَدَ الشيطان سبيلاً إليه بوسوسته .

والناسُ تكلموا فى الشجرة : ما كانت ؟ والصحيحُ أَنْ يقالَ إنها كانت شجرة المحنة .

ويقال لو لم تُخْلَقْ فى الجنة تلك الشجرةُ لَمَا كان فى الجنة نقصانٌ فى رتبتها[4] .

(١) مشتبهة .

(٢) معناها (فأى شىء ؟) وهى هنا استفهامية .

(٣) فى ذلك تنصل من اللعين أساسه المغالطة والتلبيس .

(٤) أى أن الجنة فى عرف هذا المتكلم (مخلوقة) و (حادثة) .

ويقال لولا أنه أراد لآدم ما كان لطالت تلك الشجرة حتى ما كانت لِتَصِلَ إليها يَدُه ، ولكنه — كما فى القصة — كانت لا تصل إلى أوراقها يده — بعد ما أكل منها — حينما أراد أنْ يأخذَ منها لِيَسْتُرَ عورتَه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فأَكَلاَ منها فَبَدَتْ لهما سَوْءاتُهما ﴾

لمَّا ارتكبا المنهىَّ عنه ظهر مايُسْتَحْيَي مِنْ ظهوره ، ولكنَّ اللهَ — سبحانه — ألْطَفَ معهما فى هذه الحالة بقوله : فَبَدَتْ لهما سوآتهما ، ولم يَقُلْ — مُطْلَقاً — فبدت سَوْءَتُهما ؛ أى أنه لم يُطْلِعْ على سوءتهما غيرَهما .

ويقال لَمَّا تجرَّدَا عن لِباس التقوى تناثر عنهما لباسهما الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وطَفِقَا يخصفان عليهما من وَرَقِ الجنَّة ﴾

أولُ الحِرَفِ والصناعات — على مقتضى هذا — الخياطةُ ، وخياطةُ الرِّقَاع بعضها على بعض للفقراء ميراثٌ من أبينا آدم — عليه السلام[2] .

ويقال كان آدمُ — عليه السلام — قد أصبح وعليه من حُلَلِ الجنة وفنونِ اللِّباس ما اللهُ به أعلمُ ، ثم لم يُمسِ حتى كان يخصف على نفسه من ورق الجنة ، وهكذا كان فى الابتداء ما هو موروثٌ فى أولاده من هناء بعده بلاء .

قوله تعالى : « وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة »[3] : عند ذلك وقعت عليهما الخَجْلة لمَّا وَرَدَ عليهما خطاب الحقِّ : « ألم أنهكما عن . . . » ولهذا قيل : كفى للمُقَصِّرِ الحياء يوم اللقاء .

قوله تعالى : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا . . . »[4] : لم يتكلما بلسان الحجة فقالا : « ربنا ظلمنا أنفسنا » ، ولم يقولا : بظلمنا صرنا من الخاسرين ، بل قالا : « وإن لم تغفر لنا وترحمنا

---

(١) وفى هذا تحذير ضمنى للأكابر من الوقوع فى الزلة ، وكيف أن كرامة الولى تتلاشى بزلته .
(٢) لاحظ أهمية ذلك عندما نؤرخ للخرقة والمرقعة عند الصوفية .
(٣) آية ٢٢ سورة الأعراف .
(٤) آية ٢٣ سورة الأعراف .

لنكونن من الخاسرين » ليُعْلَم أنَّ المدارَ على حُكْمِ الربِّ لا على جُرْمِ الخلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ وعَصَى آدمُ رَبَّه فَغَوى ﴾

لمَّا وَقَعَتْ عليه سِمَةُ العصيان — وهو أَوَّلُ البشرِ — كان فى ذكر هذا تنفيسٌ لأولاده ؛ أن تجرى عليهم زَلَّةٌ وهم بوصف الغيبة فى حين الفترة .

ويقال كانت تلك الأكلةُ شيئاً واحداً ، ولكن قصتها يحفظها ويرددها الصبيانُ إلى يومِ القيامة .

وعصى آدم ربَّه ليُعْلَم أن عِظَمَ الذنوبِ لمخالفةِ الآمرِ وعِظَمِ قَدْرِه . . لا لكثرة المخالفة فى نفسها .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم اجتباه ربُّه فتابَ عليه وهَدَى ﴾

أخبر أنه بعدما عصى ، وبعد كلِّ ما فَعَلَه اجتباه ربُّه ؛ فالذى اصطفاه أولاً بلا عِلَّة[1] اجتباه ثانياً بعد الزَّلَّة ، فتَابَ عليه ، وغَفر ذنبَه ، « وهدى » : أى هداه إليه حتى اعتذر واستغفر .

قوله جل ذكره : ﴿ قال اهْبِطَا منها جميعاً بعضُكم لبعضٍ عَدُوٌّ فإمَّا يأتينكم مِنِّي هُدَىً فَمَنْ اتَّبَعَ هداى فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ﴾

أوقع العداوة بين آدم وإبليس والحية ، وقد توالت المحنُ على آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة بسمة العصيان ، ومفارقة الجنة ، ودخول الدنيا ، وعداوة الشيطان ، والابتلاء بالشهوات . ثم قال :

« فمن اتَّبع هداى . . . » وتَرَكَ هواه ، ولم يعملْ بوسوسة العدوِّ فله كُلُّ خير ، ولا يلحقه ضَيْر .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أعْرَضَ عن ذِكْرِى فإنَّ له معيشةً ضَنكاً ﴾

الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله المعيشة الضنك فى الدنيا ، وفي القبر ،

---

(١) تفيد هذه العبارة فى بيان أهمية الاصطفاء الإلهى ، وأن العمل الإنسانى له الدرجة الثانية فى الأهمية . ثم تفيد فى بيان الفرق فى الاصطلاح بين (الاصطفاء) و (الاجتباء) .

وفى النار ، وبالقلب من حيث وحشة الـكفر ، وبالوقتِ من حيث انغلاق الأمور .

ويقال مَنْ أعرض عن الانخراط فى قضايا الوفاق انثالت عليه فنونُ الخذلان ، ومنْ أعرض عن استدامة ذكره — سبحانه — بالقلب توالت عليه من تفرقة القلب ما يسلب عنه كلَّ رَوْحٍ .

ومَنْ أعرض عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوسُ الشيطان وهواجسُ النَّفْس بما يوجِب له وحشةَ الضمير ، وانسداد أبواب الراحة والبسط .

ويقال مَنْ أعرض عن ذِكْرِ الله فى الخلوةِ قيَّضَ اللهُ له فى الظاهر من القرينِ السوءِ ما توجِبُ رؤيتُه له قَبْضَ القلوبِ واستيلاءَ الوحشة .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَحْشُرُه يومَ القيامةِ أعمى * قال ربِّ لِمَ حَشَرْتَني أعمى وقد كنتُ بصيراً * قال كذلك أَتَتْكَ آياتى فَنَسِيتَها وكذلك اليومَ تُنْسَى ﴾

فى الخبر : « مَنْ كان بحالةٍ لَقِىَ اللهَ بها » فَمَنْ كان فى الدنيا أعمى القلب يُحْشَرُ على حالته ، ومَنْ يَعِشْ على جهلٍ يحشر على جهلٍ ، ولذا يقولون : « مَنْ بعثَنَا مِنْ مَرْقدنا ؟ »[1] إلى أَنْ تصيرَ معارفُهم ضروريةً .

وكما يَتْرُكُون — اليومَ — التَدبُّرَ فى آياتِه يُتْرَكُون غداً فى العقوبة من غير رحمةٍ على ضعفِ حالاتِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نَجزى مَنْ أسرف ولم يؤمِنْ بآياتِ ربِّه ولَعَذَابُ الآخرةِ أشَدُّ وأَبقى ﴾

جَرَتْ سُنَّتُه بأَنْ يُجازِىَ كُلاًّ بما يليق بحاله ، فما أسلفه لنفسِه سيلقى غِبَّه ، على الخير خيراً ، وعلى الشرِّ شَرّاً .

---

(١) آية ٥٢ سورة يس .

قوله جل ذكره : ﴿ أفلم يَهْدِ لهم كم أهلكنا قَبْلَهم من القرونِ
يمشون فى مساكنهم إنَّ فى ذلك
لآياتٍ لأُولى النُّهى ﴾

أى أفلا ينظرون فيتفكرون[1] ؟ ثم إذا استبصروا أفلا يعتبرون ؟ وإذا اعتبروا أفلا يزدجرون ؟ أم على وجوههم — فى ميادين غَفَلاتِهم يركضون ، وعن سوءِ معاملاتهم لا يرجعون ؟ ألا ساء ما يعملون !

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا كلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربِّكَ لكان
لِزَاماً وأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾

لولا أنَّ كلمةَ اللهِ سَبَقَتْ بتأخير العقوبة عن هذه الأمة ، وأنه لا يستأصلهم لأنَّ جماعةً من الأولياء فى أصلابهم لَعَجَّلَ عقوبتَهم ، ولكن . . كما ذَكَرَ من الأحوال أمهلهم مدةً معلومة ، ولكنه لم يهملهم أصلاً .

وإذا كانت الكلمةُ بالسعادة لقومٍ والشقاوة لقومٍ قد سبقت ، والعلمُ بالمحفوظ بجميع ما هو كائن قد جرى — فالسعيُ والجهدُ ، والانكماشُ والجدُّ . . متى تنفع ؟ لكنه من القسمة أيضاً ما ظهر .

قوله جل ذكره : ﴿ فاصْبِرْ على ما يقولون وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ قَبْلَ طلوعِ الشمسِ وقبل
غروبها ، ومن آناءِ الليل فسبِّحْ
وأطرافَ النهارِ لعلَّكَ تَرْضَى ﴾

سماعُ الأذى يوجب المشقة ، فأزال عنه ما كان لَحِقَه من المشقة عند سماع ما كانوا يقولون ، وأَمَرَهُ : إنْ كان سماعُ ما يقولون يُوحِشُكَ فتسبيحُنا — الذى تُثْنِى به علينا — يُرَوِّحُك .

« قبل طلوع الشمس » : أى فى صدر النهار ؛ ليبارِكَ لكَ فى نهارك ، وينْعَمَ صباحُك .
« وقبل غروبها » أى عند نقصان النهار ؛ ليطيبَ لَيْلُكَ ، وينعمَ رَوَاحُك .

---

(١) (الفاء) هنا حرف عطف لا (فاء) سبب ، ولو اعتبرناها سببيه نقول (فيتفكروا) لوقوعها بعد أسلوب طلبي ، ولكننا أثبتنا ما جاء فى النص لتكرار ذلك فيما تلاه .

« ومن آناءِ الليل » أى فى ساعات الليلِ ؛ فإنَّ كمالَ الصفوة فى ذكر الله فى حال الخلوة .

« وأطراف النهار » أى اسْتَدِمْ ذِكْرَ اللهِ فى جميع أحوالك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عينيكَ إلى ما مَتَّعْنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُم فيه ﴾

فضل[1] الرؤية فيما لا يُحْتَاجُ إليه معلولٌ كفَضْلِ الكلام ؛ والذى له عند الله مَنْزِلٌ وقَدْرٌ فالحَقُّ على جميع أحواله غَيْرَةٌ ؛ إذ لا يَرْضَى منه أنْ يبذل شيئاً من حركاته وسكناته وجميع حالاته فيما ليس لله ـ سبحانه ـ فيه رِضاء ، وفى معناه أنشدوا :

فعينى إذا اسْتَحْسَنَتْ غيرَكم أمَرْتُ الدموعَ بتأديبها

ويقال لمَّا أَدَّبَه فى ألا ينظرَ إلى زينة الدنيا بكمال نظره وَقَفَ على وجه الأرض بِفَرْدِ قَدَمٍ تصاونًا عنها حتى قيل له : « طه » أى طَأْ الأرضَ بِقَدَمِك . . ولِمَ كلُّ هذه المجاهدة وكل هذا التباعد حتى تقف بِفَرْدِ قَدَمٍ ؟ ! طَأْ الأرض بقدميك .

« زهرة الحياة الدنيا . . . » الفتنة ما يُشْغَل به عن الحقِّ ، ويستولى حُبُّه على القلب ، ويُجَسِّر وجودُه على العصيان ، ويحمل الاستمتاع به على البَطَر والأَشَر .

قوله جل ذكره : ﴿ ورِزْقُ رَبِّكَ خيرٌ وأَبْقَى ﴾

القليلُ من الحلالِ ـــ وفيه رضاه الرحمن ـــ خيرٌ من الكثير من الحرام والحطام . . ومعه سُخْطُه . ويقال قليلٌ يُشْهِدُكَ ربَّكَ خيرٌ مِنْ كثيرٍ يُنْسِيكَ ربَّك .

قوله جل ذكره : ﴿ وأْمُرْ أهلَكَ بالصلاة واصطبر عليها ﴾

الصلاةُ استفتاحُ بابِ الرزق ، وعليها أحال فى تيسير الفتوح عند وقوع الحاجة إليه . ويقال الصلاة رزق القلوب ، وفيها شفاؤها ، وإذا استأخر قُوتُ النَّفْس قَوِىَ قُوتُ القلب .

وأَمَرَ ـــ الرسولَ ـــ عليه السلام ـــ بأن يأمرَ أهلَه بالصلاةِ ، وأنْ يَصْطَبِرَ عليها .

---

(١) الفضل هنا معناه الزيادة (وفضل الرؤية) زيادة التطلع إلى أكثر من المباح .

وللاصطبار مزية على الصبر ، وهو ألاَّ يَجِدَ صاحبُه الألَمَ بل يكون محمولاً مُرَوَّحاً .

قوله جل ذكره : ﴿ لا نَسأَلُكَ رِزْقاً ﴾

أى لا نـكلفك برزق أحدٍ ، فإنَّ الرازقَ اللهُ — سبحانه — دون تأثير الخَلْق ، فنحن نرزقك ونرزق الجميع .

قوله جل ذكره : ﴿ نحن نرزُقُكَ والعاقبةُ للتقوى ﴾

هما شيئان : وجود الأرزاق وشهود الرزاق ؛ فوجود الأرزاق يوجب قوة[1] النفوس ، وشهود الرزاق يوجب قوة[2] القلوب .

ويقال استقلال[3] العامة بوجود الأرزاق ، واستقلال الخواص بشهود الرزَّاق .

ويقال نَفَى عن وقته الفَرْقَ بين أوصاف الرزق حين قال : « نحن نرزقك » ؛ فإنَّ مَنْ شَهِدَ وتحقق بقوله : « نحن » سقط عنه التمييز بين رزقٍ ورزقٍ .

ويقال خفَّفَ على الفقراءِ مقاساةَ قِلّةِ الرزقِ وتأخُّرِه عن وقتٍ إلى وقتٍ بقوله : « نحن »[4] .

قوله : « والعاقبة للتقوى » : أى العاقبة بالحسنى لأهل التقوى .

ويقال المراد بالتقوى المُتَّقِي ، فقد يسمَّى الموصوف بما هو المصدر[5] .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لولا يَأْتينا بآيةٍ مِنْ ربِّه أَوَلَمْ تأتِهِم بَيِّنَةُ ما فى الصُّحُفِ الأُولى ﴾

عَمِيَتْ بصائرهم وادَّعوا أنه لا برهانَ معه ، ولم يكن القصورُ فى الأدلة بل كان الخَلَلُ فى بصائرهم ، ولو جمع اللهُ لهم كلَّ آيةٍ اقْتُرِحَتْ على رسولٍ ثم لم يُرِدْ اللهُ أَنْ يؤمنوا لَمَا

---

(١) ، (٢) وربما كانا (قوت النفوس ، وقوت القلوب) بالتاء المفتوحة ؛ فقد سبقا هكذا منذ قليل ، وإن كان السياق لا يمنع (قوة النفوس وقوة القلوب) .

(٣) (استقلال) هنا بمعنى اكتفاء .

(٤) لأن من عاش ؛ (نحن) اكتفى بها ولم يستعجل شيئاً .

(٥) كما يقال مثلا (رجل عدل) ونحو ذلك .

ازدادوا إلا طغيانا وكفرا وخسرانا ... وتلك سُنَّةُ أسلافهم في تكذيب أنبيائهم ، ولذا قال :

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنَّا أهلكناهم بعذابٍ مِنْ قَبْلِه لقالوا ربَّنا لولا أرْسَلْتَ إلينا رسولاً فنَتَّبِعَ آياتِكَ من قَبْلِ أنْ نَذِلَّ ونَخْزَى ﴾ .

إنْ أرسلنا إليهم الرسلَ قابلوهم بفنونٍ من الجحد ، ووجوهٍ من العلل ؛ مرةً يقولون فما بالُ هذا الرسول بَشَر ؟ هلاَّ أرسله مَلَكاً ؟ ولو أرسلنا مَلَكًا لقالوا هلاَّ أرسل إلينا مثلنا بَشَراً ؟ ولو أظهر عليهم آيةً لقالوا : هذا سِحْرٌ مُفتَرَى ! ولو أخليناهم من رسولٍ وعاملناهم بما استوجبوه من نكيرٍ لقالوا :

هلاَّ بَعَثَ إلينا رسولاً حتى كنا نُؤْمِن ؟ فليست تنقطع أعلالُهم ، ولا تنفك — عما لا يُرْضَى — أحوالُهم . وكذلك سبيلُ مَنْ لا يجنح إلى الوصال ولا يرغب في الوداد ، وفي معناه أنشدوا :

وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوِصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كلٌ مُتَرَبِّصٌ فتَرَبَّصُوا فسَتَعلمون مَنْ أصحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ ومَنْ اهتدى ﴾ .

الكل واقفون على التجويز غير حاصلين بوثيقة ، ينتظرون ما سيبدو في المستأنف ، إلاَّ أنَّ أربابَ التفرقة ينتظرون ما سيبدو مِمَّا يقتضيه حُكْمُ الأفلاك ، وما الذي توجبه الطبائعُ والنجومُ . والمسلمون ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم في رَوْحِ التوحيد ، والباقون في ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ .

السورة التي يذكر فيها الأنبياء

قوله جل ذكره: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾.

بسم الله اسم عزيز مَنْ توسَّلَ إليه بطاعته تفضَّلَ عليه بجميل نعمته؛ إنْ أطاع فَضَّلَه، وإن أضاع أمْهَلَه، ثم إنْ آبَ وأقرّ.. ذَكَرَه، وإن عصى وعاب سَتَرَه، فإن تَنَصَّل رَحِمَه، وإنْ تَكَبَّرَ قَصَمَه[1].

اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلاَّ بآثار توفيقه، وما استضاءت السرائرُ إلا بأنوار تحقيقه؛ بتوفيقه وَصَلَ العابدون إلى مجاهدتهم، وبتحقيقه وَجَدَ العارفون كمالَ مشاهدتهم، وبتمام مجاهدتهم وجدوا آجِلَ مثوبتهم، وبدوام مشاهدتهم نالوا عاجل قربتهم.

قوله جل ذكره: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُم وهم فى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾.

فالمطيعون منهم عَظُمَ لدينا ثوابُهم، والعاصون منهم حَقَّ مِنَّا عقابُهم.

«فى غفلة» يقال الغفلة على قسمين: غافلٌ عن حسابه باستغراقه فى دنياه وهواه، وغافلٌ عن حسابه لاستهلاكه فى مولاه؛ فالغفلة الأولى سِمَةُ الهجر والغفلة الثانية صِفَةُ الوَصْل؛ فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا من سكرة الموت، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبَدَ الأبدِ لفنائهم فى وجود الحق تعالى[2].

قوله جل ذكره: ﴿ ما يأتيهم من ذِكْرٍ من ربهم مُحْدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾.

(١) يمكن القول أن هناك نوعاً من الترابط والانسجام بين إشارات البسملة — على هذا النحو — وبين جزئيات السورة، حيث انقسم الناس إزاء الأنبياء إلى مصدق ومكذب، ومؤمن وجاحد.. ونال كل جزاءه.

(٢) نهمنا هذه الإشارة عند دراسة المصطلح الصوفى؛ فالغفلة نوعان: مذمومة ومحمودة؛ غفلة ناشئة عن الهجر وغفلة ناشئة عن الوصل.

لم يجدد إليهم رسولا إلا ازدادوا نفوراً ، ولم يُنزِّلْ عليهم خطاباً إلا ردُّوه جحداً وتكذيباً ، وما زدناهم فصلاً إلا عدُّوه هَزْلاً ، وما جددنا لهم نعمةً إلا فعلوا ما استوجبوا نقمة ، فكان الذى أكرمناهم به محنةً بها بلوناهم . . وهذه صفة مَنْ أساءَ مع الله خُلقَه ، وخَسِرَ عند الله حقَّه .

قوله جل ذكره : ﴿ لاهيةً قلوبُهم وأَسَرُّوا النَّجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكم أفتأتون السِّحْرَ وأنتم تُبْصِرُون ﴾

عَمِيَتْ بصائرُهم وغامت أفهامهم ، فهم فى غباوة لا يستبصرون ، وفى أكنة عمَّا أقيم لهم من البرهان فهم لا يعلمون .

قوله : « وأسروا النجوى . . . . » لَمَّا عجزوا عن معارضته ، وسقطوا عند التحدى ، وظهرت عليهم حُجَّتُه رَجَّمُوا فيه الفِكْرَ ، وقَسَّمُوا فيه الظن ؛ فمرةً نسبوه إلى السحر ، ومرةً وصفوه بقول الشعر ، ومرة رَمَوْه بالجنونِ وفنونٍ من العيوب . وقبل ذلك كانوا يقولون عنه : هو محمدٌ الأمين ، كما قيل :

أشاعوا لنا فى الحىِّ أشنعَ قصةٍ وكانوا لنا سِلْماً فصاروا لنا حَرْباً

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربى يعلم القولَ فى السماءِ والأرض وهو السميعُ العليمُ ﴾

الأقاويل التى يسمعها الحقُّ — سبحانه — مختلفة ؛ فَمِنْ خطابِ بعضهم مع بعض ، ومن بعضهم مع الحق . والذين يخاطبون الحقَّ : فَمِنْ سائلٍ يسأل الدنيا ، ومِنْ داعٍ يطلب كرائمَ العُقْبى ، ومِنْ مُثْنٍ يثنى على الله لا يقصد شيئاً من الدنيا والعقبى .

ويقال يسمع أنينَ المُذْنبين سراً عن الخلق حَذَراً أن يفتضحوا ، ويسمع مناجاةَ العابدين بنعت التسبيح إذا تهجدوا ، ويسمع شكوى المحبين إذا مَسَّتْهم البُرَحاء[1] فَضَجُّوا من شدة الاشتياق .

---

(١) البرحاء : الشدة .

ويقال يسمع خطابَ مَنْ يناجيه سِرّاً بسرٍّ ، وكذلك تسبيح مَنْ يمدحه ويثنى عليه بلسان سِرِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ بل قالوا أضغاثُ أحلامٍ بل افتراه بل هو شاعرٌ فَلْيأتنا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأولون ﴾

نَوَّعُوا ما نسبوا إليه — بعدما نَزَّلنا إليه الأمر — من حيث كانوا ، ولم يشاهدوا هِمَمَه على الوصف الذى كانوا يصفونه به من صدق فى الحال والمقال ، وكما قيل :

رمتنى بدائها وانسلت .

قوله جل ذكره : ﴿ما آمَنَتْ قبلَهم مِنْ قريةٍ أهلكناها أفَهُم يؤمنون ﴾

أخبر أن الله تعالى أجرى سُنَّتَه أنْ يُعَذِّبَ من كان المعلوم من شأنه أنه لا يؤمن لا فى الحال ولا فى المآل . وإنَّ هؤلاء الذين كفروا فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أمثالُهم فى الكفران ، وقد حَكَمَ الحقُّ لهم بالحرمان والخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رِجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهلَ الذكر إنْ كنتم لا تعلمون .

لمَّا قالوا لولا أنزل علينا الملائكة أخبر أنه لم يُرْسِلْ إلى الناس رسولاً فيما سَبَقَ من الأزمان الماضية والقرون الخالية إلا بَشَراً ، وذَكَرَ أنَّ الخصوصية لهم كانت بإرسال الله إياهم .

ثم قال : « فاسألوا أهلَ الذكر إنْ كنتم لا تعلمون » : الخطاب للكلِّ والمراد منه الأمة ، وأهلُ الذكر العلماء من أكابر هذه الأمة والذين آمنوا بنبينا محمد — صلى الله عليه وسلم .
ويقال هم أهل الفهم من الله أصحاب الإلهام الذين فى محل الإعلام من الحقِّ — سبحانه — أو من يُحْسِنُ الإفهامَ عن الحق .

ويقال العالم يرجع إلى الله فى المعاملات والعبادات ، وإذا اشتكلت الواقعة فيخبر عن اجتهاده ، وشرطه ألا يكون مقلداً ، ويكون من أهل الاجتهاد ، فإذا لم يخالف النصَّ وأدى اجتهاده إلى شىء ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه ، وأمَّا الحكيم فإذا تكلم فى المعاملة فإنما يقبل منه إذا سبقت منه المنازلة لما يُفْتِي به فإن لم تتقدم له من قِبله المنازلة ففتواه فى هذا الطريق كفتوى المقلِّد فى مسائل الشرع .

فأمَّا العارف فيجب أن يتكلم فى هذا الطريق عن وَجْدِه — إنْ كان — وإلا فلاتُقْبَلُ فتواه ولا تُسْمَعُ(1) .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلناهم جَسَداً لا يأكلون الطعامَ وما كانوا خالدين ﴾

لمَّا عَيَّروا الرسولَ — عليه السلام — بقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟ . أخبر أن أكْلَ الطعامِ ليس بقادحٍ فى المعنى الذى يختص به الأكابر ، فلا منافاةَ بين أكل الطعام وما تُسكِنُه القلوبُ والسرائر من وجوه التعريف .

ويقال النفوس لا خبر لها مما به القلوب ، والقلب لا خبر له مما تتحقق به الروح وما فوق الروح وألطف منه وهو السرُّ .

قوله : « وما كانوا خالدين » : أى إنهم على ممرٍ ومعْبرٍ ، ولا سبيلَ اليومَ لمخلوقٍ إلى الخُلْد .

قوله جل ذكرة : ﴿ ثم صدَقْناهم الوعدَ فأنجيناهم ومَنْ نشاء وأهلَكْنا المسْرِفين ﴾

الحقُّ — سبحانه — يُحَقِّق وعْدَه وإنْ تباطأ بتحقيقه الوقتُ فيما أخبر أنه يكون . والموعود من نصرة الله لأهل الحق إنما هو بإعلاء كلمة الدِّين ، وإرغام مَنْ نَابَذَ الحقَّ مِنَ الجاحدين ، وتحقيق ذلك بالبيان والحجة ، وإيضاح وجه الدلالة ، وبيان خطأ أهل الشبهة .

---

(1) تهم هذه الإشارة فى توصية الشيوخ إذا استفتاهم المريدون ، كما تهم فى توضيح ما يمكن أن نسميه « أصول الفقه عند الصوفية » .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكْرُكُمْ أفلا تعقلون ﴾ .

يريد بالكتاب القرآن ، وقوله : « فيه ذكركم » : أي شرفكم ومحلكم، فمَنْ استبصرَ بما فيه من النور سَعِدَ فى دنياه وأخراه .

قوله جل ذكره : ﴿ وكَمْ قصَمْنَا مِنْ قريةٍ كانت ظالمةً وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ .

إنَّ اللهَ يُمْهِل الظالمَ حيناً لكنه يأخذه أَخْذَ قهرٍ وانتقام ، وقد حكَمَ اللهُ بخرابِ مساكنِ الظالمين ، وقد جاء الخبر : « لو كان الظلم بيتاً فى الجنة لَسُلِّطَ عليه الخراب » ، فإذا ظلم العبدُ نَفْسَه حرَّمَ اللهُ أنْ يقطنها التوفيقُ وجعلها موطنَ الخذلان ، فإذا ظَلَمَ قلبَه بالغفلة سَلَّط عليه الخواطرَ الردية التى هى وساوس الشيطان ودواعى الفجور . وعلى هذا القياس فى القلة والكثرة ، إنَّ الروح إذا خربت زايلتها الحقائقُ والمحابُّ ، واستولت عليها العلائقُ والمساكنات .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا أَحَسُّوا بأسَنا إذا هم منها يَرْكُضُون ﴾

لمَّا ذاقوا وبالَ أفعالهم اضطربوا فى أحوالهم فلم ينفعهم نَدَمُهم ، ولم تَعُدْ إلى محالِّها أقدامُهم ، وبعد ظهور الخيانة لا تُقْبلُ الأمانة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُتْرِفْتُم فيه ومساكِنِكم لَعَلَّكم تُسألون ﴾

وللخيانة سراية[1] ، فإذا حصلت الخيانة لم تقف السراية ، وإذا غرقت السفينةُ فليس بيد المَلاَّحِ إلا إظهار الأسف ، وهيهات أن يُجْدِى ذلك !

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا وَيْلَنا إنَّا كُنَّا ظالمين ﴾

---

(١) سرى الجرح او السوء سراية . أى دام الألم منهما حتى حدث الموت . ويقال سرى التحريم وسرى العتق أى تعدى إلى غير المحرم أو المعتق (الوسيط) .

للإقرار زمانٌ ، فإذا فات وقتُه فكما فى المَثَل : يسبق الفريص الجريضُ . ووَضْعُ القوسِ بعد إرسال السهم لا قيمة له .

قوله جل ذكره : ﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾

إنَّ مِنَ البلاءِ أنْ يشكوَ المرء فلا يُسْمَع ، ويبكى فلا يَنفَع ، ويدنو فيُقْصَى ، ويمرض فلا يُعاد ، ويعتذر فلا يُقْبَل . . وغايةُ البلاءِ التَّلَفُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما خَلَقْنا السماء والأرضَ وما بينهما لاعبين ﴾

اللَّعِبُ نعتُ من زَالَ عن حدِّ الصواب ، واستجلب بفعله الالتذاذ ، وانجرَّ فى حَبْلِ السَّفَهِ . وحَقُّ الحقِّ مُتقَدِّسٌ عن هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ لو أرَدْنا أنْ نتَّخِذَ لهْوًا لاتخذناه من لَدُنَّا إنْ كُنَّا فاعلين ﴾

يخاطبهم على حسب أفهامهم ، وإلا . . فالذى لا يعتريه سهوٌ لا يستفِزُّه لهْوٌ ، والحقُّ لا يعتريه ولا يضاهيه كُفْوٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ بل نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطِلِ فيَدْمَغُه فإذا هو زاهِقٌ ولكم الويلُ مِمَّا تصِفُون ﴾

نُدْخِلُ نهارَ التحقيق على ليالى الأوهام فينقشع سحابُ الغيبة ، وينجلى ضبابُ الأوهام ، وتنير شمسُ اليقين ، وتصحو سماء الحقائق عن كلِّ غُبار التُّهَم .

قوله جل ذكره : ﴿ وله من فى السموات والأرضِ ومَنْ عِندَه لا يستكبِرون عن عبادَته ولا يَسْتَحْسِرُون ﴾

الحادثات له سبحانه مِلْكاً والكائنات له حُكماً ، وتعالى الله عن أنْ يتجمَّلَ بوِفاقٍ أو ينقص بخلاف ، وبالقَدَرِ ظهورُ الجميع ، وعلى حسب الاختيار[1] تنصرف الكلمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يسبحون الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرُون ﴾

المطيعُ المختارُ يُسبِّحه بالقول الصدق ، والكلُّ من المخلوقات تسبيحها بدلالة الخِلْقة ، وبرهان البَيِّنة[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أم اتخذوا آلهةً من الأرض هم يُنْشِرُون ﴾

تفرَّد الحقُّ بالإبداع والإيجاد ، وتقدَّسَ عن الأمثال والأنداد ، فالذين يَعْبُدُون مِنْ دونِه أمواتٌ غيرُ أحياءٍ . وهم[3] بالضرورة يعرفون . . أفلا يَعْتَبِرُون وألا يَزْدَجِرُون ؟

قوله جل ذكره : ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا فسبحان اللهِ ربِّ العرشِ عمَّا يَصِفُون ﴾

أخبر أنَّ كلَّ أمرٍ يُنَاطُ بجماعةٍ لا يجرى على النظام ؛ إذ ينشأ بينهم النزاعُ والخلافُ . ولمَّا كانت أمورُ العالَمِ فى الترتيب مُنَسَّقَةً فقد دلَّ ذلك على أنها حاصلةٌ بتقديرِ مُدَبِّرٍ حكيم ؛ فالسماء فى علوِّها تدور على النظام أفلاكُها ، وليس لها عُمُدٌ لإمساكها ، والأرضُ مستقرةٌ بأقطارها على ترتيب تعاقب ليلها ونهارها . والشمسُ والقمرُ والنجومُ السائرةُ تدور فى بروج ، ورقعة السماء تتسع من غير فروج . . ذلك لِتقديرِ العزيزِ العليمِ علامةٌ ، وعلى وحدانيته دلالةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسأَلُون ﴾

لِكَوْنِ الخَلْق له ، وهم يُسأَلون للزوم حقه عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أم اتخذوا مِنْ دونِه آلهةً قل هاتُوا برهانَكم ، هذا ذِكْرُ مَنْ معى

---

(١) الاختيار هنا مقصود به الاختيار الإلهى .

(٢) عبر القشيرى عن هذا المعنى فى موضع سابق حين ذكر ان كل الكائنات شاهدة على وحدانيته ؛ للناطق منها توحيد المقالة ، ولغير الناطق توحيد الدلالة .

(٣) الضمير (م) يعود على من يعبدون من دون الله آلهة .

وذِكْرُ من قَبْلِي بل أكثرهم
لا يعلمون الحقَّ فهم معْرِضُون ﴾

دلت الآيةُ على فسادِ القولِ بالتقليد ، ووجوبِ إقامة الحجة والدليل .

ودلَّت الآية على توحيد المعبود ، ودلَّت الآية على إثبات الكسب للعبيد ؛ إذ لولاه لم يتوجه عليهم اللومُ والعَتْبُ[1] . وكلُّ مَنْ عَلَّقَ قلبه بمخلوقٍ ، أو تَوَهَّمَ من غير الله حصولَ شيءٍ فقد دَخَلَ في غمار هؤلاء لأنَّ الإلهَ مَنْ يصحُّ منه الإيجاد .

قوله : « هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » : الإشارة منه أن الدِّينَ توحيدُ الحق ، وإفرادُ الربِّ على وصف التفرد ونعت الوحدانية .

ثم قال : « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » إنما عَدِموا العِلْمَ لإعراضهم عن النظر ، ولو وضعوا النظرَ موضعَه لَوَجَبَ لهم العلم لا محالة ، والأمر يدل على وجوب النظر ، وأنَّ العلومَ الدينية كُلَّها كسبية[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ
إلا نوحى إليه أنه لا إله إلَّا أنا
فاعبدونِ ﴾

التوحيدُ فى كل شريعة واحدٌ ، والتعبدُ ـ على من أرسل إليه الرسول ـ واجبٌ ، ولكنَّ الأفعالَ للنسخِ والتبديلِ مُعَرَّضَةٌ ، أما التوحيدُ وطريقُ الوصول إليه فلا يجوز فى ذلك النسخُ والتبديل .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا اتَّخَذَ الرحمنُ وَلَداً سبحانه
بل عِبَادٌ مُكْرَمُون ﴾

فى الآية رخصةٌ فى ذِكْرِ أقاويل أهل الضلال والبدع على وجه الردِّ عليهم ، وكَشْفِ

---

(١) هذا رأى على جانب خطير من الأهمية فى علم الكلام ، وصدوره عن باحث صوفى يعرف أن المريد — على الحقيقة — من لا إرادة له يزيد فى اهمية الأمر .

(٢) فى هذا رد على من يتهمون الصوفية بإنكارهم للعلم .

عوراتهم ، والتنبيهِ على مواضع خطاياهم ، وأنَّه إنْ وَسْوَسَ الشيطانَ إلى أحدٍ بشيءٍ منه كان في ذلك حجةٌ للانفصال عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يسبقونه بالقولِ وهم بأمره يعملون ﴾

أخبر أن الملائكةَ معصومون عن مخالفة أمره — سبحانه ، وأنهم لا يُقَصِّرون في واجبٍ عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ولا يَشْفَعُون إلا لِمَنْ ارتضى وهم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقون ﴾

عِلْمُه القديمُ — سبحانه — لا يختصُّ بمعلوم دون معلوم ، وإنما هو شامل لجميع المعلومات ، فلا يعزب عن علم الله معلوم .

قوله : « لا يشفعون إلا لمن ارتضى » دلَّ على أنهم يشفعون لقومٍ ، وأنَّ الله يتقبل شفاعتهم(١) .

قوله : « وهم من خشيته مشفقون » : ليس لهم ذنب ثم هم خائفون ؛ ففي الآية دليل على أنه سبحانه يعذبهم وأن ذلك جائز ، فإذا لم يَجُزْ أن يُعذِّب البريء لكانوا لا يخافونه لعلمهم أنهم لم يرتكبوا زَلَّةً (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ يَقُلْ منهم إني إلهٌ من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين ﴾

أخبر أنهم مُعْرِضُون عن الزَّلَّةِ بكلِّ وجهٍ . ثم قال : « ومن يقل منهم إني إله من دونه »

---

(١) أي أن القشيري يؤمن بالشفاعة — على عكس بعض فرق المتكلمين الذين ينكرونها .

(٢) هذا رأي آخر له اهميته من الوجهة الكلامية ، حيث يرى المعتزلة — وقد سموا انفسهم اهل العدل — أن الله لايعذب البريء .

وقد علم أنهم لا يقولون ذلك ، ولكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكمه ، فالحقُّ — سبحانه — يعلم ما لا يكون كيف كان يكون .

قوله جل ذكره : ﴿ أولم يَرَ الذين كفروا أنَّ السمواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما ﴾

دَاخَلَتْهُم الشبهةُ فى إعادة الخلْقِ والقيامةِ والنَّشْرِ ، فأقام اللهُ الحجةَ عليهم بأن قال : أليسوا قد عَلِمُوا أنه خَلَق السموات والأرض ، سَمَكَ السماء وبَسَطَ الأرضَ . . فإذا قدر على ذلك فكيف لا يقدر على الإعادة بعد الإبادة ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا من المْاَءِ كلَّ شىءٍ حىٍّ أفلا يؤمنون ﴾

كُلُّ شىءٍ مخلوقٍ حىٍّ فَمِنَ الماء خَلْقُه ، فإنَّ أصلَ الحيوان الذى حَصَلَ بالتناسل النطفةُ ، وهى من جملة المـاء .

وحياة النفوس بماء السماء من حيث الغذاء ، وحياة القلوب بماء الرحمة ، وحياة الأسرار بماء التعظيم . وأقوام حياتُهم بماءِ الحياء . . وعزيزٌ هُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسِىَ أنْ تميد بهم ﴾

الأولياء هم الرواسى فى الأرض وبهم[1] يُرْزَقُون ، وبهم يُدْفَع عنهم البلاء ، وبهم يُوفَى عليهم العطاءُ . وكما أنه لولا الجبالُ الرواسى لم تكن للأرض أوتادٌ . . فكذلك الشيوخ الذين هم أوتادُ الأرضِ (فلولاهم) لَنَزَلَتْ بهم الشدة .

﴿ وجعلنا فيها فِجَاجاً سُبُلاً لعلهم يهتدون ﴾

كما أن فى الأرض سُبُلاً يسلكونها ليَصِلُوا إلى مقاصِدهم كذلك جعل السُّبُلَ إليه

(١) الضمير فى (بهم) يعود على الخلق ، ولم يكن القشيرى بحاجة إلى ذكر (الخلق) هنا لكثرة ما أعاد فى هذا الموضوع من قبل .

مسلوكة بما بيَّن على ألسنتهم من هداية المريدين ، وقيادة السالكين ، كما يسَّر بهداهم الاقتداء بهم فى سيرهم إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا السماءَ سَقْفاً محفوظاً وهم عن آياتها مُعْرِضُون ﴾ .

فى ظاهر الكون السماء منيرة ، والأرض مسكونة . . كذلك للنفوس أراضٍ هى مساكن الطاعاتِ ، وفى سماء القلوب نجومُ العقل وأقمارُ العلمِ وشموسُ التوحيد والعرفان . وكما جُعِلَتْ النجومُ رجوماً للشياطين جَعَلَ من المعارفِ رجوماً للشياطين . وكما أن الناس عن آياتها معرضون لا يتفكرون فالعوام عن آياتِ القلوب مما فيها من الأنوار غافلون ، لايكاد يعرفها إلا الخواص .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى خَلَقَ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ كُلٌ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾ .

كما أن الحق — سبحانه — فى الظاهر يكوِّر الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل فكذلك يُدْخِلُ فى نهارِ البسط ليلَ القبض . والبسط فى الزيادة والنقصان . فكما أنَّ الشمسَ أبداً فى برجها لا تزيد ولاتنقص ، والقمرَ مرةً فى المحاق ، ومرةً فى الإشراق . . . فصاحبُ التوحيدِ بنعت التمكين — يرتقى عن حَدِّ تأمُّلِ البرهان إلى رَوْحِ البيان ، ثم هو متحققٌ بما هو كالعيان . وصاحبُ العِلْمِ مرةً يُرَدُّ إلى تجديد نَظَرِه وتَذَكُّرِه ، ومرةً يغشاه غَيْرٌ فى حال غفلته فهو صاحب تلوين[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلنا لِبَشَرٍ مِنْ قبلك الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فهم الخالدون ﴾ .

إنك فى هذه الدنيا عابرُ سبيلٍ ، لكننا لم نتركك فرداً فى الدنيا ، ولذلك قال عليه السلام لصاحبه فى الغار : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ! » .

---

(١) فأهل التمكين كالشمس فى ثباتها ، وأهل التلوين كالقمر فى تدرجه وتغير أحواله .

قوله جل ذكره : ﴿ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ .

الموتُ به آفةُ قومٍ ، وفيه راحة قوم ؛ لقومٍ انتهاء مدة الاشتياق ، ولآخرين افتتاح باب الفراق ، لقومٍ وقوع فتنتهم ولآخرين خلاصٌ من محنتهم ، لقوم بلاء وقيامة ولآخرين شفاء وسلامة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إنْ يتخذونك إلا هُزُوًا أهذا الذى يَذْكُرُ آلهتكم وهم بِذكْرِ الرحمنِ هم كافرون ﴾ .

لو شهدوا بما هو به من أوصاف التخصيص وما رقَّاه إليه من المنزلة لظلوا له خاضعين ، ولكنهم حُجِبُوا عن معانيه وسريرته ، وعاينوا منه جسمه وصورته .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ خُلِق الإنسان مِنْ عَجَلٍ سأُرِيكم آياتى فلا تَسْتَعْجِلون ﴾ .

العَجَلةُ مذمومةٌ والمُسَارَعَةُ محمودةٌ ؛ فالمسارعة البِدارُ إلى الشىءِ فى أول وقته ، والعَجَلةُ استقباله قبل وقته ، والعجلةُ نتيجةُ وسوسة الشيطان ، والمسارعةُ قضية التوفيق .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

اعتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيما وعدوهم ، فاستعجلوا حصولَ ما توعدوهم به . ولو علموا ما ينالهم لكان السكونُ منهم ، فالفَزَعُ يَدُلُّ على استعجالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكُفُّون عن وجوههم النارَ . . . ﴾ .

. . . لأمسكوا اليوم عن الانخراط فى عِذاب [1] الظنون ، والاغترار بمواعيد الشيطان .

---

(١) ضبطناها (عذاب) بكسر العين لتكون جمع (عذب) فقد هرم ما هيأت لهم الظنون فاستعذبوها .

قوله جل ذكره : ﴿ بل تأتيهم بغتةً فتبهتهم
فلا يستطيعون ردَّها ولا هم ينظرون ﴾

العقوبة إذا أتت فجأةً كانت أنكى وأشد . وسُنّةُ اللهِ فى الانتقام أن يُثيرَ ريحَ البغتةِ فى حال الانغماس فى النِّعْمة والمِنّة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد استهْزِئَ برُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ
فحَاقَ بالذين سخروا منهم ما كانوا بهِ
يستهزئون ﴾ .

تسليةٌ له ، وتعريفٌ بوشك الانتصار على الذين كانوا يؤذونه من أعداء الدين ؛ أى عن قريبٍ ستجدون وَبالَ ما استوجبوه من العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ يكلؤكم بالليلِ والنهارِ
من الرحمنِ . . . ﴾ .

تقرير عليهم بأن ليس بتداخل المخلوقين نجاتهم ، وقد جرَّبوا ذلك فى أحوال محنتهم ، فكيف لا يتبرءون ممن ليس لهم شىء ، ومما ليس منه نَفْعٌ ولا ضرٌ ؟ وفى ذلك تنبيهٌ للمؤمنين بأن مآربهم إلى الخيرات من نوعى النفع والدفع من الله عز وجل ، فالواجبُ دوامُ اعتكافِهم بقلوبهم بعقوة كَرَمِهِ وجُودِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أمْ لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ . .

بسط القول وكرره فى تعريفهم استحالة حصول الضر والنفع من الجمادات ؛ وأصنامُهم التى عبدوها من تلك الجملة ، ولم يَرِدْ منهم — على تكرار هذه الألفاظ — إلاَّ عجزٌ وانقطاعُ قولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ بل متَّعْنا هؤلاءِ وآباءَهم حتى طال
عليهم العُمُرُ أفلا يرَوْن أنَّا نأتى
الأرضَ ننقُصُها من أطرافِها أفَهُم
الغَالبون ﴾ .

طولُ الإمتاع إذا لم يكن مقروناً بالتوفيق ، مشفوعاً بالعصمة كان مكراً واستدراجاً ،

وزيادةً في العقوبة . والحقُّ كما يعاقِبُ بالآلام والأهوال يعاقِب بالإملاء والإمهال .

وقال : أفلا يرون أنا نأتى الأرض . . . » تتوالى القسوة حتى لا يَبْقَ أثرٌ للصفوة ؛ فيتعاقبُ الخذلانُ حتى يتواتر العصيان ، ويتأدى ذلك إلى الحرمان الذى فيه ذهاب الايمان .

ويقال تنقص بذهاب الأكابر ويبقى الأراذل ويتعرض الأفاضل . وفى هذا أيضاً إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين وتطاول العمر ، فإن آخر الأمر كما قيل] : (١)

آخِرُ الأمر ما ترى القبرُ واللَّحدُ والثرى

وكما قيل :

طوى العصران[٢] ما نَشْرَاه منى وأبلى جدتى نَشْرٌ وطىُّ
أرانى كلَّ يومٍ فى انتقاصٍ ولا يبقى — مع النقصان — شىُّ

قوله جل ذكره : ﴿ قل إنما أُنْذِرُكُم بالوحى ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدعاء إذا ما يُنْذَرون ﴾

أى بأمرِ اللهِ أُعْلِمكُم بموضع المخافة ، ويُوحَى إلىَّ فى بابكم أنْ أُخَوِّفكُم بأليم عقابه ، ولكنَّ الذى عَدِمَ سَمْعَ التوفيقِ . . أنَّى ينفعه تكرارُ الأمرِ بالقبول عليه ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن مَسَّتْهُم نَفْحَةٌ من عَذابِ ربِّك ليقولُنَّ يا ويلنا إنَّا كنا ظالمين ﴾

أى إنهم لا يصبرون على أقلِّ شىءٍ من العقوبة ؛ وإنّ الحقَّ إذا شاء أنْ يؤلِمَ أحداً فلا يحتاج إلى مددٍ وعون .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ

---

(١) هنا نهاية الجزء الذى أخطأ الناسخ في نقله من أواخر « طه » وأوائل « الأنبياء » إلى مكانٍ آخر من « الفرقان » .

(٢) العصران : الغداة والعشى ، او الليل والنهار .

فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئا وإنْ كان مثقالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ أَتَيْنا بها وكَفَى بنا حاسِبِين ﴾

توزن الأعمالُ بميزان الإخلاص فما ليس فيه إخلاصٌ لا يُقبَل ، وتوزن الأحوالُ بميزان الصدق فما يكون فيه الإعجابُ لا يُقْبَل ، وتوزن الأنفاسُ بميزان (. . .)[1] فما فيه حظوظ ومساكنات لا يُقْبَل .

ويقال ينتصِفُ المظلومُ من الظالم ، وينتقم الضعيفُ من القوى .

ويقال ما كان لغير الله لا يَصْلُح للقبول .

ويقال يكافئُ كلاً بما يليق بعمله فَمَنْ لم يرحم عبادَه فى دنياه لا يَرْحَمُهُ اللهُ ، ومن لم يُحسِن إلى عباده تقاصر عنه إحسانه ، ومَنْ ظلم غيره كوفئ بما يليق بسوء فعله .

قوله : « فلا تظلم نفس شيئا » : أى يُجازِى المظلومين وينتقم من الظالمين ، ويُنْصِفُ المظلومَ من مثقال الذرة ومقياس الحَبَّة ، وإن عَمِلَ خيراً بذلك المقـدار فسيلقى جزاءه ، ويجد عوَضَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارونَ الفُرْقَانَ وضياءً وذِكْراً للمتقين ﴾

ما آتاهُ الحق سبحانه للأنبياء عليهم السلام من الضياء والنُّور ، والحُجَّةِ والبرهان يشاركهم المستجيبون من أُممهم فى الاستبصار به . . .

فـكذلك الأكابر من هذه الأمة يشاركون نبينا — صلى الله عليه وسلم — فى الاستبصار بنور اليقين .

و « المُتَّقِي » هو المُجَانِبُ لما يشغله ويحجبه عن الله ، فيتقى أسبابَ الحجاب وموجباتها .

---

(1) نرى أنه قد حدث سقوط للفظة فى هذا المكان ، ولابد أنها بمعنى الخلوص لله والتجرد من كل العلائق ، وربما كانت أيضاً (الحقوق) أى حقوق الله .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يَخْشَوْن رَبَّهم بالغيبِ وهم من السَّاعةِ مُشْفِقُون ﴾

صار لهم فى استحقاق هذه البصائرِ والخشيةِ بالغيب إطراقُ السريرة ، وفى أوان الحضور استشعارُ الوَجَلِ من جريان سوء الأدب ، والحذرُ من أنْ يبدوَ من الغيبِ من خفايا التقدير ما يوجِبُ حجبة العبد .

والإشفاق من الساعة على ضربين : خوف قيام الساعة الموعودة للعامة ، وخوفُ قيام الساعة التى هى قيامة هؤلاء القوم[1] ؛ فإنَّ ما يستأهل الكافة فى الحشر مُعَجَّلٌ لهم فى الوقت من تقريبٍ ومن تبعيد ، ومن محْوٍ ومن إثبات .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مباركٌ أنزلناه أفأنتم له مُنكِرُون ﴾

وَصفَ القرآنَ بأنه « مبارك » ، وهو إخبارٌ عن دَوَامِه[2] ، من قولهم : بَرَكَ الطائرُ على الماءِ أى دَامَ .

وإنَّ هذا الكتاب لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفِه ؛ وما لا ابتداء له — وهو كلامه القديم — فلا انتهاء للكتاب الدالِّ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا إبراهيمَ رُشْدَه مِنْ قَبْلُ وكُنَّا به عالمين ﴾

أراد به ما تعرَّفَ إليه من الهداية حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأفول[3] ، لولا أنَّه خَصَّه فى الابتداء بالتعريف . . وإلاَّ متى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خَلْقِه لولا ما أضاء[4] عليه من أنوار التوحيد قبلما حصل منه من النظر فى المخلوق ؟

ويقال هو ما كاشَفَ به رُوحَهُ قبل إبداعها من تجلِّى الحقيقة .

---

(١) اى أرباب الأحوال .

(٢) وردت (بيانه) وآثرنا — طبقاً للسياق — أن نجعلها (دوامه)

(٣) إشارة إلى أن إبراهيم لما رأى أفول الشمس والقمر والنجم قال : « إنى لا أحب الآفلين » .

(٤) (أضاء) مقبولة فى السياق ولكننا لا نستبعد أنها ربما كانت فى الأصل (افاء) أى (أنعم) .

قوله جل ذكره ﴿ إذْ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيلُ التى أنتم لها عاكفون ﴾

خاطَبَ قومه وأباه[1] ببيان التنبيه طمعاً فى استفاقتهم من سَكْرةِ الغفلة ، ورجوعهم من ظلمة[2] الغلطة ، وخروجهم من ضيقِ الشُّبْهَة .

ثم سأل اللهَ إعانَتَهُم بطلب الهداية لهم . فلمَّا تَبيَّن له أنهم لا يؤمنون ، وعلى كفرهم يُصِرُّون تَبَرَّأ منهم أجمعين .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا وَجَدْنَا آباءنا لها عابدين * قال لقَدْ كنتم أنتم وآباؤُكم فى ضلالٍ مبين قالوا أجِئْتَنَا بالحقِّ أمْ أنت من اللاعبين ﴾

ما استروحوا فى الجواب إلا إلى التقليد ، فكان من جوابه الحُكْمُ بالتسوية بينهم وبين آبائهم فى الضلال ، والحجة المتوجهة على سلفهم لزموها وتوجهت عليهم ، فلم يرضوا منه بتخطئة آبائهم حتى قالوا : « أجِئْتَنَا بالحقِّ أمْ أنت من اللاعبين ؟ » فطالبوه بالبرهان إلى ما دعاهم إليه من الإيمان فقال :

﴿ بل ربُّكم ربُّ السمواتِ والأرضِ الذى فَطَرَهُنَّ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾

فأحالَهم على النظر والاستدلال والتعرُّف[3] من حيث أدلة العقول[4] لأنَّ إثباتَ الصانع

---

(١) وردت (وأتاه) والصواب ان تكون (أباه) كما فى الآية .

(٢) وردت فى (ظلمة) وفى م (ظل) والصواب أن تكون (ظلمة) فالقشيرى يستعمل الظل للعناية وما فى معناها .

(٣) فى ص (والتعريف) وفى م (التعرف) ونحن نرجح هذه .

(٤) فى ص (القبول) ونحن نرجح (العقول) لتلاؤمها مع السياق .

لا يُعْرَفُ بالمعجزاتُ ، وإنما المعجزاتُ علم بصدق الأنبياء عليهم السلام ، وذلك فرع لمعرفة الصانع .

ثم بيَّن لهم أنَّ ما عبدوه من دون الله لا يستحق العبادة ، ثم إنه لم يَحْفِلْ بما يُصيبه من البلاء ثقةً منه بأنَّ الله هو المتفرِّدُ بالإبداع ، فلا أحدَ يملك له(1) ضراً من دون الله ، فتساءلوا فيما بينهم وقالوا :

﴿قالوا مَنْ فَعَلَ هذا بآلِهتِنَا إنه لَمِنَ الظالمين * قالوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهم يُقَالُ له ابرهيم﴾

أى يذكرهم بالسوء . ويحتمل أن يكون مَنْ فعله . . فاسألوه ، فسألوه(2) فقال : بل فَعَلَه كبيرُهم .

فقالوا كيف ندرك الذنب عليه ؟ وكيف تحيلنا فى السؤال عليه — وهو جماد ؟

فقال : وكيف تستجيزون عبادة ما هو جمادٌ لا يدفع عن نَفْسِه السوء ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ثم نُكِسُوا على رُءوسهم لقد عَلِمْتَ ما هؤلاءِ يَنْطِقُون﴾

فقال : شرٌ وأمَرُّ(3) . . كيف تستحق أمثالُ هذه . . العبادةَ ؟ !

فلمَّا تَوَجَّهَتْ الحجةُ عليهم ولم يكن لهم جواب دَاخَلَتْهم الأَنَفَةُ والحمية فقالوا : سبيلنا أنْ نقتلَه شَرَّ قِتلة ، وأنْ نعامِلَه بما يخوفنا به من النار . فقالوا : « ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم » ، فلما رموه فى النار :

﴿قلنا يانارُ كونى بَرْداً وسلاماً على ابرهيم﴾

---

(1) الضمير فى (فسألوه) يعود على ابراهيم عليه السلام .

(2) أى أن فى الكلام كما يقول البلاغيون — إيجاز حذف .

(3) أى هذا عذر أقبح من الذنب .

لو عَصَمَهُ من نار(١) نمرود ولم يمكنه مِنْ رَمْيه فى النار من المنجنيق لكان ـ فى الظاهر ـ أقرب من التبصر ، ولكنَّ حِفْظَه فى النار من غير أنَّ يَمَسَّهُ أَلَمٌ أتمُّ فى باب النصرة والمعجزة والكرامة .

ويقال إن ابرهيم — عليه السلام — كان كثيراً ما يقول : أواه من النار !

قال تعالى : « إن ابرهيم لأوّاه حليم »(٢)

فلمَّا رُمِيَ فى النار ، وجعل اللهُ عليه النارَ بَرْداً قيل له : لا تَقُلْ بعد هذا . أواه من النار ! فالاستعاذةُ بالله مِنَ الله . . لا مِنْ غيره .

قوله : « وسلاماً » : أى وسلامةً عليه وله ، فإنه إذا كان للعبد السلامة فالنارُ والبَرْدُ عنده سِيّان .

ويقال إن الذى يحرق فى النار مَنْ فى النار يقدر على حِفْظِه فى النار .

ولمَّا سَلِمَ قلبُه من غير الله بكل وجهٍ فى الاستنصار(٣) والاستعانة وسَلِمَ من طَلَبِ شىءٍ بكلِّ وجهٍ . . . تَعرَّضَ له جبريلُ — عليه السلام — فى الهواء وقد رمى من المنجنيق وقال له :

هل مِنْ حاجة ؟

فقال : أمَّا إليكَ . . فَلاَ !

فجعل اللهُ النار عليه برداً وسلاماً ؛ إذ لمَّا كان سليمَ القلبِ من الأغيار وَجد سلامةَ النَّفْسِ من البلايا والأعلال .

قوله جل ذكره : ﴿ وأرادوا به كَيْداً فجعلناهم الأخْسَرين ﴾

مَنْ حَفَرَ لأوليائه وقع فيما حَفَرَ ، ومَنْ كان مشغولاً بالله لم يَتَوَلَّ الانتقامَ منه سوى الله .

---

(١) فى م (يد) نمرود وكلاهما مقبول فى السياق .

(٢) آية ١١٤ سورة التوبة .

(٣) هكذا فى م وهى أصح من (الاستبصار) فى ص لانسجام (الاستنصار) مع (الاستعانة) .

قوله جل ذكره : ﴿ ونجّيناه ولوطاً إلى الأرضِ التي بَارَكنا فيها للعَالمين ﴾

مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ فى أنبيائه ـ عليهم السلام ـ أنه إذا نجّى منهم واحداً أشرك معه مَنْ كان مُسَاهِماً له فى ضُرِّه ومُقَاساةِ مشقته .

قوله جل ذكره : ﴿ ووَهَبْنا له إسحاقَ ويعقوب نافِلَةً وكُلاً جعلنا صالحين ﴾

مَنَّ عليه بأن أخرج مِنْ صلبه مَنْ كان عابِداً لله ، ذاكراً له ، فإنَّ مفاخِرَ الأبناءِ مناقِبُ للآباء ، كما أنَّ مناقبَ الآباءِ شرفٌ للأبناء .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلناهم أئمةً يَهْدُون بأَمْرِنا وأوحينا إليهم فعلَ الخيراتِ وإقامَ الصلاةِ وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين ﴾

الإمامُ مُقَدَّمُ القوم ، واستحقاقُ رتبةِ الإمامة باستجماع الخصال المحمودة التى فى الأمة فيه ، فَمَنْ لم تتجمعْ فيه مُتَفَرِّقاتُ الخصالِ المحمودةِ لم يستحقْ منزلةَ الإمامة .

قوله جل ذكره ﴿ ولوطاً آتيناه حُكْماً وعِلْماً ونجّيْناه من القريةِ التى كانت تَعْمَلُ الخبائِثَ إنهم كانوا قَوْمَ سَوءٍ فاسِقين ﴾

أكمل له الأنعام بعصمته مِنْ مِثْلِ ما امْتُحِنَ به قومُه ، ثم بخلاصِه منهم بإخراجه إيَّاه مِنْ بينهم ، فميزه عنهم ظاهرا وباطنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وأدخلناه فى رحْمَتِنا إنه من الصالحين ﴾

بيَّن أنه أدخله فى رحمته ثم قال : « إنه من الصالحين » ؛ فلا محالة مَنْ أدخله فى رحمته كان صالحاً .

وقوله : « وأدخلناه فى رحمتنا » إخبارٌ عن عين الجمع ، وقوله : « إنه من الصالحين » : إخبار عن عين الفرق(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ونوحاً إذ نادىٰ مِنْ قَبْلُ فاستجبنا له فَنَجَّيْنَاه وأهلَه من الـكَرْبِ العظيم ونصرناه من القوم الذين كَذَّبوا بآياتنا إنَّهم كانوا قوم سَوْءٍ فأغرقناهم أجمعين﴾

كان نوح ـ عليه السلام ـ أطولَهم عمراً ، وأكثرهم بلاءً . ففى القصة أنه كان يُضْرَبُ سبعين مرةً ، وكان الرجل الهرم يحمل حفيده إليه ويقول . لا تقبل قولَ هذا الشيخ وكان يوصيه بمخالفته . وكان نوح ـ عليه السلام ـ يصبر على مقاساة الأذى ، ويدعوهم إلى الله ، فلمَّا أيِسَ من إيمانهم ، وأُوحِىَ إليه : « أنه لن يؤمِنْ من قومك إلا من قد آمن » (٢) دعا عليهم فقال : « ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الـكافرين دَيَّاراً »(٣) فقال تعالى : « ونوحاً إذ نادى من قبل . . . . » فأَزْهقَ الشِّرْكُ وأُغْرِقَ أهلُه .

قوله جل ذكره ﴿وداودَ وسليمانَ إذْ يَحْكُمَانِ فى الحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القومِ وكُنَّا لِحُكْمِهم شاهدين * فَفَهَّمْنَاها سُلَيْمانَ وكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وعِلْماً﴾

أشركهم فى حكم النبوة وإن كان بين درجتيهما تفاوت . . ففى مسألة واحدة أثبت لسليمان ـ عليه السلام ـ بها خصوصية ، إذ مَنَّ عليه بقوله : « ففهمناها سليمان » ولم يَمُنْ عليه بشئٍ من المُلْكِ الذى أعطاه بمثل ما منَّ عليه بذلك ، وفى هذه المسألة دلالة على تصويب المجتهدين ـ وإنْ اختلفوا ـ إذا كان اختلافُهم فى فروع الدِّين ، حيث قال : « وكلاً آتينا

---

(١) لأن الرحمة من صفات ذاته ـ سبحانه ، وصلاح العبد فيه شيء من كسب العبد .
(٢) آية ٣٦ سورة هود .
(٣) آية ٢٦ سورة نوح .

حكماً وعلماً » ولمن قال بتصويب أحدهما وتخطئة الآخر فله تعلُّقٌ بقوله : « ففهمناها سليمان »[1]

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَخَّرْنا مع داود الجبالَ يُسَبِّحْنَ والطيْرَ وكُنَّا فاعلين ﴾

أمَرَ الجبالَ وسَخَّرها لتساعدَ داودَ — عليه السلام — فى التسبيح ، ففى الأثر : كان داود — عليه السلام — يمرُّ وصُفَاحُ[2] الجبالِ تجاوبه ، وكذلك الطيور كانت تساعده عند تأويبه .

قوله جل ذكره : ﴿ وعَلَّمْنَاه صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكم فهل أنتم شاكرون ﴾

سخَّر الله — سبحانه — لداود الحديد وألانه فى يده ، فكان ينسج الدروع ، قال تعالى : « وأَلَنَّا له الحديد » ليتحصن من السهام فى الحروب ، قال تعالى : « وقدِّر فى السَّرد » وأَحْكِمْ الصنعةَ وأوثِقْ المسامير . . ولكن لما قصدته سِهامُ التقدير ما أصابت إلا حدقتَه حين نظر إلى امرأة أوريا — من غير قصدٍ — فكان ما كان .

ولقد خلا ذلك اليوم ، وأغلق على نَفْسه بابَ البيت ، وأخذ يصلى ساعةً ، ويقرأ التوراة مرةً ، والزبور أخرى ، حتى يمضى وينتهى ذلك اليوم بالسلامة . وكان قد أُوحِىَ إليه أنَّه يومُ فتنةٍ ، فأمَرَ الحُجَّابَ والبواب ألا يؤْذَنَ عليه أحدٌ ، فوَقَعَ مِنْ كَوَّةِ البيتِ طيرٌ لم يَرَ مِثْله

---

(١) هذا رأى القشيرى فى (الاجتهاد) ومداه ، ويجدر الاهتمام به إذا شئنا أن نبحث فى « أصول الفقه عند الصوفية » .

(٢) صفاح جمع صفح ، وصفح الشىء عرضه (مقاييس اللغة جـ ٣ ص ٢٩٣) .

ويقول القرطبى (قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسبحاً ، والجبال تجاوبه بالتسبيح ، وكذلك الطير) ويضيف القرطبى شيئاً هاماً بالنسبة للتفسير الصوفى : (كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق ، ولهذا قال : « وسخرنا » أى جعلناها بحيث تطيعه) .

«الجامع لأحكام القرآن جـ ١١ ص ٣١٩»

وبهذه المناسبة نود أن نستدرك شيئاً لم نشر إليه فى مدخل الكتاب ، وهو أن القرطبى كثيراً ما يستفيد من آراء الصوفية ، وبصفة خاصة من القشيرى ، وهو فى معظم الأحيان عبد الرحمن القشيرى أحد أبناء المصنف .

فى الحُسْنِ ، فَهَمَّ أنْ يأخذه ، فتَباعَدَ ولم يطِرْ كالمُطْمِع له فى أخْذِه ، فلم يَزَلْ يستأخر قليلاً قليلاً حتى طار من كَوَّةِ البيت ، فتبعه داودُ ينظر إليه من الـكوة من ورائه ، فوقع بصرُه على امرأة أوريا ، وكانت قد تجرَّدَتْ من ثيابها تغتسلُ فى بستانٍ خَلْفَ البيتِ الذى به داود ، فَحَصَلَ فى قلبه ما حصل ، وأصاب سَهْمُ التقدير حَدَقَتَه ، ولم تَنْفَعْه صَنْعَةُ اللَّبوسِ التى كان تعلَّمها لِتُحَصِّنَه مِنْ بأسِه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولِسُليمانَ الريحَ عاصِفَةً تجرى بأمره إلى الأرضِ التى باركنا فيها وكُنَّا بكل شيء عالمين ﴾

سخَّر اللهُ له الريحَ غُدُوُّها شَهرٌ ورواحُها شَهرٌ ، ولو أراد أن يزيد فى قَدْر مسافتها شِبْرًا لمـا استطاع ، تعريفاً بأنه موقوفٌ على حكمِ التقدير ، فشهود التقدير كان يمنعه عن الإعجاب بما أُكْرِمَ به من التسخير ، ولقد نَبَّه — سبحانه — من حيث الإشارة أن الذى مَلَـكه سليمان كالريح إذا مرَّ وفات ، أو أنه لا يَبْقَى باليدِ منه شيء(1) .

وفى القصة أنه لاحَظَ ذلك يوماً فمالت الريح بِبِسَاطِه قليلاً ، فقال سليمانُ للريحِ : استوِ . فقالت له الريح : استوِ أنت . أى إنما مَيْلِى بِبِسَاطِكَ لميلك بقلبك بملاحظتك ، فإذا استويتَ أنتَ استويتُ أنا (2) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنَ الشياطينِ مَنْ يَغُوصُون له وَيَعْمَلُون عَمَلاً دونَ ذلك وكُنَّا لهم حافظين ﴾

إنما كان ذلك أياماً قلائل فى الحقيقة . ثم إنه أراد يوماً أن يعودَ إلى مكانه فجاءه مَلَكُ الموتِ فطَالَبَه بروحه ، فقال : إلىَّ حين أرجع إلى مكانى .

فقال له : لا وجهَ للتأخير ، وقَبَضَه وهو قائم يتـكئ على عصاه وبقى بحالته ، ولم تعلمِ الجنُّ ،

---

(1) فهو كما قيل : باطل وقبض الريح .

(2) فى ذلك إشارة إلى أصحاب الأحوال بانه إذا تغيرت او تعذرت الأمور فالسبب كامن فى نفوسهم .

إلى أنْ أَكلَتْ دابة الأرضِ — كما فى القصة — عصاه ، فلما خَرَّ سليمانَ عَلِمَتْ الشياطينُ بموته ، وتحققوا أنَّ الذى بالعصا قِيامُه فَقَهْرُ الموتِ يلحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأيوبَ إذا نادى ربَّه أنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنت أَرْحَمُ الراحمين ﴾

أى واذكر أيوبَ[1] حين نادى ربَّه . وسُمِّىَ أيوب لـكثرة إيابه إلى الله فى جميع أحواله فى السرَّاء والضرَّاء ، والشِّدَّة والرَّخاءِ .

ولم يَقُلْ : ارحمنى ، بل حَفِظَ أدب الخطاب فقال : « وأنت أرحم الراحمين » .

ومن علامات الولاية أن يكونَ العبدُ محفوظاً عليه وقتُه في أوانِ البلاء .

ويقال إخبارُه عنه أنه قال : « مسنى الضر » لم يَسْلُبْه اسمَ الصبرِ حيث أخبر عنه سبحانه بقوله : « إنا وجدناه صابراً » لأنَّ الغالبَ كان من أحواله الصبر ، فنادِرُ قالتِه لم يَسْلُبْ عنه الغالِبَ من حالته . والإشارة من هذا إلى أنَّ الغالبَ من حال المؤمن المعرفةُ ، أو الإيمانُ بالله فهو الذى يستغرِقُ جميعَ أوقاته ، ولا يخلو منه لحظةً ، ونادِرُ زلاَّتِه — مع دائمِ إيمانِه — لا يُزَاحِمُ الوصفَ الغالب .

ويقال ، لمَّا لم يكن قوله : مسنى الضُّرُّ على وجه الاعتراض على التقدير — بل كان على وجه إظهار العجز — فلم يكن ذلك مُنافياً لصفة الصبر .

ويقال استخرجَ منه هذا القولَ ليكونَ فيه مُتَنَفَّسٌ للضعفاء فى هذه الأمة حتى إذا ضَجُّوا فى حالِ البلاء لم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر .

ويقال لم يكن هذا القولُ منه على جهة الشكوى ، وإنما كان من حيث الشكر « أنى مسنى الضرُّ » الذى تَخصُّ به أولياءك ، ولولا أنك أرحم الراحمين لمَا خصصتنى بهذا ، ولـكن برحمتك أهَّلتنى لهذا .

---

(1) فى تقديرنا أن ما كتبه القشيرى فى هذا الموضع عن أيوب عليه السلام من أجمل ما كتب فى هذا الموضوع سواء من الناحية الأدبية او من الناحية الإشارية .

ويقال لم يكن هذا القولُ من أيوب ولكنه استغاثةُ البلاءِ منه ، فلم يُطِقْ البلاء صُحبتَه فضجَّ منه البلاء لا أيوبُ ضَجَّ من البلاءِ . . وفى معناه أنشدوا .

صاحَ الصبرَ فاستغاثَ به الصبرُ فصاح المحبُّ بالصبر صبراً

ويقال همزة الاستفهام فيه مضمرة ، ومعناه : أيمسنى الضرُّ وأنت أرحم الراحمين ؟ كما قال « وتلك نعمة تمنها علىَّ »(١) أى أتلك نعمة تمنها علىَّ أن عبدت بنى إسرائيل ؟

ويقال إن جبريلَ — عليه السلام — أتى أيوبَ فقال : لِمَ تسكت ؟ فقال : ماذا أصنع ؟ فقال : إنَّ اللهَ سيان عنده بلاؤك وشفاؤك . . . فاسألْ اللهَ العافيةَ فقال أيوب : إنى مسنى الضُّر ، فقال تعالى : « فكشفنا مابه من ضُرٍّ » والفاء تقتضى التعقيب ، فكأنه قال : فعافيناه فى الوقت . وكأنه قال : يا أيوب ، لو طلبتَ العافيةَ قبل هذا لاستَجَبْنا لك .

ويقال سقطت دودةٌ كانت تأكل من بدنه على الأرض فرفعها أيوبُ ووضعها على موضعها ، فعقرته عقرةً عيلَ صَبْرُه فقال : مسنى الضر ، فقيل له : يا أيوب : أتصبر معنا ؟ لولا أنى ضربتُ تحت كل شَعْرَةٍ من شعراتك كذاخيمَة من الصبر . . ما صَبَرْتَ ساعةً !

ويقال كانت الدوداتُ التى تأكل منه أكلت ما عَلاَ بَدَنَه ، فلم يَبْقَ منه إلا لسانه وقلبه ، فصعدت دودة إلى لسانه ، وأخرى إلى قلبه فقال :

« مسنى الضرُّ » . . . فلم يَبْقَ لى إلا لسانٌ به أذكرك ، أو قلبٌ به أعرفك ، وإذ لم يَبْقَ لى ذلك فلا يمكننى أن أعيشَ وأصبر !

ويقال استعجمت عليه جهةُ البلاء فلم يعلم أنه يصيبه بذلك تطهيراً أو تأديباً أو تعذيباً أو تقريباً أو تخصيصاً أو تمحيصاً . . . وكذلك كانت صحبته(٢) .

ويقال قيل لأيوب عليه السلام سَلْ العافية فقال :

عِشْتُ فى النِّعم سبعين سنة فحتى يأتى علىَّ سبعون سنة فى البلاء . . وعندئذٍ أسألُ اللهَ العافيةَ !

---

(١) آية ٢٢ سورة الشعراء .

(٢) أى وهكذا كانت صحبة الحق لوليه دائماً .

وقيل لمَّا كَشَفَ اللهُ عنه البلاء قيل له : ما أشدُّ مالقيتَ فى أيام البلاء ؟ فقال شماتة الأعداء .

وفى القصة أن تلامذة أيوب كسروا أقلامهم ، وحرَّقوا ما كتبوه عنه وقالوا : لو كان لكَ عند الله منزلةٌ لَمَا ابتلاكَ بكل هذا البلاء !

وقيل لم يبقَ معه إلا زوجُه ، وكانت من أولاد يوسف النبي عليه السلام ، فهى التى بقيت معه وكانت تخدمه وتتعهده .

ويقال إنما بقيت تلك المرأة معه لأنها كانت من أهل البلاء من آل يعقوب — عليه السلام .

وقيل إنما قال : مسنى الضرُّ لمَّا قال لها الشيطان : إنْ أردتِ أنْ يَشْفَى مريضُكِ فاسجدى لى ، ولم تعلم أنه إبليس لأنه ظَهَرَ لها فى صورة إنسان ، فأخبرت أيوبَ بذلك فقال عندئذٍ : « مَسَّنِيَ الضرُّ » .

ويقال لمَّا ظهر به البلاءُ اجتمع قومُهُ وقالوا لها : أخرِجى هذا المريضَ من قريتنا ، فإننا نخاف العَدْوَى وأنْ يَمَسَّنَا بلاؤه ، وأنْ تُعْدَى إلينا عِلّتُه ، فأخرَجَتْهُ إلى باب القرية فقالوا : إنا إذا أصبحنا وقعت أبصارُنا عليه ، فنتشاءم به ، فأبْعِديه عن أبصارنا ، فحملَتْهُ إلى أرض قَفْرٍ ، وكانت تدخل البلد ، و تُسْتَأْجَرُ للخَبْزِ والعملِ فى الدور ، فتأخذ الأجرةَ وتحملها إليه ، فلما عَلِموا أنَّها امرأتُه استقذروها ولم يستعملوها .

ويقال إنها كانت ذات ذوائب وقرون ، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه ، فباعت ذوائبها برغيفٍ أخذته لتحمله إليه ، فوسوس له الشيطان بأنها فعلت الفحشاء ، وأن شعرها جُزَّ فى ذلك فَحَلَفَ أيوبُ أنْ يجْلِدَها إذا صحَّ جَسَدُه ، وكانت المحنةُ على قلبِ تلك المرأة أشدَّ مما على بَدَنِ أيوب من كل المحن .

وقيل إن امرأتَه غابَتْ ودخلَتْ البلدَ ، فعافى اللهُ أيوبَ عليه السلام ، وعاد شاباً طرياً كما قال فى قصته قوله : « اركض برِجْلِكَ هذا مُغْتَسلٌ بارد وشراب »[1] . فلما رجعت

(١) آية ٤٢ سورة ص

امرأته ولم تَرَه حسبت أنه أكله سَبُعٌ أو أصابته آفةٌ ، فأخذت تبكى وتولول ، فقال لها أيوب — وهى لم تعرفه لأنه عاد صحيحاً — مالَكِ يا امرأة ؟

قالت : كان لى ها هنا مريض فَفَقَدْتُه . فقال لها أيوب : أنا ذاك الذى تطلبينه !

وفى بعض الأخبـار المروية أنه بقى فى بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

وقيل تعرَّضَ له إبليسُ فقال : إنْ أردتَ العافيةَ فاسجُدْ لى سجدةً ، فقـال : « مسنى الضُرُّ » .

ويقال إن أيوب — عليه السلام — كان مُكاشَفاً بالحقيقة ، مأخوذاً عنه ، فـكان لا يُحِسُّ بالبلاء ، فَستَرَ عليه مرةً ، وردَّه إليه ، فقال : مَسَّنِي الضرُّ (١) .

ويقال أَدْخَلَ على أيوب تلك الحالةَ ، واستخرج منه هذه القالةَ ليظهر عليه إقامة العبودية .

ويقال أوحى الله إلى أيوب — عليه السلام — أنَّ هذا البلاء اختاره سبعون نبياً قَبْلَكَ فما اخْتَرْتُه إلا لَكَ ، فلمَّا أراد كَشْفَه عنه قال : مَسَّنِي الضرُّ !

وقيل كوشف بمعنىً من المعانى فلم يَجِدْ أَلَمَ البلاء فقال : مَسَّنِيَ الضرُّ لِفَقْدِى أَلَمَ الضُّرِّ .

وقال جعفر الصادق : حَبَسَ عنه الوحىَ أربعين يوماً فقال : مسنى الضرُّ لِمَا لَحِقَه من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب إليه بأنْ ردَّ عليه قُوَّتَه ليقوم بحقِّ الطاعة .

ويقال طلب الزيادةَ فى الرضا فاستُجيبَ له بكَشْفِ ما كان به من ضعف الرضا .

ويقال إن الضرَّ الذى شكا منه أنه بقيت عليه بقية ، وبليته كانت ببقيته ، فَلَمَّا أُخِذَ عنه بالـكلية زال البلاء ، ولهذا قال : « فـكشفنا ما به من ضُرٍّ » وكانت نَفْسُه ضُرَّه ، ورَدَّ عليه السلامةَ والعافيةَ والأملَ — فى الظاهر — لَمَّا صار مأخوذاً بالـكلية عنه ، مُنَقًّى عن كل بقية ، وعند ذلك يستوى البلاء والعافية ، والوجود والفقد .

---

(١) اى ان العبد الواله لايحس بنفسه وهو فى حال الجمع ، ويحس بها وهو فى حال الفرق . وقد حكى القشيرى فى الرسالة ان بعضهم قطعت رجله حيث كانت بها غرغرينة فلم يشعر ، بينما آلمت بعضهم قملة . . وهو في حال الفرق .

قوله جل ذكره : ﴿ واسماعيلَ وإدريسَ وذا الكِفْلِ كُلٌّ من الصابرين ﴾

أى واذكر هؤلاءِ الأنبياء ثم قال : « كل من الصابرين » ، ثم قال :

﴿ وأَدْخَلْنَاهم فى رحمتنا إنَّهم من الصالحين ﴾

بيَّنَ الحُكْمَ والمعنى ؛ الحُكمُ صبرُهم وصلاحُهم ، والمعنى إدخالُه إياهم فى الرحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وذا النونِ إذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فظَنَّ أَنْ لن نقدِرَ عليه فنادى فى الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ أنتَ سبحانك إنى كنتُ من الظالمين ﴾

« مغاضبا » : على مَلِكِ وقته حيث اختاره للنبوة ، وسأله : لِمَ اخترتَني ؟ فقال : لقد أَوْحَى اللهُ إلى نَبِيٍّ : أَنْ قُلْ لفلانِ المَلِكِ حتى يختار واحداً لِيُرْسَلَ إلى نينوى بالرسالة . فَثَقُلَ على ذى النون لما اختارَه المَلِكُ ؛ لأنه علم أن النبوةَ مقرونةٌ بالبلاء ، فكان غضبُه عليه لذلك[1] .

ويقال مغاضباً على قومه لمَّا امتنعوا عن الإيمان وخرج من بينهم .

ويقال مغاضباً على نفسه أى شديد المخالفة لهواه ، وشديداً على أعداء الدين من مُخَالِفيه .

« فظنَّ أَنْ لن نقدر عليه » أى أَنْ لن نُضَيِّقَ عليه[2] بطن الحوت ، من قوله : « وأما إذا ما ابتلاه فَقَدَرَ عليه رزقه »[3] أى ضَيَّق .

---

(١) عن ابن عباس : اراد شعيا النبي والملك حزقيا ان يبعثا يونس إلى ملك نينوى الذى كان قد غزا بنى إسرائيل وسبى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل ؛ وكان الأنبياء فى ذلك الزمان يوحى إليهم، والأمر والسياسة الى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وحى ذلك النبي ، وقد أوحى لشعيا: ان قل لحزقيا الملك ان يختار نبيا قويا من بنى اسرائيل إلى اهل نينوى .. فقال يونس لشعيا : هل امرك الله بإخراجى ؟ قال : لا ، قال : فهاهنا انبياء امناء اقوياء ، فألحوا عليه .. فخرج مغاضبا للنبي وللملك وقومه ، حتى أتى بحر الروم .. وكان من قصته ما كان ، وابتلى ببطن الحوت لتركه امر شعيا .. قال تعالى « فالتقمه الحوت وهو مليم » .

(٢) (ان لن نضيق عليه) مفقودة فى ص وموجودة فى م والسياق يقتضي وجودها .

(٣) آية ١٦ سورة الفجر

ويقال فظنَّ أن لن نقدر عليه من حَبْسِهِ فى بَطْنِ الحوت .

وخرج من بين قومه لَمَّا أُخْبِرَ بأنَّ الله يُعَذِّب قومَه ، وخرج بأهله .

ويقال إن السبعَ افترس أهله فى الطريق ، وأخذ النَّمِرُ ابنا صغيراً له كان معه ، وجاء موج البحر فأغرق ابنَه الآخَرَ ، وركب السفينة ، واضطرب البحر ، وتلاطمت أمواجُه ، وأشرفَتْ السفينةُ على الغرق ، وأخذ الناسُ فى إلقاء الأمتعة فى البحر تخفيفاً عن السفينة ، وطلباً لسلامتها من الغَرَقِ ، فقال لهم يونس : لا تُلقُوا أمْتِعَتَكُمْ فى البحر بل اطرحونى فيه فأنا المجرم فيما بينكم لتخلصوا . فنظروا إليه وقالوا : نرى عليكَ سيماء الصلاح ، وليست تسمح نفوسُنا بإلقائك فى البحر ، فقال تعالى مخبرا عنه : « فساهم فكان من المدحضين »[1] أى فقارعهم ، فاستهموا ، فوقعت القُرْعَةُ عليه .

وفى القصة أنه أتى حَرْفَ السفينة ، وكان الحوتُ فاغراً فاه ، فجاء إلى الجانب الآخر فجاء الحوت إليه كذلك ، حتى جاز كل جانب . ثم لمَّا عَلِمَ أنه مُرَادٌ بالبلاء ألقى نَفْسَه فى الماء فابتلعه الحوت « وهو مليم » : أى أتى بما يُلام عليه ، قال تعالى : « فالتقمه الحوتُ وهو مليم »[2] .

وأوحى الله إلى السمك : لا تَخْدِشْ منه لَحْماً ولا تَكْسِرْ منه عَظْماً ، فهو وديعةٌ عندك وليس بِطُعْمَةٍ لك . فَبَقِيَ فى بطنه ـ كما فى القصة ـ أربعين يوماً .

وقيل إن السمك الذى ابتلعه أُمِرَ بأن يطوف فى البحر ، (وخلق الله له إدراك ما فى البحر)[3] ، وكان ينظر إلى ذلك .

ويقال إن يونس عليه السلام صَحِبَ الحوتَ أياماً قلائل فإلى القيامة يقال له : ذا النون ، ولم تبطل عنه هذه النسبة . . فما ظَنُّكَ بِعَبْدٍ عَبَدَه ـ سبحانه ـ سبعين سنة ، ولازم قلبه محبته ومعرفته طولَ عمره . . ترى أيبطل هذا ؟ لا يُظَنُّ بِكَرَمِهِ ذلك !

« فنادى فى الظلمات . . . » يقال ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ـ هذا بيان

---

(1) آية ١٤١ سورة الصافات

(2) آية ١٤٢ سورة الصافات

(3) موجودة فى م ومفقودة فى ص

التفسير ، ويحتمل[1] أن تكون الظلمات ما التبس عليه من وقته واستبهم عليه من حاله .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستَجبْنا له ونَجَّيْنَاه من الغمِّ وكذلك ننجى المؤمنين ﴾

استجبنا له ولم يجْرِ منه دعاء ، لأنه لم يصدر عنه أكثر من قوله : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » ، ولم يقر بالظلم إلا وهو يستغفر منه .

ثم قال : « ونجيناه من الغمِّ . . . » يعنى : كُلُّ مَنْ قال من المؤمنين ـ إذا أصابه غمٌّ ، أو استقبله مُهِمٌّ ـ مثلما قال ذو النون نجيناه كما نجينا ذا النون .

قوله جل ذكره : ﴿ وزكريا إذْ نادى ربَّه ربِّ لا تَذَرْنى فَرْدًا وأنت خيرُ الوارثين ﴾

سأل الوَلَدَ ، وإنما سأله ليكون له مُعِيناً على عبادةِ ربِّه وليقوم فى النبوة مقامَه ، ولئلا تنقطعَ بركةُ الرسالة من بيته[2] ، ولقد قاسى زكريا من البلاء ما قاسى حتى حاولوا قَطْعَه بالمنشار ، ولما التجأ إلى شجرة انشقت له وتَوَسَّطَها ، والتأمت الشجرة ، وفطنوا إلى ذلك فقطعوا الشجرة بالمنشار ، وصبر لله ، وسبحان الله !

كان انشقاق الشجرة له معجزة ، وفى الظاهر كان حفظاً له منهم ، ثم لو لم يطلعهم عليه لكان في ذلك سلامته ، ولعلَّهم ـ لو قتلوه ـ لم يُصِبْه من الألم القدْرُ الذى لحقه من القطع بالمنشار طول إقامته ، وإنما المعنى فيه أن انشقاق الشجرة كان له معجزة ، فَقَوِى بذلك يقينه لمَّا رأى عجيبَ الأمر فيه من نَقْضِ العادة[3] ، ثم البلاء له بالقتل ليس ببلاء في التحقيق ، ولقد قال قائلهم : « إنما يستعذب الأولياء البلوى للمناجاة مع المولى » .

---

(١) هذا النوع من الظلمات ـ وهو المرتبط بالنفس ـ متوقع صدوره عن مفسر صوفى ملم بأحوال النفس .

(٢) اى انه لم يسأل الولد لحظ نفسه بل لحق ربه ، وهذه بشرى لإجابة الدعاء .

(٣) اى ان المعجزة ليست فقط من أجل القوم الذين فيهم النبى بل فى حسابها تثبيت قلب النبى وترسيخ يقينه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا له وَوَهَبْنَا له يحيى وأَصْلَحْنَا له زوجَه إنَّهم كانوا يُسارِعون فى الخيراتِ ويَدْعُونَنَا رَغَبًا ورَهَبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾

سمى يحيى لأنه حَيِيَ به عقر أمه .

وقوله : « وأصلحنا له زوجه » : لتكون الكرامةُ لهم جميعًا بالولد ، ولئلا يستبدَّ زكريا بفرح الولد دونها مراعاةً لحقِّ صحبتها . . وهذه سُنَّةُ الله فى باب إكرام أوليائه ، وفى معناه أنشدوا :

إنَّ الكرامَ إذا ما أيسروا ذكروا مَنْ كان يألفهم فى المنزل الخشن

ثم قال : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا . . . » وفى هذا بشارة لجميع المؤمنين ، لأن المؤمن لا يخلو من حالة من أحوال الرغبة أو الرهبة ؛ إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطًا والقنوط كفر[1] ، ولو لم تكن رهبة لكان أمنًا والأمن كفر[2] .

قوله : « وكانوا لنا خاشعين » الخشوع قشعريرة القلب عند اطلاع الربِّ ، وكان لهم ذلك على الدوام .

قوله جل ذكره : ﴿ والتى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فيها من رُوحِنا وَجعَلْنَاهَا وابنَها آيةً للعالَمين ﴾ .

يعنى مريم ، وقد نَفَى عنها سِمَةَ الفحشاء وهجنة الذم .

ويقال فنفخنا فيها من روحنا ، وكان النفخُ من جبريل عليه السلام ، ولكن لمَّا كان بأمره — سبحانه — صَحَّتْ الإضافةُ إليه ، وفى هذا دليل على تأويل خبر النزول ، فإنه يكون بإنزال مَلَكٍ فتَصِحُّ الإضافة إلى الله إذ كان بأمره . وإضافة الروح إلى نفسه على جهة التخصيص ، كقوله : (ناقة الله ، وبيتى) . . ونحو ذلك . (وجعلنا وابنها آيةً للعالمين) : ولم يقل آيتين

(١) قال تعالى : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ٥٦ الحجر .

(٢) قال تعالى : « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » ٩٩ الأعراف .

لأن أمرهما كان معجزة ودلالة ، ويصح أنْ يراد، أنَّ كلَّ واحدٍ منهما آيةٌ — على طريقة العَرب فى أمثال هذا .

وفيه نفى لتهمة مَنْ قال إنها حبلت من الله . . . تعالى الله عن قولهم !

قوله (آية للعالمين) : وإنْ لم يهتدِ بهما جميعُ الناس . . لكنهما كانا آيةً . ومَنْ نَظَرَ فى أمرهما ، ووَضَعَ النظرَ مَوْضِعَه لاهتدى ، وإذا أعرض ولم ينظر فالآية لا تخرج عن كونها حُجَّةً ودلالةً بتقصير المُقَصِّر فى بابها .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ هذه أُمَّتُكم أمةً واحدةً وأنا رَبُّكم فاعبدون ﴾ .

أى كلكم خِلْقَتُه ، وكلكم اتفقتم فى الفقر، وفى الضعف ، وفى الحاجة . « وأنا ربكم » : وخالقكم على وصفِ التَّفَرُّد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهم بينهم كلٌّ إلينا راجعون ﴾ .

اختلفوا وتنازعوا ، واضطربت أمورهم ، وتفرَّقَتْ أحوالُهم ، فاستأصلتهم البلايا .

قوله : (كلٌّ إلينا راجعون) : وكيف لا . . . وهم ما يتقلبون إلاَّ فى قبضة التقدير ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ وهو مؤمنٌ فلا كُفرانَ لِسَعْيِه وإنا له كاتبون ﴾ .

مَنْ تَعَنَّى لله لم يخسر على الله ، ومَنْ تَحَمَّلَ لله مشقةً وَجَبَ حقُّه (على)[1] الله :قوله : وهو مؤمن) بعد قوله : (يعمل من الصالحات) دليل على أن من لا يكون مؤمنا لا يكون عمله صالحا ففائدة قوله هاهنا : (وهو مؤمن) فى المآل والعاقبة ، فقد يعمل الأعمالَ الصالحة من لا يُخْتَمُ له بالسعادة ، فيكون فى الحال مؤمنا وعملُه يكون على الوجه الذى آمن ثم لا ثواب له ، فإذا كانت عاقبته على الإسلام والتوحيد فحينئذٍ لا يضيع سَعْيُه .

---

(١) نرجح أنها فى الأصل (من) لأن القشيرى فى مواضع شتى عارض أى وجوب (على) الله . . وطالما أوضحنا ذلك فى الهوامش .

قوله جل ذكره : ﴿ وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنَّهم لا يَرْجِعون ﴾ .

أى لا نهلك قوماً وإن تمادوا فى العصيان إلا إذا علمنا أنهم لا يؤمنون ، وأنه بالشقاوة تُخْتَمُ أمورُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ حتَّى إذا فُتِحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ وهم مِن كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلون ﴾ .

أى يحق القولُ عليهم ، ويتم الأجلُ المضروبُ لهم ، فعند ذلك تظهر أيامهم ، وإلى القَدْرِ المعلومِ فى التقدير لا تحصلُ نجاةُ الناسِ من شرِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واقتربَ الوعدُ الحقُّ فإذا هى شاخِصةٌ أبصارُ الذين كفروا يا ويْلَنَا قد كُنَّا فى غَفْلَةٍ من هذا بل كُنَّا ظالمين ﴾ .

تأخذهم القيامةُ بغتةً ، وتظهر أشراطُ الساعة فجأةً ، ويُقِرُّ الكاذبون بأنَّ الذنبَ عليهم ، ولكن فى وقتٍ لا تُقْبَلُ فيه معذِرَتُهم ، وأوانٍ لا ينفعهم فيه إيمانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّكم وما تعبدون مِنْ دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أنتم لها واردون ﴾ .

« وما تعبدون من دونِ الله » : أى الأصنام التى عبدوها ، ولم تدخل فى الخطاب الملائكة التى عبدها قومٌ ، ولا عيسى وإنْ عَبَدَه قومٌ لأنه قال :

« إنكم وما تعبدون » ولم يقلْ إنكم ومن تعبدون[1] . فيُحْشَرُ الكافرون فى النار ، وتُحْشَرُ أصنامُهم معهم . والأصنامُ جماداتٌ فلا جُرْمَ لها ، ولا احتراقها عقوبة لها ، ولكنه على جهة براءة ساحتها ، فالذنبُ للكفار وما الأصنامُ إلا جماداتٌ .

---

(١) لأن (ما) اسم موصول لغير العاقل و (من) اسم موصول للعاقل .

﴿ لو كان هؤلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وكلٌّ فيها خالدون ﴾ .

القوم قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[1] فعلِمُوا أن الأصنامَ جماداتٌ ، ولكن توهموا أن لها عند الله خطراً ، وأنَّ مَنْ عبدها يَقْرُبُ بعبادتها من الله ، فَيُبَيِّن اللهُ لهم — غداً — بأنَّها لو كانت تستحق العبادة ، ولو كان لها عند الله خطرٌ لَمَا أُلْقِيَتْ فى النار ، ولَمَا أُحْرِقَتْ .

قوله جل ذكره : ﴿ لهم فيها زَفِيرٌ وهم فيها لا يسمعون ﴾

« لهم » : أى لِعَبَدَةِ الأصنام ، « فيها » أى فى النار ، « زفير » لحسرتهم على ما فاتهم ، « وهم فيها لا يسمعون » مِنْ نداءٍ يبشرهم بانقضاء عقوبتهم .

وبعكس أحوالهم عُصَاة المسلمين[2] فى النـار فَهُمْ — وإنْ عُذِّبوا حيناً — فإنهم يسمعون قَوْلَ مَنْ يُبَشِّرهم يوماً بانقضاء عذابهم — وإنْ كان بعد مدة مديدة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين سَبَقَتْ لهم منَّا الحُسْنى أولئك عنها مُبْعَدُون ﴾

« سبقت لهم منا الحسنى » : أى الكلمة بالحسنى ، والمشيئة والإرادة بالحسنى ، لأن الحسنى فعله ، وقوله : « سبقت » إخبار عن قِدَمِه ، والذى كان لهم فى القِدمِ هو الكلمة التى هى صفة تَعلَّقَتْ بهم فى معنى الإخْبار بالسعادة .

ثم قال : « أولئك عنها مُبْعَدُونَ » أى عن النار ، ولم يقل متباعدون لِيَعْلَمَ العالِمُون أن المدارَ على التقدير ، وسَابِقِ الحُكْمِ من الله ، لا على تَبَاعُدِ العبد أو بتَقَرُّبه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يسمعون حَسِيسَها وهم فيها اشْتَهَتْ أنفُسُهُم خالدون ﴾

---

(١) آية ٣ سورة (الزمر)

(٢) تسمى هذه فى علم الكلام : المنزلة بين المنزلتين وهى التى بين المؤمن والكافر ، وليست عقوبة هؤلاء — كما هو شأن الكفار — على التأبيد .. كما يرى القشيرى .

يدل ذلك على أنهم لا يُعَذَّبون فيها بكل وجهٍ . والمراد منه العِبَادُ من المؤمنين الذين لا جُرْمَ لهم .

« وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون » : مقيمين لا يبرحون .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يَحْزُنُهم الفَزَعُ الأكبرُ وتتلقَّاهُم الملائكةُ هذا يومُكُم الذى كنتم تُوعَدُون ﴾

قيل الفزَعُ الأكبرُ قول المَلَكِ : « لا بشْرَى يومئذٍ للمجرمين »[1]

ويقال إذا قيل : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون »[2]

ويقال إذا قيل : يا أهلَ الجنةِ . . خلوداً لا موتَ فيه ، ويا أهل النار . خلوداً لا موت فيه !

وقيل إذا : « قال اخسئوا فيها ولا تُكلِّمُونِ »[3]

وقيل الفزع الأكبر هو الفراق . وقيل هو اليأس من رحمة الله وتعريفهم ذلك .

قوله « وتتلقاهم الملائكة » يقال لهم هذا يومكم الذى كنتم وُعِدْتُم فيه بالثواب ؛ فمنهم مَنْ يتلقّاه المَلَكُ ، ومنهم مَنْ يَرِدُ عليه الخطاب والتعريف من المَلِك[4] .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ نطوى السماء كَطَىِّ السِّجِلِ لِلكُتُبِ كَمَا بَدَأْنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُه وَعْداً علينا إنَّا كُنَّا فاعلين ﴾

إنما كانت السماء سقفاً مرفوعاً حين كان الأولياء تحتها ، والأرضُ كانت فِرَاشاً إذ كانوا عليها ، فإذا ارتحل الأحبابُ عنها تخرب ديارهم . . على العادة فيما بين الخَلْقِ من خراب الديار بعد مفارقة الأحباب .

---

(١) آية ٢٢ سورة الفرقان

(٢) آية ٥٩ سورة يس

(٣) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٤) أى من الله سبحانه — وهؤلاء هم صفوة الأخيار .

ويقال نطوى السماء التى إليها عَرَجَت دواوينُ العصاة من المسلمين لئلا تَشهدَ عليهم بالإجرام ، وتُبَدَّلُ الأرضُ التى عصوا عليها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم بالإجرام .

أو نطوى السماء لنقَرِّبَ قَطْعَ المسافاتِ على الأحباب .

قوله جل ذكره : ﴿ولقد كَتَبْنا فى الزَّبُور مِنْ بَعْدِ الذكر أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصالحون﴾

« الذكر » هنا هو التوراة ، و « كَتَبَ » : أى أخبر وحَكَمَ ، و « الصالحون » . أمة محمد — صلى الله عليه وسلم : أنَّ « الأرض » هم الذين يرثونها .

قوله جل ذكره : ﴿وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين﴾

أمَّا مَنْ أسلم فَبِكَ ينجون ، وأمَّا مَنْ كَفرَ فلا نعذبهم ما دُمْتَ فيهم ، فأنت رحمة مِنَّا على الخلائق أجمعين .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ إنَّما يوحَى إلىَّ أنَّما إلهُكم إلهٌ واحِدٌ فهل أنتم مُسْلِمُون﴾

واحدٌ فى ذاته ، واحدٌ فى صفاته ، واحدٌ فى أفعاله . واحد بلا قسيم ، واحد بلا شبيه ، واحدٌ بلا شريك .

« فهل أنتم مسلمون ؟ » مخلصون في عقد التوحيد بالتبرِّى عن كلِّ غيرٍ فى حسبان صلاحِيتهِ للألوهية ؟

قوله جل ذكره : ﴿فإنْ تَوَلَّوا فقُلْ آذَنْتُكم على سَوَاءٍ وإنْ أَدْرِىَ أقريبٌ أم بعيدٌ ما تُوعَدُون﴾

إنْ أعرضوا ولم يؤمنوا فَقُلْ : إنى بالالتزام أعلمتُكم ، ولكن الإكرام ما ألهمتكم ، فتَوَجَّهَتْ عليكم الحجة واستبهمَتْ عليكم المحجة .

قوله : « وإن أدرى أقريب أم بعيد . . » إنَّ علمى متقاصِرٌ عن تفصيل أحوالكم فى مآلكم ، ووقت ما توعدون به فى القيامة من تحصيل أهوالكم ، ولكنَّ حُكْمَ اللهِ غيرُ مستأخِرٍ إذا أراد شيئاً من تغيير أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنه يَعْلَمُ الجَهْرَ من القولِ ويعلم ما تكتمون ﴾

لا يخفى عليه سِرُّكم ونجواكم ، وحالكم ومآلكم ، وظاهركم وباطنكم . . فعلى قَدْرِ استحقاقكم يُجازيكم ، وبموجِب أفعالكم يحاسبكم ويكافيكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ أدْرِى لَعلَّه فِتْنَةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين ﴾

ليس يحيط عِلْمى (إلا)[1] بما يُعْلِمُنى ، وإعْلامُه إياى ليس باختيارى ، ولا هو مقصودٌ على حسب مرادى وإيثارى .

قوله جل ذكره ﴿ قال رَبِّ احْكُمْ بالحقِّ وربُّنا الرحمنُ المستعانُ على ما تَصِفُون ﴾

الرحمن كثير الرحمة عامةً لكل أحد ، ومنه يوجد العون والنصر حين يوجد وكيف يوجد .

السورة التى يذكر فيها « الحج »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

سماعُ « بسم الله » يوجب الهيبة والغيبة وذلك وقت محوهم . وسماع « الرحمن الرحيم » يوجب الأنس والقربة ، وذلك وقت صحوهم . . فعند سماع هذه الآية انتظم لهم المحو والصحو فى سِلْكٍ واحد .

سماعُ « بسم الله » يوجِب انزعاجَ القلوب وعنده يحصل داء جنونهم[2] ، وسماعُ « الرحمن

---

(١) سقطت (إلا) فى ص وموجودة فى م .

(٢) ليس الجنون والفتون هنا مرتبطين بفساد العقل كما قد يتبادر للذهن إنما يرتبطان بذهاب العقل والوله فى المحبوب ، وهذه هى المرة الأولى التى تصادف فيها هاتين اللفظتين فى مثل هذا السياق ، وقد اعتدنا أن نسمع بدلا من (مجنون ومفتون) كلمات أخرى مثل (مهيم ومتيم) [انظر التحبير فى التذكير ص ٦٢] .

الرحيم » يوجب ابتهاجَ القلوبِ وبه يحصل شفاء فتونهم ، فعودة فتونهم فى لطف جماله كما أن موجب جنونهم فى كشف جلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ اتقوا ربَّكم إن زَلْزَلَةَ الساعةِ شىءٌ عظيم ﴾

« يأيها الناس » نداء علامة ، و « يأيها الذين آمنوا » نداء كرامة ، وبكلٍّ واحدٍ من القسمين يفتتح الحقُّ خطابه فى السُّوَر ؛ وذلك لانقسام خطابه إلى صفة التحذير مرةً ، وصفة التبصير أخرى .

والتقوى هى التحرز والاتقاء وتجنب المحظورات . وتجنب المحظورات فَرْضٌ ، وتجنب الفضلات والشواغل ـ وإن كان من جملة المباحات ـ نَفْلٌ ، فثوابُ الأول أكثر ولكنه مؤجَّل ، وثوابُ النَّفْلِ أقلُّ ولكنه مُعَجَّل[1] .

ويقال خوَّفهم بقوله : « اتقوا » . ثم سكَّن ما بهم من الخوف بقوله : « ربَّكم » فإنَّ سماعَ الربوبية يوجِب الاستدامة وجميل الكفاية .

قوله : « إن زلزلة السَّاعةِ شىء عظيم » : وتسمية المعدوم « شيئاً » توسُّعٌ ؛ بدليل أنه ليس فى العدم زلزلة بالاتفاق وإن كان مُطْلَقُ اللفظِ يقتضيه ، وكذلك القول فى تسميته « شيئاً » هو توسُّع .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كلُّ مُرْضِعةٍ عمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وترى الناسَ سُكَارَى وما هم بِسُكَارى ولكنَّ عذابَ الله شديد ﴾

لكلٍ ذلك اليومَ شُغْلٌ يستوفيه ويستغرقه ، وترى الناسَ سكارى أى من هَوْلِ ذلك

= ومن المفيد أن نسوق نصاً لإحدى المجانين :

معشر الناس ما جننت ولكن انا سكرانة وقلبي صاح
أنا مفتونة بحب حبيب لست أبغى عن بابه من براح

(الروض الفائق ص ٣٦٢) وكتابنا (نشأة التصوف الإسلامى ط المعارف ص ١٧٨ .

(١) هذا أصل يضاف إلى أصول الفقه الصوفى عند القشيرى .

اليوم عقولهم ذاهبة ، والأحوال في القيامة وأهوالها غالبة . وكأنهم سكارى وما هم في الحقيقة بسكارى ، ولكن عذابَ اللهِ شديد ، ولِشِدَّتِه يحيرهم ولا يبقيهم على أحوالهم . وهم يتفقون فى تشابههم بأنهم سُكارَى ، ولكنَّ موجِبَ ذلك يختلف ؛ فمنهم مَنْ سُكْرُه لِمَا يُصيبه من الأهوال ، ومنهم من سُكْرُه لاستهلاكه فى عين الوصال .

كذلك فَسُكْرُهم اليومَ مختلفٌ ؛ فمنهم من سكره سكر الشراب ، ومنهم من سكره سكر الحاب . . وشتَّان بين سُكْرٍ وسُكْرٍ ! سُكْرٌ هو سُكْرُ أهلِ الغفلة ، وسُكْرٌ هو سُكْرُ أهل الوصلة[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يُجادِلُ فى اللهِ بغير عِلْمٍ ويتَّبِع كلَّ شيطانٍ مَرِيد ﴾

المجادلةُ لله — مع أعداء الحق وجاحدى الدِّين — من موجبات القربة ، والمجادلة فى الله ، والمماراة مع أوليائه ، والإصرارُ على الباطل بعد ظهور الدلائل من أمارات الشقوة ، وما كان بوساوس الشيطان ونزغاته فقصاراه النار .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عليه أنَّه مَنْ تولاَّه فأنَّه يُضِلُّه ويَهْدِيه إلى عذابِ السعير ﴾

مَنْ وافق الشيطان بمتابعة دواعيه لا يهديه إلاَّ إلى الضلال ، ثم إنه فى الآخرة يتبرأ من موافقته، ويلعن جملةَ مُتَّبعيه . فنعوذ بالله من الشيطان ونزغاته، ومن درك الشقاء وشؤم مفاجآته .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ إنْ كنتم فى رَيْبٍ من البعثِ فإنا خلقناكم من ترابٍ ثم من نطفة ثم من عَلَقَةٍ ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لكم ونُقِرُّ فى الأرحامِ ما نشاء إلى أَجلٍ مُسَمًّى ثم نُخْرِجُكم طِفْلاً . . . ﴾

---

(١) حديث القشيرى فى (السكْر) هنا مفيد عند دراسة هذا المصطلح .

التبس عليهم جواز (بعثه الخَلْق)[1] واستبعدوه غاية الاستبعاد ، فلم ينكر الحق عليهم إلا بإعراضهم عن تأمل البرهان ، واحتجَّ عليهم فى ذلك بما قطع حجتهم ، فَمَنْ تبِعَ هُدَاه رَشِدَ ، ومَنْ أَصَرَّ على غَيِّه تَرَدَّى فى مهواة هلاكه .

واحتجَّ عليهم فى جواز البعث بما أقروا به فى الابتداء أن الله خَلَقهم وأنه ينقلهم من حال إلى حال أخرى ، فبدأهم من نطفة إلى علقة ومنها ومنها . . . إلى أنْ نَقَلَهم من حال شبابهم إلى زمان شَيْبهم ، ومن ذلك الزمان إلى حين وفاتهم .

واحتجَّ أيضاً عليهم بما أشهدهم كيف أنه يحيي الأرض — فى حال الربيع — بعد موتها ، فتعود إلى ما كانت عليه فى الربيع من الخضرة والحياة . والذى يَقْدِرُ على هذه الأشياء يقدر على خَلْق الحياة فى الرِّمة البالية والعظام النخرة .

قوله : « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر » : زمان الفترة بعد المجاهدة ، وحال الحجبة عقب المشاهدة .

ويقال أرذل العمر السعى للحظوظ بعد القيام بالحقوق .

ويقال أرذل العمر الزلة فى زمان المشيب .

ويقال أرذل العمر الإقامة فى منازل العصيان .

ويقال أرذل العمر التعريج فى (أوطان)[2] المذلة .

ويقال أرذل العمر العِشْرةُ مع الأضداد .

ويقال أرذل العمر (عَيْشُ)[3] المرءِ بحيث لا يُعْرَفُ قَدْرُه .

ويقال أرذل العمر بأن يُوكَل إلى نَفْسِه .

ويقال أرذل العمر التطوح فى أودية الحسبان أن شيئاً بغير الله .

ويقال أرذل العمر الإخلاد إلى تدبير النَّفْس ، والعَمَى عن شهود تقدير الحق .

---

(١) هكذا فى م أما فى ص فهى (بعثهم الحق) ونرجح الأولى إذ الذى استبعدوه أن يبعث الله واحداً من الخلق .

(٢) هكذا فى م وهى غير موجودة فى ص .

(٣) فى م (عيش) المرء وفى ص (حبس) المرء . وقد رجحنا (عيش) على معنى أن الله يمنحه من العمر ما لا يكون خلاله تقدير من الخلق له .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنَّ اللهَ هو الحقُّ وأنه يُحْـيي الموتى وأنَّه على كلِّ شيءٍ قدير ﴾

الله هو الحقُّ ، والحق المطلق الوجود[1] ، وهو الحق أى ذو الحق .

« وأنه يحيي الموتى » أى الأرض التى أصابتها وَحْشَةُ الشتاء[2] يحييها وقتَ الربيع .

ويقال يحيي النفوسَ بتوفيق العبادات ، ويحيي القلوبَ بأنوار المشاهدات .

ويقال يحيي أحوال المريدين بحسن إقباله عليهم .

ويقال حياة الأوقات بموافقة الأمر ، ثم بجميلِ الرضا وسكونِ الجأش عند جريان التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الناسِ مَنْ يجادِل فى اللهِ بغير عِلْمٍ ولا هُدىً ولا كتابٍ منير ﴾

دليل الخطاب يقتضى جواز المجادلة فى الله إذا كان صاحب المجادلة على علم بالدليل والحجة ليستطيع المناضلة عن دينه ، قال سبحانه لنبيِّه : « وجادِلْهم بالتى هى أحسن » ومَنْ لم يُحْسِنْ مذهبَ الخصْمِ وما يتعلق به من الشُبَهِ لم يمكنه الانفصال عن شُبْهَتِه ، وإذا لم تـكن له قوة الانفصال فلا يُسْتَحَبُّ له أن يجادل الأقوياء[3] منهم ، وهذا يدل على وجوب تعـلُّم علم الأصول[4] ، وفى هذا ردٌّ على مَنْ جَحَدَ ذلك .

قوله جل ذكره ﴿ ثانِيَ عِطفِهِ لِيُضِلَّ عن سبيلِ اللهِ

---

(١) (الحق المطلق الوجود) هذه عبارة لم تصادفنا من قبل فى أى مصنف للقشيرى ، ونحن نعطيها أهمية خاصة إذا تذكرنا أن هذا اصطلاح لأرباب وحدة الوجود ، فهم يعتبرون الوجود المطلق للحق وما عدا فوجوده نسبي متـكثر متعدد ، وهذا لا بأس به ، ولـكن النتائج التى رتبوها عليه خطيرة . ونظن أنها (الموجود) بدل (الوجود) بدليل ما سبق ذكره عند تفسير الآية « فتعالى الله الملك الحق » من سورة طه وكنا قد أيدنا ذلك بما ذكره فى كتابه « التحبير في التذكير » .

(٢) هكذا فى م ولـكنها فى ص (الشقاء) بالقاف ونحن نؤثر الأولى لأن المقصود المقابلة بين الربيع و (الشتاء) .

(٣) هـكذا فى م ولـكنها في ص (إلا قوماً) .

(٤) فى هذا وفيما بعده رد على من يتهمون الصوفية بجفائهم للعلم ، وعدم احترامهم للعقل ، كما أن فيه رداً على قضية أثارها بعض المتـكلمين حول وجوب أو عدم وجوب تعلم المسلم أصول التوحيد كي يصح إيمانه ، ومدى ما يكون عليه إيمان العامة الذين لا تتاح لهم فرصة هذا التعلم .

له فى الدنيا خِزْىٌ ونُذِيقُه يومَ
القيامة عذابَ الحريق ﴾

يريد أنه متكبِّر عن قبول الحق ، زاهِدٌ فى التحصيل ، غيرُ واضعٍ نظره موضعه ؛ إذ لو فعل ذلك لهان عليه التخلُّص من شُبْهته .

ثم قال : « له فى الدنيا خزى » أى مذلة وهوان ، وفى الآخرة عذاب الحريق .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الناسِ مَنْ يعبد اللهَ على حَرْفٍ
فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن
أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خَسِرَ
الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران
المبين ﴾

يعنى يكون على جانبٍ ، غير مخلص . . لا له استجابة توجب الوفاق ، ولا جَحْداً يبين الشقاق ؛ فإنْ أصابه أَمْنٌ وخير ولينٌ اطمأن به وسَكَنَ إليه ، وإن أصابته فتنةٌ أو نالته محنة ارتدَّ على عقبيه ناكسا ، وصار لِمَا أظهر من وفاقه عاكسا . ومَنْ كانت هذه صفته فقد خسر فى الدارين ، وأخفق فى المنزلتين !

قوله جل ذكره : ﴿ يدعو مِنْ دونِ اللهِ مالا يضرُّه
وما لا ينفعه ذلك هو الضلالُ
البعيد * يدعو لَمَن ضَرُّه أقْرَبُ
من نفعِه لَبِئْسَ المَوْلَى ولَبِئْسَ
المشيرُ ﴾

أى يعبد مَنْ المضَرَّةُ فى عبادتِه أكثرُ من النَّفْعِ منه ، بل ليس فى عبادته النفع بحالٍ ، فالضُّرُّ المُتَيَقَّنُ فى عِبادتهم الأصنامَ هو بيانُ ركاكة عقولهم ، ورؤيةُ الناسِ خطأَ فِعْلِهم . والنفع الذى يتوهمونه فى هذه العبادة ليس له تحصيل ولا حقيقة .

ثم قال : « لبئس المولى ولبئس العشير » : أى لبئس الناصرُ الصَّنَمُ لهم ، ولبئس القومُ هم للصنم ، ولِمَ لا . ؟ ولأَجْلِهِ وقعوا فى عقوبة الأبد .

قوله جل ذكره ﴿ إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمنوا وعَمِلوا
الصالحاتِ جناتٍ تجرى مِنْ تحتها
الأنهارُ إنَّ اللهَ يفعل ما يريد ﴾

« الذين آمنوا » : أى صَدَّقُوا ثم حقَّقُوا ؛ فالإيمانُ ظاهِرُه التصديق وباطنه التحقيق ، ولا يصل العبد إليهما إلا بالتوفيق .

ويقال الإيمان (انتسام)[1] الحق فى السِّرِّ .

ويقال الإيمان ما يوجب الأَمان ، ففى الحال يجب الإيمان وفى المآل يوجب الأمان ، فمُعَجَّلُ الإيمان من (. . .)[2] المسلمين ، ومؤجَّلُه الخلاصُ من صحبة الكافرين الفاسقين .

وقوله : « وعملوا الصالحات » : العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويصلح للثواب ، وهو أن يكون على الوجه الذى تعلَّق به الإيمان .

والجنان التى يدخل المؤمنين فيها مؤجلة ومعجلة ؛ فالمؤَجَّلَة ثواب وتوبة ، والمعَجَّلَةُ أحوالٌ وقربة ، قال تعالى : « ولِمَنْ خاف مقام ربِّه جنتان »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كان يَظُنُّ أنْ لَنْ يَنْصُرَه اللهُ
فى الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ
إلى السماءِ ثم ليقطَعْ فلينظُرْ هل
يُذْهِبَنَّ كَيْدُه ما يَغيظ ﴾

أى أنَّ الحقَّ — سبحانه — يرغم أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَمَنْ لم تَطِبْ

---

(١) فى م (إبتسام) وفى ص (انتسام) ، ونحن نفضل هذه على تلك على أنها صيغة (انفعال) من (نسم) فلان العلم أو الخبر أى تلطف فى التماسه حتى تبينه وتبعه .

(٢) فى م (سيف) وفى ص (سلف) ونحن نؤثر الأولى إذ أن الذى يؤمن يأمن — فى الحال — من بطش المسلمين الذين أمروا بقتال أعدائهم جهاداً فى سبيل إعلاء كلمة الإيمان .

(٣) آية ٤٦ سورة الرحمن .

نفسُه بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرده به فليقتلْ نَفْسَه من الغيظ خَنْقاً ، ثم لا ينفعه ذلك ، كما قيل :

إنْ كنتَ لا ترضى بما قد ترى فدونَكَ الحبْلَ به فاخْنق

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أنزلناه آياتٍ بيِّنَاتٍ وأنَّ الله يهدى مَنْ يريد ﴾

« آيات بينات » : أى دلالات وعلامات نَصَبهَا الحقُّ سبحانه لعباده ، فمن الآيات ماهو قضية العقل ، ومنها ما هو قضية الخبر والنقل ، ومنها ما هو تعريفات فى أوقات المعاملات(١) فما يجده العبد فى حالاته من انغلاقٍ ، واشتدادِ قبضٍ ، وحصول خسران ، ووجوه امتحان . . لا شكَّ ولا مرية إذا أخَلَّ بواجبٍ أو ألَمَّ بمحظور(٢) . أو تكون زيادة بَسْطٍ أو حلاوة طاعة ، أو تيسير عسيرٍ من الأمور ، أو تجدد إنعامٍ عند حصول شىءٍ من طاعاته .

ثم قد يكون آيات فى الأسرار ، هى خطابُ الحقِّ ومحادثةٌ معه ، كما فى الخبر :

« لقد كان فى الأمم مُحَدَّثون فإن يك فى أمتى فعمر »(٣)

ثم يقال الآيات ظاهِرةٌ ، والحجج زاهرة ، ولكن الشأن فيمن يستبصر .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادُوا والصابئين والنصارى والمجوسَ والذين أشركوا إنَّ الله يفصِلُ بَيْنَهم يومَ القيامه إنَّ الله على كلِّ شىءٍ شهيدٌ ﴾

أصناف الناس على اختلاف مراتبهم : الولىُّ والعدوُّ ، والموحِّد والجاحد يُجْمَعُون يومَ الحشر ، ثم الحقُّ ـ سبحانه ـ يعامِل كلاً بما وَعَدَه ، إما بوصالٍ بلا مَدَى ، أو بأحوالٍ

---

(١) يمكن القول إن هذه هى المصادر الأساسية لما أطلقنا عليه من قبل (أصول الفقه الصوفي) ومنها يتضح اهتمام القشيرى بالعقل ثم النقل ثم ما يحصل من العرفان نتيجة المجاهدات .

(٢) فإن الاثم ما حاك فى صدرك . . كما قال المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

(٣) وهى التى يطلق عليها القشيرى (الفراسة) انظر الرسالة ص ١١٥ وما بعدها .

بلا منتهى . الوقتُ واحد ، وكلٌّ واحدٍ لما أُعِدَّ له وافد ، وعلى ما خُلِقَ له وارد .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ له مَنْ فى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فى الأرضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ وكثيرٌ من الناسِ وكثيرٌ حَقَّ عليه العذابُ ومَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ من مُكْرِمٍ إنَّ اللهَ يفعل ما يشاء ﴾

أهل العرفان يسجدون له سجودَ عبادة ، وأربابُ الجحود كُلُّ جزءٍ منهم يسجد له سجودَ دلالة وشهادة .

وفى كل شىءٍ له آيةٌ تَدُلُّ على أنه واحدُ

قوله جل ذكره : ﴿ هذان خَصْمان اختصموا فى ربِّهم فالذين كفروا قُطِّعَتْ لهم ثيابٌ من نارٍ يُصَبُّ من فوقِ رءوسِهم الحميم ﴾

أما الذين كفروا فلهم اليومَ لباسُ الشرْكِ وطِرازُه الحرمان ، ثم صدار الإفك وطرازه الخذلان . وفى الآخرة لباسهم القطران وطرازه الهجران ، قال تعالى : « اخسئوا فيها ولا تكلمونِ » .

أمَّا أصحابُ الإيمانِ فلِباسُهم اليومَ التقوى ، وتنقسم إلى اجتناب الشِّرْكِ ثم مجانبة المخالفة ، ثم مباينة الغفلة ، ثم مجانبةُ السكونِ إلى غير الله والاستبشار إلى ما سوى الله . وفى الآخرةِ لِباسُهم فيها حريرٌ ، وآخرون لباسهم صدار المحبة ، وآخرون لباسهم الانفراد به ، وآخرون هم أصحاب التجريد ؛ فلا حالَ ولا مقامَ ولا منزلةَ ولا محلَّ وهم الغُرَباء[1] ، وهم الطبقة العليا ، وهم أحرار من رِقِّ كل ما لَحِقَهُ التكوين .

---

(١) يقول ابن الجلاء فى تعريف الصوفى : فقير مجرد عن الأسباب ، كان مع الله بلا مكان ، ولا يمنعه الحق — سبحانه — من علم كل مكان (الرسالة ص ١٤٠) ويقول الحصرى : « الصوفى لا تقله أرض ولا تظله سماء » الرسالة (الصفحة ذاتها) .

قوله جل ذكره: ﴿ إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمنُوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجرى مِنْ تحتِها الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذَهَبٍ ولؤلؤاً ولباسُهم فيها حريرٌ ﴾

التحلية تحصينٌ لهم، وسترٌ لأحوالهم؛ فهم للجنة زينة، وليس لهم بالجنة زينة:

وإذا الدُّرُّ زَانَ حُسْنَ وجوهٍ كان للدُّرِ حُسْنُ وَجْهِكَ زَيْنَا

قوله جل ذكره: ﴿ وهُدُوا إلى الطَّيِّبِ من القَوْلِ وهُدُوا إلى صِرَاطِ الحميد ﴾

الطيبُ من القول ما صَدَرَ عن قلبٍ خالصٍ، وسِرٍّ صافٍ (مما يَرْضَى به علم التوحيد، فهو الذى لا اعتراض عليه للأصول)(١)

ويقال الطيب من القول ما يكون وعظاً للمسترشدين، ويقال الطيبُ من القول هو إرشاد المريدين إلى الله.

ويقال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ويقال الدعاء للمسلمين.

ويقال كله حقٍ عند من يُخَافُ ويُرْجَى(٢).

ويقال الشهادتان عن قلبٍ مخلص.

ويقال ما كان قائله فيه مغفوراً(٣) وهو مُسْتَنْطَقٌ.

---

(١) هكذا فى ص ولا فرق بين العبارة فى س، م إلا أنها جاءت فى الأخيرة (مما رضى به...) والمقصود أن أقوال أرباب القلوب ينبغى ألا تتعارض مع أقوال أرباب اصول التوحيد؛ لأن الحقيقة لا تعارض الشريعة فى شيء. فالضمير (فهو) يعود على الطيب من القول الصادر من القلب الخالص والسر الصافى.

(٢) أى عند صاحب سلطان، وقد عرف الصوفية بشجاعتهم الرائعة فى مواجهة اصحاب الأمر والنهى من الحكام وغيرهم.

(٣) هكذا فى ص اما فى م فهى (مفقوداً) وعلى الأول يكون المعنى ان قوله مسموح به — ظاهرياً — حيث لا يستشنع فى الباطن، وعلى الثانى: أى يكون قائله فى حال الفقد فهو لا ينطق بنفسه بل بالله.

ويقال هو بيان الاستغفار والعبد برىء من الذنوب .

ويقال الإقرار بقوله : « ربَّنا ظلمنا أنفسنا »(1) .

ويقال أنْ تَدْعُوَ للمسلمين بما لا يكون لكَ فيه نصيب .

وأمَّا « صراط الحميد » : فالإضافة فيه كالإضافة عند قولهم : مسجد الجامع (أى المسجد الجامع) والصراط الحميد : الطريق المرضى وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة ، وليس للحقيقة عليه نكير .

ويقال الصراط الحميد : ما كان طريق الاتباع دون الابتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّ الذين كفروا ويَصُدُّون عن سبيلِ اللهِ والمسجدِ الحرامِ الذى جعلناه للناسِ سَوَاءً العاكِفُ فيه والبادِ ومَنْ يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظُلْمٍ نُذِقْه من عذابٍ أليم ﴾ .

الصدُّ عن المسجد الحرام بإخافة السُّبُل ، وبغَصْبِ المال الذى لو بقى فى يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام .

قوله : « سواء العاكف فيه والبادى(2) » وإنما يعتبر فيه السبق والتقدم .

ومشهد الكِرَام يستوى فيه الإقدام ، فمَنْ وَصَلَ إلى تلك العقوة فلا ترتيبَ ولا ردَّ ، وبعد الوصول فلا زَجْرَ ولا صدَّ ، أمَّا فى الطريق فربما يعتبر التقدم والتأخر ؛ قال تعالى : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين »(3) ولكن فى الوصول فلا تفاوتَ ولا تباين ، ثم إذا اجتمعت النفوسُ فالموضع الواحد يجمعهم ، ولكنْ لكلٍّ حالٌ ينفرد بها .

---

(1) آية ٢٣ سورة الأعراف .
(2) البادى = غير المقيم .
(3) آية ٢٤ سورة الحجر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ بَوَّأنا لابراهيمَ مكانَ البيت ألاَّ تُشْرِكْ بي شيئًا وطَهِّرْ بَيْتِيَ للطائفين والقائمين والرُّكَّع السُّجُودِ ﴾ .

أصلحنا له مكانَ البيت ومَكَّنَّاه منه ، وأرشدناه له ، وهديناه إليه ، وأعنَّاه عليه ، وذلك أنه رفع البيت إلى السماء الرابعة فى زمن طوفان نوح عليه السلام ، ثم أمر إبراهيم عليه السلام ببناءِ البيت على أساسه القديم . قوله « ألا تشرك بى شيئًا » ، أى لا تلاحظ البيتَ ولا بِناءَك له .

« وطهر بيتى . . » يعنى الكعبة ـ وذلك على لسان العلم ، وعلى بيان الإشارة فَرِّغَ قَلبَكَ عن الأشياء كلِّها سوى ذِكْرِه ـ سبحانه .

وفى بعض الكتب : « أوحى الله إلى بعض الأنبياء فَرِّغ لى بيتًا أسكنه ، فقال ذلك الرسول : إلهى . . أى بيت تشغل ؟ فأوحى الله إليه : ذلك قلب عبدى المؤمن » . والمراد منه ذكر الله تعالى ، فالإشارة فيه أن يفرِّغ قلبه لذكر الله . وتفريغ القلب على أقسام : أوله من الغفلة ثم مِنْ توهُّم شىء من الحدثان من غير الله .

ويقال قد تكون المطالبة على قوم بصَوْنِ القلب عن ملاحظة العمل ، وتكون المطالبة على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال .

ويقال « وطهر بيتى » : أى قلبكَ عن التطلع والاختيار ، بألا يكون لك عند الله حظٌّ فى الدنيا أو فى الآخرة حتى تكون عبداً له بكمال قيامك بحقائق العبودية .

« ويقال طهِّرْ بيتى » : أى بإخراج كل نصيب لك فى الدنيا والآخرة من تطلعِ إكرامٍ أو تَطَلُّبِ إنعام ، أو إرادة مقام ، أو سبب من الاختيار والاستقبال.

ويقال طَهِّرْ قلبك للطائفين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق . « والقائمين » وهى الأشياء المقيمة من مستودعات(1) العرفان فى القلب من الأنوار المُغْنِيةِ عن البرهان ،

---

(1) هكذا فى م أما فى ص فهى (مستوطنات) .

ويتطلع بما هو حقائق البيان التى هى كالعيان كما فى الخبر : « كأنك تراه » .[1]

« والركع السجود » : هى أركان الأحوال المتوالية من الرغبة والرهبة ، والرجاء والمخافة ، والقبض والبسط ، وفى معناه أنشدوا :

لست من جملة المحبين إن لم أجعل القلبَ بيتَه والمقاما
وطوافى إجالةُ السرِّ فيه وهو ركنى إذا أردتُ استلاما

قوله : « لا تُشْرِك بى شيئاً » : لا تلاحظ البيتَ ولا بِناءكَ[2] للبيت .

ويقال هو شهود البيت دون الاستغراق فى شهود ربِّ البيت .

قوله جل ذكره : ﴿وأَذِّنْ فى الناسِ بالحجِّ يأتوكَ رِجالاً وعلى كلِّ ضَامرٍ يأتين مِنْ كل فَجٍّ عميق﴾

أَذَّن ابرهيم - عليه السلام - بالحج ونادى ، وأسمع اللهُ نداءه جميعَ الذرية فى أصلابِ آبائهم ، فاستجاب مَنْ المعلوم مِنْ حاله أنه يحج .

وقدَّم الرَّجالةَ على الركبان لأنَّ الحَمْلَ على المركوب أكثر[3] .

والتلك الجمالِ على الجمال خصوصية لأنها مركب الأحباب ، وفى قريبٍ من معناه أنشدوا :

وإنَّ جِمالاً قد علاها جَمَالُكم — وإن قُطِّعَتْ أكبادنا — لحبائب

ويقال « يأتين من كل فجٍّ عميق » هذا على وجه المدح وسبيل الشكر منهم .

وكم قَدْرُ مسافةِ الدنيا بجملتها ! ؟ ولكنْ لِأَجْلِ قَدْرِ أفعالهم وتعظيمِ صنيعهم يقول ذلك إظهاراً لفضله وكرمه .

---

(١) إشارة إلى الحديث (أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك من الموتى) .
الطبرانى عن أبى الدرداء ، وحسن السيوطى سنده ، ورواه البيهقى عن معاذ . وفى الحلية (أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك . . .) .

(٢) هكذا فى م أما فى ص فقد وردت (ولا تبال) ونحن نرجح ما جاء فى م .

(٣) فتقديم الرجالة فيه تخصيص نظراً لما يبذلونه من جهد أكبر .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لهم ﴾ .

أرباب الأموال منافعهم أموالُهم ، وأرباب الأعمال منافعهم حلاوةُ طاعتهم ، وأصحاب الأحوال منافعهم صفاء أنفاسهم ، وأهلُ التوحيد منافعهم رضاهم باختيارِ الحقِّ ما يبدو من الغيب لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويذكروا اسمَ اللهِ في أيامٍ معلوماتٍ[1] على ما رَزَقَهم من بهيمةِ الأنعام ﴾

لأقوامٍ عند التقرُّب بقرابينهم وسوق هَدْيِهم[2] . وآخرون يذكرون اسمه عند ذَبْحِهم أمانيهم واختيارهم بسكاكين اليأس . . حتى يقوموا بالله لله بِمَحْوِ ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وأَطْعِمُوا البائِسَ الفقير ﴾ .

شارِكُوا الفقراء في الأكل من ذبيحتكم — الذى ليس بواجب — لتلحقكم بركاتُ الفقراء . والإشارة فيه أن ينزلوا[3] ساحةَ الخضوع والتواضعِ ، ومجانبة الزَّهْوِ والتكبُّر .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهم ولْيُوفوا نُذُورهم ﴾

ليقضوا حوائجهم وليحققوا عهودَهم ، وليوفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقلوبهم ، فَمَنْ كان عقدُه التوبةَ فوفاؤه ألا يرجعَ إلى العصيان . ومَنْ كان عَهْدُه اعتناقَ الطاعةِ فَشَرْطُ وفائه تركُ تقصيره . . ومن كان عهدُه ألا يرجع إلى طلب مقامٍ وتطلُّع إكرامٍ فوفاؤه استقامته على الجملة في هذا الطريق بألا يرجع إلى استعجالِ نصيبٍ واقتضاء حظ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولْيَطَّوفوا بالبيتِ العتيقِ ﴾

الإشارة في الطواف إلى أنه يطوف بنَفْسه حولَ البيت ، وبقلبه في ملكوت السماء ، وبِسِرِّه في ساحات الملكوت .

---

(١) أبو حنيفة : هي عشر ذي الحجة وآخرها يوم النحر . وأكثر المفسرين : هي أيام النحر .

(٢) الهدى = ما يهدى إلى الحرم من النعم ، قال تعالى : « ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله » .

(٣) هكذا في م وفي س (يتركوا) وربما كانت في الأصل ألا يتركوا فهكذا يقتضي السياق .

قوله جل ذكره: ﴿ذلك ومَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فهو خيرٌ له عند ربِّه﴾

تعظيم الحرمات[1] بتعظيم أمره، وتعظيمُ أمرِه بِتَرْكِ مخالفتِه.

ويقال من طلب الرضا بغير رضى الله لم يبارك له فيما آثره من هواه على رضى مولاه، ولا محالةَ سيلقى سريعاً غِبَّهُ[2].

ويقال تعظيم حرماته بالغيرة على إيمانه (وما فَجَرَ صاحبُ حُرْمَةٍ قط[3]).

ويقال ترك الخدمة يوجب العقوبة، وترك الحرمة يوجِبُ الفُرْقة.

ويقال كلُّ شيء من المخالفات فللعفو فيه مساغ وللأمل إليه طريق، وتَرْكُ الحرمة على خَطَرِ ألا يُغْفَر.. وذلك بأن يؤدى ثبوتُه بصاحبه إلى أنْ يختلَّ دِينُه وتوحيدُه.

قوله جل ذكره: ﴿وأُحِلَّتْ لكم الأنعامُ إلاَّ ما يُتْلَى عليكم﴾.

فالخنزير من جملة المحرمات، وكذلك النطيحة والموقوذة، وما يجيء تفصيله فى نَصِّ الشرع.

قوله جل ذكره: ﴿فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ من الأوثانِ واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّور﴾.

«مِنْ» ها هنا للجنس لا للتبعيض، وهوى كلِّ من اتبعه معبودُه، وصنمُ كلِّ أحدٍ نَفْسُه.

«واجتنبوا قول الزور»: ومن جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعده قولُ القلب ونطقه، ومَنْ عاهد اللهَ بقلبه ثم لا يفى بذلك فهو من جملة قول الزور.

قوله جل ذكرة: ﴿حُنَفَاءَ للهِ غيرَ مشركين به ومن

---

(1) هكذا في م وفى ص (الجهات) ونرجح الأول حيث وردت فى الآية.

(2) هكذا في م وفى ص (نحبه) ونرجح (غبه) بمعنى عاقبته.

(3) هكذا فى م وفي ص (وما فجر صاحب ظلمة قط) والعبارة الأولى أقرب إلى المعنى.

يُشْرِكْ باللهِ فكأنَّما خَرَّ من
السماءِ فَتَخْطَفُه الطيْرُ أو تَهْوَى به
الريحُ في مكانٍ سحيق ﴾ .

الحنيفُ المائلُ إلى الحق عن الباطل في القلبِ والنَّفْسِ ، في الجهر وفي السِّرِّ ، في الأفعال وفي الأحوال وفي الأقوال .

« غير مشركين به » : الشِّركُ جَلِيٌّ وخَفِيٌّ[1] .

قوله « ومن يشرك بالله فكأنما ... » كيف لا .. وهو يهوى في جهنم وتتجاذبه ملائكة العذاب ؟ أو تهوى به الريح من مكان سحيق .. وكذلك غداً في صفة قوم يقول الله تعالى : « نسوا الله فنسيهم »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك ومَنْ يُعَظِّمْ شعائرَ اللهِ فإنَّها مِنْ تَقْوى القلوب ﴾ .

يقف المؤمنُ على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جهراً ، وبخواطر الإلهام سِرّاً . وكما لا تجوز مخالفةُ شهادة الشرع لا تجوز مخالفة شهادة خواطر الحق فإنَّ خاطر الحقِّ لا يكذِبُ ، وعزيزٌ مَنْ له عليه وقوف . وكما أنَّ النَّفْسَ لا تصدق فالقلب لا يكذب ، وإذا خولف القلبُ عَمِيَ في المستقبل ، وانقطعت عنه تعريفاتُ الحقيقة ، والعبارة[3] والشرح يتقاصران عن ذكر هذا على التعيين والتفسير . ويقوى القلبُ بتحقيق المنازلة ؛ فإذا خرست النفوسُ ، وزالت هواجسها ، فالقلوبُ تنطق بما تُكاشَفُ به من الأمور .

ومنَ الفَرْقِ بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق أن الذى طريقه العلم يعلم صاحبُه أولا ثم يعمل مختاراً ، وما كان من الحق يجرى ويحصل ثم بعده يعلم مَنْ جرى عليه

---

(١) الشرك الجلى معروف أما الشرك الخفى فهو أن ينازعه منازع فى قلبك من هوى أو حظ أو علاقة تنأى بك عنه .

(٢) آية ٦٧ سورة التوبة .

(٣) فى م و ص (والعبادة) وقد رأينا أن تكون (العبارة) بالراء أى أن التعبير عن ذلك بالكلام والشرح قاصر .

ذلك معناه ، ولا يكون الذي يجرِي عليه ما يُجرَى مضطراً إلى مايُجرَى . وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار[1] ، بل يكون مختاراً ولكنَّ سببه عليه مشكلٌ ، والعجب من هذا أن العبارة عنه كالبعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ لكم فيها منافعُ إلى أجلٍ مسمّىً ثم محِلُّها إلى البيتِ العتيق ﴾ .

لكلٍّ من تلك الجملة منفعةٌ بقدْره وحدِّه[2] ؛ فلأقوام بركاتٌ في دفع البلايا عن نفوسهم وعن أموالهم ، ولآخرين في لذاذاتِ بَسْطِهم ، ولآخرين في حلاوة طاعاتهم ، ولآخرين في أُنسِ أنفاسهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكلِّ أمةٍ جعلنا مَنْسكاً لِيذكُروا اسمَ اللهِ على ما رزقهم من بهيمةِ الأنعام ﴾ .

الشرائعُ مختلفةٌ فيما كان من المعاملات ، متفقة فيما كان من جملة المعارف ، ثم هم فيها مختلفون : فقومٌ هم أصحاب التضعيف[3] فيما أوجب عليهم وجعل لهم ، وقومٌ هم أصحاب التخفيف فيما أُلزموا وفيما وُعدَ لهم . قوله « ليذكروا اسم الله على . . » وذكر اسم الله على مارزقهم على أقسام : منها معرفتهم إنعام الله بذلك عليهم . . وذلك من حيث الشكر ، ثم يذكرون اسمه على ماوفّقهم لمعرفته بأنه هو الذى يتقبل منهم وهو الذى يُثيبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فإلهكم إلهٌ واحدٌ فلَه أسلِموا وبشِّرْ المُخبِتين ﴾ .

أى اسْتَسلموا لحكمه بلا تعبيسٍ ولا استكراهٍ من داخل القلب .

---

(١) هذه وجهة نظر باحث صوفى فيما يشغل المتكلمين عن الجبر والاختيار .

(٢) أى بحسب ماله من قدر وهمة ، وما هو واقف عنده من حد ورتبة .

(٣) أصحاب التضعيف أى أصحاب التشدد الذين يأبون اتباع الرخص ، لأن الرخص لاتكون إلا لأرباب الحوائج والأشغال وهؤلاء لا حاجة ولا شغل لهم إلا بالحق .

والإسلام[1] يكون بمعنى الإخلاص ، والاخلاص تصفية الأعمال من الآفات ، ثم تصفية الأخلاق من الكدورات ، ثم تصفية الأحوال ، ثم تصفية الأنفاس . « وبشِّرْ المخبتين » : الإخبات استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة . ومنْ أمارات الإخبات كمالُ الخضوع بشرط دوام الخشوع ، وذلك بإطراق السريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم ﴾ .

الوَجلُ الخوفُ من المخافة ، والوَجلُ عند الذكر على أقسام : إما لخوفِ عقوبة ستحصل أو لمخافة عاقبة بالسوء تختم ، أو لخروجٍ من الدنيا على غفلَةٍ من غير استعدادٍ للموت ، أو إصلاحِ أُهبَةٍ ، أو حياءٍ من الله سبحانه فى أمورٍ إذا ذَكَرَ اطلاعه — سبحانه — عليها لمَا بَدَرَت منه تلك الأمور التى هى غير محبوبة .

ويقال الوَجلُ على حسب تجلى الحق للقلب ؛ فإن القلوب فى حال المطالعةِ والتجلى تكون بوصف الوجل والهيبة .

ويقال وَجلٌ له سبب ووجل بلا سبب ؛ فالأول مخافةٌ من تقصير ، والثانى معدودٌ فى جملة الهيبة[2] .

ويقال الوَجلُ خوفُ المكْرِ والاستدراج ، وَأقربُهم من الله قلباً أكثرُهم من الله — على هذا الوجه — خوفاً .

قوله جل ذكره : ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ .

أى خامدين تحت جريان الحكم من غير استكراهٍ ولا تمنى خَرْجةٍ ، ولا رَوْمِ فُرْجةٍ بل يستَسلِمُ طوعاً :

---

(١) هكذا فى م ولكنها فى ص (السلام) والصواب الأولى فى الآية (أسلموا) .

(٢) فالخوف إذن أدنى منزلة من الهيبة ، والترتيب هكذا : الخوف والرجاء ثم القبض والبسط ثم الهيبة والأنس (الرسالة ص ٣٥ و ص ٣٦) .

ويقال الصابرين على ما أصابهم، أى الحافظين معه أسرارهم ؛ لا يطلبون السلوةَ باطلاعِ الخَلْق[1] على أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والمقيمى الصلاة ﴾ .

أى إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف فى محلّ النجوى :

إذا ما تمنّي الناسُ رَوْحاً وراحةً تمنّيْتُ أن أشكو إليك فَتَسمعاَ

قوله جل ذكره : ﴿ ومما رَزَقْناهم يُنْفِقون ﴾

عند المعاملة من أموالهم ، وفى قضايا المنازلة بالاستسلام ، وتسليم النفس وكل ما منك وبك لطوارق التقدير ؛ فينفقون أبدانهم على تحمل مطالبات الشريعة ، وينفقون قلوبهم على التسليم والخمود تحت جريان الاحكام بمطالبات الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ والبُدْنَ جَعَلْناها لكم من شعائرِ اللهِ لكم فيها خيرٌ فاذكروا اسمَ اللهِ عليها صَوَافّ فاذا وجَبَتْ جنوبُها فكلُوا منها وأطعِمُوا القانعَ وَالمعترَّ كذلك سَخَّرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ .

أقسام الخير فيها كثيرة بالركوب والحَمْل عليها (وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع بوبرها ثم الاعتبار بِخِلْقَتِها كيف سُخِّرتْ للناس على قوتها وصورتها ، ثم كيف تنقاد للصبيان فى البروكِ عند الحَمْل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها)[2] وصبرها على العطش فى الأسفار ، وعلى قليل العَلَف ، ثم مافى طَبْعِها من لُطْفِ الطبع ، وحيث تستريح بالحُداءِ مع كثافة صورتها إلى غير ذلك .

---

(١) هكذا فى ص ولكنها فى م (باطلاق الحق) والصواب الأول لأنهم لا يفزعون للخلق طلباً للسلوة فيما يصيبهم من الحق وفى هذا حفظ لأسرارهم .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وساقط من ص .

« فإذا وجبت جنوبها » : أى سقطت على وجه الأرض فى حال النحر فأطعموا القانع الذى ألقى جلباب الحياء وأظهر فقره للناس ، والمعتر الذى هو فى تحمله متحمل ، ولمواضع فاقته كاتم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا ولا دِماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾ .

لا عبرة بأعيان الأفعال سواء كانت بدنية محضة ، أو مالية صرفة ، أو بما له تعلق بالوجهين ، ولكن العبرة باقترانها بالإخلاص[1] ، فإذا انضاف إلى أكساب الجوارح إخلاص القصود ، وتجردت عن ملاحظة أصحابها للأغيار صلحت للقبول[2] .

ويقال التقوى شهود الحق بنعت التفرد ، فلا يشاب تقربك بملاحظة أحد ، ولا تأخذ عوضاً على عمل من بشر .

« لتكبروا الله على ما هداكم » : أى هداكم وأرشدكم إلى القيام بحق العبودية على قضية الشرع .

« وبشر المحسنين » : والإحسان كما فى الخبر : « أن تعبد الله كأنك تراه . . » .

وأمارة صحته سقوط التعب بالقلب عن صاحبه ، فلا يستثقل شيئاً ، ولا يتبرم بشىء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عن الذين آمنوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُور ﴾ .

---

(١) يقال إن سبب نزول هذه الآية ان اهل الجاهلية كانوا إذا نحروا الإبل نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم ، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت الآية .

(٢) يرى القشيرى ان هذا جوهر العبادات جميعاً ، أن تكون خالصة لله ، وقد فصلنا ذلك عند بحثنا عن القشيرى المفسر .

انظر كتابنا (الإمام القشيرى ومذهبه فى التصوف) ط مؤسسة الحلبي .

يدفع عن صدورِهم نزغاتِ الشيطان ، وعن قلوبِهم خطراتِ العصيان ، وعن أرواحهم طوارقَ النسيان .

والخيانةُ على أقسام : خيانةٌ فى الأموال تفصيلها فى المسائل الشرعية ، وخيانة فى الأعمال ، وخيانة فى الأحوال ؛ فخيانة الأعمال بالرياء والتصنع ، وخيانة الأحوال بالملاحظة والإعجاب والمساكنة ، وشرُّها الإعجابُ ، ثم المساكنةُ وأخفاها الملاحظة[1] .

ويقال خيانة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا (على)[2] طلب الأعواض ليجدوا فى الآخرة حُسْنَ المآل . . وهذا إخلاص الصالحين . ولكنه عند خواص الزهاد خيانة ؛ لأنهم تركوا دنياهم لا لله ولكن لوجود العِوَض على تركهم ذلك مِنْ قِبَلِ الله .

وخيانة العابدين أن يَدَعُوا شهواتِهم ثم يرجعون إلى الرُّخَصِ ، فلو صدقوا فى مرماهم لَمَا انحطُّوا إلى الرخص بعد ترقيهم عنها .

وخيانة العارفين جنوحهم إلى وجود مقام ، وتطلعهم لمنال منزلة وإكرام من الحق ونوع تقريب .

وخيانة المحبين روم فرحة[3] مما يمسهم من برحاء المواجيد ، وابتغاء خرجة مما يَشْتَدُّ عليهم[4] من استيلاء صَدٍّ ، أو غلبات شوقٍ ، أو تمادى أيامِ هَجْرٍ .

وخيانةُ أربابِ التوحيد أن يتحرك لهم للاختيار عِرْقٌ ، ورجوعُهم — بعد امتحائِهم عنهم — إلى شظية من أحكام الفَرْقِ ، اللهم إلا أن يكونَ ذلك منهم موجوداً ، وهم عنه مفقودون[5] .

---

(١) نلفت النظر إلى أهمية ذلك عند دراسة المصطلح الصوفى ، خاصة وان القشيرى لم يتكلم عن ذلك فى رسالته .

(٢) (على) طلب الأعواض معناها لأجل طلب الأعواض .

(٣) (روم) فى ص و (روح) فى م ، ونظن أنها (فرجة) بالجيم كما سبق منذ قليل حين استعمل القشيرى (فرجة ، وخرجة) فى سياق مماثل .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص مما (يشق عليهم) وكلاهما مقبول فى السياق .

(٥) معنى هذا أن القشيرى يسلم بأنه قد يحدث من العبد الواله ما ينبغى أن يعذر فيه ، إن صحّ صدقه فى التوجه ، واشتد وقع المحو عليه .

قوله جل ذكره : ﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلُون بأنَّهم ظُلِمُوا وإنَّ اللهَ على نَصْرِهم لَقَدير﴾ .

إذا أصابهم ضُرٌّ أو مَسَّهم — ما هو فى الظاهر — ذُلٌّ من الأعادى يجرى عليهم ضَيْمٌ ، أو يلحقهم من الأجانب استيلاءٌ وظلمٌ . . فالحقُّ — سبحانه — ينتقِمُ من أعدائهم لأَجْلِهم ، فهم بنعت التسليم والسكون فى أغلب الأحوال ، وتفاصيلُ الأقدارِ جاريةٌ باستئصالِ مَنْ يناويهم ، وبإحالة الدائرة على أعاديهم . وفى بعض الأحايين ينصبهم الحقُّ سبحانه بنعت الغَلَبةِ والتمكين من نزولهم بساحات مَنْ يناوئهم بِحُسْنِ الظَّفَر ، وتمامِ حصولِ الدائرة على مَنْ نَاصَبَهم ، وأخزاهم بأيديهم ، وكلُّ ذلك يتفق ، وأنواعُ النصرةِ من الله — سبحانه — حاصلةٌ ، واللهُ — فى الجملةِ — غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿الذين أُخرِجُوا من ديارِهم بغيرِ حقٍ إلاَّ أنْ يقولوا ربُّنا اللهُ﴾

المظلومُ منصورٌ ولو بعد حين ، ودولة الحق تغلب دولة الباطل ، والمظلومُ حميدُ العقبى ، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلوى : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا »[1] .
وقد يجرى من النَّفْسِ وهواجسها على القلوبِ لبعضِ الأولياءِ وأهلِ القصةِ — ظُلْمٌ ، ويَحْصُلُ لِسُكَّانِ القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاءٌ ، وتستولى غاغَةُ النَّفْس ، فتعمل فى القلوب بالفساد بسبب استيطانِ الغفلة حتى تتداعى القلوبُ للخراب من[2] طوارق الحقائق وشوارق الأحوال ؛ كما قال قائلهم :

أنعى إليكَ قلوباً طالمـا هَطَلَتْ سحائبُ الجودِ فيها أبْحُرَ الحِكَمِ

فَيَهزِمُ الحقُّ — سبحانه — بجنودِ الإقبالِ أَرَاذِلَ الهواجسِ ، وينعمرُ عَسْكَرَ التحقيقِ بأَمْدَادِ الكشوفات . ويتجدَّدُ دارسُ العهد ، وتطْلُعُ شموسُ السَّعْدِ فى ليالى الستر ، وتُكْنَسُ القلوبُ وتتطهر من آثارِ ظُلْمَةِ النَّفْسِ ، كما قيل :

---

(١) آية ٥٢ سورة النمل .
(٢) (للخراب من طوارق الحقائق) أى بسبب خلوها من طوارق الحقائق .

أطلالُ سُعْدَى باللِّوى تتجدَّدُ

فإذا هبَّتْ على تلك القلوب رياحُ العناية، وزال عنها وهج النسيان سقاها الله صَوْبَ[1] التجلِّي، وأنبت فيها أزهارَ البَسْط فيتضح فيها نهارُ الوَصْلِ، ثم يوجد فيها نسيم القرب إلى أن تطلع شموس التوحيد.

قوله جل ذكره: « ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بَعْضَهم ببعضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ ومَسَاجِدُ يُذْكَرُ فيهـا اسمُ اللهِ كثيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصُرُه إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عزيز ».

يتجاوز عن الأصاغر لِقَدْرِ الأكابر، ويعفو عن العوام لاحترام الكرام.. وتلك سُنَّةٌ أجراها الله لاستنقاء[2] منازل العبادة، واستصفاء مناهل العرفان. ولا تحويل لِسُنَّتِه، ولا تبديل لكريم عادته.

قوله جل ذكره: « الذين إنْ مكَّنَّاهم فى الأرضِ أقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاة وأمَرُوا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكرِ ولِلَّهِ عاقبةُ الأمور ».

إذا طالت بهم المدةُ، وساعَدَهم العمرُ لم يستفرغوا أعمالَهم فى استجلاب حظوظهم، ولا فى اقتناء محبوبهم من الدنيا أو مطلوبهم، ولكن قاموا بأداء حقوقنا.

وقوله: « أقاموا الصلاة »: فى الظاهر، واستداموا المواصلات فى الباطن.

---

(١) الصوْب = المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذى (الوسيط).

(٢) هكذا فى م ولكنها فى س (لاستيفاء). وقد آثرنا (استنقاء) لملاءمتها (لاستصفاء) التى بعدها ولا نستبعد أنها قد تكون (لاستبقاء) فى الأصل على معنى: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لما بقيت منازل العبادة؛ لأن الكافرين إذا انتصروا لم يتركوا معابد.

ويقال إقامة الصلاة الوفاء بأدائها ؛ فتَعْلَمَ — بين يدى الله — مَنْ أنت ، ومَنْ تناجى ، ومَنْ الرقيب عليك ، ومن القريب منك .

وقوله : « وآتوا الزكاة » : الأغنياء منهم يوفون بزكاة أموالهم ، وفقراؤهم يُؤْتون زكاةَ أحوالهم ؛ فزكاة الأموال عن كل مائتين خَمْسَة للفقراء والباقى لهم ، وزكاة الأحوال أن يكون من مائتى نَفَسٍ تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله ، ونصف جزء من نَفَسٍ — من المائتين — لكَ . . وذلك أيضاً عِلَّة[1] .

قوله « وأمَرُوا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر » : يبتدئون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بأنْفُسِهم ثم بأغيارهم ، فإذا أخذوا فى ذلك لم يتفرغوا من أنفسهم إلى غيرهم .

ويقال « الأمر بالمعروف » حفظ الحواس عن مخالفة أمره ، ومراعاة الأنفاس معه إجلالا لِقَدْرِه .

ويقال الأمر بالمعروف على نَفْسك ، ثم إذا فَرَغْتَ من ذلك تأخذ فى نهيها عن المنكر . ومنْ وجوهِ المنكرِ الرياء والإعجابُ والمساكنةُ والملاحظةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ يكذِّبوك فقد كذَّبتْ قبلَهم قومُ نوح وعادٌ وثمودُ * وقومُ إبرهيمَ وقومُ لوطٍ * وأصحاب مَدْيَنَ وكذِّبَ موسى فأمليْتُ للكافرين ثم أخذْتُهم فكيف كان نكير ﴾ .

فى الآيات تسليةٌ للنبي — صلى الله عليه وسلم ، وأمرٌ حَتْمٌ عليه بالصبر على مقاساة ما كان يلقاه من قومه من فنون البلاءِ وصنوفِ الأسواء[2] .

(١) لأنه ينبغى الا تكون لك فى نفسك بقية على الإطلاق ، ويجب أن تكون بكليتك للحق .
(٢) أسواء = جمع سوء .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَأَيِّنْ من قريةٍ أهلكناها وهى ظالمةٌ فهى خاويةٌ على عُرُوشِها ﴾ .

الظلمُ يوجبُ خرابَ أوطانِ الظالم ، فتخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه ، فالوحشةُ التى هى غالبةٌ على الظَّلَمَةِ من ضيقِ صدورهم ، وسوءِ أخلاقهم ، وفَرْطِ غيظ مَنْ يَظْلِمُون عليهم . . كل ذلك من خراب أوطان راحاتهم ، وهو فى الحقيقة من جملة العقوبات التى تلحقهم على ظلمهم .

ويقال خرابُ منازلِ الظَّلَمَةِ ربما يتأخر وربما يتعجل . وخرابُ نفوسهم فى تعطلها عن العبادات لِشُؤْمِ ظُلْمِهم ، وخرابُ قلوبهم باستيلاءِ الغفلةِ عليهم خصوصاً فى أوقات صلواتهم وأوان خلواتهم . . نقدٌ[1] غيرمستأخر .

قوله جل ذكره : ﴿ وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وقصرٍ مَشِيدٍ ﴾ .

الإشارة فى « بئر معطلة » : إلى العيون المتفجرة التى كانت فى بواطنهم ، وكانوا يستقون منها ، وفى ذلك الاستقاء حياةُ أوقاتهم من غلبات الإرادة وقوة المواجيد ، فإذا اتصفوا بظلمهم غَلَبَ غُثَاؤُها[2] وانقطع ماؤها بانسداد عيونها .

والإشارة فى « قصر مشيد » إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها من الهيبة والأُنْس ، وخُلُوُّ أرواحهم من أنوار المحابِّ ، وسلطان الاشتياق ، وصنوف المواجيد .

قوله جل ذكره : ﴿ أفَلَمْ يَسِيروا فى الأرض فتكونَ لهم قُلوبٌ يَعقِلون بها أو آذانٌ يَسْمَعُون بها فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكنْ تَعْمَى القلوبُ التى فى الصدور ﴾

---

(١) (نقد) هنا معناها مُعجَّل ، تقابل (وعد) فى المؤجَّل .

(٢) الغُثَاءُ = الفاسد من الماء ، المتلىء ببقايا الأشياء من وجه الأرض والرغوة القذرة .

كانت لهم قلوبٌ من حيث الخلقة ، فلمَّا زايلتها صفاتُها المحمودةُ صارت كأنها لم تكن في الحقيقة . ثم إنه أخبر أن العمى عمى القلب وكذلك الصمم ، وإذا صَحّ وصفُ القلبِ بالسمع والبصر صَحّ وصفُه بسائر صفات الحيّ من وجوه الإدراكات ؛ فكما تبصر القلوبُ بنور اليقين يُدْرَكُ نسيمُ الإقبال بِمَشَامّ السِّرّ ، وفي الخبر :

« إني لأجد نَفَسَ ربكم من قِبَل اليمن » وقال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام : « إني لأجد ريح يوسف »[1] وما كان ذلك إلا بإدراك السرائر دون اشتمام ريحٍ في الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذابِ ولَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَه وإنَّ يوماً عِنْدَ رَبِّكَ كألفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّون ﴾ .

عَدَمُ تصديقهم حَمَلَهم على استعجال ما توعدهم به ، قال تعالى : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها »[2] ولو آمنوا لصدَّقوا ، ولو صدَّقوا لَسَكَنُوا . « وإن يوماً عند ربك كألف سنة » : أي إنَّ الأيامَ عنده تتساوى ، إذ لا استعجالَ له في الأمور ؛ فسواء عنده يوم واحد وألف سنة ؛ إذ مَنْ لا يَجْرِي عليه الزمانُ وهو يُجْرِي الزمانَ فَسَوَاء عليه وجودُ الزمانِ ، وعدم الزمان وقِلة الزمانِ وكَثْرَةُ الزمانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكأيِّنْ من قريةٍ أَمْلَيْتُ لها وهي ظالِمةٌ ثم أَخَذْتُها وإليَّ المصيرُ ﴾ :

الإمهال يكون من الله — سبحانه وتعالى ، والامهال يكون بأَنْ يَدَعَ الظالمَ في ظُلْمِه حينا ، ويوسِّع له الحَبْلَ[3] ، ويطيل به المهل ، فيتوهم أنه انفلت من قبضة التقدير ، وذلك ظنه الذي

---

(١) آية ٩٤ سورة يوسف .

(٢) آية ١٨ سورة الشورى .

(٣) هكذا في م ولكنها في ص (الحيل) بالياء جمع حيلة ، وربما تتأيد هذه بقوله فيما بعد (وكيف يستبق بالحيلة ما حق في التقدير عدمه) .

أراده ، ثم يأخذه من حيث لا يَرْتقِب، فيعلوه نَدَمٌ ، ولات حينه ، وكيف يستبقى بالحيلة ما حق فى التقدير عَدَمُه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يأيها الناسُ إنَّما أنا لكم نذيرٌ مبين ﴾ :

أشابِهُكُم فى الصورة ولكنى أُبايِنُكم من حيث السريرة ، وأنا لِمُحْسِنِكم بشير ، ولِمُسِيئِكم نذير ، وقد أيّدْتُ بإقامةِ البراهينِ ما جئتكم به من وجوهِ الأمر بالطاعة والاحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ فالذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لهم مَغْفِرةٌ ورِزْقٌ كريمٌ ﴾ .

الناس — فى المغفرة — على أقسام : فمنهم من يستر[1] عليه زَلّتَه ، ومنهم من يستر عليه أعماله الصالحة صيانةً له عن الملاحظة ، ومنهم من يستر حاله لئلا تُصيبَه مِنَ الشهرةِ فتنةٌ [2] ، وفى معناه قالوا :

لا تُنْكِرَنْ جُحْدِى هَوَاكَ فإنما ذاك الجحودُ عليكَ سِتْرٌ مُسْبَلُ

ومنهم مَنْ يستره بين أوليائه ، لذلك وَرَدَ فى الكتب : « أوليائى فى قبائى ، لا يشهد أوليائى غيرى » .

« والرزق الكريم » ما يكون من وجه الحلال . ويقال ما يكون من حيث لا يَحْتَسِب العبدُ .

ويقال هو الذى يبدو — من غير ارتقابٍ — على رِفْقٍ فى وقت الحاجة إليه .

ويقال هو ما يَحْمِلُ المرزوقَ على صَرْفِهِ فى وَجْهِ القربة . ويقال ما فيه البركة .

ويقال الرزق الكريم الذى يُنال من غير تعب[3] ، ولا يتقلد مِنَّةَ مخلوق .

---

(١) لأن غفرَ معناها فى اللغة سترَ .

(٢) وهذه إحدى الأفكار التى نشط أصحاب الملامة فى العمل بها ، وحثّ أتباعهم عليها .

(٣) (الذى ينال من غير تعب) هنا معناها من غير استعجال ، ومن غير بعدٍ عن التفويض والتوكل ، ومن غير اعتماد على مخلوق . ونحو ذلك مما قد يهدم صرح الاستسلام الكامل للرازق الوهاب سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين سَعَوْا فى آياتنا مُعَاجِزِينَ
أولئك أصحابُ الجحيم ﴾ .

فى الحال فى معجَّلِه الوحشهُ وانسدادُ أبوابِ الرشدِ ، وتنغصُ العَيْش ، والابتلاء بمن لا يعطف عليه ممن لا يخافون الله .

وفى الآخرة ما سيلقون من أليم العقوبة على حسب الاجرام .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
ولا نبيٍّ إلا إذا تَمَنَّى أَلْقَى الشيطانُ
فى أُمْنِيَّتِهِ فينسَخُ اللهُ ما يُلْقِي
الشيطانُ ثم يُحْكِمُ اللهُ آياتِه واللهُ
عليمٌ حكيمٌ ﴾ .

الشياطين يتعرَّضون للأنبياء عليهم السلام ولكن لا سلطانَ ولا تأثيرَ فى أحوالهم منهم ، ونبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — أفضل الجماعة .

وإنما من الشيطان تخييلٌ وتسويل (من التضليل)[1] . وكان لنبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — سَكَتاتٌ فى خلال قراءة القرآن عند انقضاء الآيات ، فيتلفَّظ الشيطانُ ببعض الألفاظ[2] ، فمَنْ لم يكن له تحصيلٌ توَهَّمَ أنه كان من ألفاظِ الرسولِ — عليه الصلاة والسلام وصار فتنةً لقومٍ .

(١) هكذا فى ص ولكن فى م وردت هكذا (وليس به شىء من التضليل) ونحسب ان هذا أكثر ملاءمة للسياق حسبما يتضح من الهامش التالى .

(٢) قيل كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه يقرأ بين قومه سورة النجم حتى إذا وصل إلى (ومناة الثالثة الأخرى) جرى على لسانه : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى «فنبهه جبريل لما لم يفطن له ، وحيث إن النبي معصوم من إجراء الشيطان عليه ، ومعصوم من الغفلة . ولأنه لا يُعْقَل ان يجرى على لسانه مدح للأصنام — فقد جاء لتحطيمها — فيرى بعضُ المفسرين انَّ الشيطان تكلم بهذه الكلمات — وقد وقع ذلك يوم بدر ويوم أحد — وتداخلت الكلمات فى قراءة النبي (ص) أثناء سكتة من سكتاته — كما نَبَّهَ القشيرى .

أما — الذين أُيدهم بقوة العصمة ، وأُدركتهم العناية فقد استبصروا ولم يُضِرْهُم[1] ذلك .

قوله جل ذكرهم : ﴿ لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشيطانُ فتنةً
للذين في قلوبهم مَرَضٌ والقاسيةِ
قلوبُهم وإن الظالمين لَفِي شقاقٍ
بعيد ﴾ .

إذا أراد اللهُ بِعَبْدِهِ خيراً أمدَّه بنور التحقيق ، وأَيَّده بحسن العصمة ، فيميِّز بحسن البصيرة بين الحق والباطل ؛ فلا يُظِلُّه غمامُ الرَّيْبِ ، وينجلي عنه غطاء الغَفْلَة ، فلا تأثيرَ لضبابِ الغَداةِ في شُعاعِ الشمس عند متوع النهار ، وهذا معنى قوله :

﴿ ولِيَعْلَمَ الذين أُوتوا العِلْمَ أنَّه
الحقُّ من ربِّكَ فيُؤْمنوا به فَتُخْبِتَ
له قلوبُهم وإنَّ اللهَ لَهادِ الذين آمنوا
إلى صراطٍ مستقيم * ولا يزال
الذين كفروا في مِرْيَةٍ منْهُ حتى
تأتيَهُم الساعةُ بَغْتَةً أو يأتيَهم
عذابُ يَوْمٍ عقيمٍ ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ المُلْكُ يومَئِذٍ لِلّهِ يحكم بينهم
فالذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ
في جنَّاتِ النعيم ﴾ :

لم يتخصصْ مُلْكه — سبحانه — بيومٍ ، ولم تتحدد له وقتيةُ أمْرٍ ، ولا لجلاله قَدْرٌ[2] ، ولكنَّ الدعاوى في ذلك اليوم تنقطع ، والظنون ترتفع ، والتجويزات تتلاشى[3] ؛ فللمؤمنين وأهل الوفاق نِعَمٌ ، وللكفار وأصحاب الشقاق نِقَمٌ .

---

(١) ضبطناها هكذا ولا بأس — من حيث المعنى — ان تُضبطُ (ولم يَضِيرُهم ذلك) فما حدث من الفتنة لم يُلحق بهم ضيراً ولا ضرراً ؛ فقد أدركتهم العناية .

(٢) أي أنه يجل عن التحدد بزمانٍ وقدر فهو المطلق الذي لا يتناهى .

(٣) الدعاوى والظنون والتجويزات هي تهم النفس والعقل .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا
فأولئك لهم عذابٌ مهين * والذين
هاجروا فى سبيلِ اللهِ ثم قُتِلُوا
أو ماتوا ليرزقنهم اللهُ رزقاً حسناً
وإنَّ اللهَ لهو خيرُ الرازقين ﴾ .

هؤلاء لهم عذاب مهين ، وهؤلاء لهم فضل مبين .

« والذين هاجروا . . . » : للقلوب حلاوةُ العرفان ، وللأرواح حُلّةُ المحاب ، وللأسرار دوام الشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ ليُدخلنّهم مُدْخلاً يَرْضَوْنه وإنَّ الله لعليمٌ حليمٌ ﴾ .

إدخالاً فوق ما يتمنّونه ، وإبقاء على الوصف الذى يَهْدَوْنه . . ذلك فى أوان صحوهم لينالوا لطائفَ الأُنْسِ على وصف الكمال ، ويتمكنوا من قضايا البَسْطِ على أعلى أحوال السرور .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك ومَنْ عاقبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ به
ثم بُغِيَ عليه لينصرنّه اللهُ إنَّ الله
لعفوٌّ غفورٌ ﴾ .

نَصْرُه — سبحانه — الأولياء نَصْرٌ عزيز ، وانتقامه بتمام ، واستئصاله بكمال ، وإزهاقه أعداءه بتمحيق جملتهم ، وألا يحتاجَ المنصورُ إلى الاحتيالِ أو الاعتضادِ بأشكال[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ بأنَّ اللهَ يُولِجُ الليلَ فى النهارِ
ويولجُ النهارَ فى الليل وأنَّ اللهَ
سميعٌ بصيرٌ ﴾ .

---

(١) اى لا يحتاج المنصور إلى حيلة او اى تدبير إنسانى من جانبه ، بل يسقط تدبيره ؛ لأن النصر له من عند الله ، ولا يحتاج المنصور إلى ان يعتضد بأمثاله من المخلوقين فكفى الله له ناصراً ومعيناً .

كما فى أفقِ العالَم لَيْلٌ ونهار فكذلك للسرائر ليل ونهار ؛ فعند التجلى نهار وعند الستر ليل ، ولليلِ السِّرِّ ونهاره زيادةٌ ونقصان ، فبمقدار القبض ليلٌ وبمقدار البسطِ نهارٌ ، ويزيد أحدُهما على الآخرِ وينقص . . وهذا للعارفين . فأمَّا المحقّقُون فلَهُم الأُنْسُ والهيبةُ مكانَ قبضِ قوم وبَسْطِهم ، وذلك فى حالَىْ صحوهم ومحوهم ، ويزيد أحدهما وينقص ، ومنهم من يدوم نهارُه ولا يدخل عليه ليلٌ . . وذلك لأهل الأُنس فقط[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأَنَّ اللهَ هو الحقُّ وأن
ما يَدْعُونَ مِنْ دونه هو الباطِلُ ،
وأَنَّ اللهَ هو العلىُّ الكبير ﴾

إذا بدا عِلْمٌ من الحقائق حَصَلَت بمقداره شظية من الفناء لِمَنْ حَصَلَ له التجلى ، ثم يزيد ظهورُ ما يبدو ويغلب ، وتتناقصُ آثارُ التفرقة وتتلاشى ، قال : صلى الله عليه وسلم : « إذا أقبل النهارُ من هاهنا أدبر الليلُ من هاهنا » فإذا نأى العبدُ بالكليةِ عن الإحساسِ بما دون اللهِ فلا يشهدأولاً الأشياء إلا للحقِّ ، ثم لا يشهدها إلا بالحقَّ ، ثم لا يشهد إلاالحق . . فلا إحساسَ له بغير الحق ، ومِنْ جملة ما ينساه . . نَفْسُه والكونُ كله[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أنزل مِنَ السماءِ ماءً
فَتُصْبِحُ الأرضُ مُخْضَرَّةً إنَّ اللهَ
لَطِيفٌ خبير ﴾

ماء السماءِ يحيى الأرض بعد موتها ، وماء الرحمةِ يحيى أحوال أهلِ الزَّلّةِ بعد تَرْكِها ، وماء العناية يحيى أحوال (. . . .)[3] بعد زوال رونقها ، وماء الوصلة يحيى أهل القربة بعد نضوبها .

---

(١) كثير من المصطلحات الصوفية لا يُفهم فهماً دقيقاً إلا بطريق المقارنة المتمدة على مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والجبال والبحار والسحب . . . إلخ .
وقد استغل القشيرى — فى ظلال القرآن الكريم — هذا الجانب .

(٢) تفيد هذه الفقرة فى توضيح مراتب الشهود .

(٣) في م (الناس) وفى ص مكتوبة هكذا (المقاليس) .

قوله جل ذكره: ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

المُلْكُ له، وهو عن الجميع غنى، فهو لا يستغنى بمُلْكِه، بل مُلْكُه بصير موجوداً بخَلْقِه إياه، إذ المعدوم له مقدور والمقدور هو المملوك.

ويقال كما أنه[1] غنيٌّ عن الأجانب ممن أثبتهم فى شواهد الأعداء فهو غنيٌّ عن الأكابر وجميع الأولياء.

ويقال إذا كان الغنيُّ حميداً فمعنى ذلك أنه يُعْطِى حتى يُشْكَر.

ويقال الغنيُّ الحميدُ المستحِقُّ للحمد: أعطى أو لم يُعْطِ، فإنْ أعطى استحقَّ الحمدَ الذى هو الشكر، وإنْ لم يُعْطِ استحق الحمد الذى هو المدح[2].

قوله جل ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أراد به تسخيرَ الانتفاع بها؛ فما للخَلْقِ[3] به انتفاع ومُيَسَّرٌ له فى الاستمتاع به فهو كالمُسَخَّرِ له على معنى تمكينه منه، ثم يُرَاعَى فيه الإذنُ؛ فمَنْ استمتع بشىءٍ على وجه الإباحة والإذن والدعاء إليه والأمر به فذلك إنعامٌ وإكرامٌ، ومَنْ كان بالعكس فمكْرٌ واستدراج.

وأمَّا السفينة.. فإلهامُ العبد بصنعها ووجوه الانتفاع بها؛ بالحَمْل فيها وركوبها فمِنْ أعظم إحسان الله وإرفاقه بالعبد، ثم ما يحصل بها من قَطْعِ المسافات البعيدة، والتوصل بها إلى المضارب

---

(١) هكذا في م وهى فى ص (أنت) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح.

(٢) لأجل هذا نقول فى صلاتنا: «الحمد لله رب العالمين» أى نشكرك فى السراء، ونمدحك فى الضراء فالحمد أعم والشكر أو المدح أخص.

(٣) وردت هكذا فى م وهى فى ص (للحق) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح.

النائية ، والتمكن من وجوه الانتفاع فى ذلك أعظمُ نعمة ، وأكملُ عافية .

وجعل الأرضَ للخَلْقِ قراراً من غير أن تميد ، وجعل السماء بناء من غير وقوع ، وجعل فيها من الكواكب ما يحصل به الاهتداء فى الظلام ، ثم هى زينة السماء — وفى ذلك من الأدلة ما يوجب ثَلَجَ الصدر وبَرْدَ اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُم إِنَّ الإنسانَ لَكَفُورٌ ﴾

إحياء النفوسِ وإماتتها مراتٌ محصورةٌ ، وإحياء أوقاتِ العُبَّاد وإماتتها لا حَصْرَ له ولا عدَّ ، وفى معناه أنشدوا .

أموتُ إذا ذكرتُك ثم أحيا فكم أحيا عليكَ وكم أموتُ

ويقال يُحْيي الآمالَ بإشهادِ تفضله ، ثم يميتها بالاطلاع على تَعَزُّزِه .

ويقال هذه صفة العوام منهم ، فأمَّا الأفاضل فحياتُهم مسرمدةٌ وانتعاشهم مؤبَّد . وأنَّى يحيا غيرُه وفى وجوده — سبحانه — غُنْيَةٌ وخَلَفٌ عن كل فائت[1] ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ لِكُلِّ أمةٍ جعلنا مَنْسَكاً هم ناسِكوه فلا يُنَازِعُنَّك فى الأمْرِ وادعُ إلى ربِّكَ إنَّكَ لَعَلَى هُدىً مستقيم ﴾

جَعَلَ لكلِّ فريقٍ شِرْعةً هم واردوها ، ولكلِّ جماعةٍ طريقةً هم سالكوها .

وجعل لكلِّ مقامٍ سُكَّانه ، ولكلِّ محلٍّ قُطَّانه ، فقد ربط كُلاًّ بما هو أهلٌ له ، وأوصل كلاًّ إلى ما جعله محلاًّ له ؛ فبِساط التَّعَبُّدِ موطوء بأقدامِ العابدين ، ومشاهد الاجتهاد معمورةٌ بأصحاب التكلف من المجتهدين ، ومجالسُ أصحابِ المعارفِ مأنوسةٌ بلزوم العارفين ، ومنازلُ المحبين مأهولةٌ بحضور الواجدين .

---

(١) هكذا فى النسختين ، ونحن لا نستبعد أن تكون في الأصل (فان) ؛ فسواء كان الفناء بالمعنى المعروف أو بالمعنى الصوفى فإنها منسجمة مع السياق ، ولأن القشيرى يستعمل هذا الأسلوب كثيراً : فكفى به خلفاً لك عند فنائك عنك .

قوله : « فلا ينازعنك فى الأمر الأمر ... » إشْهَدْ تصاريفَ الأقدار ، واعمل بموجب التكليف ، وانتهِ دون ما أُذِنْتَ له من المناهل .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ جادلوك فقُلِ اللهُ أعْلَمُ بما تعملون ﴾

كِلْهُم إلينا عندما راموا من الجدال ، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال ، واحذر جنوحَ قلبك إلى الاستعانة بالأمثال والأشكال ، فإنهم قوالبُ خاويةٌ ، وأشباحٌ عن المعانى خالية .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ يحْكُم بَيْنَكُم يومَ القيامةِ فيما كُنْتُمْ فيه تختلفون ﴾

أمَّا الأجانب فيقول لهم : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »(١) ، وأمَّا الأولياء فقومٌ منهم يحاسبهم حساباً يسيراً ، وأقوام مخصوصون يقول لهم : بينى وبينكم حساب ؛ فلا جبريلَ يحكم بينهم ولا ميكائيل ، ولا نبيٌّ مرسَلٌ ، ولا مَلَكٌ مُقرَّبٌ .

« الله يحكم بينكم » يحكم بينهم فيسأل عن أعماله جميعَ خصمائه ، ويأمر بإرضاء جميع غُرَمائِه .

قوله جل ذكره : ﴿ ألَمْ تعْلَمْ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فى السماءِ والأرضِ إنَّ ذلك فى كتابٍ إنَّ ذلك على اللهِ يَسير ﴾

يعلم السِّرَّ والنجوى ، وما تكون حاجةُ العبدِ له أمَسّ وأقوى ، وبكلِّ وجهٍ هو بالعبد أوْلى ، وله أن يحمل له النُّعمى ، ويزيل عنه البَلْوى ، ولا يسمع منه الشكوى ، فله الحُكْمُ تبارك وتعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ ويعبدون مِنْ دونِ اللهِ ما لم يُنَزِّل به سُلطاناً وما ليس لَهُم به عِلْمٌ وما للظالمين من نصير ﴾

---

(١) آية ١٤ سورة الإسراء .

الآية تشير إلى أنَّ مَنْ كان مِنْ جملة خواصِّه أفرده — سبحانه — ببرهان ، وأيَّده ببيان، وأعزَّه بسلطان . ومَنْ لا سلطانَ له يمتد إليه قهرُه ، ومن لا برهان له ينبسط عنه — إلى غيره — نورُه ، فهو بمعزِلٍ عن جملته .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بَيِّنَاتٍ
تَعْرِفُ فى وجوهِ الذين كَفَرُوا
المُنْكَرَ يكادون يَسْطُونَ بالذين
يَتْلُون عليهم آياتنا ، قُلْ أَفأُنَبِّئُكُم
بِشَرٍّ من ذلِكُم النارُ وَعَدَها اللهُ
الذين كفروا وبِئْسَ المصيرُ ﴾

لِسَمَاعِ الخطابِ أَثَرٌ في القلوبِ من الاستبشارِ والبهجة ، أو الإنكار[1] والوحشة . ثم ما تخامره السرائرُ يلوحُ على الأسِرَّةِ فى الظاهر ؛ فكانت الآياتُ عند نزولِها إذا تُلِيَتْ على الكفارِ يلوح على وجوهِهم دُخَانُ ما تنطوى عليه قلوبُهم من ظلماتِ التكذيب ، فما كان يقع عليهم طَرْفٌ إلاَّ نَبَا عن جحودهم ، وعادت إلى القلوب النُّبُوءةُ عن إقلاعهم .

ثم أخبر أنَّ الذى هم بصَدَدِه فى الآخرةِ من أليم العقوبةِ شرٌّ بكل وجهٍ لهم مِمَّا يعود إلى الرائين لهم عند شهودهم . وإنَّ المناظرَ الوضيئةَ للرائين مُبْهِجةٌ ، والمناظرَ المُنْكَرةَ للناظرين إليها موحِشة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له
إنَّ الذين تَدْعُون مِنْ دونِ اللهِ لن
يَخْلُقُوا ذُباباً ولو اجتمعوا له وإنْ
يَسْلُبْهم الذُّبابُ شيئاً لا يَسْتَنْقِذُوه
منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ ﴾ .

---

(١) هكذا فى م ولكنها فى ص (الانكسار) بالسين وهى خطأ لأن المقصود بيان المقابلة بين أثر القرآن على المؤمنين بالاستبشار والبهجة مع أثر القرآن على الكافرين (بالإنكار) والوحشة وظلمات التكذيب .

نبه الأفكارَ المُشتَّتةَ ، والخواطرَ المتفرقة على الاستجماع لِسماع ما أراد تضمينه فيها ؛ فاستحضرها فقال : « ضُرِبَ مَثلٌ فاستمعوا له . . »

ثم بيَّنَ المعنى فقال إنَّ الذين تَدْعُون من دون الله ، وتدعونها آلهةً ؛ أى وتسمونها آلهة (وأنها للعبادة مستحقة)[1] لن يخلقوا بأجمعهم ذباباً ، ولا دونَ ذلك . وإنْ يسلبهم الذبابُ شيئاً بأن يقع على طعام لهم فليس فى وسعهم استنقاذهم ذلك منه ، ومَنْ كان بهذه الصفة فساءَ المَثَلُ مَثلُهم ، وضَعُفَ وصفُهم ، وقَلَّ خَطَرُهم .

ويقال إن الذى لا يقاوم ذباباً فيصير به مغلوباً فأَهْوِن بِقَدْرِه !

قوله جل ذكره : ﴿ ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عزيزٌ ﴾

ما عرفوه حقَّ معرفتِه ، ولا وصفوه بجلال ما يستحقه من النعوت . ومَنْ لم يكن فى عقيدته نَقْضٌ لِمَا يستحيل فى وصفه — سبحانه — لم تُباشِرْ خلاصةُ التوحيدِ سِرَّه ، وهو فى تَرَجُّمِ فِكْرٍ ، وتجويز ظنٍ ، وخَطَرِ تعَسُّف ، يقعُ فى كل وهدة من الضلال .

ويقال العوامُ اجتهادُهم فى رَفْضِهم الأعمالَ الخبيثةَ خوفاً من الله ، والخواص جهدهم فى نَقْضِ عقيدتِهم للأوصافِ التى تَجِلُّ عنها الصمدية ، وبينهما (. . .)[2] بعيد .

« إن الله لقوى عزيز » قوى أى قادر على أن يخْلُقَ مَنْ هو فوقهم فى التحصيل وكمال العقول .

« عزيز » : أى لا يُقَدِّرُ أحدٌ قَدْرَه — إلا بما يليق بصفة البشر — بِقَدْرٍ من العرفان .

ويقال مَنْ وَجَدَ السبيلَ إليه فليس النعت له إلا بوصفِ القُصُور ، ولكنْ كلٌّ بوَجْدِه مربوطٌ ، وبحدِّه فى همته موقوف ، والحق سبحانه عزيز[3] .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص مفقود فى م

(٢) فى ص جاءت (وفاق) وفى م جاءت (فرقان) والأولى مرفوضة ، وفى مثل هذا الموضع يستعمل القشيرى (فرق) أو (بون) بعيد .

(٣) كلام القشيرى هنا فى (قوى) وفى (عزيز) هام لأنه لم يرد فى مبحثه المستقل عن الأسماء والصفات الإلهية الذى ضمنه كتاب (التحبير فى التذكير) الذى حققناه ونشرته دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٩ .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ يصطفى من الملائكةِ رُسُلاً ومن الناسِ إنَّ اللهَ سميعٌ بصير ﴾ .

الاجتباء والاصطفاء من الحق سبحانه بإثبات القَدْرِ ، وتخصيص الطَّوْلِ ، وتقديمهم على أشكالهم فى المناقب والمواهب .

ثم بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ ؛ فالفضيلةُ بحقِّ المُرْسِلِ ، لا لخصوصيةٍ فى الخِلْقةِ فى المُرْسَلِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْلَمُ ما بين أيديهم وما خَلْفَهم وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمورُ ﴾ .

يعلم حالَهم ومآلَهم ، وظاهرَهم و باطنَهم ، ويومَهم وغدَهم ، ويعلم نَقْضَهم عَهْدَهم ؛ فإليه مُنْقَلَبهم ، وفى قبضتِه تقلُّبُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمَنُوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا واعبُدُوا رَبَّكم وافعَلُوا الخيرَ لَعَلَّكم تُفْلِحون ﴾ .

الركوعُ والسجودُ والعبادةُ كُلُّها بمعنى الصلاة ؛ لأنَّ الصلاةَ تشتمل على هذه الأفعال جميعها ، ولكنْ فرَّقَها فى الذكر(1) مراعاةً لقلبِكَ من الخوف عند الأمر بالصلاة ؛ فَقَسَّمها ليكونَ مع كلِّ لفظةٍ ومعنى نوعٌ من التخفيف والترفيه ، ولقلوبِ أهلِ المعرفةِ فى كل لفظةٍ راحة جديدة .

ويقال لَوَّنَ عليهم العبادةَ ، وأمرَهم بها ، ثم جميعُها عبادةٌ واحدةٌ ، ووَعَدَ عليها من الثوابِ الكثيرِ ما تقصُرُ عن عِلْمه البصائر .

ويقال عَلِمَ أنَّ الأحبابَ يُحِبُّون سماعَ كلامِه فَطَوَّلَ عليهم القولَ إلى آخر الآية ؛ ليزدادوا عند سماع ذلك أُنساً على أُنسٍ ، ورَوْحاً على روْح ، ومُعَادُ خطابِ الأحبابِ هو رَوْحُ رُوحِهم ، وكمالُ راحتِهم .

---

(1) ما يلى من الكلام فى هذه الفقرة مفيد فى المباحث البلاغية فائدة كبيرة .

ثم قال بعد هذا : « وافعلوا الخير » فأدخل فيه جميعَ أنواع القُرَبِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاهِدُوا فى اللهِ حَقَّ جهادِهِ ﴾ .

(« حَقَّ جهاده » : حق الجهاد ما وافق الأمر فى القَدْرِ والوقتِ والنوعِ ، فإذا حصلَتْ فى شىءٍ منه مخالفةٌ فليس حَقَّ جهاده)[1] .

ويقال المجاهدة على أقسام : مجاهدةٌ بالنَّفْسِ ، ومجاهدةٌ بالقلبِ ، ومجاهدةٌ بالمالِ . فالمجاهدةُ بالنفس ألا يَدَّخِرَ العبدُ ميسوراً إلا بَذَلَه فى الطاعة بتحمل المشاق ، ولا يطالب الرخص والإرفاق[2] . والمجاهدةُ بالقلب صَوْنُه عن الخواطرِ الرديئةِ مثل الغفلة ، والعزمُ على المخالفات ، وتذكُرُ ما سَلَفَ أيام الفترة والبطالات . والمجاهدة بالمال بالبذل والسخاء ثم بالجود والإيثار .

ويقال حق الجهاد الأخذ بالأشق ، وتقديم الأشق على الأسهل — وإنْ كان فى الأَخَفِّ أيضاً حق .

ويقال حق الجهاد ألا يَفْتُرَ العبدُ عن مجاهدةِ النَّفْس لحظةً ، قال قائلُهم .

يارَبِّ إنَّ جهادى غيرُ مُنْقَطِعٍ فكلُّ أرضٍ لى ثَغْر طرسوس

قوله جل ذكره : ﴿ هو اجتباكم ﴾

يحتمل أنه يقول مِنْ حَقِّ اجتبائه إياكم أَنْ تُعَظِّموا أمْرَ مولاكم

ويحتمل أن يقال هو الذى اجتباكم ، ولولا أنه اجتباكم لمَا جاهَدْتم ، فلاجتبائه إياك وَفَّقَكَ حتى جاهدتَ .

ويقال عَلِمَ ما كنت تفعله قبل أنْ خَلَقَكَ ولم يمنعه ذلك مِنْ أنْ يجتبيكَ ، وكذلك إنْ رأى ما فَعَلْتَ فلا يمنعه ذلك أنْ يتجاوزَ عنك ولا يعاقبك .

---

(١) ما بين قوسين موجود فى م وناقص فى ص .

(٢) إذا كانت (الإرفاق) فمعناه التسهيل ، والقشيرى لا يرضى به غالباً لأرباب الطريق لأنهم باحثون عن الأشق ، وإذا كانت (الأرفاق) فهى جمع رفق وقد نهى القشيرى فى نهاية رسالته عن رفق النسوان والصبيان فهم الأنتان والجيف . . . إلخ . والسياق هنا بعيد عن ذلك مما يرجح أنها الإرفاق بكسر الهمزة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جَعَلَ عليكم فى الدِّين من حَرَجٍ ﴾ .

الشرع مبناه على السهولة ، والذى به تصل إلى رضوانه وتستوجب جزيلَ فضله وإحسانه ، وتتخلَّص به من أليم عقابه وامتحانه — يسيرٌ[1] من الأمر لا يستغرق كُنْهَ إمكانك ؛ بمعنى أنَّك إنْ أَرَدْتَ فِعلَه لَقَدَرْتَ عليه ، وإنْ لم توصَفْ فى الحال بأنَّك مستطيعٌ ما ليس بموجودٍ فيك .

قوله جل ذكره : ﴿ مِلَّةَ أبيكم ابراهيم ﴾ .

أى اتَّبِعوا والزَمُوا مِلَّةَ أبيكم ابراهيم عليه السلام فى البَذْلِ والسخاء والجود والخلة والإحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ هو سَمَّاكم المسلمين مِن قَبْلُ وفى هذا ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكم ﴾ .

اللهُ هو الذى اجتباكم ، وهو الذى بالإسلام والعرفان سَمَّاكم المسلمين . وقيل ابراهيم هو الذى سماكم المسلمين بقوله : « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »[2] .

قوله : « ليكون الرسول شهيداً عليكم ، نَصَبَ الرسولَ بالشهادة علينا ، وأمره بالشفاعة لأمته ، وإنما يشهد علينا بمقدار ما يُبْقِى للشفاعة موضعاً ومحلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وتكونوا شُهَدَاء على الناسِ ﴾ .

وتلك الشهادة إنما نؤديها لله ، ومَنْ كانت له شهادة عند أحد — وهو كريم — فلا يجرح شاهده ، بل يسعى بما يعود إلى تزكية شهوده .

قوله جل ذكره : ﴿ فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ واعتصِمُوا باللهِ هو مولاكم فنِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النصير ﴾ .

---

(١) يسيرٌ خبر لاسم الموصول (والذى به ...) (٢) آية ١٢٨ سورة البقرة .

أقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ بحكم الإتمام ، ونعت الاستدامة ، وجميل الاستقامة .

والاعتصامُ بالله التبرى من الحول والقوة ، والنهوض بعبادة الله بالله لله . ويقال الإعتصام بالله التمسكُ بالكتاب والسنة . ويقال الاعتصامُ بالله حُسْنُ الاستقامة بدوام الاستعانة .

« هو مولاكم » : سيدكم وناصركم والذى لا خلف عنه .

« فنعم المولى ونعم النصير » نِعْمَ المولى : إخبارٌ عن عظمته ، ونعم النصير : إخبارٌ عن رحمته .

ويقال إن قال لأيوب : « نعم العبد »(1) ولسليمان « نعم العبد »(2) فلقد قال لنا « نعم المولى ونعم النصير » ، ومدحه لنفسه أعزُّ وأجلُّ من مدحه لك .

ويقال « نعم المولى » : بدَأَكَ بالمحبة قبل أنْ أحببتَه ، وقبل أن عرَفْتَه أو طَلَبْتَه أو عَبَدْتَه .

« ونعم النصير » : إذا انصرف عنكَ جميع مَنْ لَكَ فلا يدخل القبرَ معك أحدٌ كان ناصِرَك ، ولا عند السؤال أو عند الصراط .

السورة التي يذكر فيها المؤمنون

قوله جل ذكره ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الاسم اشتقاقه من السمو ، وللمسمى بهذا الاسم استحقاقُ العلو ، فالاسم اسم لسموِّه من القِدَم ، والحقُّ حقٌّ لعلوِّه بحق القِدَم .

ويقال مَنْ عرف « بسم الله » سمت هِمَّتُه عن المرسومات ، ومَنْ أحبَّ بسم الله صَفَتْ حالته عن مساكنة الموهومات .

اسمُ مَنْ طَلَبَه أسِيَ من الدارين أرَبَه ، ومَنْ عَرَفَه وَجَدَ بقلبه مالا يعرف سَبَبَه .

---

(1) « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » آية ٤٤ سورة صّ .

(2) « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب » آية ٣٠ سورة صّ .

قوله جل ذكره : ﴿ قد أفلح المؤمنون * ألذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾

ظفرَ بالبُغْيَةِ وفاز بالطِّلْبَةِ مَنْ آمَنْ بالله .

و « الفَلَاحُ » : الفوزُ بالمطلوبِ والظَّفَرُ بالمقصود .

والإيمانُ انتسامُ الحقِّ في السريرة ، ومخامرةُ التصديقِ خلاصةَ القلب ، واستمكانُ التحقيقِ من تأمور الفؤاد(١) .

والخشوعُ في الصلاة إطراقُ السِّرِّ على بِساطِ النَّجوى باستكمالِ نَعْتِ الهيبة ، والذوبانِ تحت سلطان الكشف ، والامتحاءِ عند غَلَبَاتِ التَّجلِّي .

ويقال أَدْرَكَ ثَمَرَاتِ القُرْبِ وفَازَ بكمالِ الأُنْس مَنْ وَقَفَ على بِساط النجوى بنعت الهيبة ، ومراعاةِ آداب الحضرة . ولا يَكْمُلُ الأُنْسُ بلقاءِ المحبوب إلا عند فَقْدِ الرقيب . وأشدُّ الرقباء وأكثرهم تنغيصاً لأوان القرب النَّفْسُ ؛ فلا راحةَ للمُصَلِّي مع حضورِ نَفْسه ، (فإذا خنس عن نَفْسِه)(٢) وشاهده عَدمَ إحساسه بآفاتِ نَفْسِه ، وطابَ له العيشُ ، وتَمَّتْ له النُّعْمَى ، وتجلَّتَ له البُشْرى ، ووَجَدَ لَذَّةَ الحياةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم عن اللَّغْوِ مُعْرِضُون ﴾

ما يَشغلُ عن الله فهو سَهْوٌ ، وما ليس لله فهو حَشْوٌ ، وما ليس بمسموعٍ من الله أو بمقولٍ مع الله فهو لَغْوٌ ، (وما هو غير الحق سبحانه فهو كُفْرٌ ، والتعريجُ على شيءٍ من هذا بُعْدٌ وهَجْرٌ)(٣) .

ويقال ما ليس بتقريظِ الله ومَدْحِه من كلام خَلْقِه فكل ذلك لغو .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم للزكاةِ فاعِلون ﴾

---

(١) يقال إجعل هذا الأمر في تأمورك أي داخلَ قلبك (الوسيط : مادة أ م ر) .

(٢) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص .

(٣) موجود في م وغير موجود في ص .

الزكاةُ النّماء ، ومَنْ عَمَلُه للنماءِ فأمارةُ ذلك أن يكونَ بنقصانه فى نفْسِهِ عن شواهده ولا يبلغ العبدُ إلى كمالِ الوصفِ فى العبودية إلا بذوبانه عن شاهده .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم لفُروجِهم حافظون * إلاَّ على أزواجهم أو ما مَلَكَتْ أيْمَانُهم فإنَّهم غيرُ مَلُومين ﴾

لفروجهم حافظون ابتغاء نَسْلٍ يقوم بحقِّ اللهِ ، ويقال ذلك إذا كان مقصودُه التعففَ والتصاونَ عن مخالفاتِ الإثم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العَادُون ﴾

أى مَنْ جاوزَ قَصْدَ إيثار الحقوق ، وجَنَحَ إلى جانب استيفاء الحظوظ . . فقد تَعَدَّى مَحَلَّ الأكابر ، وخالف طريقتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم لِأَمَانَاتِهم وعَهْدِهم راعون ﴾

الأماناتُ مختلفةٌ ، وعند كلِّ أحدٍ أمانةٌ أخرى ، فقومٌ عندهم الوظائفُ بظواهرهم ، وآخرون عندهم اللطائفُ فى سرائرهم ، ولقومٍ معاملاتُهم ، ولآخرين منازلاتُهم ، ولآخرين مواصلاتُهم .

وكذلك عهودهم متفاوتة فمنهم مَنْ عاهده ألا يَعْبُدَ سواه ، ومنهم مَنْ عَاهَده ألا يشهدَ فى الكونين سواه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾

لا تصادفهم الأوقات وهم غير مستعدين ، ولا يدْعُوهم المنَادِى وهم ليسوا بالباب ، فهم فى الصف الأول بظواهرهم ، وكذلك فى الصف الأول بسرائرهم .

قوله جل ذكره ﴿ أولئك هم الوارِثون * الذين يَرِثُونَ الفردوسَ هم فيها خالدون ﴾

الإرث على حسب النَّسب ، وفى استحقاق الفردوسِ بوصف الإرثِ لِنَسَبِ الإيمان فى الأصل ، ثم الطاعات فى الفضل .

وكما فى استحقاق الإرث تفاوتٌ فى مقدار السهمان : بالفرض أو بالتعصيب - فكذلك فى الطاعات ؛ فمنهم مَنْ هم فى الفردوس بنفوسهم ، وفى الأحوال اللطيفة بقلوبهم ، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يبرحون عن منال نفوسهم ولا (. . .)[1] عن حالات قلوبهم .

قوله جل ذكره ﴿ ولقد خَلَقْنا الإنسانَ من سُلَالةٍ مِنْ طِين ﴾

عَرَّفهم أصلَهم لئلا يُعْجَبُوا بِفِعْلِهم .

ويقال نَسَبَهُم لئلا يخرجوا عن حَدِّهم ، ولا يغلطوا فى نفوسهم .

ويقال خَلَقَهم من سُلالَةٍ سُلَّتْ من كل بقعه ؛ فمنهم مَنْ طينته من جَرْدَةٍ[2] أو من سَبْخَةٍ[3] أو من سَهْلٍ ، أو من وَعْرٍ . . ولذلك اختلفت أخلاقهم .

ويقال بَسَطَ عُذْرَهم عند الكافة ؛ فإنَّ المخلوقَ من سلالة من طين . . . ما الذى يُنْتَظَرُ منه ؟!

ويقال خلقهم من سلالة من طين ، والقَدْرُ للتربية لا للتربة .

ويقال خلقهم من سلالة ولكنَّ مَعْدِنْ المعرفةِ ومَرْتَعْ المحبةِ ومتعلقَّ العناية منه لهم ؛ قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » .

ويقال خَلَقَهم ، ثم من حالٍ إلى حالٍ نَقَلَهم ، يُغَيِّر بهم ما شاء تغييره .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم جعلناه نُطْفَةً فى قَرارٍ مَكين * ثم خَلَقْنا النطفَةَ عَلَقَةً فخلقنا العَلَقَةَ مُضْغَةً فخلقنا المضغةَ عِظَاماً ، فكَسَوْنا العِظامَ لحماً ﴾

---

(١) مشتبهة فى ص ، م وربما كانت (ولا ينفكون) .

(٢) الأرض الجردة التى لا نبات فيها .

(٣) السَّبَخَةُ التى فيها ملح ونزٌّ ولا تكاد تنبت .

قطرةٌ أجزاؤُها متماثلةٌ ، ونُطْفَةٌ أبعاضُها متشاكلة ، ثم جعل بعضها لحماً وبعضَها عَظْماً ، وبعضَها شَعْراً ، وبعضها ظُفْراً ، وبعضها عَصَبَاً ، وبعضها جِلْداً ، وبعضها مُخّاً ، وبعضها عِرْقاً . ثم خَصَّ كُلَّ عضوٍ بهيئةٍ مخصوصةٍ ، وكلَّ جُزْءٍ بكيفيةٍ معلومةٍ . ثم الصفاتُ التى للإنسان خَلَقَها متفاوتةً ، من السَّمْع والبَصَرِ والفِكْرِ والغَضَبِ والقدرةِ والعلم والإرادةِ والشجاعةِ والحقد والجودِ والأوصافِ التى يتقاصر عنها الحصْرُ والعَدُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أنشأناه خَلْقاً آخَرَ فتبارَكَ الله أحسنُ الخالقين ﴾

فى التفاسير أنه صورة الوجه ، ويحتمل ما تركب فيه من الحياة ، واخْتُصَّ به من السَّمْع والبصر والعقل والتمييز ، وما تفرَّد به بعضٌ منهم بمزايا فى الإلهام العام للعقل وسائر الإدراكات .

ويقال « ثم أنشأناه خلقاً آخر » : وهو أنْ هَيَّأهم لأحوالٍ عزيزة يُظْهِرها عليهم بعد بلوغهم ، إذا حصل لهم كمال التمييز من فنون الأحوال ؛ فلقومٍ تخصيصٌ بزينة العبودية ، ولقومٍ تحرُّرٌ من رِقِّ البشرية ، ولآخرين تحقُّقٌ بالصفاتِ الصمدية بامتحائهم عن الإحساس بما هم عليه وبه من الأحوال التى هى أوصاف البشرية .

قوله جل ذكره : ﴿ فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقين ﴾

خلق السمواتِ والأرضين بجملتها ، والعرشَ والكرسىَّ ، مع المخلوقات من الجنة والنار بكليتها — ثم لمَّا أخبر بذلك لم يعقبه بهذا التمدح الذى ذكره بعد نعت خَلْقِه بنى آدم تخصيصاً لهم وتمييزاً ، وإفراداً لهم من بين المخلوقات .

ويقال إنْ لم يَقُلْ لكَ إنَّكَ أحسنُ المخلوقاتِ فى هذه الآية فلقد قال فى آية أخرى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »[1] .

---

(١) الآية ٤ سورة التين .

ويقال إن لم تكن أنت أحسن المخلوقات وأحسن المخلوقين — ولم يُثْنِ عليك بذلك فلقد أثنى على نفسه بقوله : « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، وثناؤه على نفسه وتمدحه بذلك أعزُّ وأجلُّ من أن يثنى عليك .

ويقال لما ذكر نعتَك ، وتاراتِ حالِكَ فى ابتداء خَلْقك ، ولم يكن منك لسانُ شكرٍ ينطق ، ولا بيانُ مدحٍ ينطلق .. نَابَ عنك فى الثناء على نفسه ، فقال : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم إنَّكم بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُون ﴾

أنشدوا :

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى

وأنشدوا :

حياتُنا عندنا قروضٌ ونحن بعد الموت فى التقاضى
لابُدَّ مِنْ ردِّ ما اقترضنا كلٌّ غريمٍ بذاك راضى

ويقال نعاك إلى نفسك بقوله : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » وكلٌّ ما هو آتٍ فقريب .

ويقال كسر على أهلِ الغفلة سطوةَ غفلتهم ، وفلَّ دونهم سيفَ صولتِهم بقوله : ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، وللجمادِ مُضاهون ، وعن المكنة والمقدرة والاستطاعة والقوة لَمُبْعَدُون ، وفى عِداد ما لا خَطَرَ له من الأمواتِ معدودون .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم إنَّكم يومَ القيامةِ تُبْعَثُون ﴾

فعند ذلك يتصل الحسابُ والعقابُ ، والسؤالُ والعتابُ ، ويتبين المقبولُ من المردودِ ، والموصولُ من المهجور .

ويومُ القيامة يومٌ خوَّفَ به العالَمَ حتى لو قيل للقيامة : ممن تخافين ؟ لقالت من القيامة . وفى القيامة ترى الناسَ سُكَارَى حَيَارَى لا يعرفون أحوالَهم ، ولا يتحققون بما تؤول إليه أمورهم ، إلى أن يتبيَّنَ لكلِّ واحدٍ أمْرُه ، خَيْرُه وشَرُّه : فيثقل بالخيرات ميزانُه ، أو يخف

عن الطاعاتِ أو يخلو ديوانُه . وما بين الموت والقيامة : فإمّا راحاتٌ مُتَّصِلَة ، أو آلام وآفاتٌ غير منفصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد خَلَقْنا فوقكم سَبْعَ طرائِقَ وما كنّا عن الخلْقِ غافلين ﴾

الحقُّ — سبحانه — لا يستتر عن رؤيته مُدْرَكٌ ، ولا تخفى عليه — من مخلوقاته — خافية . وإنما الحُجُبُ على أبصارِ الخَلْق وبصائرهم ؛ فالعادةُ جاريةٌ بأنه لا يخلق لنا الإدراك لِما وراء الحُجُبِ . وكذلك إذا حلَّتْ الغفلةُ القلوبَ استولى عليها الذهول ، وانسدَّت بصائرها ، وانتفت فهومها .

وفوقنا حُجُبٌ ظاهرة وباطنة ؛ ففي الظاهر السمواتُ حجبٌ تحول بيننا وبين المنازل العالية ، وعلى القلوب أغشية وأغطية كالمُنْية والشهوة ، والإرادات الشاغلة ، والغفلات المتراكمة .

أمّا المريدون فإذا أظَلَّتْهُم سحائب الفَتْرَةِ ، وسَكَنَ هيجانُ إرادتِهم فذلك من الطرائق التي عليهم .

وأما الزاهدون فإذا تحرّك بهم عِرْقُ الرغبة انْفَلَّتْ[1] قوة زهدهم ، وضَعُفَتْ دعائمُ صَبْرِهم ، فيترخَّصون بالجنوحِ إلى بعضِ التأويلاتِ ، فتعودُ رغباتهم قليلاً قليلاً ، وتختلُّ رتبةُ عزوفهم ، وتَنْهَدُّ دعائم زهدهم ، وبداية ذلك من الطرائق التي خَلَقَ فوقهم .

وأما العارفون فربما تظِلُّهم في بعض أحايينهم وَقفةٌ في تصاعد سرِّهم إلى ساحاتِ الحقائق ، فيصيرون مُوقَفِين ريثما يتفضّلُ الحقُّ — سبحانه — عليهم بكفاية ذلك فيجدون نفاذاً ، ويرفع عنهم ماعاقهم من الطرائق .

وفي جميع هذا فإنَّ الحقَّ سبحانه غيرُ غافلٍ عن الخلقِ ، ولا تاركٍ للعبادِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنزَلْنا من السماء ماءً بِقَدَرٍ فأسكنّاه في الأرضِ وإنا على ذَهَابٍ به لقادرون ﴾ .

---

(١) انفلّ السيف = انثلم حدُّه ، وانفلّ القوم = انهزموا .

أنزل من السماء ماء المطر الذى هو سببُ حياةِ الأرضين ، وذلك بقدرٍ معلومٍ . ثم .. البلادُ مختلفةٌ فى السَّقْىِ : فبعضها خِصْبٌ ، وبعضها جَدْبٌ ، وسَنَةً يزيد وسَنَةً ينقص ، سنةً يفيض وسنةً يغيض .

كذلك أنزلنا من السماءِ ماء الرحمة فيحيي القلوب ، وهى مختلفة فى الشُّرْب : فمِنْ موسَّعٍ عليه رزقه منه ، ومِنْ مُضَيَّقٍ مُقَتَّرٍ عليه . ومِن وقتٍ هو وقت سحٍّ ، ومنْ وقتٍ هو وقت حَبْسٍ .

ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به دَرَنَ العُصاةِ وآثارَ زلَّتِهم وأوضارَ عثرتِهم ، وماء هو سقى قلوبهم يزيل به عطَشَ تحيّرهم ، ويحيي به موات أحوالهم ؛ فَتَنْبُت فى رياض قلوبهم فنونُ أزهارِ البسط ، وَصنوف أنوار الروح . وماء هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحات القرب ، فيزيل عنها به حشمة الوصف ، وَيسكن به قلوباً فيعطلها عن التمييز ، وَيحملها على التجاسر ببذلِ الرُّوح ؛ فإذا شربوا طَرِبوا ، وإذا طَرِبوا لم يُبالوا بما وَهَبوا [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فأنشأنا لكم به جناتٍ من نخيلٍ وَأعنابٍ لكم فيها فواكهُ كثيرةٌ ومنها تأكلون ﴾ .

كما يحيي بماءِ السماءِ الغياضَ والرياض ، ويصنِّف فيها الأزهارَ والأنوارَ ، وتثمر الأشجارُ وتجرى الأنهار .. فكذلك يَسْقِى القلوبَ بماءِ العرفان فتورق وتثمر بعدما تزهر ، وتؤتى أُكلَها : من طيب عيش ، وكمالِ بسطٍ ، ثم وفورِ هيبة ثم رَوْحِ أُنسٍ ، ونتائجِ تَجَلٍّ ، وعوائد قُرْبٍ .. إلى ما تتقاصر العباراتُ عن شرحه ، ولا تطمع الإشارات فى حَصْره .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ لكم فى الأنعامِ لَعِبْرَة نُسقيكم مِمّا فى بطونها ولكم فيها منافِعُ كثيرةٌ ومنها تأكلون ﴾ .

الإشارات منه أنَّ الكدوراتِ الهاجةَ لاعِبْرَةَ بها ولا مبالاة ؛ فانَّ اللَّبنَ الخالصَ السائغَ يخرجُ من أخلاف الأنعام من بين ماتنطوى حواياها عليه من الوحشة ، لكنه صافٍ لم يؤثر

(1) حتى لو كان ما وهبوه أرواحهم .

فيه منها بحكم الجوار ، وكذلك الصفاء يوجد أكثره من عين الكدورة ؛ إذ الحقيقة لا يتعلق بها حقٌّ ولا باطل . ومَنْ أشرفَ على (سرٍّ)[1] التوحيد تحقَّقَ بأنَّ ظهور جميع الحدثان من التقدير ، فتسقط عنه كافة التمييز ، فالأسرار عند ذلك تصفو ، والوقت لصاحبه لا يجفو .

« ولكم فيها منافع » : لازمةٌ لكم ، ومتعدية منكم إلى كلِّ متصلٍ بكم :

إنىٌّ — على جَفَواتِها — برِبِّها   وبكلٍّ متَّصِلٍ بها متوسِّلُ

قوله جل ذكره : ﴿ وعليها وعلى الفُلْكِ تُحمَلُون ﴾ .

يحفظهم فى السفينة فى بحار القطرة ، ويحفظهم فى سفينة السلامة والعصمة فى بحار القدْرة ، وإنَّ بحارَ القدرة تتلاطم أمواجها ، والناسُ فيها غَرْقَى إلا مَنْ يحفظه الحقُّ — سبحانه — فى سفينة العناية .

وصفةُ أهلِ الفُلْكِ إذا مسَّهم شِدَّةُ خوفِ الغَرَقِ ماذكَرَ الله فى قوله : « فإذا ركبوا فى الفُلْكِ دعوا الله مخلصين له الدين[2] » كذلك مَنْ شاهدَ نفسه على شَفَا الهلاكِ والغرقِ ، والتجأ إلى صِدْقِ الاستعانة ودوام الاستغاثة فعند ذلك يحميه الحقُّ — سبحانه — من مخاوفات التقدير . ويقال إنَّ وَجهَ الأرضِ بحارُ الغفلة ، وما عليه الناسُ من أسباب التفرقة بحارٌ مهلكةٌ والناس فيها غرقى ، وكما قال بعضهم :

النـاسُ بحـرٌ عميقٌ   والبعـدُ عنهم سفينةْ
وقد نصحتُك فانظـر   لِنفْسِـكَ المسكينـةْ

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرْسلْنا نوحاً إلى قومِه فقال ياقومِ اعبُدُوا الله ما لكُم من إلهٍ غيرُه أفلا تتّقون ﴾ .

---

(١) موجودة فى م وغير موجودة فى ص .

(٢) آية ٦٥ سورة العنكبوت .

كَرَّرَ قصةَ نوح لِمَا فيها من عظيم الآيات من طولِ مقامه في قومه ، وشدةِ مقاساةِ البلاء منهم ، وتمام صبره على ما استقبله في طول عمره ، ثم إهلاك الله جميع مَنْ أَصَرَّ على كفرانه ، ثم إهلاك الله جميع مَنْ أصَرّ على كفرانه ، ثم لم يغادِرْ منهم أحداً ، ولم يبال — سبحانه — بأنْ أهلك جملتهم . ولقد ذكر في القصص أن امرأةً من قومه لما أخذهم الطوفان كان لها مولودٌ ، فَحَمَلَتْهُ وقامت حاملةً له ترفعه عن الطوفان ، فلمَّا بلغ الماء إلى يدها رفعته إلى ما فوق رأسها — قدْرَ ما أمكنها — إبقاءً على وَلَدِها ، وإشفاقاً عليه من الهلاك ، إلى أن غَلَبَها الماء وتَلِفَتْ وولدها . فأوحي الله إلى نوحٍ — عليه السلام — لو أني كنتُ أَرْحَمُ واحداً منهم لَرَحِمْتُ تلك المرأة وولدها .

وفي الخبر أن نوحاً كان اسمه يشكر ، ولكثرة ما كان يبكي أوحى الله إليه : يا نوح .. إلى كم تنوح ؟ فسمَّاه نوحاً . ويقال إنَّ ذنبَه أنه مرّ يوماً بكلبٍ فقال : ما أوحشه !

فأوحى الله إليه : اخلق أنت أحْسَنَ من هذا ! فكان يبكي معتذراً عن قالته تلك . وكان قومُه يلاحظونه بعين الجنون ، وما زاد لهم دعوةً إلا ازدادوا عن إجابته نبوةً ، وما زاد لهم صفوةً إلا ازدادوا على طول المدة قسوةً على قسوة .

ولما عمل السفينة ظهر الطوفان ، وأدخل في السفينة أَهْلَه ، تعرّض له إبليسُ — كما جاء في القصة — وقال : إحمِلْني معك في السفينة ، فأبى نوح وقال : يا شقيُّ .. تطمع في حملي إياك وأنت رأسُ الكفَرَةِ ؟ !

فقال إبليسُ : أَمَا علِمْتُ — يا نوحُ — أنّ الله أنْظَرَني إلى يوم القيامة ، وليس ينجو اليومَ أحدٌ إلاّ في هذه السفينة ؟

فأوحى الله إلى نوح أن احمله فكان إبليسُ مع نوح في السفينة ، ولم يكن لابنه معه مكانٌ في السفينة . (وفي هذا ظهور عين التوحيد وأن الحكم من الله غير معلول)[1] لأنه إن كان المعنى في أن ابنه لم يكن معه له مكان لكُفْرِه فبإبليس يُشكل .. ولكنها أحكامٌ غيرُ معلولة ، وجاز له — سبحانه — أن يفعل ما يريد : يَصِلُ[2] مَنْ شاء ويَرُدُّ مَنْ شاء .

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص .

(٢) وردت في م (يضل) بالضاد ونحن نجد (يصل) أكثر انسجاماً مع المعنى لتقابل (يرد)

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلْ ربِّ أنْزِلنى مُنْزلاً مُبارَكاً وأنتَ خير المُنْزِلين ﴾ .

الإنزالُ المباركُ أن يكون بالله ولله ، وعلى شهودِ الله من غير غفلة عن الله ، ولا مخالفاً لأمرِ الله .

ويقال الإنزال المبارك الاستيعاب بشهود الوصف عنك ، ثم الاستغراق باستيلاء سلطان القُرْب عليك ، ثم الاستهلاك بإحداق أنوار التجلِّى حتى لا تبقى عين ولا أثر ، فإذا تمَّ هذا ودام هذا فهو نزولٌ بساحات الحقيقة مبارك ؛ لأنك بلا أنت . . بكليتك من غير بقيةٍ أو أثرٍ عنك .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أنشأنا من بَعْدِهم قرنا آخرين ﴾

تتابعت القرونُ على طريقةٍ واحدةٍ فى التكذيب ، وغرّهم طولُ الامهالِ ، وما مكنّهم من رَفَهِ العيش وخَفْض الدّعةِ ، فلم يقيسوا إلا على أنفسهم ، ولم يَسْمُ لهم طَرْفٌ إلى مَنْ فوقهم فى الحال والمنزلة ، فقالوا : أنؤمن بمن يتردد فى الأسواق ، وينتفع مثلنا بوجوه الأرفاق؟ ولئن أطعنا بشراً مثلنا لسَلَكنا سبيلَ الغَىِّ ، وتَنَكّبْنا سُنَّةَ الرُّشْدِ . فأجراهم اللهُ فى الإهانةِ وإحلال العقوبة بهم مجرىً واحداً ، وأذاقهم عذابَ الخِزْى . وأعظمُ ما دَاخَلَهم من الشُّبهةِ والاستبعادِ أمرُ الحشْرِ والنشر ، ولم يرتقوا للعلم بأنَّ الإعادة كالابتداء فى الجواز وعدم الاستحالة ، والله يهدى مَنْ يشاء ويُغْوِى مَنْ يريد .

ثم إن اللهَ فى هذه السورة ذَكَرَ قصةَ موسى عليه السلام ، ثم بعده قصةَ عيسى عليه السلام ، وخَصَّ كُلَّ واحدٍ منهم بآياته الباهرة ومعجزاته الظاهرة(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطيِّبَاتِ واعْمَلُوا صالحاً إنِّى بما تعملون عليم ﴾

كلوا من الطيبات مما أحلَّ لكم وأباح ، وما هو محكومٌ بأنَّه طيب — على شريطة مطابقة

---

(١) نلاحظ هنا أن القشيرى قد اختصر الكلام فقفز إلى الآية ٥٠ دون تمهل أمام كل آية كما تعودنا منه

رُخْصَةِ الشريعة — مما كان حلالاً فى وقتهم ، مطلقاً مأذوناً لهم فيه . وكذلك أعمالهم الصالحة ما كان موافقاً لأمر الله فى زمانهم بفنون طاعاتهم فى أفعالهم وعقائدهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ هذه أُمَّتُكم أُمَّةً واحدةً
وأنا ربُّكم فاتقون ﴾ .

معبودكم واحدٌ ، ونبيُّكم واحد ، وشرعكم واحد ؛ فأنتم فى الأصول شرعٌ سواء ، فلا تسلكوا ثَنْيات الطرق(١) فتطيحوا فى أودية الضلالة . وعليكم باتباع سَلَفِكم ، واحذروا موافقة ابتداع خَلَفِكم .

« وأنا ربكم فاتقون » خافوا مخالفة أمرى ، واعرفوا عظيمَ قَدْرِى ، واحفظوا فى جريان التقدير سِرِّى ، واستديموا بقلوبكم ذِكرى ، تجدوا فى مآلكم غفرى ، وتحظَوْا بجميلِ بِرِّى .

قوله جل ذكره : ﴿ فتقطَّعوا أمرَهم بينهم زُبُراً كلُّ
حِزْبٍ بما لديهم فَرِحون ﴾ .

فمستقيم على حَقِّه ، وتائه فى غَيِّه ، ومُصِرٌّ على عصيانه وفِسْقِه ، ومقيمٌ على إحسانه وصِدْقِه ، كُلٌّ مربوطٌ بحدِّه ، موقوفٌ بما قُسِمَ له فى البداية من شأنه ، كلٌّ ينتحل طريقته ويَدَّعِى بحسن طريقته حقيقةً ، وعند صحوِ سماءِ قلوبِ أربابِ التوحيدِ لا غُبارَ فى الطريق ؛ وهم على يقين معارفهم ؛ فلا رَيْبَ يتخالجهم ولا شُبْهة .

وأهل الباطل فى عَمَى جَهْلِهم ، وغبار جُحْدِهم ، وظلمة تقليدهم ، ومحنة شكهم .

قوله جل ذكره ﴿ فَذَرْهم فى غفلتهم حتى حين ﴾ .

إنَّ مدةَ أَخْذِهم لقريبةٌ ، والعقوبة عليهم — إذا أُخِذُوا — لشديدة ، ولسوف يتبين لهم خطؤهم من صوابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أيَحْسَبُون أنَّما نُمِدُّهم به مِنْ
مالٍ وبنين * نسارعُ لهم فى الخيرات
بل لا يَشْعُرون ﴾ .

---

(١) ثانية الطريق = منعطفه .

هذا فى شأن أصحاب الاستدراج من مَكرِ الحقِّ بهم بتلبيس المنهاج ؛ رأَوْ سَرَاباً فَظَنُّوه شراباً ، ودَسَّ لهم فى شَهْدِهم صاباً فتوهموه عِذَاباً[1] ، وحين لقوا عَذَاباً عَلِموا أنهم لم يفعلوا صوابًا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الذين هم مِنْ خَشْيَةِ ربِّهم مُشْفِقُون ﴾

أمارةُ الإشفاقِ من الخشيةِ إطراقُ السريرةِ فى حالِ الوقوفِ بين يدى الله بشواهد الأدب ، ومحاذرةُ بَغَتَاتِ الطَّرْد ، لا يستقرِ بهم قرارٌ لِما داخَلَهم مِن الرُّعبِ ، واستولى عليهم مِن سلطانِ الهيبة .

قوله جل ذِكره : ﴿ والذين هم بآياتِ ربِّهم يؤمنون ﴾

تلك الآياتُ مختلفةٌ ؛ فمنها ما يُكاشَفُون به فى الأقطار من اختلاف الأدوار ، وما فيه الناس من فنون الهِمَم وصنوفِ المُنى والإرادات، فاذا آمن العبدُ بها ، واعتبر بها اقتنع بما يرى نَفْسَهُ مطالبًا به .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم بربِّهم لا يُشْرِكون ﴾

يَذَرُون جَلِيَّ الشِّرْكِ وخَفِيَّه ؛ والشِّرْكُ الخفىُّ ملاحظةُ الخَلْق فى أوانِ الطاعات ، والاستبشارُ بمَدْحِ الخَلْقِ وقبولهم ، والانكسارُ والذبولُ عند انقطاع رؤية الخَلْق .

ويقال الشِّرْكُ الخفىُّ إحالةُ النادرِ من الحالات — فى المَسَارِّ والمَضَارِّ — على الأسباب كقول القائل : « لولا دعاء أبيك لهلكت » و « لولا هِمَّةُ فلان لما أفلحت » . . . وأمثال هذا ؛ قال الله تعالى . « وما يؤمن أكثرُهم بالله إلا وهم مشركون »[2] .

وكذلك تَوَهُّمُ حصولِ الشِّفاءِ من شُرْبِ الدواء .

فاذا أيقن العبدُ بسرِّه ألا شىء من الحدثان ، ولم يتوهم ذلك ، وأيقن ألاَّ شىء إلاَّ من التقدير فعند ذلك يبقى عن الشِّرْك[3] .

---

(١) العِذاب جمع عذْب وهو السائغ من الطعام والشراب ونحوها (الوسيط) .

(٢) آية ١٠٦ سورة يوسف .

(٣) أى أن القشيرى لا ينكر الأسباب ولكن ينعى على من يتوهم أن من الحدثان شيئاً .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلةٌ أنَّهم إلى ربهم راجعون ﴾

يُخْلِصُون فى الطاعات من غير إلمامٍ بتقصير ، أو تعريجٍ فى أوطانِ الكسل ، أو جنوحٍ إلى الاسترواح بالرُّخَص . ثم يخافون كأنهم ألَمُّوا بالفواحش ، ويلاحظون أحوالَهم بعين الاستصغار ، والاستحقار ، ويخافون بغتاتِ التقدير ، وقضايا السخط ، وكما قيل :

يتجنَّبُ الآثامَ ثم يخافها فكأنَّما حسناتُه آثامُ

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك يسارعون[1] فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾

مُسارِعٌ بِقَدَمِهِ من حيث الطاعات ، ومُسارِعٌ بِهِمَّتِهِ من حيث المواصلات ، ومُسارِعٌ بِنَدَمِهِ من حيث تجرُّع الحسرات ، والكلٌّ مصيبٌ ، ولكلٌّ من إقباله — على ما يليق بحاله — نصيب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا نُكَلِّفُ نفساً إلاَّ وُسْعَها ولدينا كتابٌ ينطِقُ بالحقِّ وهم لا يُظْلَمون ﴾

المطالباتُ فى الشريعةِ مُضَمَّنَةٌ بالسهولة ، وأمَّا مطالباتُ الحقيقة فكما قالوا : ليس إلاَّ بَذْل الروح ، ولهذا فهم لا تشغلهم التُّرَّهَات[2] . قال لأهل الرخص والمستضعفين فى الحال : « وما جعل عليكم فى الدِّين من حَرَجٍ »[3] ، وأمَّا أربابُ الحقائق ؛ فقال : « وإنْ تُبْدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله »[4] وقال : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم »[5] ، وقال : « وجاهِدوا فى الله حقَّ جهاده[6] » .

---

(١) في س أخطأ الناسخ إذ زاد (لهم) بعد يسارعون .

(٢) الترهات جمع تُرهة وهى القول الباطل الذى لا نفع فيه ، أو الطريق الصغيرة المتشعبة عن الطريق الأعظم .

(٣) آية ٧٨ سورة الحج .

(٤) آية ٢٨٤ سورة البقرة .

(٥) آية ١٥ سورة النور .

(٦) آية ٧٨ سورة الحج .

قوله : « ولدينا كتابٌ ينطق بالحقِّ وهم لا يظلَمون » : لولا غفلتُهم عن مواضع الحقيقة لما خوَّفهم بكتابة المَلَكِ ، ولكن غفلوا عن شهود الحق فخوَّفهم باطلاعِ الملائكة ، وكتابتِهم عليهم أعمالَهم .

قوله جل ذكره : ﴿ بل قلوبُهم فى غَمْرةٍ مِنْ هـذا ، ولهم أعمالٌ مِنْ دونِ ذلك هم لها عاملون ﴾

لا يَصْلُحُ لهذا الشأنِ[1] إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال ، لا شغلَ له فى الدنيا والآخرة ، فأمَّا مَنْ له شُغْلٌ بدنياه ، أو على قلبِه حديثُ عقباه ، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه ، وفى الخبر « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

ويقال أصحاب الدنيا مشغولون بدنياهم ، وأرباب العُقْبى مشغولون بعُقباهم ، وأهل النار مشغولون بما ينالهم من بلواهم ؛ وإن الذى له فى الدنيا والآخرة غير مولاه — حين الفراغ — عزيز ؛ قال تعالى : « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغلٍ فاكهون »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا أَخَذْنا مُتْرَفيهم بالعذابِ إذا هُم يَجْأَرون ﴾

إنه — سبحانه — يُمْهِلُ ولكنَّه لا يُهْمِلُ ؛ فإذا أَخَذَ فبَطْشُه شديدٌ ، قال تعالى : « إن بطش ربك لشديد »[3] . . . فإذا أَخَذَ أصحابُ الكبائرِ — حين يحل بهم الانتقامُ — فى الجوابِ رُدُّوا في الهوان ، ويقال لهم :

﴿ لا تجأروا اليومَ إنَّكم مِنَّا لا تُنْصَرُون ﴾

فإذا انفصل من الغيبِ حُكْمٌ فلا مَرَدَّ لتقديره .

---

(١) (هذا الشأن) يقصد به طريق أرباب الأحوال .
(٢) آية ٥٥ سورة يس .
(٣) آية ١٢ سورة البروج .

ويقال للجناية سراية ؛ فإذا أمسك الجانى عن الجناية فلا ينفعه ذلك ما لم يمض حكم السراية .

قوله جل ذكره : ﴿ قد كانت آياتى تُتْلَى عليكم ، فكنتم على أعقابكم تَنْكِصُون * مستكبرين به سامِرًا تَهْجُرُون ﴾

ذَكَّرَ هذا من باب إملاءِ العُذْرِ ، وإلزامِ الحجة ، والقطع بألا ينفعَ — الآنَ — الجزعُ ولا يُسْمَعُ العُذْرُ ؛ والملوكُ إذا أبرموا حكما ، فالاستغاثةُ غيرُ مؤثرةٍ فى الحاصل منهم ، قال قائلهم :

إذا انصرفَتْ نفسى عن الشىءِ لم تكد إليه بوجهٍ — آخِرَ الدهرِ — تُقْبِلُ

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَلَمْ يدَّبَّرُوا القولَ أَمْ جاءهم مالم يأتِ آباءَهم الأولين ﴾ .

يعنى أنهم لو أنعموا النظرَ ، وسلطوا على أحوالهم صائبَ الِفكْر لاستبصروا فى الحال ، ولانتفى عن قلوبهم الاستعجامُ والإشكال ، ولكنهم استوطنوا مركبَ الكسل ، وعَرَّجُوا فى أوطان التغافل ، فتعودوا الجهل ، وأيِسوا من الاستبصار .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفوا رسولَهم فَهُمْ له مُنْكِرُون ﴾ .

ذُهِلُوا عن التحقيق فتطَوَّحُوا فى أودية المغاليط ، وتَرَجَّمتْ بهم الظنونُ الخاطئةُ ، وملكتْهُم كواذبُ التقديرات[1] ، فأخبر اللهُ (الرسولَ)[2] عن أحوالهم ؛ فمرةً قابلوه بالتكذيب ، ومرةً رَمَوْه بالسِّحرِ ، ومرةً عابوه بتعاطيه أفعالَ العادة بما عليه الناس من المآكل والمشارب ، ومرةً قدَحوا فيه بما هو فيه من الفقر وقِلّةِ ذات اليدِ . . . فأخبر اللهُ عن تَشَتُّتِ أحوالِهم ، وتقسُّمِ أفكارهم .

---

(١) هكذا فى م أما فى ص فهى (التقدير) ونحن نرجح الأولى حتى يقتصر إطلاق (التقدير) بالمفرد على الفعل الإلهى أما هنا فهى (التقديرات الإنسانية) أى الظنون .

(٢) السياق يتطلب وجود كلمة (الرسول) وهى غير موجودة فى النسختين فوضعناها من عندنا لينسجم الأسلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ولو اتبعَ الحقُّ أهواءَهم لفسدَتْ السمٰواتُ والأرضُ ومَنْ فيهن بَلْ أتيناهم بِذِكْرِهِم فَهُمْ عن ذِكْرِهِم مُعْرِضون﴾

وذلك لتضادِّ مُنَاهم وأهوائِهم ؛ إذ هم متشاكسون فى السؤال والمراد ، وتحصيلُ ذلك مُحَالٌ تقديرُه فى الوجود . فَبَيَّنَ الله — سبحانه — أنه لو أجرى حُكْمَه على وفق مرادِهم لاختلَّ أمرُ السمواتِ والأرض ، ولَخَرَجَ عن حدِّ الإحكام والإتقان .

قوله جل ذكره : ﴿أم تسألهم خَرْجاً فَخَرَاجُ ربِّك خيرٌ وهو خيرُ الرازقين﴾ .

أى إنَّكَ لا تُطالبهم على تبليغ الرسالة بأجرٍ ، ولا بإعطاءِ عِوَضٍ حتى تكونَ بموضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة . أم لعلَّكَ تريد أن يَعْقِدُوا لك الرياسة . ثم قال : والذى لَكَ من الله سبحانه من جزيل الثواب وحسن المآب يُغْنيك عن التصدِّى لنَيْلِ ما يكون فى حصوله منهم مطمع . وهذا كان سُنَّة الأنبياء والمرسلين ؛ عملوا لله ولم يطلبوا أجراً من غير الله . والعلماء وَرَثَةُ الأنبياءِ فسبيلُهم التوقِّى عن التَّدَنُّسِ بالأطماع ، والأكلِ بالدِّين فانه رياء مُضِرٌّ بالإيمان ؛ فإذا كان العملُ لله فالأجرُ مُنْتَظَرٌ من الله ، وهو موعودٌ من قِبَل الله [1] .

قوله جل ذكره : ﴿وإنَّكَ لَتَدْعوهم إلى صِراطٍ مستقيم﴾

الصراطُ المستقيمُ شهودُ الربِّ بنعت الانفراد فى جميع الأشياء ، وفى الإيجاد ، والاستسلام لقضايا الإلزام بمواطأة القلب من غير استكراهِ الحُكْمِ .

قوله جل ذكره : ﴿وإنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرةِ عن الصِّراطِ لناكِبون﴾ .

---

(1) القشيرى هنا يغمز بانحراف كثيرٍ من الوعاظ المحترفين الذين امتلأ بهم عصره ، ومنذ عهد الحسن البصرى — الذى طالما نبه إلى خطورة هذا الأمر — ونحن نسمع هذه الصيحة ناعية ما آل إليه أمر المحترفين إلى التهافت والتهالك على أطماع الدنيا الزائلة .

زاغوا عن الحجة المُثْلى بقلوبهم فوقعوا فى جحيم الفرقة ، وستميل وتزل أقدامُهم غداً عن الصراط ، فيقعون فى نار الحرقة ؛ فهم ناكبون فى دنياهم وعقباهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو رَحِمْناَهم وكَشَفْناَ مابهم من ضُرٍّ لَلَجُّوا فى طغيانهم يَعمهون ﴾ .

أخبر عن صادق علمه بهم ، وذلك صادر عن سابق حُكْمِهِ فيهم ، فقال : لو كشفنا عنهم فى الحال لم يفوا بما يعدون من أنفسهم من الإيمان فى المآل ، ولقد عَلِمَ أنهم سيكفرون ، وحَكَمَ عليهم بأنهم يكفرون ؛ إذ لايجوز أن يكون حُكْمُهُ فيهم بخلاف عِلْمِهِ بهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أَخَذْناهم بالعذابِ فما استكانوا لربِّهم وما يَتَضَرَّعُون ﴾ .

أذقناهم مقدماتِ العذابِ دونَ شدائدِه . . تنبيهاً لهم ، فما انتبهوا وما انزجروا ، ولو أنهم إذ رأَوْا العذابَ فزعوا إلى التضرعِ والابتهالِ لأسرع اللهُ زوالَه عنهم ، ولكنهم أصرُّوا على باطلهم ، لِيَقْضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً .

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْناَ عليهم باباً ذا عذابٍ شديدٍ إذا هم فيه مُبْلِسُون ﴾

لما أحللنا بهم أشدَّ العقوباتِ ضَعُفُوا عن تحمُّلِها ، وأُخِذُوا بغتةً ، ولم ينفعهم ما قدَّموا من الابتهال ، فَيَئِسُوا عن الإجابة ، وعرَّجوا فى أوطان القنوط .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى أَنْشَأَ لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ ، قليلاً ما تشكرون ﴾

ذكر عظيمَ مِنَّتِهِ عليهم بأن خَلَقَ لهم هذه الأعضاء ، وطالَبَهم بالشكر عليها .

وشُكْرُهُمْ عليها استعمالُها فى طاعته ؛ فَشُكْرُ السَّمْعِ ألا تسمعَ إلا بالله ولله ، وشُكْرُ البَصَرِ ألا تنظرَ إلا بالله لله ، وشكرُ القلب ألاَّ تشهدَ غيرَ الله ، وألاَّ تحبَّ به غيرَ الله .

---

(١) هذا التمييز بين الحكم والعلم له أهميته الكبيرة فى قضية القَدَر .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى ذَرَأَكُمْ فى الأرضِ وإليه تُحشَرُون ﴾

الابتداء للحادثاتِ من الله بدءاً ، والانتهاء إليه عوداً ، والتوحيد ينتظم هذه المعانى ؛ فتعرف أنَّ الحادثاتِ بالله ظهوراً ، ولله مِلْكاً ، ومن الله ابتداء ، وإلى الله انتهاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وله اختلافُ الليلِ والنهارِ ، أفلاَ تَعْقِلون ﴾

يُحْيِي النفوسَ وُيميتُهاَ والمعنى فى ذلك معلومٌ ، وكذلك يحيي القلوبَ ويميتها ؛ فموتُ القلب بالكُفْرِ والجُحد ، وحياةُ القلب بالإيمان والتوحيد ، وكما أنَّ للقلوبِ حياةً وموتاً فكذلك للأوقات موتٌ وحياةٌ ، فحياةُ الأوقاتِ بيُمْنِ إقباله ، وموتُ الأوقاتِ بمحنة إعراضه ، وفى معناه أنشدوا :

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموت

قوله : « وله اختلاف الليل والنهار » ؛ فليس كلٌّ اختلافها فى ضيائها وظلمتها ، وطولها وقِصَرِها ، بل ليالى المحبين تختلف فى الطول والقِصَرِ ، وفى الرَّوْح والنَّوْح ؛ فَمِنَ الليالى ما هو أضوأُ من اللآلى ، ومن النهار ما هو أشدُّ من الحنادس ، يقول قائلهم : ليالىَّ بعد الظاعنين شُكُولُ .

وَيقول قائلهم :

وكَمْ لظلامِ الليلِ عِنْدِىَ من يدٍ تُخَبِّرُ أنَّ المانوية تَكْذِبُ

وقريب من هذا المعنى قالوا :

ليالى وصالٍ قد مَضَيْن كأنَّها لآلى عقودٍ فى نحور الكواعبِ
وأيامُ هَجْرٍ أعقبتها كأنَّها بياضُ مَشيبٍ فى سواد الذوائبِ

قوله جل ذكره : ﴿ بل قالوا مِثْلَ ما قال الأولون * قالوا أئذا مِتْنا وكُنَّا تراباً وعِظاماً أئنا لمبعوثون * لقد وُعِدْنا نحن وآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين ﴾

سلكوا فى التكذيب مَسْلَكَ سَلَفِهم ، وأسرفوا فى العناد مثل سَرَفِهم ، فأصابهم ما أصاب الأولين من هلاكهم وتَلَفِهم .

قوله : « لقد وعدنا . . . » لَمَّا طال عليهم وقتُ الحشر ، وما توعدهم به من العذاب بعد البعث والنَّشر زَادَ ذلك فى ارتيابهم،وجعلوا ذلك حُجَّةً فى لَبْسِهم واضطرابهم ، فقالوا : لقد وُعِدْنا مثل هذا نحن وآباؤنا ، ثم لم يكن لذلك تحقيق ، فما نحن إلاَّ أمثالهُم . فاحتجَّ اللهُ عليهم فى جواز الحشر بما أقروا به من ابتداء الخَلْق :

فقال جل ذكره : ﴿ قُلْ لِمَنِ الأرضُ ومَنْ فيها إنْ كُنْتُم تعلمون * سيقولون للهِ قُلْ أفلا تَذَكَّرون * قُلْ مَنْ ربُّ السمواتِ السَّبْعِ وربُّ العرشِ العظيم * سيقولون للهِ قُلْ أفلا تتقون * قُلْ مَنْ بيده ملكوتُ كُلِّ شىءٍ ، وهو يُجِيرُ ولا يُجَارُ عليه إنْ كنتم تعلمون * سيقولون للهِ قُلْ فأَنَّى تُسْحَرُون ﴾

أَمَرَه — عليه السلام — أنْ يُلَوِّنَ عليهم الأسئلة ، وعَقَّبَ كُلَّ واحدٍ من ذلك — مُخْبِراً عنهم — أنهم سيقولون : لله ، ثم لم يَكْتَفِ منهم بقالتهم تلك ، بل عاتَبَهم على

تجرُّدِ قولهم عن التَّذَكُّر والفَهْمِ والعلم ، تنبيهاً على أن القول — وإنْ كان فى نفسه صدقاً — فلم تكن فيه غنية ؛ إذ لم يصدر عن علمٍ ويقينٍ .

ثم نَبَّهَهُمْ على كمالِ قدرته ، وأَنَّ القدرة القديمة إذا تعلَّقت بمقدورٍ له ضدٌّ تعلَّقت بضدِّه ، ويتعلق بمثل متعلقه .

والعَجَبُ من اعترافهم بكمال أوصاف جلاله ، ثم تجويزهم عبادةَ الأصنامِ التى هى جماداتٌ لا تحيا ، ولا تضرُّ ولا تنفع .

ويقال أولاً قال : «أفلا تذكرون» ، ثم قال بعده : «أفلا تتقون» ، فَقَدَّمَ التذكُّرَ على التقوى ؛ لأنهم بتذكرهم يَصِلُون إلى المغفرة ، ثم بعد أن يعرفوه فإنهم يجب عليهم اتقاء مخالفته . ثم بعد ذلك قال : « فأنَّى تُسْحَرون » ؛ أى بعد وضوح الحجة فأىُّ شكٍّ بَقِيَ حتى تنسبوه إلى السِّحْرِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ بل أَتَيْناهُم بالحقِّ وإنَّهم لَكَاذِبُون ﴾

بَيَّنَ أنهم أَصَرُّوا على جحودهم ، وأقاموا على عُتُوِّهم ونُبُوِّهم ، وبعد أن أُزيحت العِللُ فلات حين عذر ، وليس لتجويز المُساهَلَةِ موجِبٌ بَتَّاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ما اتَّخذَ اللهُ من وَلَدٍ وما كان معه مِنْ إلهٍ ﴾

اتخاذ الأولاد لا يصحُّ كاتخاذ الشريك ، والأمران جميعاً داخلان فى حدِّ الاستحالة ، لأن الولد أو الشريك يوجب المساواة فى القَدْرِ ، والصمدية تتقدَّسُ عن جواز أن يكون له مِثْلٌ أو جنس .

قوله جل ذكره : ﴿ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بما خَلَقَ ولَعَلَا بعضُهم على بعضٍ سبحان اللهِ عما يَصِفُون * عالمِ الغيبِ والشهادةِ فتعالى عَمَّا يُشرِكون ﴾

كلُّ أمرٍ نِيطَ باثنين فقد انتفى عنه النظامُ وصحةُ الترتيب ، وأدلة التمانع مذكورة في مسائل الأصول .

« سبحان الله » تقديساً له ، وتنزيهاً عما وصفوه به . « عالم الغيب والشهادة » : تَنَزَّهَ عن أوهامِ مَنْ أشرك ، وظنونِ مَنْ أفِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُون ﴾

يقول إن عجلت لهم ما تتوعدهم به فلا تجعلني في جملتهم ، ولا توصل إليّ سوءاً مثلما توصل إليهم من عقوبتهم . وفي هذا دليلٌ على أنَّ للحقِّ أنْ يفعلَ ما يريد ، ولو عذَّبَ البريء لم يكن ذلك منه ظلماً ولا قبيحاً[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّا على أنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهم لَقَادِرون ﴾

تدل على صحة قدرته على خلاف ما عَلِمَ ؛ فإنه أخبر أنه قادر على تعجيل عقوبتهم ثم لم يفعل ذلك ، فَصَحَّتْ القدرةُ على خلاف المعلوم[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ادْفَعْ بالتي هي أَحْسَنُ السيئةَ نحن أعلم بما يَصِفون ﴾

الهمزة في « أحسن » يجوز ألا تكون للمبالغة ؛ ويكون المعنى إدفع بالحسن السيئة . أو أنْ تكون للمبالغة ؛ فتكون المكافأة جائزةً والعفوُ عنها — في الحُسْنِ — أشدُّ مبالغةً .

ويقال ادفع الجفاء بالوفاء ، وجُرْمَ أهل العصيانِ بحكم الإحسان .

ويقال ادفع ما هو حظك إذا حصل ما هو حق له .

ويقال اسلكْ مسلكَ الكَرَم ، ولا تَجنحْ إلى طريق المكافأة .

---

(١) لأن أفعال الله تعالى لا تعلل بالأغراض ، إذ لا يعود عليه سبحانه من هذا أو ذاك مصلحة .

(٢) في هذا ردٌّ ضمني على المعتزلة القائلين بإنكار الصفات ، إذ يتضح أن صفة العلم متميزة عن صفة القدرة . فالأشاعرة — ومنهم القشيري — حين يثبتون الصفات إنما يثبتون المعاني اللائقة بذاته ، وهي معان وإن تنوعت فليست طوارىء على الذات ، وإنما الذات قائمة بها .

ويقال الأحسنُ ما أشار إليه القَلبُ ، والسيئةُ ما تدعو إليه النَّفْسُ .

ويقال الأحسنُ ما كان بإشارة الحقيقة ، والسيئةُ ما كان بوساوس الشيطان .

ويقال الأحسنُ نورُ الحقائقِ ، والسيئةُ ظلمةُ الخلائق .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلْ ربِّ أعوذ بِكَ من هَمَزَاتِ الشياطين * وأعوذ بِكَ ربِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾

الاستعاذة — على الحقيقة — تكون بالله من الله كما قال صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بك منك »[1] ، ولكنه — سبحانه — أراد أن نَعْبُدَه بالاستعاذة به من الشيطان ، بل مِنْ كلِّ ما هو مُسَلَّطٌ علينا ، والحقُّ عندئذٍ يوصل إلينا مضرتنا بجرى العادة . وإلاَّ . . فلو كان بالشيطان من إغواء الخَلْقِ شيء لكان يُمْسِكُ على الهدايةِ نَفْسَه ! فَمَنْ عَجَزَ عن أنْ يحفظَ نَفْسَه كان عن إغواءِ غيرِه أشَدَّ عجزاً ، وأنشدوا :

جحودى فيك تلبيس وعقلى فيك تهويس
فَمَنْ آدم إلاَّكَ ومن فى (...)[2] ابليس

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا جاء أحدَهُم الموتُ قال رب ارْجِعُونِ * لعَلِّى أعملُ صالِحاً فيما تركْتُ كلاَّ إنَّها كلمةٌ هو قائِلُها ومنْ ورائِهم بَرْزَخٌ إلى يومِ يُبعَثُون ﴾ .

---

(١) من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك » . مسلم ، ومالك ، وأبو داود ، والنسائى ، والترمذى .

(٢) فى م (البن) وفي ص (الابن) ، والبيتان للحلاج فى الطواسين ص ٤٣ وفى ديوانه (المقطعة الثامنة والعشرون) جاءت البين ، والمعنى أن آدم الذى خلقته من طين هو سبب بلائى فسجودى له سجودٌ لغيرك . وفى البيتين بعض الغموض والشطح ، ولهذا نعجب من استشهاد القشيرى بهما . ونحن نلاحظ أنه بينما لم يكتب القشيرى فى رسالته شيئاً عن سيرة الحسين بن منصور الحلاج إلا أنه طالما يستشهد بأقواله شعراً ونثراً . . وقد عللنا لذلك في كتابنا « الإمام القشيرى وتصوفه » ط مؤسسة الحلبى .

إذا أخذ البلاء بخناقهم ، واستمكن الضُّرُّ من أحوالهم ، وعلموا ألاّ محيصَ ولا محيدَ أخذوا فى التضرُّع والاستكانة ، ودون مايرومون خرطُ القتادِ ! ويقال لهم هلاّ كان عُشْرُ عشرِ هذا قبلَ هذا ؟ ولقد قيل :

قلتُ للنفسِ : إنْ أردتِ رجوعاً فارجعى قبل أنْ يُسدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا نُفِخَ فى الصُّورِ فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يَتساءلُون ﴾ .

يومئذٍ لا تنفع الأنسابُ وتنقطعُ الأسبابُ ، ولا ينفع الندّم ، وسيلقى كلٌّ غِبَّ مااجترم؛ فَمَنْ ثَقُلَتْ بالخيرات موازينُه لاحَ عليه تزيينُه . ومنْ ظهرَ مايشينه فله من البلاء فنونه ؛ تلفح وجوهَهم النار ، وتلمح من شواهدهم الآثار ، ويتوجه عليهم الحِجاج ، فلا جواب لهم يُسْـمَع ، ولا عُذْر منهم يقْبل ، ولا عذاب عنهم يُرْفع ، ولا عقابُ عنهم يُقْطَع .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ربّنا غلَبَتْ علينا شِقْوتُنا وكنّا قوماً ضالِّين ﴾ .

نطقوا بالحقِّ ... ولـكن فى يومٍ لا ينفـع فيه الإقرار ، ولا يُقْبَلُ الاعتذار ، ثم يقولون :

﴿ ربَّنا أخْرِجْنا منها فإنْ عُدْنا فإنا ظالمون ﴾ .

والحقُّ يقول : لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه. علِمَ أنّ ردَّهم إلى الدنيا لا يكون ، ولـكنه علِم أنّه لو كان فـكيف كان يكون .

قوله جل ذكره : ﴿قال اخسئوا فيها ولا تُـكلِّمون﴾ .

عند ذلك يتمُّ عليهم البلاء ، ويشتدُّ عليهم العناء ، لأنهم ماداموا يذكرون اللهَ لم يحصل الفراق بالـكلية ، فاذا حِيلَ بينهم وبين ذكره تم لهم المحنة ، وهو أحدُ ما قيل فى قوله : « لايحزنهم الفزع الأكبر »[1] .

---

(١) آية ١٠٣ سورة الأنبياء .

وفي الخبر : أنهم ينصرفون بعد ذلك فإذا لهم عواء كعواء الذئب . وبعض الناس تغار من أحوالهم ؛ لأن الحق يقول لهم : « اخسئوا فيها » ، فيقولون : ياليتنا يقول لنا ! أليس هو يخاطبنا بذلك ؟ ! وهؤلاء يقولون : قَدْحُ الأحباب ألذُّ من مَدْحِ الأجانب ، وينشدون في هذا المعنى :

أتانى عنكِ سَبُّكِ لى .. فسُبِّى ... أليس جرى بفِيكِ اسمى ؟ فحَسْبِى

قوله جل ذكره : ﴿ إنه كان فريقٌ من عبادى يقولون ربَّناَ آمنّا فاغفِر لناَ وارحمناَ وأنت خيرُ الراحمين * فاتخذتموهم سِخْرياً حتى أنسَوْكم ذِكرى وكنتم منهم تضحكون * إنى جَزَيْتُهم اليومَ بما صبَرُوا أنهم هم الفائزون ﴾ .

الحقُّ — سبحانه — ينتقم من أعدائه بما يطيِّبُ به قلوبَ أوليائه ، وتلك خصومةُ الحق ، فيقول : قد كان قومٌ من أوليائى يُفْصِحون بمدحى وثنائى ، ويتصفون بمدحى وإطرائى ، فاتخذتموهم سخرياً ... فأنا اليوم أُجازيهم ، وأنتقم ممن كان يناويهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال كم لَبِثتُم فى الأرضِ عددَ سنين * قالوا لَبِثْناَ يوماً أو بعضَ يومٍ فاسأل العادِّين * قال إن لَبِثْتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾

عددُ سنين الأشياء — وإن كانت كثيرة — فقد تقصر أو تقل بالإضافة إلى مايوفى ويُرْبِى عليها ، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض ؛ إن كانوا فى الراحة فقد تقل بالإضافة إلى الراحات التى يلقونها فى القيامة ، وإن كانت شدائد فتتلاشى في جنب مايرونه ذلك اليوم من أليم تلك العقوبات المتوالية .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خلقناكم عَبَثاً وأنَّكم إلينا لا تُرجَعون ﴾ .

العبثُ اللهو ، واللَّعِبُ والاشتغالُ بما يُلْهِى عن الحقِّ ، والله لم يأمر العبادَ بذلك ، ولم يَدْعُهم إلى ذلك ، ولم يندبهم إليه .

والعابثُ فى فِعْلِه مَنْ فِعْلُه على غير حدِّ الاستقامة ، ويكون هازلاً مُسْتَجْلِباً بفعله أحكامَ اللهوِ إلى نَفْسه ، متمادياً فى سهوه ، مستلِذَّ التفرقةِ فى قصده . وكلُّ هذا من صفات ذوى البشرية ، والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهُ النَّعتِ عن هذه الجملة ، فلا هو بِفِعْلِ شىءٍ عابث ، ولا بشىءٍ مِنَ العَبَثِ آمِرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فتعالى اللهُ المَلِكُ الحقُّ لا إلهَ إلا هو ربُّ العَرْشِ الكريمِ ﴾ .

الحقُّ — بنعوت جلاله — متوحِّدٌ ، وفى عِزِّ آزاله وعلُّو أوصافه متفرِّدٌ ، فذاتُه حقٌّ ، وصفاته حقٌّ ، وقولُه صِدْقٌ ، ولا يتوجَّه لمخلوق عليه حقٌّ ، وما يفعله من إحسان بعباده فليس شىء منها بمستحق(1) .

« لا إله إلا هو رب العرش الكريم » : ما تجمَّل بالعرشِ ، ولكنْ تعَزَّزَ العرشُ بأنه أضافَه إلى نَفْسِه إضافةَ خصوصية .

والكريمُ الحسَنُ ، والكرمُ نَفْىُ الدناءة .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ يَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ له به فإنَّما حِسابُه عِنْدَ ربِّه إنه لا يُفْلِحُ الكافرون ﴾ .

حسابُه على الله فى آجِلِه . وعذابُه من الله له فى عاجله ، وهو الجهل الذى أودعَ قلبَه حتى رَضِىَ بأنْ يَعْبُدَ معه غيرَه . وقولهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » كلامٌ

---

(1) معنى هذه العبارة أنه لا يجب على الله شىء فى إحسانه لعباده ، فهو إذا أحسن إليهم فهذا من فضله ، وليس نتيجة وجوب على الله أو حق للعبد .

حاصلٌ من غير دليل عقل ، ولا شهادة خبرٍ أو نقل ، فما هو إلا إفك وبهتان ، وقولٌ ليس يساعده برهان .

قوله جل ذكره : ﴿وقُلْ رَبِّ اغفِرْ وأرحَمْ وأنت خيرُ الراحمين﴾ .

اغفرْ الذنوبَ، واسترْ العيوبَ، وأَجْزِلْ الموهوب. وارحمْ حتى لا تستولى علينا هواجمُ التفرقة ونوازل الخطوب . والرحمةُ المطلوبةُ بالدعاء من صنوف النعمة ، ويسمى الحاصل بالرحمة باسم الرحمة على وجه التوسع وحكم المجاز(١).

السورة التى يذكر فيها النور

قوله جل ذكره ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ .

بسم الله اسم نذيرُ الوفاةِ فُرْقتُه ، اسم بشيرُ الحياة وصلته ، اسم سببُ الرَّوْح عرفانُه ، اسم راحةُ الرُّوح إحسانُه ، اسم كمالُ الأُنْسِ إقبالُه ، اسمٌ فتنةُ قلوبِ المُهَيَّمين جمالُه ، اسم مَنْ شَهِدَه دامت سلامته ، اسم مَنْ وَجَدَه قامت قيامتُه ، اسم لا إليه حظوة ، ولا بدونه سلوة .

قوله جل ذكره : ﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾ .

سورة هى شَرَفٌ لك — يامحمد — أنزلناها لأن أقلَّ ما ورد به التحدى سورة(٢) ؛ فكلُّ سورةٍ شَرَفٌ له عليه السلام لأنها له معجزة ، بيَّناها وشرعنا فيها من الحلال والحرام ، وبيَّنا (فيها من الأحكام ما)(٣) لكم به اهتداء ، وللقلوب مِنْ غمرة الاستعجام شفاء .

أنزلنا فيها آياتٍ بينات ، ودلائلَ واضحاتٍ ، وحُجَجاً لائحات ؛ لتتذكروا تلك الآيات ، وتعتبروا بما فيها من البراهين والبينات .

---

(١) لأن الرحمة — فى الأصل — وصف للذات ، والنعمة من صفات الفعل .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة البقرة : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » ، وإلى قوله تعالى فى سورة يونس : « قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله » .

(٣) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

قوله جل ذكره : ﴿ الزانيةُ والزانى فاجلدوا كُلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلْدَةٍ ﴾ .

والعقوبة على الزنا شديدة أكيدة ، ولكن جعَلَ إثباتَ أمره وتقريرَ حُكْمِه والقطعَ بكونه على أكثر الناسِ خصلةً عسيرةً بعيدةً ؛ إذ لا تُقْبَلُ الشهادةُ عليه حتى يقولَ : رأيتُ ذلك منه فى ذلك منها ! وذلك أمرٌ ليس بالهيِّن ، فسبحان مَنْ أعْظَمَ العقوبةَ على تلك الفَعْلَةِ الفحشاءِ ، ثم جعل الأمر فى إثباتها بغاية الكدِّ والعناء ! وحين اعترف واحدٌ له بذلك قال له صلى الله عليه وسلَّم: لعلَّك قَبَّلْتَ .. لعَلَّكَ لا مسْتَ ، وقال لبعض أصحابه: «استنكهوه»(۱) وكلُّ ذلك رَوْماً لِدَرْءِ الحدِّ عنه ، إلى أنْ ألحَّ وأصَّر على الاعتراف .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تأْخُذْكم بهما رأفة فى دِين اللهِ إنْ كنتُم تؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ ﴾

ما يأمر به الحقُّ فالواجب مقابلته بالسمع والطوع .

والرحمةُ من موجب الشرع وهو المحمود ، فأمَّا ما يقتضيه الطَّبعُ والعادة والسوء فمذمومٌ غيرُ محمود . ونهى عن الرحمة على من خَرَقَ الشرعَ ، وتَرَكَ الأمرَ ، وأساء الأدبَ ، وانتصبَ فى مواطنِ المخالفة .

ويقال نهانا عن الرحمة بهم ، وهو يرحمهم بحيث لا يمحو عنهم — بتلك الفَعْلة الفحشاء — رقمَ الإيمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »(۲) ولولا رحمته لما استبقى عليه حُلّةَ إيمانه مع قبيح جُرْمِه وعصيانه .

---

(۱) وردت الإشارة إلى حادث « ماعز » فى هامش سبق ، وقوله « استنكهوه » اى ابحثوا هل فى فمه ريح الخمر ، وبعدها سأله النبى للمرة الأخيرة « أزنيت ؟ فقال نعم . فأمر به فرُجِمَ » صحيح مسلم ط أولى سنة ١٩٣٠ م المصرية بالأزهر ج ١١ ص ١٩٩ .

(۲) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب انهما قالا : عن ابى هريرة ان النبى (ص) قال (لا يزنى . . . ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) صحيح مسلم ج ٢ ص ٤١ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أى ليكونَ عليهم أشدَّ ، وليكونَ تخويفاً لمتعاطى ذلك الفعل ، ثم من حقِّ الذين يشهدون ذلك الموضعَ أن يتذكروا عظيمَ نعمةِ الله عليهم أنهم لم يفعلوا مثله ، وكيف عصمَهم من ذلك . وإنْ جرى منهم شيء من ذلك يذكروا عظيمَ نعمةِ اللهِ عليهم؛ كيف سَتَرَ عليهم ولم يفضحهم ، ولم يُقِمْهم فى الموضع الذى أقام فيه هذا المُبْتَلَى به . وسبيلُ من يشهد ذلك الموضعَ ألَّا يُعَيِّرَ صاحبَه بذلك ، وألا ينسى حُكْمَ اللهِ تعالى فى إقدامه على جُرْمِه .

قوله جل ذكره: ﴿الزانى لا يَنْكِحُ إلَّا زانيةً
أو مُشْرِكَةً والزانيةُ لا ينكحها
إلَّا زانٍ أو مُشْرِكٌ وحُرِّمَ ذلك
على المؤمنين﴾

الناسُ أشكالٌ؛ فكلٌّ نظيرٍ[1] مع شكله ، وكلٌّ يُساكِنُ شكلَه ، وأنشدوا :

عن المرءِ لا تسألْ وَسَلْ عن قرينه فكلٌّ قرينٍ بالمُقارَنِ يقتدى

فأهلُ الفسادِ الفسادُ يجمعهم — وإنْ تَبَاعَدَ مزارُهم (وأهل السدادِ السدادُ يجمعهم — وإن تناءت ديارهم)[2]

قوله جل ذكره: ﴿والذين يَرْمُون المُحْصَنَاتِ ثم لم يأتوا
بأربعةِ شهداء فاجلدوهم ثمانين
جَلْدَةً ولا تَقْبَلوا لهم شهادة أبداً
وأولئكَ هُمُ الفاسقون﴾

لئلا يستبيحوا أعراضَ المسلمين ، ولئلا يهتكوا أستارَ الناسِ أَمَرَ بتأديبهم ، وإقامةِ الحدِّ عليهم إذا لم يأتوا بالشهداء .

(١) هكذا فى ص وهى فى م (وكل طير . .) وربما كانت (وكلٌّ يطير) أو (فكل طيرٍ) ، والمثل يقول : (الطيور على اشكالها تقع) .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

ثم بالَغَ فى عدد الشهود ، وألاَّ تُقْبَلَ تلك الشهادةُ إلَّا بالتضرعِ التام ، ثم أكمله بقوله « ولا تَقْبَلُوا لهم شهادةً أبداً » . وفى الخبر المسند قولهعليه السلام : « مَنْ أتى منكم بشيءٍ من هذه القاذورات فليستترْ بستر الله ، فإنَّ مَنْ أبدى لنا صفحته ، أقمنا عليه حدَّ الله »[1]

قوله جل ذكره ﴿ إلَّا الذين تابوا مِنْ بعد ذلك وأصلحوا
فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾

جَعَلَ من شرطِ قبولِ شهادته صِحَّةَ توبته ، وجعل علامةَ صحةِ توبته إصلاحَه ، فقال : « وأصلحوا » ، وهو أن تأتى على توبته مدةٌ تنتشر فيها بالصلاح صفتُه ، كما اشْتَهَرَتْ بِهَتْكِ أعراضِ المسلمين قالتُه . كلُّ هذا تشديداً لمن يحفظ على المسلمين ظاهر صلاحه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَرْمُون أزواجهم ولم يكن
لهم شهداء إلَّا أنفسُهم فشهادةُ
أحَدِهم أرْبَعُ شهاداتٍ باللهِ إنَّه لِمَنَ
الصادقين ﴾

لمّا ضاق الأمرُ على من رأى أهلَه على فاحشة ، إذ أن فى ذلك قبول نسبٍ غير صحيح — فقد نهى الشرعُ عن استلحاقه ولداً مِنْ غيره . وكان أمراً محظوراً هتكُ عِرْضِ المرأة والشهادةُ عليها بالفحشاء ، إذ يجوز أن يكون الأمر فى المُغيب ، أى بخلاف ما يدَّعيه الزوجُ . ولأن ذلك أمرٌ ذو خَطَرٍ شَرَعَ اللهُ حُكْمَ اللِّعان[2] ليكون للخصومة قاطعاً ، وللمُقْدِم على

---

(١) رواه البيهقى والحاكم عن ابن عمر بإسناد جيد بلفظ : « اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله تعالى عنها ، فمن ألم بشىء منها فليستتر بستر الله ، وليتب إلى الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نقمْ عليه كتاب الله » (ص ١٥٥ جـ ١ فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى الطبعة الأولى سنة ١٣٥٦ هـ) .

(٢) اللعان فى الشريعة أن يُقسِمَ الزوج أربع مرات على صدقه فى قذف زوجته بالزنا ، والخامسة باستحقاقه لعنة الله إن كان كاذباً وبذا يبرأ من حدِّ القذف . ثم تقسم الزوجة أربع مرات على كذبه ، والخامسة باستحقاقها غضب الله إن كان صادقاً فتبرأ من حد الزنا . وقد نزلت آية اللعان فى هلال بن أمية أو عويمر حيث قال وجدت على بطن امرأتى خولة شريك بن سحماء فكذبته ، فلاعن النبى (ص) بينهما . فإذا قذف الزوج زوجته بالزنا — وهما من أهل الشهادة — صح اللعان بينهما ، واختلف الفقهاء هل تقع الفرقة بينهما بالتلاعن أم بتفريق القاضى .

الفاحشةِ زاجراً ، ففى مثل هذه الأحوال عنها مَخْرَجَة[1] . ولولا أنَّ الله على كل شىءٍ قدير وإلا ففى عادة الناس . . مَن الذى يهتدى لمِثْلِ هذا الحكم لولا تعريفٌ سماوى وأمر نبوى ، من الوحى مُتَلَقَّاهُ[2] ، ومِن اللهِ مُبْتَداهُ وإليه منتهاهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ولولا فَضْلُ اللهِ عليكم ورحمتُه وأنَّ الله توَّابٌ حكيم﴾ .

... لبقيتم فى هذه الواقعة المعضلة ، ولم تهتدوا للخروج من هذه الحالة المشكلة .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّ الذين جاءوا بالإفكِ عُصْبَةٌ منكم لا تحسبوه شرًّا لكم بل هو خيرٌ لكم . لكلِّ امرىءٍ منهم ما اكتسبَ من الإثم ، والذى تولَّى كِبْرَه منهم له عَذابٌ عظيم﴾

هذه قصة عائشة رضى الله عنها ، وما كان من حديث الإفك .

بَيَّنَ اللهُ — سبحانه — أنه لا يُخْلِى أحداً من المحنة والبلاء ، فى المحبة والولاء ؛ فالامتحان من أقوى أركانه وأعظم برهانه وأصدق بيانه ، كذلك قال صلى الله عليه وسلم « يُمْتَحَنُ الرجلُ على قَدْرِ دينه » ، وقال: « أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »[3] .

ويقال إن الله — سبحانه — غيورٌ على قلوب خواصِّ عباده ، فإذا حصلت مساكنةُ بعضٍ إلى بعضٍ يُجْرِى اللهُ ما يَرُدُّ كُلَّ واحدٍ منهم عن صاحبه ، ويردُّه إلى نفسه ، وأنشدوا :

إذا عَلِقَت روحى بشىءٍ ، تعلَّقَتْ   به غِيَرُ الأيام كى تَسْلُبَنِّيَا

وإن النبى — صلى الله عليه وسلم — لمَّا قيل له : أى الناس أحب إليك ؟

---

(١) المخرجة هى الخروج والخلاص من أمر شديد .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (مستفاد) وكلاهما صحيح ، ولكن الأولى أقوى مراعاة للموسيقى اللفظية ، وربما كانت (مستقاه) .

(٣) رواه الترمذى وقال حسن صحيح . . . وقد سبق تخريج هذا الحديث .

قال : عائشة . فسا كنَّها .

وفى بعض الأخبار أن عائشة قالت : « يا رسول الله إنى أُحبك وأُحب قربك » . . .
فأجرى اللهُ حديثَ الافكِ حتى ردَّ قلبَ رسولِ الله — صلى الله عليه وسلم — عنها إلى الله ، وردَّ قلب عائشة عنه إلى الله ؛ حيث قال — لما ظَهَرَتْ براءةُ ساحتها : بحمد الله لا بحمدك
كشف الله عنها به تلك المحنة ، وأزال الشكَّ ، وأظهر صِدْقَها وبراءةَ ساحتها .

ويقال إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا فراسةَ المؤمن فانَّ المؤمن ينظر بنور الله »[1]، فاذا كانت الفراسةُ صفةَ المؤمن فأَوْلَى الناس بالفراسةِ كان رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لم تظهر له بحكم الفراسة براءةُ ساحتها ، حتى كان يقول : « إنْ فعلْتِ فتوبى » .
والسبب فيه أنه فى أوقات البلاءِ يَسُدُّ اللهُ على أوليائه عيونَ الفراسةِ إكمالاً للبلاء .
وكذلك إبراهيم — عليه السلام — لم يميِّز ولم يعرف الملائكة حيث قدَّمَ إليهم العِجْلَ الحنيذ ، وتوهمهم أضيافاً . ولوط عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة إلى أن أخبروه أنهم ملائكة .

ويقال إنه كان — صلى الله عليه وسلم — يقول لعائشة : « يا حُمَيْرَاء » .

فلما كان زمان الإفك ، وأرسلها إلى بيت أبويها ، واستوحش الأبوان معها ، ومَرِضَتْ عائشةُ — رضى الله عنها — من الحزن والوجد ، كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا رأى واحداً من دار أبى بكر يقول :

كيف بيتكم ؟ لا عائشة ولا حميراء ! فما كان يطيب بالتغافل عنها ، فتعبيره — إنْ لم يفهمْ بالتصريح — فيفْقَهُ بالتلويح .

ثم إنه — سبحانه — قال : « لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىءٍ منهم ما اكتسب من الاثم » : فبمقدار جُرْمِهِم احتمل كلُّ واحدٍ ما يخصُّه من الوِزْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوه ظَنَّ المؤمنون

(١) الترمذى والطبرانى ، الترمذى من حديث أبى سعد ، والطبرانى وأبو نعيم بسند حسنٍ عن أنس .

والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً وقالوا
هذا إفكٌ مُبين ﴾ .

عاتبهم على المبادرةِ إلى الاعتراضِ وبَسْطِ ألسنتهم بالسوء عنها ، وتَرْكِهم الإعراض عن حُرَم النبي صلى الله عليه . ثم قال : وهلاَّ جاءوا على ما قالوا بالشهداء ؟ وإذا لم يجدوا ذلك فَهَلاَّ سكتُوا عن بَسْطِ اللسان ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته
في الدنيا والآخرة لمَسَّكم فيما أفضتم
فيه عذابٌ عظيم ﴾ .

لأنه أخبر أن جُرْمَهم — وإنْ كان عظيماً — فإنه في عِلْم اللهِ عنهم غير مُؤَثِّر ، ولولا أن الله — سبحانه — ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه فلعلَّه لم يذكُرْ هذه المبالغة في أمرهم ؛ فإنَّ الذي يقوله الأجانبُ والكفارُ في وصف الحق — سبحانه — بما يستحيل وجوده وكونه يوفي ويُرْبي على كل سوء — ثم لا يقطع عنهم أرزاقهم ، ولا يمنع عنهم أرفاقهم ، ولكن ما تتعلَّق به حقوقُ أوليائه — لا سيما حق الرسول صلى الله عليه وسلم — فذاك عظيمٌ عند الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ تَلَقَّوْنَه بألسنتِكم وتقولون
بأفواهِكم ما ليس لكم به عِلْمٌ
وتَحْسَبُونَه هَيِّنًا وهو عِنْدَ الله عظيم ﴾

بالَغَ في الشكاية منهم لِمَا أقدموا عليه بما تأذَّى به قلبُ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — وقلوبُ جميع المخلصين من المسلمين .

ثم قال : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » : وسبيلُ المؤمنِ ألا يستصغرَ في الوفاق طاعةً ، ولا يستصغرَ في الخلافِ زَلَّةً ؛ فإنَّ تعظيمَ الأَمْرِ تعظيمٌ للآمِرِ . وأهل التحقيق لا ينظرون ما ذلك الفعل ولكن ينظرون مَنْ الآمرُ به .

ويقال : يَسيرُ الزَّلَّةِ — يلاحِظُها العبدُ بعينِ الاستحقار — فتُحْبِط كثيراً من الأحوال ، وتكدِّر كثيراً من صافي المشارب .

واليسير من الطاعة — ربما يَستَقِلُّها العبدُ — ثم فيها نجاتُه ونجاةُ عالَمٍ معه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قُلْتُم ما يكونُ لنا أنْ نتكلَّم بهذا سبحانك هذا بُهْتَانٌ عظيم ﴾ .

استماعُ الغيبةِ نوعٌ من الغيبة ، بل مستمعُ الغيبةِ شَرُّ المغتابين ؛ إذ بسماعه يَتِمُّ قَصْدُ صاحبِه . وإذا سَمِع المؤمنُ ماهو سوء قالةٍ في المسلمين — مما لاصِحَّةَ له في التحقيق — فالواجبُ الردُّ على قائله ، ولا يكفي في ذلك السكوتُ دون النكير ، ويجب ردُّ قائله بأحسنِ نصيحةٍ ، وأدقِّ موعظةٍ ، ونوعِ تَشَاغُلٍ عن إظهارِ المشاركةِ له فيما يستطيب من نَشْرِه من إخجالٍ لقائله موحشٍ ، فإنْ أبى إلا انهماكاً فيما يقول فيرد عليه بما أمكن ؛ لأنه إنْ لم يَستَحِ قائلهُ من قوله فلا ينبغي أن يستحيَ المستمعُ من الردِّ عليه[1] .

قوله جل ذكره ﴿ يَعِظُكم اللهُ أنْ تعودوا لِمِثْلِه أبداً إنْ كُنْتُم مؤمنين ﴾

يتعلَّق هذا بأنَّ مَنْ بَسَطَ لسانَه في عائشة — رضى الله عنها — بعد ذلك لم يكن مؤمناً لظاهر هذه الآية ، (ولعمرى قائلُ ذلك مرتكبُ كبيرةٍ ولكن لا يخرج عن الإيمان بذلك)[2] ؛ أي ينبغي للمؤمن ألا يتكلمَ في هذا ، وهذا كما يقول القائل : « إذا كُنْتَ أخي فواسِني عند شِدَّتي ؛ فإنْ لم تواسِني لم تخرج عن الأُخُوَّةِ بذلك » . . ومعنى هذا القول أنَّه ينبغي للأخ أن يواسِيَ أخاه في حال عَثْرَته ، وتَرْكُ ذلك لا يُبْطِلُ النَّسبَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين يُحِبُّون أنْ تشيعَ الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليم في

---

(١) في هذه الوصية تتجلى نزعة القشيرى فيما يمكن أن نسميه (آداب السلوك) ونزمع بعون الله أن ننجز بحثاً شاملا عن « علم الأخلاق عند الصوفية » .

(٢) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م ، والعبارة هامة في توضيح الرأى في مرتكب الكبيرة ، ورد على من يلصقون وصمة الكفر — دون حساب — بالكثير من الناس .

الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم
لا تعلمون ﴾

هؤلاء فى استحقاق الذم أقبحُ منزلةً ، وأشدُّ وِزْراً حيث أحبوا افتضاح المسلمين ، ومن أركان الدين مظاهرةُ المسلمين ، وإعانةُ أولى الدين ، وإرادةُ الخير لكافة المؤمنين . والذى يودُّ فتنةً للمسلمين فهو شرُّ الخَلْق ، والله لا يرضى منه بحاله ، ولا يؤهله لمنالِ خلاصة التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورَحْمَتُه وأنَّ
الله رءوفٌ رحيم ﴾

كرَّر قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته . . » لِيُبَيِّنَ للجميع أنَّ حُسْنَ الدفعِ عنهم كان بفضله ورحمته وجميل المنح لهم ، وكلٌّ يشهد حُسنَ المَنْحِ ويشكر عليه ، وعزيزٌ عبدٌ يشهد حُسْنَ الدفع عنه فيحمده على ذلك[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطواتِ
الشيطانومَنْ يتَّبِعْ خطواتِالشيطان
فإنه يأمر بالفحشاءِ والمنكر ﴾

إذا تَنَقى القلبُ عن الوساوس ، وصفا عن الهواجس بَدَتْ فيه أنوارُ الخواطر ، فإذا سما وقتُ العبدِ عن ذلك سَقَطَتْ الخواطر ، وبدت فيه أحاديث الحق — سبحانه — كما قال فى الخبر : « لقد كان فى الأمم محدَّثون فإن يكن فى أمتى فعُمَر » . وإذا كان الحديث منه فذلك يكون تعريفاً يبقى مع العبد ، ولا يكون فيه احتمالٌ ولا إشكال ولا إزعاج ، وصاحبُه يجب أنْ يكونَ أميناً ، غيرَ مُظْهِرٍ لِسرٍّ ما كوشفَ به[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه مازكى
منكم من أحدٍ أبداً ولكن الله
يزكِّى من يشاء والله سميعٌ عليم ﴾

---

(١) أى يكثر فى الحياة من يشكر على نعمة المنح ويقل من يشكر على نعمة الدفع لأن الأولى تجرى بأثر ملموس ، والثانية تجرى ولا يكاد يشعر بها المرء .
(٢) هنا نجد القشيرى يطالب بالكتمان دون الإفصاح ففى الكتمان حفظ الأمانة .

رَدَّهم فى جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما منَّ الحقُّ في قسمى النفع والدفع ، وحالتى العسر واليسر ، والزَّكَى[1] من الله ، والنُّعمى من الله ، والآلاء من الله ، قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يأتلِ أولو الفضل منكم والسَّعَةِ أَنْ يؤتوا أولى القُرْبى والمساكين والمهاجرين فى سبيلِ الله وليعفوا وليصفحوا ﴾

تحرَّك فى أبى بكر عِرْقٌ من البشرية فى وصف الانتقام من مسطح[2] حين شرع وخاضَ فى ذلك الحديث ، وكان فى رفق أبى بكر فقطع عنه ذلك ، وأخبر به الرسول — صلى الله عليه وسلم — وانتظر الأمرَ من الله فى ذلك ، فأنزل الله تعالى : « ولا يأتلِ أولو الفضل منكم . . » فلم يرضَ من الصديق رضى الله عنه أن يتحرك فيه عِرْقٌ من الأحكام النفسية والمطالبات البشرية ، فأعاد أبو بكر له ما كان يفعله فى ماضى أيامه . والإحسان إلى المحسن مكافأة ، وإلى مَنْ لا يسىء ولا يحسن فضل ، وإلى الجانى فُتُوَّةٌ وكَرَمٌ[3] ، وفى معناه أنشدوا :

وما رضوا بالعفو عن كلِّ زَلَّةٍ ... حتى أنالوا كَفَّه وأفادوا

قوله : « وليعفوا وليصفحوا » : العفو والصفح بمعنىً ، فكررها تأكيداً .

ويقال العفو فى الأفعال ، والصفح فى جنايات القلوب[4] .

---

(١) الزكى والزكاء = النماء والزيادة ، وزكى الشىء = أصلحه وطهره .

(٢) مسطح ابن خالة أبى بكر ، وكان مسكينا ، بدريا مهاجراً ، كان ينفق عليه ابو بكر ، فلما قرأ الرسول عليه الآية قال : بلى : أحب أن يغفر الله لى ، ورد إلى مسطح نفقته رغم ما خاض فى عائشة رضى الله عنها .

(٣) يمكن ان يضاف هذا الشاهد إلى الباب الذى عقده القشيرى « للفتوة » في رسالته .

(٤) نعرف عن القشيرى أنه لا يتحمس كثيراً للقول بأن بالقرآن تكراراً ، لأجل ذلك نراه يسرع إلى التمييز بين العفو والصفح عقيب ذكره أنهما بمعنى .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلا تُحِبُّون أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لكم ، والله غفورٌ رحيم ﴾

هذا من كمال تلطفه — سبحانه . وفى الخبر : أن الله لما أنزل هذه الآية قال أبو بكر — رضى الله عنه : « بلى ، أُحِبُّ يارب » ، وعفا عن مسطح . وإن الله لا يغادر فى قلوب أوليائه كراهة من غيرهم ، وأنَّى بالكراهة مِنَ الْخَلْق والمتفرِّدُ بالإيجاد اللهُ ؟! وفى معناه أنشدوا :

رُبَّ رامٍ لى بأحجار الأذى   لم أجِدْ بُدًّا من العطف عليه
فعسى أن يَطْلعَ اللهُ على   قَدْحِ القومِ فيدْنينى إليه

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين يَرْمُون الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ المؤمناتِ لُعِنُوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذابٌ عظيم ﴾

بالغ فى توعده لهم حيث ذكر لفظ اللعنة فى شأنهم .

ووَصَفَ المحصناتِ بالغفلة : أى بالغفلة عما يُنْسَبْنَ إليه ؛ فليس الوصف على جهة الذمِّ ، ولكن لبيان تباعدهن عمَّا قيل فيهن .

واستحقاقُ القَذَفَةِ للَعْنَةِ — فى الدنيا والآخرة — يدل على أنه لشؤم زلتهم تتغير عواقبهم ، فيخرجون من الدنيا لا على الإسلام[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يوم تشهد عليهم أَلسِنَتُهُم وأَيْدِيهم وأَرْجُلُهم بما كانوا يعملون ﴾

تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوا من غير اختيار منهم ، ثم كما تشهد بعض أعضائهم عليهم تشهد بعض أعضائهم لهم ، فالعين كما تشهد : أنه نَظَرَ بى ، تشهد بأنه بكى بى .. وكذلك سائر الأعضاء .

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنه : من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض فى أمر عائشة . وهذا تعظيم ومبالغة في أمر الإفك .

ويقال شهادةُ الأعضاء في القيامة مؤَجَّلةٌ ، وشهادتها في المحبة اليومَ مُعَجَّلة ؛ من صُفْرَةِ الوجهِ إذا بدا المحبوب ، وشحوبِ اللون ، ونحافةِ الجسم ، وانسكابِ الدموع ، وخفقان القلب ، وغير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ يومئذٍ يُوَفِّيهم اللهُ دينَهم الحقَّ ويعلمون أنَّ اللهَ هو الحقُّ المُبين ﴾

يجازيهم على قَدْر استحقاقهم ؛ للعابدين بالجِنان والمثوبة على توفيةِ أعمالِهم ، وللعارفين بالوصلة والقربة على تصفيةِ أحوالِهم ؛ فهؤلاء لهم عُلوُّ الدرجات ، وهؤلاء لهم الأُنس بعزيزِ المشاهدات ودوام المناجاة .

« ويعلمون أن الله هو الحق المبين » : فتصيرُ المعرفةُ ضروريةً ؛ فيجدون المُعافاةَ من النَّظَرِ وتَذَكُّرِه ، ويستريح القلبُ من وَصْفَيْ تَرَدُّدِه وتَغَيُّرِه : (لاستغنائه ببصائره عن تبَصُّرِه)(١) .

ويقال لا يشهدون غداً إلا الحقَّ ؛ فهم قائمونَ بالحق للحق مع الحق ، يبيِّن لهم أسرار التوحيد وحقائقه ، ويكون القائمَ عنهم ، والآخذَ لهم منهم من غير أنْ يُرَدَّهم إليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الخبيثـاتُ للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾ .

« الخبيثات » : من الأعمال وهى المحظورات « للخبيثين » : من الرجال المؤْثِرين لها طوعاً ، والذين يجنحون إلى مثل تلك الأعمال فهم لها ، كلٌّ مربوطٌ بما يليق به ؛ فالفعلُ لائقٌ بفاعله ، والفاعلُ بفِعْلِه في الطهارة والقذارة ، والنفاسة والخساسة ، والشرفِ والسَّرَفِ .

ويقال « الخبيثات » : من الأحوال ؛ وهى الحظوظُ والمُنَي والشهواتُ لأصحابها والساعين لها . والساعون لمثلها لها ، غيرَ ممنوعٍ أحَدُهما من صاحبه ، فالصفةُ للموصوف مُلازِمة ، والموصوفُ لصفته ملازمٌ .

---

(١) هكذا في النسختين ، ويكون مراد القشيرى انه لم يعد مجال للتبصر فقد اصبح الشهود عيانا ، وتحققت لهم الرؤية البصرية التى لم ينالوها فى الدنيا ، ونفهم أن القشيرى لا يرى الرؤية العيانية إلا فى الآخرة .

ويقال « الخبيثات » : من الأشياءِ للخبيثين من الأشخاص ، وهم الراضون بالمنازل السحيقة . . . وإنَّ طعامَ الكلابِ الجِيَفُ .

ويقال « الخبيثاتُ » : من الأموال — وهى التى ليست بحلالٍ — لمن بها رتبته ، وعليها تعتكف هِمَّتُه ؛ فالخبيثون من الرجال لا يميلون إلاّ لمثل تلك الأموال ،وتلك الأموال لا تساعد إلا مثلَ أولئك الرجال .

قوله جل ذكره : ﴿ والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ .

« الطيبات » : من الأعمال هى الطاعات والقُرَبُ للطيبين ، والطيبون هم المؤْثِرُون لها والساعون فى تحصيلها .

« والطيبات » : من الأحوال — وهى تحقيق المواصلات بما هو حقٌّ الحق ، مُجَرَّداً عن الحظوظ — « للطيبين » من الرجال ، وهم الذين سَمَتْ هِمَّتهم عن كلِّ مُبتَذَلٍ خسيس ،ولهم نفوسٌ تسمو إلى المعالى ، وهى التجمُّلُ بالتذلل لِمَنْ له العِزَّةُ .

ويقال الطيبات من الأموال — وهى التى لا نكيرَ للشرع عليها ، ولا مِنَّةَ لمخلوقٍ فيها — للطيبين من الرجال ، وهم الأحرار الذين تخلَّصوا من رِقِّ الكون .

ويقال «الطيبات» من الأشخاص وهن المُبَرَّآتُ من وهج الخطر ، المتنقيات عن سفساف أخلاق البشرية ، وعن التعريج فى أوطان الشهوات — «للطيبين» من الرجال الذين هم قائمون بحقِّ الحقِّ ، لا يصحبون الخَلْقَ إلا للتعفُّفِ ، دون استجلابِ الشهوات .

﴿ لهم مَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كريمٌ ﴾

لهم مغفرةٌ فى المآل ، ورزقٌ كريم فى الحال وهو ماينالون من غير استشرافٍ ، ولا تطلب طمعٍ ، ولا ذلِّ مِنةٍ [1] ، ولا تقديم تعبٍ [2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتدْخُلوا بيوتاً غير

(١) أى (مِنَّة) من مخلوق .

(٢) (التعب) الذى ينشأ عن الاستعجال وعدم التفويض ونقص الثقة .

بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا
على أهلها ذلكم خيرٌ لكم لعلّكم
تذكّرون ﴾

الخواصُ لا يرَوْنَ لأنفسهم ملْكاً يتفردون به ؛ لا مِنَ الأموال المنقولة ولا من المساكن التى تصلح لأن تكون مدخولة ، فمَنْ فاتحَهم بشيءٍ منها فلا يكون منهم مَنْعٌ ولا زَجْرٌ ، ولا حَجْبٌ لأحدٍ ولا حَظْرٌ . هذا فيما نيط بهم . أمَّا فيما ارتبط بغيرهم فلا يتعرَّضون لمن هى فى أيديهم ؛ لا باستشرافِ طَمَعٍ ، ولا بطريقِ سؤالٍ ، ولا على وجهِ انبساطٍ[1] . فإنْ كان حكمُ الوقت يقتضى شيئاً من ذلك فالحقُّ يُلجِىء مَنْ فى يده الشىء ليحمله إليه بحكم التواضع والتقرُّب ، والولىُّ يأخذ ذلك بنعتِ التعزُّزِ ، ولا يليق معنى ذلك إلا بأحوال تلك القصة[2] ، وأنشد بعضهم فى هذا المعنى :

وإنى لأستحى مِنَ الله أنْ أُرَى أسيرَ بخيلٍ ليس منه بعيرُ
وأنْ أسألَ المرء اللئيمَ بعيرَه وبعْرانُ ربِّى فى البلادِ كثيرُ

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ لم تجِدُوا فيها أحَدَاً
فلا تدخلوها حتى يؤْذَنَ لكم ﴾

فى هذا حِفْظُ أمْرِ الله وحِفْظُ حُرْمةِ صاحب الدارِ ؛ لأنَّ مَنْ دَخلَها بغيرِ إذْنِ صاحبها ربما تكون فيها عورةٌ منكشفة ، وربما يكون لصاحب الدار أمرٌ لا يريد أن يَطّلِعَ عليه غيرُه ، فلا ينبغى أن يدخل عليه من غير استئذان .

﴿ وَإنْ قيل لكم ارجِعُوا فَارْجِعُوا هو
أزْكى لكم والله بما تعملون عليم ﴾ .

---

(١) يقول السرى السقطى فى مثل هذا السياق : « أعرف طريقا مختصراً قصداً إلى الجنة . فقيل له ما هو ؟ فقال : لا تسأل من أحد شيئا . ولا تأخذ من أحد شيئا ، ولا يكن معك شىء تعطى منه أحداً » الرسالة ص ١١ » .

(٢) أى بأرباب الطريق الصوفى .

إن قيل لكم : ارجعوا . . فارجعوا ؛ فقد تكون الأعذارُ قائمةً ، وصاحبُ الملك بمالكِه أَوْلى .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس عليكم جُنَاحٌ أَنْ تدخلوا
بيوتاً غيرَ مسكونةٍ فيها متاعٌ لكم
والله يَعْلَمُ ما تُبْدون
وما تَكْتُمون ﴾ .

رَفَعَ اللهُ الجُناحَ والحَرَجَ فى الانتفاعِ بما لا يُسْتَضَرُّ به صاحبُه بغيرِ إذْنِه ؛ كدخولِ أرضٍ للداخلِ فيها أغراضٌ لقضاءِ حاجته — ولا يجد طريقاً غير ذلك — إذا لم يكن فى دخوله ضَرَرٌ على صاحبها ، وجرى هذا مجرى الاستظلال بظلِّ حائطٍ إذا لم يكن قاعداً فى مِلْكِه ، وكالنظر فى المرآة المنصوبة فى جدار غيره . . وكل هذا إنما يُستباح بالشرع دون قضية العقل — على ما توهمَّه قومٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارِهم
ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلك أزْكى
لهم إنَّ اللهَ خبيرٌ بما يصنعون ﴾ :

« يغضوا » : من أبصار الظواهر عن المُحَرَّمات ، ومن أبصار القلوب عن الفِكَرِ الرَّدِّية ، ومن تصورِ الغائبات عن المعاينة[1] ، ولقد قالوا : إنَّ العينَ سببُ الحَيْن ، وفى معناه أنشدوا :

وأنتَ إذا أرسلتَ طَرْفَك رائداً لقلبِك — يوماً — أَتْعَبَتْكَ المناظرُ

وقالوا : مَنْ أرسل طَرْفَه اقتضى حَتْفَه .

وإن النظرَ إلى الأشياء بالبَصَرِ يوجِبُ تَفْرِقَةَ القلوب .

ويقال إن العدوَّ إبليسَ يقول : قوسى القديمُ وسهمى الذى لا يخطىء النظرُ . وأرباب

---

(١) ربما يقصد القشيرى ان ينهى عن إقحام فكرة النظر بالعين فى الأمور الغيبية ، وبمعنى آخر النهى عن إخضاع كل شىء الحس ، فطبيعة الغيبيات تختلف عن ذلك ، وإلا كنت كمن يحاول عبور الماء فوق جواد ، او يعبر اليابسة وهو فى سفينة — على حد تعبير جلال الدين الرومى فى سياق مماثل .

المجاهدات إذا أرادوا صَوْنَ قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المحسَّات — وهذا أصلٌ كبيرٌ لهم فى المجاهدة فى أحوال الرياضة(١) .

ويقال قَرَنَ اللهُ النهى عن النظر إلى المحارم بذكر حفظِ الفَرْجِ فقال : « ويحفظوا فروجَهم » تنبيهاً على عِظَمِ خَطَرِ النظر ، فإنه يدعو إلى الإقدام على الفعل .

ويقال قومٌ لا ينظرون إلى الدنيا وهم الزُّهَّاد ، وقومٌ لا ينظرون إلى الكون وهم أهل العرفان ، وقومٌ هم أهل الحفاظ والهيبة كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون نفوسهم أهلاً للشهود، ثم الحق — سبحانه — يكاشفهم من غير اختيارٍ منهم أو تعرُّضٍ أو تكلف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ للمؤمناتِ يَغْضُضْنَ من أبصارِهن ويَحْفَظْنَ فروجَهن
ولا يُبْدين زينتهن إلا ما ظَهَرَ منها
ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جيوبِهنَّ ﴾

المطالبةُ عليهن كالمطالبة على الرجال لشمولِ التكليفِ للجنسين ، فالواجبُ عليهن تركُ المحظوراتِ ، والندبُ والنَّفْلُ لهن صونُ القلبِ عن الشواغل والخواطر الردية ، ثم إنِ ارتَقَيْنَ عن هذه الحالةِ فالتعامى بقلوبهن عن غيرِ المعبود ، والله يختص برحمته من يشاء .

قوله : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » : ما أباح الله — سبحانه — على بيان مسائل الفقه فمُستثنىً من الحظرِ ، وما وراء ذلك فالواجبُ عليهن حفظُ أنفسهن عن العقوبات فى الآجل ، والتصاون عن أن يكون سبباً لفتنة قلوب عباده . والله سبحانه كما يحفظ أولياءه عما يضرهم فى الدِّين يصونهم عما يكون سبباً لفتنة غيرهم ، فإن لم يتصل منهم نفعٌ بالخَلْق فلا تصيبُ أحداً بهم فتنةٌ .

وفى الجملةِ ما فيه زينة العبد لا يجوز إظهاره ؛ فكما أنَّ للنساءِ عورةً ولا يجوز لهن إبداء زينتهن فكذلك مَنْ أظهر للخَلْق ما هو زينة سرائره(٢) من صفاء أحواله ، وزكاء أعماله

---

(١) سقطت (الرياضة) من النسخة ص .

(٢) هنا يحدد القشيرى رأيه بدقة فى قضية الإفصاح والكتمان . فالأصل عنده الكتمان ، فإذا افصح العبد فلا يكون ذلك إلاّ لاضطرار ويكون عندئذ غير مؤاخذ لأنه بعيد عن التعمل والتكلف .

انقلب زَيْنُه شَيْناً ، إلا إذا ظهر على أحدٍ شيء —لا بتعمله ولا بتكلُّفه —فذلك مستثنىً لأنه غير مؤَاخَذٍ بما لم يكن بتصرفه وتكلفه ، فذوات المحارم على تفصيل بيان الشريعة يُسْتَثْنَى حُكْمُهن عن الحَظْر (١).

قوله جل ذكره : ﴿ أو التابعين غيرِ أُولى الإِرْبَةِ من الرجالِ أو الطِّفْلِ الذين لم يَظْهروا على عوراتِ النساءِ ﴾

تُرَاعَى فى جميع ذلك آدابُ الشرع فى الإباحة والحظر .

قوله جل ذكره ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لَعَلَّكم تُفْلحون ﴾

التوبةُ الرجوعُ عن المذموماتِ من الأفعال إلى أضدادها المحمودة ، وجميع المؤمنين مأمورون بالتوبة ، فتوبةٌ عن الزَّلَّةِ وهى توبة العوام ، وتوبة عن الغفلة وهى توبة الخواص . . وتوبةٌ على محاذرة العقوبة ، وتوبةٌ على ملاحظة الأمر .

ويقال أَمَرَ الكافةَ بالتوبةِ ؛ العاصين بالرجوع إلى الطاعة من المعصية ، والمطيعين من رؤية الطاعة إلى رؤية التوفيق ، وخاصَّ الخَاصِّ من رؤية التوفيق إلى مشاهدة الموفِّق.

ويقال أَمَرَ الكلَّ بالتوبةِ لئلا يخجلَ العاصى من الرجوع بانفراده .

ويقال مساعدة الأقوياء مع الضعفاء — رِفْقاً بهم — من أمارات الكَرَم .

ويقال فى قوله : « لعلكم تفلحون » يتبين أَنَّه أَمَرَهم بالتوبة لينتفعوا هم بذلك ، لا ليكون للحقِّ — سبحانه — بتوبتهم وطاعتهم تجمُّلٌ .

ويقال أحوجُ الناس إلى التوبةِ مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّه ليس يحتاج إلى التوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَنكِحُوا الأَيامى منكم والصالحين

---

(١) يصلح هذا نموذجاً (للقياس) إن اردنا بحث ما اسميناه (الفقه الصوفى) .

مِنْ عِبادكم وإمائِـكم إنْ يكونوا
فُقَراء يُغْنِهِمُ الله من فَضْله والله
واسِعٌ عليم ﴾

إذا كان القصدُ فى المناكحة التأدبَ بآداب الشرع يكفى الله ببركاته مطالباتِ النفس والطبع ، وإنما يجب أن يكون القصدُ إلى التعفُّفِ ثم رجاءِ نسْلٍ يقوم بحقِّ الله[1] .

قوله : « إن يكونوا فقراء يُغْنِهم الله فى من فضله : يُغْنِيهمُ اللهُ فى الحال، أولاً بالنفس ثم غِنَى القلب ، وغِنيُّ القلبِ غَنِي عن الشىء ، فالغِنيّ عن الدنيا أتمُّ من الغنى بالدنيا .

ويقال إن يكونوا فقراء فى الحال يُغْنِهم الله فى المستأنف والمآل .

قوله جل ذكره : « وَلْيَسْتعففِ الذين لا يجدون نِـكاحاً
حتى يُغْنِيَهم الله من فَضْله ﴾

مَنْ تقاصر وسعُه عن الإنفاقِ على العيال فليصبر على مقاساة التحمل فى الحال ، فعَنْ قريبٍ تجيبه نَفْسُه إلى سقوط الأَرَب ، أو الحق — سبحانه — يجود عليه بتسهيل السبب من حيث لا يَحْتَسِب ، ولا تخلو حالُ المتعفِّفِ عن هذه الوجوه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يبتغون الـكتابَ مِمَّا مَلَـكَتْ
أيمانُـكم فـكاتِبُوهم إنْ عَلِمْتُمْ
فيهم خيراً وآتوهم من مالِ الله
الذى آتاكم

أى إنْ سَمَحَتْ نفوسكم بإزالة الرِّقِّ عن المماليك — الذين هم فى الدين إخوانـكم — من غير عِوَضٍ تلاحظون منهم فلن تخسروا على الله فى صفقتـكم . وإنْ أبيتم إلا العوض ودعوا إلى الـكتابة، وعلمتم بغالب ظنـكم صحةَ الوفاءِ بمال الـكتابة من قِبَلِهم فـكاتبوهم[2] ،

---

(1) كذلك دعا الأنبياء ربهم حين طلبوا الذرية .

(2) المـكاتبة أن يقول لمملوكه : « كاتبتك على ألف درهم » مثلا ، فإن أداها عتق ، ومعناها كتبت عليك بالوفاء وكتبت على بالعتق ، ويجوز أداء المال حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لإطلاق الأمر .

ثم تعاونوا على تحصيل المقصود بكل وجه ؛ من قدْرٍ يُحط من مال الكتابة ، وإعانةٍ لهم من فروض الزكاة[1] ، وإمهالٍ بِقَدْرِ ما يحتمل المكاتب ليكون ترفيهاً له .

وإذا كنا في الشرع مأمورين بكل هذا الرِّفقِ حتى يصل المملوكُ المسكينُ إلى عتقه فبالحرىِّ أن يسموَ الرجاء إلى الله بجميل الظنِّ أن يُعْتَقَ العبدُ من النار بكثرة تضرعه ، وقديم سعيه — بقدر وسعه — من عناءٍ قاساه ، وفضلٍ من الله — عن قديمٍ — رجاه[2] .

ثم في الخبر : « إن المكاتب عبدٌ ما بقي عليه درهم » : والعبد يسعى بجهده ليصل إلى تحرر قلبه ، وما دام تبقى عليه بقية من قيام الأخطار وبقية من الاختيار وإرادة شيء من الأغيار فهو بكمال رِقِّه وليس في الحقيقة بِحُرٍّ .. فالمكاتَبُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُكْرِهوا فتياتِكم على البِغاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لتَبْتَغُوا عَرَضَ الحياةِ الدنيا ، ومَنْ يُكْرِهْهُنَّ فإنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكراهِهِنَّ غفورٌ رحيم ﴾ .

حاملُ العاصي على زَلَّته ، والداعي له إلى عَثْرَته ، والمُعِينُ له على مخالفته تتضاعف عليه العقوبة ، وله من الوِزْرِ أكثرُ مِنْ غيره ، وبعكسه لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أنزَلْنَا إليكم آياتٍ مُبَيِّنَاتٍ ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين

(١) إشارة إلى قوله تعالى في أسهم الزكاة : (وفي الرقاب) وعند الشافعي — رحمه الله — حطوا من بدل الكتابة ربعاً .

(٢) للنسفي كلام لطيف يصلح لتوضيح مقصد القشيري حيث يقول : العابد كالعبد فهو يشتري نفسه من ربه بنجوم مرتبة ليسعى في فكاك رقبته خوفا من البقاء في ربقة العبودية وطمعا في فتح باب الحرية ليسرح في رياض الجنة ، فعليه في اليوم والليلة خمس ، وفي المائتي درهم خمسة ، وفي السنة شهر ، وفي العمر زورة ؛ إشارة إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج على الترتيب .

لم يغادر على وجه الدليل غُبْرَةً[1] ، ولم يترك الحقُّ — سبحانه — للإشكال محلاً ؛ بل أَوْضَحَ المنهاجَ وأضاء السِّراجَ ، وأنار السبيلَ وألاح الدليل ، فَمَنْ أراد أن يستبصر فلا يلحقه نَصَبٌ ، ولا يمسُّه تعب .

قوله جل ذكره : ﴿ الله نورُ السمواتِ والأرض ﴾

أى هادى أهل السمواتِ والأرض ، ومنه نورها . والذى منه الشىء يسمى باسمه الشىء . ومنه نور السموات والأرض خَلْقاً ؛ فنظامُ السموات والأرض وإحكامها وترتيبها بوصف إتقانها حاصلٌ بالله تعالى .

ويقال نور السموات والأرض أى منوِّرها وخالقُ مافيها من الضياء والزينة ، وموجِدُ ما أودعها من الأدلة اللائحة .

ويقال نوَّر اللهُ السماء بنجومها فقال : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح »[2] فكذلك زينَ القلوب بأنوارٍ هى نورُ العقل ونورُ الفهم ونورُ العلم ونورُ اليقين ونورُ المعرفة ونورُ التوحيد[3] ، فلكلِّ شىءٍ من هذه الأنوار مطرحُ شعاعٍ بقدره فى الزيادة والنقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ نورِه كمشكاة فيها مصباحٌ
المصباحُ فى زجاجةٍ الزجاجةُ كأنها
كوكبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ من شجرةٍ
مُباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ
يكاد زيتُها يضىء ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نارٌ نورٌ على نورٍ يهدى اللهُ لنورهِ مَنْ
يشاء ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ
واللهُ بكلِّ شىءٍ عليم ﴾ .

قوله « مثل نوره كمشكاة .. » : أراد بهذا نور قلب المؤمن وهو معرفته ، فشبَّهَ صدرَه

(١) الغبرة = لطخ الغبار . (٢) آية ١٢ سورة فصلت .

(٣) نلفت النظر إلى أهمية هذا الترتيب فى توضيح مراحل المعرفة عند الصوفية وهى تتدرج فى الضياء من السراج إلى النجم إلى القمر إلى البدر إلى الشمس إلى شمس الشموس .

بالمشكاة ، وشبَّه قلبَه فى صدره بالقنديل فى المشكاة ، وشبَّه القنديل — الذى هو قلبه — بالكوكب الدرىّ ، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافى الذى يمدُّ السراج فى الاشتمال . ثم وصفَ الزيتَ بأنَّه على كمال إدراك زيتونه من غير نقصان أصابه ، أو خلَلٍ مسَّه . ثم وصف ذلك الزيت — فى صفوته — بأنه بحيث يكاد يضىء من غير أن تَمَسَّه نار .

ويقال إن ضَرْبَ المثل لمعرفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ودينه الحنيفى ، فما كان يهودياً — وهم الذين قِبْلتُهم إلى جانب المغرب ، ولا نصرانياً — وهم الذين قبلتهم فى ناحية المشرق .

وقوله : « نور على نور » : نوراً كتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالهم ، ونور وجدوه بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برهانهم ، أو عيان أضافه إلى بيانهم ، فهو نور على نور .

ويقال أراد به قلب محمد — صلى الله عليه وسلم — ونورُ معرفته موقدٌ من شجرة هى إبراهيم عليه السلام ، فهو صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم .

قوله : « لاشرقية » بحيث تصيبه الشمس بالعشى دون الغداة ، ولا غربية بحيث تصيبه الشمس بالغداة دون العشى ، بل تصيبه الشمسُ طولَ النهارِ ليتمَّ نضج زيتونه ، ويكمل صفاء زيته . والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوفُ قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس ، ولا ينفرد رجاؤهم عن الخوف فيقرب من الأمن ، بل هما يعتدلان ؛ فلا يغلب أحدهما الآخر ؛ تقابل هيبتَهم أُنسهم ، وقبضُهم بسطَهم ، وصحوُهم محوَهم ، وبقاؤهم فناءهم ، وقيامُهم بآداب الشريعة تَحقُّقَهم بجوامع الحقيقة [1] .

ويقال « لاشرقية ولا غربية » : أى أن هِمَمَهم لا تسكن شرقياً ولا غربياً ، ولا علوياً ولا سفلياً ، ولا جنياً ولا إنسياً ، ولا عَرْشاً ولا كرسياً ، سطعت [2] عن الأكوان ، ولم تجد سبيلا إلى الحقيقة ؛ لأن الحقَّ مُنزَّهٌ عن اللحوق والدرك ، فبقيت عن الحق منفصلة ، وبالحق غير

---

(١) فالقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه بين طرفى الأحوال حتى يصفو له .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (شطحت) وربما قبلناها فالسياق لايرفضها .

متصلة[1] ، وهذه صفة الغرباء . . وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ .

ويقال نور القلب: ثم موجبه هو دوام الانزعاج فلا يذره يعرِّج في أقطار الكسل ، فيصل سَيْرَه بسُراه في استعمال فِكْرِه ، والحقُّ يمده : بنور التوفيق حتى لا يصده عن عوارضِ الاجتهادِ شيء من حُبِّ رياسةٍ ، أو ميلٍ لسوءٍ ، أو هوادة . فإذا أسفر صُبْحُ غفلته ، واستمكن النظر من موضعه حصل العلمُ لا محالة . ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين مما يراه في معاملته من القبض والبسط ، والمكافأة والمجازاة في زيادة الكشف عند زيادة الجُهْد ، وحصول الوَجْدِ عند أداء الوِرْد .

ثم بعده نور المعاملة ، ثم نور المنازلة ، ثم متوع نهار المواصلة . وشموس التوحيد مشرقة ، وليس في سماءِ أسرارِهم سحابٌ ولا في هوائها ضبابٌ ، قال تعالى : « نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » .

ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحمل صاحبه على المحاسبة ، فإذا نظَرَ في ديوانه ، وما أسلفه من عصيانه يحصل له نور المعاينة ، فيعود على نفسه باللائمة ، ويتجرَّعُ كاساتِ نَدَمِهِ ، فيرتقي عن هذا باستدامة قَصْدِهِ ، والتَّنَقِّي عما كان عليه في أوقات فترته . فإذا استقام في ذلك كوشِفَ بنور المراقبة ، فيعلم أنَّه — سبحانه — مُطَّلِعٌ عليه . وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائحُ تبدو في السرائر . ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلِّي الصفات . ثم بعده نور المشاهدة فيصير ليلُه نهاراً ، ونجومُه أقماراً ، وأقمارُه بدوراً ، وبدورُه شموساً . . ثم بعد هذا أنوار التوحيد ، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد ، ثم ما لا تتناوله عبارةٌ ولا تدركه إشارةٌ ، فالعبارات — عند ذلك — خُرْسٌ ، والشواهد طُمْسٌ ، وشهود الغير عند ذلك محال[2] . عند ذلك : « إذا الشمس كُورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيِّرت ، وإذا العشار عطلت »[3] ، « وإذا السماء انشقت ، وانفطرت . . »

---

(١) هذا نموذج للتصوف الإسلامي الحق الذي لا تشوبه شائبة حلول أو اتحاد أو امتزاج ، فالرب رب والعبد عبد ، ولا تداخل بينهما .

(٢) لأنه لا وجود عندئذ للغير والسوى ، فقد فنى العبد عن نفسه وعن الغير الله تماما فناءً ذوقيا شهوديا ، لا فناء طبيعيا كما هو الشأن في بعض التصوفات الأخرى .

(٣) سورة التكوير .

فهذه كلها أقسام الكون . وما من العدَمِ لهم صار إلى العدم . القائمُ عنهم غيرُهم ، والكائنُ عنهم سواهم . وجلَّتْ الأحديةُ وعزَّتْ الصمدية ، وتقدَّسَتْ الديمومية ، وتنزهت الإلهية .

قوله جل ذكره : ﴿ فى بيوتٍ أذنَ اللهُ أنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسمُهُ يُسَبِّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ * رجالٌ لا تُلْهِيهِم تجارَةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ ﴾

المساجدُ بيوتُه — سبحانه — وإنَّ الله أذِنَ أنْ تُرْفَعَ الحوائجُ فيها إليه فيقضيها ، ورَفَعَ أقدارَ تلك البيوتِ على غيرها من الأبنية والآثار . المساجدُ بيوتُ العبادةِ والقلوبُ بيوتُ الإرادة ، فالعابدُ يَصِلُ بعبادته إلى ثواب الله ، والقاصدُ يصل بإرادته إلى الله .

ويقال القلوبُ بيوتُ المعرفة ، والأرواحُ مَشاهِدُ المحبة ، والأسرار محالُّ المشاهدة .

قوله : « يسبح له فيها بالغدو . . . . » لم يقل : لا يتجرون ولا يشترون ولا يبيعون ، بل قال : لاتلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله ، فإنْ أمكن الجمع بينهما فلا بأسَ — ولكنه كالمتعذر — إلاَّ على الأكابر الذين تجرى عليهم الأمورُ وهم عنها مأخوذون[1] .

ويقال هم الذين يُؤْثِرون حقوقَ الحقِّ على حظوظ النَّفْس .

ويقال إذا سمعوا صوتَ المؤذن : حيَّ على الصلاة تركوا ما هم فيه من التجارة والبيع ، وقاموا لأداء حقه .

ويقال هم الخواص والأكابر الذين لا يشغلهم قوله : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليم » عن التحقق بذكره من غير ملاحظة عِوَضٍ أو مطالعة سبب .

قوله جل ذكره : ﴿ يخافونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيه القُلُوبُ والأبصارُ ﴾

(١) هذا رأى حاسم فى مدى وجوب السعى من أجل الرزق على طوائف أرباب الأحوال وتقدير لموقف من يعجزون عن ذلك .

أقوامٌ ذلك اليومُ مُؤجَّلٌ لهم ، وآخرون: ذلك لهم مُعَجَّلٌ وهو بحسب ما هم فيه من الوقت ؛ فإنَّ حقيقةَ الخوفِ ترقُّبُ العقوباتِ مع مجاري الأنفاس .

قوله جل ذكره : ﴿ والله يرزق مَنْ يشاء بغيرِ حساب ﴾

مَنْ رَفَعَ الحسابَ من الوَسَطِ يَرْفَعْ معه الحسابَ[1] ، ومَنْ هو فى أسْرِ مطالباته فالوزنُ يومئذٍ الحقُّ .

والرزقُ بغير حسابٍ فى أرزاق الأرواح ، فأمَّا أرزاقُ الأشباحِ فمحصورةٌ معدودةٌ ؛ لأن أرزاقَ الأشباحِ حظوظٌ ؛ وهى وجودُ أفضالٍ وفنونُ نوالٍ . وما حَصَرَه الوجودُ مِنَ الحوادثِ فلا بُدَّ أن يأتىَ عليه العَدَدُ ، وأما مكاشفةُ الأرواحِ بشهودِ الجمالِ والجلال فذلك على الدوام .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا أعمالُهم كسرابٍ بقيعةٍ يحسَبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووَجَدَ اللهَ عِنْدَه فوفَّاه حسابَه ، واللهُ سريعُ الحساب ﴾

وقال تعالى : « وهم يحسبون أنهم يُحْسِنُون صنعاً »[2] ، وقال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أنهم على شيء ﴾[3] . ومَنْ أمَّل السرابَ شراباً فلا يلبث إلا قليلاً حتى يعلمَ أنَّه كان تخييلاً ؛ فالعَطَشُ يزداد ، والروح تدعو للخروج .

قوله جل ذكره : ﴿ أو كظُلُماتٍ فى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يغشاه

---

(١) ربما يقصد القشيرى من هذه العبارة أولئك الذين يعبدون الله لذاته دون حساب فى العلاقة لثواب أو عقاب ، ويتأيد ذلك بقوله فى العبارة التالية (ومن هو فى أسر مطالباته . .) أى من ابتغى العوض ؛ لأنه يكون على حد تعبير رابعة كالأجير السوء .

(٢) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٣) آية ١٨ سورة المجادلة .

موجٌ مِنْ فوقِهِ موجٌ مِنْ فوقِهِ
سَحابٌ ، ظُلُماتٌ بعضُها فوق
بَعْض إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لم يَكَدْ
يراها ومَنْ لَمْ يجعلْ اللهُ له نوراً
فما لَهُ من نورٍ ﴾

ظلماتُ الحسبان ، وغيومُ التفرقة ، وليالى الجحْدِ ، وحنادسُ الشكِّ إذا اجتمعت فلا سِراجَ لصاحبِها ولا نجوم ، ولا أقمارَ ولا شموسَ .. فالويلُ ثم الويل !

قوله : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » : إذا لم يسبق لعبدٍ نورُ القسمة ، ولم يساعده تعلّقٌ فجهدُه وكدُّه ، وسَعْيُه وجِدُّه عقيمٌ من ثمراته ، مؤيَسٌ من نَيْلِ بركاته . والبدايات غالبةٌ للنهايات ؛ فالقبولُ لأهْلِه غيرُ مجتَلَبٍ ، والردُّ لأهله غير مُكْتَسَبٍ . وسعيدٌ مَنْ سَعِدَ بالسعادة فى عِلْمِه فى آزاله ، وأراد كونَ ما عَلِمَ من أفعاله يكون ، وأخبر أن ذلك كذلك يكون ، ثم أجرى ذلك على ما أخبر وأراد وعَلِمَ[1] .

وهكذا القول فى الشقاوة ؛ فليس لأفعاله عِلّةٌ ، ولا تتوجّهُ عليه لأحدٍ حُجّةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يُسَبِّح له مَنْ
فى السمواتِ والأرضِ ، والطيرُ
صافَّاتٍ كُلٌّ قد عَلِمَ صلاتَه وتسبيحَه
واللهُ عليمٌ بما يفعلون ﴾

التسبيح على قسمين : تسبيحُ قولٍ ونطقٍ ، وتسبيحُ دلالة وخَلْق ؛ فتسبيحُ الخَلْقِ عام من كل مخلوقٍ وعينٍ وأثرٍ ، منه تسبيحٌ خاصٌ بالحيوانات ، وتسبيحٌ خاصٌ بالعقلاء وهذا منقسم إلى قسمين : تسبيحٌ صادرٌ عن بصيرة ، وتسبيحٌ حاصلٌ من غير بصيرة ؛ فالذى قرينته البصيرة مقبولٌ ، والذى تجرَّدَ عن العرفان مردود .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله مُلْكُ السمواتِ والأرضِ
وإلى اللهِ المصيرُ ﴾

(١) هذا شرح جيل لفكرة القشيرى عن : «الله خالق أفعال العباد» التى هى إحدى أصول عقيدته الكلامية .

المُلْك مبالغةٌ من المِلْك ، والملك القدرة على الإيجاد ؛ فالمقدورات — قَبْلَ وجودِها — للخالق مملوكة ، كذلك فى أحوال حدوثِها بعد عَدَمِها عائدةٌ إلى ما كانت عليه ، فمُلْـكُه لا يحدث ولا يزول ولا يَحُولُ شىءٌ منه إلى البطول .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَاباً ثم يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثم يجعله رُكاماً فترى الوَدْقَ يخرج مِنْ خِلالِه ويُنَزِّل من السماءِ من جبالٍ فيها من بَرَدٍ فيُصِيب به مَنْ يشاء ويَصْرِفُه عمن يشاء يكاد سَنَا بَرْقِهِ يذهب بالأبصارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ الليلَ والنهارَ إنَّ فى ذلك لَعِبْرَةً لأولى الأبصار ﴾ .

تعرَّف إلى قلوب العلماء بدلالات صُنْعِهِ فى بديع حكمته ، وبما يدل منها على كمال قدرته ، وشمول علمه وحكمته ، ونفوذ إرادته ومشيئته . فَمَنْ أنعم النظرَ وَصَلَ إلى بَرَدِ اليقين ، ومَنْ أعرض بقى فى وَهْدَةِ الجَحْدِ وظلمات الجهل .

ترتفع بقدرته بخاراتُ البحرِ ، وتصعد بتسييره[1] وتقديره إلى الهواء وهو السحاب ، ثم يُديرها إلى سَمْتٍ يريد أن ينزل به المطر ، ثم ينزل ما فى السحاب من ماء البحر قطرةً قطرةً ؛ ويكون الماء قبل حصول بخارات البحر غير عَذْبٍ فيقلبه عَذْباً ، ويُسِحُّه السحابُ سَكْباً ، فيوصل إلى كلِّ موضع قَدْراً يكون له مُراداً معلوماً ، لا بالجهدِ مِنَ المخلوقين يُمْسَكُ أو يُنَزَّلُ ، ولا بالحيلةِ يُسْتَنْزَلُ على المكانِ الذى لا يُمْطِره[2] .

« يُقَلِّب اللَّهُ الليلَ والنهارَ » : وكذلك جميع الأغيار من الرسوم والآثار . . ذلك تقدير العزيز العليم .

---

(١) ربما كانت فى الأصل (بتيسيره) وكلاهما مقبول فى السياق .
(٢) نفى الجهد والحيلة من أمارات الاعتماد على التقدير وإسقاط التدبير

قوله جل ذكره : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دابةٍ من ماءٍ فمنهم
مَنْ يمشى على بَطْنِه ومنهم من يمشى
على رِجْلين ومنهم من يمشى على
أربع يَخْلُقُ اللهُ ما يشاء إنَّ الله على
كلِّ شىءٍ قدير ﴾ .

يريد خلقَ كُلَّ حيوانٍ من ماء ، يخرج من صُلْب الأب وتريبة[1] الأمِّ . ثم أجزاء الماء متساويةٌ متماثِلةٌ ، ثم ينقسم إلى جوارح فى الظاهر وجوارح فى الباطن ، فيختصُّ كلُّ عضو وينفرد كل شِلْوٍ[2] بنوع من الهيئة والصورة ، وضَرْبٍ من الشكلِ والبِنْيَةِ . ثم اختلاف هيئات الحيوانات فى الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب ، ثم فى القامة والمنظر ، ثم انقسام ذلك إلى لحم وشحم وجِلْدٍ وعَظْمٍ وسِنٍّ ومخٍّ وعَصَب وعِرْقٍ وشَعْرٍ .

فالنظرُ فى هذا — مع العبرة به — يوجِبُ سجودَ البصيرةَ وقوة التحصيل .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد أَنْزَلْنَا آياتٍ مُبَيِّنَاتٍ واللهُ يهدى مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴾

الآيات بَيِّنةٌ ولكنَّ اللهَ يهدى إليها قوماً ويُلَبِّس على آخرين ، والذى سُدَّ بَصَرُه أنَّى ينفعه طلوعُ الشمسِ والنجوم ؟ وكذلك الذى سُدَّت بصيرته أنَّى تنفعه شواهدُ العلوم ودلائلُ الفهوم ؟ وقالوا فى معناه :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بمقلته ... اذا استَوَتْ عِنْدَه الأنوارُ والظُّلَمُ

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون آمَنَّا بالله وبالرسولِ وأطعْنَا
ثم يَتَوَلَّى فريقٌ منهم من بعد ذلك
وما أولئك بالمؤمنين ﴾ .

---

(١) وردت (تربة) والصواب أن تكون (تريبة) الأم وهى عظمة الصدر مما يلى الترقوتين والجمع ترائب .

(٢) الشلو = العضو .

يستسلمون فى الظاهر ويُقِرُّون باللسان ، ، ثم المخاص يبقى على صدقه .

والذى قال لخوفِ سيفِ المسلمين ، أو لِغَرَضٍ له آخر فاسد يتولّى بعد ذلك ، وينحاز إلى جانب الكَفَرَة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِهِ لِيَحْكُمَ بينهم إذا فَرِيقٌ منهم مُعْرِضُون ﴾

علموا أن افتضاحهم فى حكم نبيّهم ، فمن عَلِمَ أنه قاسط فى خصومته لم يَطِبْ نَفْساً بحُكْمِهِ . وكذلك المريبُ يَهْرَبُ من الحقِّ ، ويجتهد فى الفرار[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ يَكُنْ لهم الحقُّ يأتُوا إليه مُذْعِنِين ﴾ .

منقادين يميلون مع الهوى ، ولا يقبلون حُكمه إيماناً . وكذلك شأن المريض الذى يميل بين الصحة والسقم ؛ فأرباب النفاق مترددون بين الشك والعلم ، فليس منهم نَفْيٌ بالقطع ولا إثباتٌ بالعلم ، فهم متطوِّحون فى أودية الشك ، وهذا معنى قوله :

﴿ أفى قلوبهم مَرَضٌ أم ارتابوا أم يخافون أنْ يحيفَ اللهُ عليهم ورسولُه بل أولئك هم الظالمون ﴾ .

فلمَّا انخرطوا فى سلك التجويز ما حصلوا إلا فى ظُلْمِ الشك ، ولما لم يكن لهم يقينٌ فى القلب لم يكن معهم لأهل القلوب ذكر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهِ لِيَحْكُم بينهم أنْ يقولوا سمعنا وأطَعْنا وأولئك هم المُفلِحون ﴾ .

---

(١) ذكر الواحدى فى « أسباب النزول » ص ٢٢١ ان هذه الآية نزلت فى بشر المنافق وخصمه اليهودى حين اختصما فى ارض ، فجعل اليهودى يجره إلى رسول الله (ص) ليحكم بينهما ، وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف ويقول : إن محمدا يحيف علينا . . . إلخ .

الذين إيمانهم حقيقةً بحكم التصديق شأنُهم قيامُهم بإظهار ما ضمنوه من التحقيق . ومن يُقَابِلْ أمرَ الله بالطاعة ، ويستقبلْ حُكمه بالاستخذاء .. فأولئك هم الصادقون فى الحقيقة ، السالكون فى الطريقة ، الآخذون بالوثيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لَئِنْ أمرتهم لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعةٌ معروفةٌ إن الله خبيرٌ بما تعملون ﴾ .

أقسموا بالله غاية اليمين ، ووعدوا من أنفسهم الطاعة لو أمرهم بالخروج فى المستقبل ، فقال : لا تَعِدُوا بما هو معلومٌ منكم ألا تفوا به ، فطاعةٌ فى الوقت أَوْلى من تسويفٍ بالوعد .

ثم قال : قُلْ يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .. فان أجابوا سَعِدُوا فى الدارين ، وأحسنوا إلى أنفسهم . وإنْ تَوَلَّوْا عن الإجابة فما أضَرُّوا إلا بأنفسهم ويكون الندم فى المستقبل عليهم ، وسوف يَلْقَوْنَ سوء عواقبهم ، وليس على الرُسلِ إلا حُسْنُ البلاغ . ويومَ الحشرِ يُعْطَى كُلُّ أحدٍ كتابَه ، ويُعامَلُ بمقتضى حساب نَفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهم فى الأرض كما استخلَفَ الذين مِنْ قَبْلِهم ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهم الذى ارتضى لهم ولَيُبَدِّلَنَّهم من بعدِ خوْفِهم أمْناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومَنْ كَفَرَ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

وَعْدُ الله حقٌّ وكلامُه صدقٌ ، والآية تدل على صحة الخلفاء الأربعة لأنه — بالإجماع —

لم يتقدمهم فى الفضيلة — إلى يومنا — أحدٌ[1] ؛ فأولئك مقطوعٌ بإمامتهم ، وصدَق وعدُ الله فيهم ، وهم على الدين المرضىِّ من قِبلِ الله ، ولقد أُمِنُوا بعد خوفهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، والذَّبِّ عن حوزة الإسلام أحسنَ قيام .

وفى الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان المِـلَّة ودعائم الإسلام ، الناصحون لعباده، الهادون مَنْ يسترشِدُ فى الله ؛ إذ الخلَلُ فى أمر المسلمين من الولاةِ الظَّلَمَة ضَرَرُه مقصورٌ على مايتعلَّق بأحكام الدنيا ، فأما حفَّاظُ الدين فهم الأئمة من العلماء وهم أصناف :

قومٌ هم حفَّاظُ أخبار الرسول عليه السلام وحفَّاظُ القرآن وهم بمنزلة الخزَنةِ ، وقوم هم علماء الأصولِ الرادُّون على أهلِ العِناد وأصحابِ البِدَع بواضح الأدلة ، وهم بطارِقةُ الإسلام وشجعانُه .

وقوم هم الفقهاء المرجوعُ إليهم فى علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المصاهرات وحكم الجراحات والدِّيَّات ، وما فى معانى الأَيْمانِ والنذور والدعاوى ، وفصل الُحـكم فى المنازعات وهم فى الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين فى المُلْك .

وقوم هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم فى الدِّين كخواصِّ الملِك وأعيان مجلس السلطان ؛ فالدين معمورٌ بهؤلاء — على اختلافهم إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَحسبَنَّ الذين كفروا مُعْجِزِين فى الأرضِ ومأواهم النارُ ولَبِئْسَ المصيرُ ﴾ .

إنَّ الباطلَ قد تـكون له دولةٌ ولـكنها تخييل — وما لذلك بقاء — وأقلُّ لُبْثاً من عارضٍ ينشأ عن الغيظ .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لِيَسْتَـأذِنكم الذين مَلَـكتْ أيمانُكم والذين لم

(١) فى م بعدها (وما بعدهم مختلف فيهم) .

يَبْلُغُوا الْحُلُم منكم ثلاثَ مراتٍ من قبل صلاة الفجر ... » [1]

ضيّق الأمر من وجهٍ ووسَّعَه من وجهٍ ، وأمر بمراعاة الاحتياط وحسن السياسة لأحكام الدين ومراعاة أمر الحُرَم ، والتحرر من مخاوف الفتنة ، وإذا كانت الجوانبُ محروسةً صارت المخاوفُ مأمونة.

قوله جل ذكره : ﴿ والقواعِدُ من النساء اللاتى لا يرجون نِـكاحا فليس عليهن جُنَاحٌ أن يَضَعْنَ ثيابَهن غيرَ متبرجاتٍ بزينةٍ وأن يَسْتَعْفِفْنَ خـيرٌ لهُنَّ والله سميعٌ عليم ﴾ .

يحدث تأثيرٌ بالمضَرّة لبناتِ الصدور من دواعى الفتنة واستيلاء سلطان الشهوة ؛ فإذا سَكَـنَتْ تلك الثائرة سَهُل البابُ ، وأُبيحت الرُّخَصُ وأُمِنَتْ الفتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرجِ حرَجٌ ولا على المريضِ حرَجٌ ولا على أنفُسِـكم أنْ تأكلوا مِنْ بيوتِـكم أو بيوتِ آبائِـكم ﴾.

إذا جاءت الأعذارُ سهُلَ الامتحانُ والاختيارُ ، وإذا حصلت القرابةُ سقطت الحشمة ، وإذا صدقت القرابة انتفت التفرقة والأجنبية ؛ فبشهادة هذه الآية إذا انتفت هذه الشروط صَحَّتْ المباسطة فى الارتفاق .

---

(١) ذكر ابن عباس أن الرسول (ص) وجّه غلاما من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك ، فقال : يا رسول الله : وددت لو ان الله تعالى أمرنا ونهانا فى حال الاستئذان ، فنزلت هذه الآية .

وقال مقاتل نزلت فى أسماء بنت مرثد حين دخل عليها غلام كبير فى وقت كرهته فشكت إلى رسول الله ، فأنزل الله هذه الآية .

(٢) بنات الصدور تعبير بالـكناية عن الأسرار والخواطر .

ثم قال : « أو صديقكم » : وعزيزٌ منْ يصدُقُ فى الصداقة ؛ فيكون فى الباطن كما يُرَى فى الظاهر ، ولا يكون فى الوجه كالمرآة ومِنْ ورائك كالمقراض ، وفى معناه ماقلت :

مَنْ لى بمن يثق الفؤاد بودِّه ... فاذا ترحَّلَ لم يزغ عن عهده

يا بؤس نفسى من أخٍ لى باذلٍ ... حسنَ الوفاء بوعده لا نَقْدِه

يُولِى الصفاء بنُطْقِه لا خُلقه ... ويدسُّ صاباً فى حلاوة شَهْده

فلسانُه يبدى جواهر عقده ... وجَنانه تغلى مراجلُ حقده

لاهُمَّ إنى لا أطيق مِراسَه ... بك أستعيذ من الحسود وكيده

(وقوله : « أوصديقكم » مَنْ تؤْمَنُ منه هذه الخصال وأمثالها)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فاذا دَخَلْتُم بيوتاً فَسَلِّمُوا على أنْفُسِكم تحيةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مبارَكةً طَيِّبَةً كذلك يُبيِّنُ اللهُ لكم الآياتِ لعلكم تَعْقِلُون ﴾

السلامُ الأمانُ ، وسبيلُ المؤمن إذا دخل بيتاً أن يُسلِّمَ مِنَ اللهِ على نَفْسِه ؛ أى يطلب الأمانَ والسلامةَ من الله لِتَسلَمَ نَفْسُه من الإقدام على ما لا يرضاه الله ، إذ لا يحل لمُسلِمٍ أَنْ يفْتُرَ لحظةً عن الاستجارة بالله حتى لا يرفع عنه — سبحانه — ظِلَّ عِصْمَتِه؛ بإدامة حِفْظِه عن الاتصاف بمكروهٍ فى الشرع[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّما المؤمنون الذين آمنوا باللهِ ورسولِه وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذِنوه إن الذين يستأذِنونك أولئك الذين يؤمنون باللهِ ورسولِه ، فإذا استأذنوك

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

(٢) فى هذه الإشارة غمز بأصحاب البدع الذين يرتكبون ما يخالف الشرع بدعوى الوله والانمحاء .

لِبَعْض شأنهم فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ
منهم واستَغْفِرْ لهم اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ
رحيم ﴾

شرطُ الاتباع موافقةُ المتبوعِ ، وألا يتفرقوا فيصيروا أحزاباً كما قال : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى »[1] والعلماء وَرَثَةُ الأنبياءِ ، والمريدون لشيوخهم كالأُمّةِ لنبيّهم ، فَشَرْطُ المريدِ ألا يَتَنَفَّسَ بِنَفَسٍ إلا بإذن شيخه ، ومَنْ خالَفَ شيخَه في نَفَسٍ — سراً أو جَهْراً — فإنه يرى غِبَّه سريعاً في غير ما يُحِبُّه . ومخالفةُ الشيوخِ فيما يستمرونه[2] عنهم أشدُّ مِمَّا يظهر بالجهر بكثير لأن هذا يلتحق بالخيانة . ومَنْ خالَفَ شيخَه لا يَشُمُّ رائحةَ الصِّدقِ ، فإن بَدَرَ منه شيء من ذلك فعليه بسرعة الاعتذارِ والإفصاحِ عمّا حصلَ منه من المخالفة والخيانة ، لِيَهْدِيَه شيخُه إلى ما فيه كفّارةُ جُرْمه ، ويلتزم في الغرامة بما يحكم به عليه . وإذا رجع المريدُ إلى شيخه بالصدق وَجَبَ على شيخه جبرانَ تقصيره بهمته ؛ فإن المريدين عِيالٌ على الشيوخ ؛ فُرِضَ عليهم أن يُنْفِقُوا عليهم من قُوَّةِ أحوالهم بما يكون جبراناً لتقصيرهم .

قوله جل ذكره : ﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرسولِ بَيْنَكم
كَدُعاءِ بعضِكم بَعْضاً قد يَعْلَمُ اللهُ
الذين يَتَسَلَّلُون منكم لِوَاذاً ﴾

أي عَظِّموه في الخطاب ، واحفظوا في خدمته الأدبَ ، وعانِقوا طاعتَه على مراعاةِ الهيبة والتوقير .

قوله جل ذكره : ﴿ فليحذَرِ الذين يُخَالِفون عن أَمْرِه[3]
أَنْ تُصيبَهم فتنةٌ أو يُصيبَهم
عذابٌ أليم ﴾

---

(١) آية ١٤ سورة الحشر .

(٢) في ص (يستبشرونه) وفي م (يستسترونه) ونحن نؤيد هذه حتى تتلاءم مع (ما يظهر بالجهر) فينتظم السياق بها .

(٣) يقال خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه .

سعادة الدارين فى متابعة السُّنَّة ، وشقاوة المنزلين فى مخالفة السُّنَّة . ومنْ أيسَرِ ما يُصيب مَنْ خالَفَ سُنتَه حرمانُ الموافقة ، وتعذُّرُ المتابعة بعده ، وسقوط حشمة الدارين عن قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مافى السموات والأرضِ قد يَعْلَمُ ماأنتم عليه ويومَ يُرْجَعُون[1] إليه فَيُنَبِّئُهم بما عَمِلُوا والله بكلِّ شىءٍ عليم ﴾[2]

إنَّ لليوم غداً ، ولِمَا يفعلُ العبدُ حساباً ، وسيُطالَبُ المكلَّفُ بالصغيرِ والكبيرِ ، والنقيرِ والقطميرِ .

سورة الفرقان

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله اسم جليل شهدت بجلاله أفعالُه ، ونَطَقَتْ بجماله أفضالُه . دَلَّتْ على إثباتِه آياتُه ، وأخْبَرَتْ عن صفاتِه مفعولاتُه .

بسم الله اسم عزيز عُرِفَتْ بفعله قدرتُه ، اسم كريم شَهِدَتْ بفضله نصرته .

بسم الله اسم عزيز عَرَفَه العقلاء بدلالات أفعاله ، وعَرَفَه الأصفياء باستحقاقه لجلاله وجماله ؛ فبلطف جماله عرفوا جودَه ، وبكشف جلاله عرفوا وجودَه .

بسم الله اسم عزيز مَنْ دعاه لبَّاه ، ومَنْ توكل عليه كفاه ، ومَنْ توسَّلَ إليه أكرمه وآواه ، ومن تَنَصَّلَ إليه[3] رَحِمَه وأدناه ، ومن شكا إليه أشكاه[4] ، ومن سأله خوَّله وأعطاه .

---

(١) وفى قراءة (يَرجعون) بفتح الياء وكسر الجيم .

(٢) يروى أن ابن عباس رضى الله عنه قرأ سورة النور على المنبر فى الموسم وفسرها على وجه لو سمعت الروم به لأسلمت .

(٣) تنصل إليه هنا معناها تبرأ من ذنبه وتاب .

(٤) أشكى أى قبلَ الشكاة وأعان الشاكى .

قوله جل ذكره : ﴿ تبارك الذى نَزَّلَ الفُرقانَ علَى عَبْدِه لِيَكونَ للعالمين نذيراً ﴾

يقال بَرَكَ الطيرُ على الماء إذا دام وقوفُه على ظهر الماء . ومَبارِكُ الإبلِ مَواضِعُ إقامتها بالليل . وتبارك على وزن تَفاعَل تفيد دوامَ بقائه ، واستحقاقه لِقِدَمِ ثبوته وبقاء وجوده لا عن استفتاحٍ ولا إلى انقطاع .

وفى التفاسير « تبارك » أى تعظَّمَ وتكبَّر . وعند قومٍ أنه من البركة وهى الزيادة والنفع ، فدوامه وجودُه ، وتكبره استحقاق ذاته لصفاته العلية ، والبركة أو الزيادة تشير إلى فَضْلِه وإحسانه ولُطْفِه .

فوجوهُ الثناء عليه تنحصر بهذه الأوجه الثلاثة : ثناء عليه بذكر ذاته وحقِّه ، وثناء بذكر وصفه وعِزِّه ، وثناء بذكر إحسانه وفضله ؛ فكلمةُ « تبارك » مجمعُ الثناء عليه — سبحانه .

« الذى نَزَّل الفرقان » وهو القرآن « على عبده » : فأكرمه بأن نَبَّأه وفَضَّلَه ، وإلى الخَلْق أرسله ، وبَيَّنَ مُعجِزَته وأمارةَ صِدْقه بالقرآن الذى عليه أنزله ، وجعله بشيراً ونذيراً ، وسراجاً منيراً .

قوله جل ذكره : ﴿ الذى له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ ﴾

تَفَرَّدَ بالمُلْكِ فلا شريكَ يساهمه ، وتَوَحَّدَ بالجلالِ فلا نظيرَ يُقاسِمُه ؛ فهو الواحد بلا قسيمٍ فى ذاته ، ولا شريكٍ فى مخلوقاته ، ولا شبيهٍ فى حَقِّه ولا فى صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ واتخذوا من دونه آلِهَةً لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون ولا يَمْلِكُون لأَنْفُسِهِم ضَرّاً ولا نَفْعاً ولا يَمْلِكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ﴾

اتخذوا من دون اللهِ آلهةً لا يملكون قطميراً ، ولا يخلقون نقيراً ، ولا يدفعون عنهم

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا إنْ هذا إلاَّ
إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون
فقد جاءوا ظُلماً وزوراً * وقالوا
أساطيرُ الأولين اكْتَتَبَهَا فهى
تُمْلَى عليه بُكْرَةً وأصيلاً * قُلْ
أنزله الذى يعلم السِّرَّ فى السموات
والأرضِ إنَّه كان غفوراً رحيماً ﴾

ظنُّوه كما كانوا ، ولمَّا كانوا بأمثالهم قد استعانوا فيما عجزوا عنه من أمورهم ، واستحدثوا لأمثالهم واستكانوا — فقد قالوا من غير حُجَّةٍ وتَقَوَّلُوا ، ولم يكن لقولهم تحصيل ، ولأَساطيرُ الأولين تُرَّهاتُهم[2] التى لا يُدْرَى هل كانت ؟ وإن كانت فلا يُعْرَفُ كيف كانت ومتى كانت ؟

ثم قال : يا محمد ، إن هذا الكتابَ — الذى أنزله الذى يعلم السِّرَّ فى السموات والأرض — لا يَقْدِر أحد على الإتيان بمثله ولو تشاغلوا[3] من الوقت الذى أتى به أعداء الدين ، وهم على كثرتهم مجتهدون فى معارضته بما يوجب مساواته ، فادَّعوا تكذيبه . وانقطعت الأعصار وانقضت الأعمار ، ولم يأتِ أحدٌ بسورة مثله ، فانتفى الرَّيْبُ عن صِدْقِه ، ووَجَبَ الإقرارُ بحقِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا ما لِهَذا الرسولِ يأْكلُ الطَّعامَ

---

(1) هكذا فى م وهى فى ص (حياة ولا نشورا) والمعنى يتقبلهما أيضاً .
(2) هكذا فى م وهى فى ص (برهانهم الذى ...) ولكننا آثرنا (ترهاتهم) بدليل التانيث فى (كانت) مكرراً .
(3) هكذا فى ص وهى فى س (ولو تساعدوا) .

ويَمْشِي فى الأسواقِ لولا أُنْزِلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً * أو يُلْقَى إليه كَنْزٌ أو تكونَ لَهُ جَنَّةٌ يأكلُ منها وقال الظالمون إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً * أُنْظُرْ كيف ضربوا لَكَ الأمثالَ فَضَلُّوا فلا يَسْتَطِيعُونَ سبيلاً * تَبَارَكَ[1] الذى إنْ شاء جَعَلَ لَكَ خيراً من ذلك جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ ويجعل لَكَ قُصُوراً *

لما عجزوا عن معارضته أخذوا يعيبونه بكونه بَشَراً من جنسهم يمشى فى الأسواق، ويأكل الطعام، وعابوه بالفقر وقالوا: هَلاَّ نَزَّلَ عليه الملائكةَ فيَرَوْنَ عياناً؟ وهلاَّ جعل له الكنوزَ فاستكثر مالاً؟ وهلاَّ خُصَّ بآياتٍ — اقترحوها — فتَقْطَعَ العُذْرَ وتُزِيلَ عنَّا إشكالا؟! وما هذا الرجلُ إلا بشرٌ تعتريه مِنْ دواعى الشهوات ما يعترى غيره! فأيُّ خصوصيةٍ له حتى تلْزَمَنَا متابعَتُه ولن يُظْهِرَ لنا حجةً؟ فأجاب الله عنهم وقال: إنَّ الحقَّ قادرٌ على تمليكك ما قالوا وأضعافَ ذلك، وفى قدرته إظهارُ ما اقترحوه وأضعافُ ذلك، ولكن ليس لهم هذا التخير[2] بعد ما أزيح العذرُ بإظهار معجزة واحدة، واقتراح ما يَهْوَوْنَ تحكُّمٌ على التقدير، وليس لهم ذلك. ثم أخبر أنه لو أظهر تفصيل ما قالوه وأضعافه لم يؤمنوا؛ لأن حُكْمَ الله بالشقاوة سابق لهم، وقال:

---

(١) يذكر ابن عباس أنه لما عير المشركون محمداً (ص) بالفاقة أقبل رضوان خازن الجنة عليه وقال: يا محمد، رب العزة يقرئك السلام ويقول لك: هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينتقص لك مما عنده فى الآخرة مثل جناح بعوضة فقال النبي: يا رضوان لا حاجة لى فيها، لأحب إلى أن أكون عبداً صابراً شكوراً فقال رضوان: أصبت أصابك الله. ورفع الرسول بصره فإذا منازله فوق منازل الأنبياء وغرفهم فدعا النبي: اللهم اجعل ما أردت أن تعطينى فى الدنيا ذخيرة عندك فى الشفاعة يوم القيامة.

(٢) يمكن أن تكون (التخير) لتنسجم مع (ما اقترحوه) ومع (ما يهوون) ولكننا لا نستبعد أن تكون (التحيز) بالحاء لكثرة جدلهم حول ما ينبغى — فى تصورهم — للرسول.

﴿ بل كذَّبوا بالساعةِ وأعتَدْنا لِمَنْ
كذَّبَ بالساعةِ سعيراً ﴾ .

فهم فى حُكم الله من جملة الكفار ، والله أعَدَّ لهم ولأمثالهم من الكفار وعيدَ الأبدِ . .
فلا محالة يُمْتحنون به .

قوله : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضَلُّوا فلايستطيعون سبيلا » : دليلٌ على جواز
التكليف بما لا يقدر عليه العبدُ فى الحالِ ، لأنه أخبر أنهم لا يستطيعون سبيلاً ، وهم
معاتبُون مُكَلَّفُون .

قوله جل ذكره : ﴿ إذا رَأَتْهُم مِنْ مكانٍ بعيدٍ سَمِعُوا
لها تَغَيُّظاً وزَفيراً ﴾ .

فوحشةُ النارِ توجد من مسافة بعيدة قبل شهودِها والامتحان بها ، ونسيمُ الجنة يوجد
قبل شهودِها والدخولِ فيها ، والنار تُسَجَّر منذ سنين قبل المحترقين بها ، والجنة تُزَيَّن منذ
سنين قَبْلَ المستَمتِعين بها . وكذَبَ مَنْ أحال[1] وجودهما قبل كون سكانهما وقطانهما من
المنتفعين أو المعاقبين ، لأن الصادق أخبر عن صفاتهما التى لا تكون إلا بوجود حيث قال :

﴿ وإذا أُلْقُوا مِنها مكاناً ضَيِّقاً
مُقَرَّنين دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً *
لا تَدْعُوا اليومَ ثُبُوراً واحِداً
وادعوا ثُبُوراً كثيراً ﴾ .

راحةُ الجنة مقرونة بسعتها ، ووحشة النار مقرونة بضيقها ، فيُضيِّق عليهم مكانَهم ،
ويضيِّق عليهم قلوبهم ، ويضيق عليهم أوقاتهم . ولو كانت حياتُهم تبطل وكانوا يتخلصون

(١) لهذا الرأى أهميته حيث يرى كثير من المعتزلة أن الجنة والنار لا يوجدان الآن وإنما يوجدان فى الآخرة عند الجزاء ، واجمع المعتزلة — بخلاف جهم وحده — أنهما لا تفنيان ولا يفنى أهلهما ، وهم في هذا يتفقون مع الأشاعرة . أما مخالفة جهم لذلك فقد ذكرها الشهرستانى فى (الملل والنحل ج ١ ص ١١١ ط الخانجى) بدعوى أن تلذذ أهل الجنة بنعيمها وتألم أهل النار بجحيمها حركات تتناهى مع أن نصوص القرآن صريحة فى دوامهما . . والقشيرى الأشعرى يصرح بذلك فى الآيات التالية .

منها لم يكن البلاء كاملاً، ولكنها آلام لا تتناهى، ومِحَنٌ لا تنقضى ؛ كلما راموا فرجةً قيل لهم : فلن نزيدكم إلا عذاباً .

قوله جل ذكره ﴿ قُلْ أذلكَ خيرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ التى وُعِدَ المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً ﴾

المتقون أبداً فى النعيم المقيم ؛ حور وسرور وحبور ، ورَوْحٌ وريحان ، وبهجة وإحسان ، ولطف جديد وفضل مزيد ، وألذُّ شرابٍ وكاساتُ محابٍّ ، وبسطُ قلبٍ وطيبُ حالٍ ، وكمال أُنْسٍ ودوام طرب وتمام جَذَلٍ ، لباسهم فيها حرير وفراشهم سندس وإستبرق . والأسماء أسماء فى الدنيا والأعيان بخلاف المعهودات فيها[1]. ثم فيها ما يشاءون ، وهم أبداً مقيمون لا يبرحون ، ولا هم عنها يخرجون .

قوله جل ذكره : ﴿ لهم فيها ما يشاءون ﴾ .

ولكن لا يخلق فى قلوبهم إلا إرادةَ ما عَلِمَ أنه سيفعله ، فما هو المعلوم لله أنه لا يفعله لا تتعلق به إرادتُهم ، ويمنع من قلوبهم مشيئتَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يَحْشُرُهم وما يَعْبُدُون مِنْ دونِ اللهِ فيقولُ أأنتم أَضْلَلْتُم عِبادِى هؤلاءِ أَمْ هُمْ ضلُّوا السبيل ﴾.

اللهُ يحشرُ الكفارَ ويحشر الأصنامَ التى عبدوها من دون الله ، فَيُحْيِيها ويقول لها : هل أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ فيتبرأون . . كلُّه تهويلٌ وتعظيمٌ للشأن ، وإلا فهو عليم بما كان وما لم يكن . فالأصنامُ تتبرأ منهم ، وتقابلهم بالتكذيب ، وهم ينادون على أنفسِهم بالخطأِ والضلالِ ، فيُلْقَوْن فى النار ، ويَبْقَوْنَ فى الوعيد إلى الأبد .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إلا إنَّهم ليأكُلُونَ الطَّعامَ ويَمْشُون فى الأسواقِ ﴾ :

---

(١) هذا تنبيه هام جداً لتوضيح حقيقة النعم التى فى الآخرة .

أخبر أن الذين تقدَّموه من الرسل كانوا بَشَراً ، ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهورَ المعجزات عليهم . وفى الجملة الفضائل بالمعانى لا بالصورة ، ثم قال :

« وجعلنا بعضَكم لِبَعْضٍ
فِتْنَةً أتَصْبِرون وكان ربك
بصيراً » .

(فَضَّلَ بعضاً على بعض ، وأمر المفضولَ بالصبر والرضاء ، والفاضلَ بالشكر على العطاء)(١) وخصَّ قوماً بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء ، وخصَّ قوماً بالعوافى ، وآخرين بالأسقام والآلام ، فلا لِمَن نَعَّمَه مناقب ، ولا لِمَنْ امتحنه معايب . . فبحُكمِه لا بِجُرْمهم ، وبفضله لا بفعلهم ، وبإرادته لا بعبادتهم ، وباختياره لا بأوضارهم ، وبأقداره لا بأوزارهم ، وبه لا بهم .

قوله : « أتصبرون ؟ » استفهام فى معنى الأمر ، فَمَنْ ساعَدَه التوفيقُ صبر وشكر ، ومن قارنه الخذلان أبى وكفر .

قوله جل ذكره : ﴿وقال الذين لا يَرْجُون لقاءنا لولا
أُنْزِل علينا الملائكة أَوْ نَرَى
ربَّنا لقد استكبروا فى أنفُسِهم وعَتَوْا
عُتُوًّا كبيراً﴾ .

« لا يرجون لقاءنا » : لا يؤمنون بالحشر والنشر والرجوع إلى الله فى القيامة من الدنيا . وكما كانوا لا يخافون العذابَ ، ولا ينتظرون الحَشْرَ كذلك كانوا لا يؤمنون لقاء الله . فَمُنْكِرُ الرؤيةِ من أهل القِبْلةِ — ممن يؤمِن بالقيامة والحشر — مُشَارِكٌ لهؤلاء فى جُحْدِ ما وَرَدَ به الخبرُ والنقلُ ؛ لأن النقْلَ كما وَرَدَ بكوْنِ الحَشْرِ وَرَدَ بكون الرؤية لأهل الإيمان(٢) .

فالذين لم يؤمنوا قالوه على جهة رؤية المقام لأنفسهم ، وأنه مُسَلَّمٌ لهم ما اقترحوه من نزول

---

(١) ما بين القوسين فى م وغير موجود فى ص .

(٢) يعود القشيرى بعد قليل إلى شرح موضوع الرؤية عند تفسيره الآية : « وكفى بربك هاديا ونصيراً »

الملائكة عليهم ورؤية ربهم . وذلك وإن كان في القدرة جائزاً — إلا أنه لم يكن واجباً بعد إزاحة عُذْرِهم بظهور معجزات الرسول عليه السلام ، فلم يكن اقتراح ما قالوه جائزاً لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ لا بُشْرَى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حِجْراً محجوراً ﴾ .

اقترحوا شيئين : رؤيةَ الملائكةِ ورؤيةَ اللهِ ، فأخبر أنهم يرون الملائكة عند التوفي ، ولكن تقول الملائكةُ لهم : « لا بشرى لكم ! » .

« حجراً محجوراً » : أي حراماً ممنوعاً يعني رؤية الله عنهم ، فهذا يعود إلى ما جرى ذكره ، وحَمْلُه على ذلك أَوْلى من حَمْلِه على الجنة ، ولم يجرِ لها هنا ذِكْرٌ . ثم فيه بشارة للمؤمنين بالرؤية لأنهم يرون الملائكة ويبشرونهم بالجنة ، قال تعالى : « تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة »[1] فكما لا تكون للكفار بشارةٌ بالجنة وتكون للمؤمنين لا تكون الرؤيةُ للكفار وتكون للمؤمنين .

قوله جل ذكره : ﴿ وقَدِمنا إلى ما عملوا مِنْ عَمَلٍ فجعلْناه هَبَاءً منثوراً ﴾ .

هذه آفة الكفار ؛ ضاع سعيُهم وخاب جُهْدُهم ، وضاع عمرُهم وخَسِرَتْ صفقتُهم وانقطع رجاؤهم ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وأما أصحاب الحقائق وأرباب التوحيد فيلوح لقلوبهم من سماع هذه الآية ما يحصل به كمالُ رَوْحِهم ، وتتأدَّى إلى قلوبهم من الراحات ما يضيق عن وصفه شرحُهم ، ويتقاصر عن ثنائه نُطْقُهم ، حيث يسمعون قوله : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » ولقد ظهرت قيمة أعمالهم حيث قال الحقُّ لأجله : « وقدمنا إلى ... » فَهُمْ إذا سمعوا ذلك وَجَبَ لهم من الأريحية ما يشغلهم عن الاهتمام لقوله : « فجعلناه هباءً منثوراً » ويقولون : ياليت

---

(١) آية ٣٠ سورة فصلت .

لنا أعمال أهل الدارين ثم لا تُقْبَلُ منها ذرةٌ وهو يقول بسببها : وقدمنا إلى ماعملوا من عمل . . . » ؛ لأنهم إذا تخلصوا من مواضع الخلل وموجبات الخجل من أعمالهم عدُّوا ذلك من أجلِّ ماينالون من الاحسان إليهم[1] ، وفي معناه أنشدوا :

سأرجع من حجٍّ عاصٍ مُخْجَلاً لأنَّ الذى قد كان لا يُتَقَبَّلُ[2]

قوله جل ذكره : ﴿ أصحابُ الجنةِ يومئذٍ خيرٌ مستقراً وأحسنُ مقيلاً ﴾ .

أصحابُ الجنةِ هم الراضون بها ، الواصلون إليها ، والمُكتَفون بوجدانها ، فحسُنَتْ لهم أوطانُهم ، وطابَ لهم مستقرُّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ تَشَقَّقُ السماء بالغمامِ ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلا ﴾ .

يريد يومَ القيامة إذا بَدَتْ أهوالُها ، وظَهَرت للمبعوثين أحوالُها عَلِموا وتحققوا — ذلك اليومَ — أنَّ المُلْكَ للرحمن ، ولم يتخصص ملكُه بذلك اليوم ، وإنما علمُهم ويقينهم حَصَلَ لهم ذلك الوقت .

ويقال تنقطع دواعى الأغيار ، وتنتفى أوهامُ الخلْق فلا يتجدَّدُ له — سبحانه — وصفٌ ولكن تتلاشى للخلْق أوصاف ، وذلك يومٌ على الكافرين عسير ، ودليلُ الخطابِ يقتضى أنَّ ذلك اليوم على المؤمنين يسيرٌ وإلا بطل الفرقُ ؛ فيجب ألا يكون مؤمن إلاَّ وذلك اليوم يكون عليه هيناً .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يَعَضُّ الظالمُ على يَدَيْه[3]

---

(١) هذه إشارة دقيقة غاية الدقة ، نأمل أن يفطن إليها القارىء ويستمتع بها .

(٢) معنى البيت مرتبط بالفكرة الصوفية ان عمل الإنسان لا قيمة له ، والأمل كله معقود على الفضل الإلهى ، فكلما استصغر العابد عبادته بجانب هذا الفضل شعر بقصوره وارتقى فى التجريد والتفويض منزلة بعد منزلة . . وفى هذا تقول رابعة بعد عبادة ليلة كاملة : إن استغفارنا فى حاجة إلى استغفار .

(٣) قيل نزلت هذه الآية فى ابى بن خلف ، وقد قتله الرسول (ص) يوم أحد فى مبارزة ، وقيل نزلت فى عقبة بن أبى معيط وكان محالفاً لأبىّ .

يقول ياليتنى اتخذت مع الرسولِ سبيلاً * يا وَيْلَتَا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ .

يندم الكافر على صحبة الكفار . ودليل الخطاب يقتضى سرورَ المؤمنين بمصاحبة أخدانهم وأحبائهم فى الله ، وأمَّا الكافر فيُضِلُّ صاحبَه فيقع معه فى الثبور ، ولكن المؤمن يهدى صاحبه إلى الرشد فيصل به إلى السرور .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الرسولُ ياربِّ إنَّ قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ .

شكا إلى الله منهم ، وتلك سنَّةُ المرسلين ؛ أخبر الله عن يعقوب — عليه السلام — أنه قال : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » فمَنْ شكا من الله فهو جاحد ، ومنْ شكا إلى الله فهو عارف واجد .

ثم إنه أخبر أنه لم يُخْلِ نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم إلا سلَّطَ عليه عَدُوَّاً فى وقته ، إلا أنَّه لم يغادِرْ من أعدائِهم أحداً ، وأذاقهم وبالَ ما استوجبوه على كفرهم وغَيِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وكفى بربِّكَ هادِياً ونصيراً ﴾ .

كفى بربك اليوم هادياً إلى معرفته ، وغداً نصيراً على رؤيته .

ويقال آخر فتنة المؤمنين ماورد فى الخبر : أن كل أمة ترى فى القيامة الصنم الذى عبدوه يتبعونه فيحشرون إلى النار ، فيُلْقَوْن فيها ويبقى المؤمنون ، فيقال لهم : ماوقفكم ؟ فيقولون : إنهم رأوا معبودهم فتبعوه ونحن لم نرَ معبودنا ! فيقال لهم : ولو رأيتموه . . فهل تعرفونه ؟ فيقولون : نعم . فيقال لهم : بِمَ تعرفونه ؟

فيقولون : بيننا وبينه علامة . فيريهم شيئاً فى صورة شخص فيقول لهم : أنا معبودكم . فيقولون : معاذ الله . . نعوذ بالله منك ! ماعبدناك . فيتجلَّى الحقُّ لهم فيَسجدون له .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جُملَةً واحدة كذلك لِنثبِّتَ به فؤادَك وَرَتَّلْناه ترتيلا ﴾ .

أى إنما أنزلناه متفرقاً ليسهُل عليك حِفْظُه ؛ فإنه كان أمياً لايقرأ الكتب ، ولأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل عليه السلام بالرسالة إليه فى كل وقت وكل حين . . وكثرةُ نزوله كانت أُوجبَ لسكون قلبه وكمال رَوْحه ودوام أُنْسه[1] ، فجبريل كان يأتى فى كل وقت بما كان يقتضيه ذلك الوقتُ من الكوائن والأمور الحادثة ، وذلك أبلغُ فى كونه معجزةً ، وأبعدُ عن التهمة من أن يكون من جهة غيره ، أو أن يكون بالاستعانة بمن سواه حاصلا[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يأتونك بِمَثَلٍ إلا جِئْناكَ بالحقِّ وأَحسَنَ تفسيراً ﴾ .

كان الجوابُ لما يوردونه على جهة الاحتجاج لهم مفحما ، ولفساد مايقولونه موضحاً ، ولكن الحقَّ — سبحانه — أجرى السُّنّة بأنه لم يزد ذلك للمسلمين إلا شِفاءً وبصيرةً ، ولهم إلا عَمىً وشبهة .

ثم أخبر عن حالهم فى مآلهم فقال :

﴿ الذين يُحْشَرُون على وُجوهِهِم إلى جَهَنَّم أولئك شَرٌّ مكاناً وأَضَلُّ سبيلاً ﴾

يحشرون على وجوههم وذلك أمارة لإهانتهم ، وإن فى الخبر : « الذين أمْشاهم اليومَ

---

(١) لأنه كتاب يحمله رسول الحبيب من الحبيب إلى الحبيب .

(٢) اى ان اتصال القرآن الكريم بحياة الناس وواقع امورهم آية كونه معجزة ؛ بعكس ما يتخرص به المضللون الملحدون الذين يدعون ان محمداً كاتب هذا القرآن ، وانه أُوتى ذكاء خارقا كان يجعله يكتب للناس ما يلبى احتياجهم ويحل مشاكلهم . . خرست السنتهم إن يقولون إلا زوراً .

على أقدامهم يُمشيهم غداً على وجوههم »[1] ، وهو على ذلك قادر ، وذلك منه غير مستحيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ
وجعلنا مَعَه أخاه هارونَ وزيراً ﴾

قَلَّما يجرى فى القرآن لنبينا — صلى الله عليه وسلم — ذِكْرٌ إلا ويذكر الله عُقَيْبَه موسى عليه السلام . وتكررت قصته فى القرآن فى غير موضع تنبيهاً على علو شأنه ، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور فالتكرير فى الذكر يوجب التفضيل فى الوصف ، لأن القصة الواحدة إذا أعيدت مراتٍ كثيرة كانت فى باب البلاغة أتمّ لا سيما إذا كانت فى كل مرة فائدةٌ زائدة[2] .

ثم بيَّن أنه قال لهما :

﴿ فقلنا اذْهَبا إلى القَوْمِ الذين
كَذَّبُوا بآياتنا فَدَمَّرْناهم تدميراً ﴾

أى فَذَهَبا فَجَحَدَ القومُ فدمرناهم تدميراً[3] أى أهلكناهم إهلاكاً ، وفى ذلك تسليةٌ للنبي — صلى الله عليه وسلم — فيما كان يقاسيه من قومه من فنون البلاء ، ووَعْدٌ له بالجميل فى أنه سَيُهْلك أعداءه كُلَّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وقومَ نوحٍ لَمَّا كَذَّبوا الرُّسُل
أغرقناهم وجعلناهم للناسِ آيةً
وأَعْتَدْنَا للظالمين عَذَاباً أليماً ﴾

أَحْلَلْنَا بهم العقوبة كما أحللنا بأمثالهم ، وعاملناهم بمثل معاملتنا لقرنائهم . ثم عَقَّبَ هذه الآيات بذكر عادٍ وثمود وأصحاب الرَّسِّ ، ومَنْ ذكرهم على الجملة من غير تفصيل ، وما أهلك

---

(١) القسم الأول من الخبر على النحو التالى : « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة اصناف : صنف على الدواب وصنف على ارجلهم وصنف على وجوههم » قيل يا رسول الله : كيف يمشون على وجوههم فقال عليه السلام : الذين أمشاهم . . . .

(٢) يضاف هذا إلى ما سبق ان نبهنا إليه عن موقف القشيرى من التكرار .

(٣) يلفت القشيرى نظرنا إلى ما يعرف فى البلاغة بإيجاز الحذف ، فقد اكتفى بذكر اول القصة واخرها وقد احسن القشيرى حين وطأ لذلك بكلام فى القصة الواحدة التى تعاد اكثر من مرة .

به قوم لوطٍ حيث عملوا الخبائث . . . كل ذلك تطييباً لقلبه صلى الله عليه وسلم ، وتسكيناً لسرِّه ، وإعلاماً وتعريفاً بأنه سيهلك مَنْ يُعاديه ، ويدمِّر مَنْ يناويه ، وقد فَعَلَ من ذلك الكثير فى حال حياته ، والباقى بعد مُضِيِّه — عليه السلام — من الدنيا وذهابه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا رَأَوْكَ إنْ يتَّخِذُونَكَ إلا هُزُواً أهـذا الذى بَعَثَ اللهُ رسولاً . . . ﴾

كانت تـكون له سلوة لو ذكر حالته وشكا إليه قصته ، فاذا أخبر اللهُ وقصَّ عليه ما كان يلاقيه كان أَوْجَبَ للسَّلْوَةِ وأقربَ من الأُنْس ، وغايةُ سلوةِ أربابِ المحن أن يذكروا لأحبائهم ما لقوا فى أيام امتحانهم كما قال قائلُهم :

يودُّ بأن يمشى سقيما لَعَلَّها إذا سمعت منه بشكوى تراسله
ويهتزُّ للمعروفِ فى طَلَبِ العلَى لتُذْكَرَ يوماً عند سلمى شمائلُه

وأخبر أنهم كانوا ينظرون إليه — عليه السلام — بعين الازدراء والتصغيرِ لشأنه ؛ لأنهم كانوا لا يعرفون قَدْرَه ، قال تعالى : « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون »(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ أرَأَيْتَ مَنْ اتخذ إلَهَه هواه أَفأَنتَ تـكون عليه وكيلا ﴾

كانوا يعبدون من الأصنام ما يَهْوَوْن ؛ يستبدلون صنماً بصنم ، وكانوا يَجْرُون على مقتضى ما يقع لهم . والمؤمنُ بِحُكْمِ اللهِ لا بحكم نفسه ، وبهذا يتضح الفرقان(٢) بين رجل وبين رجل . والذى يعيش على ما يقع له فعابِدُ هواه ، وملتحِقٌ بالذين ذكرهم الحقُّ بالسوءِ فى هذه الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ أم تَحْسَبُ أَنَّ أكثرهم يسمعون أو يَعْقِلُون إنْ هُم إلاَّ كالأَنْعامِ بل هُمْ أَضَلُّ سبيلاً ﴾

---

(١) اية ١٩٨ سورة الأعراف .

(٢) فرّقَ بين الشيئين فرقاً وفرقانا . والفرقان البرهان والحجة ، وكل مافُرِقَ به بين الحق والباطل .

كالأنعام التي ليس لها هَمٌّ إلاَّ في أَكْلَةٍ وشَرْبَة ، ومَنْ استجلب حظوظَ نَفْسِه فـكالبهائم . وإنَّ اللهَ — سبحانه — خَلَقَ الملائـكةَ وعلى العقلِ جَبَلَهم ، والبهائمَ وعلى الهوى فَطَرَهم ، وبني آدم ورَكّبَ فيهم الأَمْرَيْن ؛ فَمَنْ غَلَبَ هواه عَقْلَه فهو شرٌّ من البهائم ، ومَنْ غَلَبَ عَقْلُه هواه فهو خيرٌ من الملائـكة . . كذلك قال المشايخ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى ربِّك كيف مَدَّ الظِّلَّ ولو شاء لَجَعَلَه ساكِناً ثم جَعَلْنَا الشمسَ عليه دليلاً * ثم قَبَضْنَاه إلينا قَبْضاً يسيراً ﴾

قيل نَزَلَ الرسول — صلى الله عليه وسلم — في بعض أسفاره وقت القيلولة في ظل شجرة وكانوا خَلْقاً كثيراً فَمَدَّ اللهُ ظِلَّ تلك الشجرة حتى وسع جميعَهم وكانوا كثيرين ، فأنزل الله هذه الآية ، وكان ذلك من جملة معجزاته عليه السلام .

وقيل إن الله في ابتداء النهار قبل طلوع الشمس يجعل الأرضَ كلَّها ظلاًّ ، ثم إذا طلعت الشمسُ ، وانبسط على وجه الأرض شعاعُها فـكلُّ شخصٍ يُبْسَطُ له ظِلٌّ ، ولا يُصيب ذلك الموضعَ شعاعُ الشمس ، ثم يتناقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ في الزيادة وقت الزوال . وذلك من أماراتِ قدرة الله تعالى ؛ لأنه أجرى العادة بخلق الظلِّ والضوء والفيء .

قوله : « ولو شاء لجعله ساكنا » : أي دائماً . « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » ؛ أي حال ارتفاعِ الشمْسِ ونُقصانِ الظِّلِّ .

ويقال : ألم تر إلى ربك كيف مدَّ ظل العناية على أحوال أوليائه ؛ فقومٌ هم في ظل الحماية ، وآخرون في ظل الرعاية ، وآخرون في ظل العناية ، والفقراء في ظل الـكفاية ، والأغنياء في ظل الراحة من الشكاية .

ظلٌّ هو ظل العصمة ، وظل هو ظل الرحمة ؛ فالعصمة للأنبياء عليهم السلام ثم للأولياء ، والرحمة للمؤمنين ، ثم في الدنيا لـكافة الخلائق أجمعين . ويقال قوله للنبي صلى الله عليه وسلم : « ألم تر إلى ربك » ثم قوله : « كيف مدَّ الظِّلَّ » ستراً لما كان كاشفة به أولاً ، إجراءً للسُّنَّةِ

فى إخفاء الحال عن الرقيب . قال لموسى عليه السلام : « لَن تَرانى » . وقال لنبينا عليه السلام : « ألم تر إلى ربك » وشتان ما هما !

ويقال أحيا قلبه بقوله : « ألم تر إلى ربك » إلى أن قال : « كيف مدَّ الظل » فجمل استقلاله بقوله : « ألم تر إلى ربك » إلى أن سمع ذكر الظل . ويقال أحياه بقوله : « ألم تر إلى ربك » ثم أفناه بقوله : « كيف مَدَّ الظِلَّ » وكذا سُنَّتُه مع عباده ؛ يُرَدِّدُهم بين إفناءٍ وإبقاء .

قوله جل ذكره : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِباساً والنومَ سُباتاً[1] وجعل النهارَ نُشُوراً﴾

جعل الليلَ وقتاً لسكون قومٍ ووقتاً لانزعاج آخرين ؛ فأربابُ الغفلة يسكنون فى ليلهم ، والمحبون يسهرون فى ليلهم إنْ كانوا فى رَوْحِ الوصال ، فلا يأخذهم النومُ لكمال أُنْسِهم ، وإن كانوا فى ألم الفراق فلا يأخذهم النوم لكمال قلقهم ، فالسَّهرُ للأحباب صِفَةٌ : إمَّا لكمال السرور أو لهجوم الهموم . ويقال جعل النومَ للأحباب وقتَ التجلِّى بما لا سبيلَ إليه فى اليقظة ، فإذا رَأَوْا ربَّهم فى المنام يؤْثِرون النومَ على السَّهر[2] ، قال قائلهم :

وإنى لَأَستغفى ومابِى نَعْسَةٌ لعلَّ خيالاً منك يلقى خياليا

وقال قائلهم :

رأيتُ سرورَ قلبى فى منامى فأحببتُ التَّنَعُّسَ والمناما

ويقال النوم لأهلِ الغفلة عقوبةٌ ولأهلِ الاجتهادِ رحمةٌ ؛ فإن الحقَّ — سبحانه — يُدْخِلُ عليهم النومَ ضرورةً رحمةً منه بنفوسهم ليستريحوا من كَدِّ المجاهدة .

قوله جل ذكره : ﴿وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرياحَ بُشْرَى بَيْنَ يَدَىْ رحمتِه وأَنْزَلْنا من السماءِ ماءً طَهُوراً﴾

---

(١) السبت = القطع . والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته . وقيل السبات = الموت ، والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة . وهو كقوله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل » ، ويعضده ذكر النشور فى مقابلته .

(٢) ذكر القشيرى فى باب « رؤيا القوم » برسالته امثلة كثيرة للكرامات التى تحققت للأولياء اثناء نومهم ، وكان بعضها ذا تاثير عظيم فى مجرى حياتهم . (الرسالة ص ١٩٢ وما بعدها) .

يُرْسِلُ رياحَ الكَرَم فتهب على قلوب ذوى الحاجات فتزعجها إلى طلب مبارِّه ، ويرسل رياحَ الولاية فتهب على قلوب الخواص فتطهرها من جميع الإرادات فتُشكَى بالله لله ، ويرسِلُ رياحَ الخوفِ على قلوبِ العُصَاةِ فتحملهم على النَّدَمِ ، وتطهرها من الإصرار فترجع إلى التوبة ، ويرسل رياح الاشتياق على قلوب الأحباب فتزعجها عن المساكنات ، وتطهرها عن كل شيء إلا عن اللواعج فلا تستقِرُّ إلا بالكشف والتجلِّي .

ويقال إذا تَنَسَّمَ القلبُ نسيمَ القُرْبِ هَامَ فى ملكوت الجلال ، وامتحى عن كل مرسومٍ ومعهود .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً *
لِنُحْيِيَ به بَلْدَةً مَيْتاً ونُسْقِيَهُ
مِمَّا خَلَقْنَا أنعاماً وأناسِيَّ كثيراً
ولقد صَرَّفْناه بينهم لِيَذَّكَّرُوا
فأبى أكثرُ الناسِ إلا كُفُوراً ﴾ .

أنزل من السماء ماء المطرِ فأحيا به الغياضَ والرياضَ ، وأنبت به الأزهار والأنوار ، وأنزل من السماء ماء الرحمةِ فَغَسَلَ العصاةُ ما تلطخوا به من الأوضار ، وما تدنَّسوا به من الأوزار .

و « الطَّهُور » هو الطاهرُ المُطَهِّرُ ، وماء الحياء يُطهِرُ قلوبَ العارفين عن الجنوح إلى المساكنات وما يتداخلها فى بعض الأحيان من الغفلات . وماء الرعاية يُحْيِي به قلوبَ المشتاقين بما يتداركها من أنوار التجلِّي حتى يزول عنها عَطَشُ الاشتياق ويحصل فيها من سكينة الاستقلال ، ويحيي به نفوساً ميتةً باتباع[1] الشهوات فيردها إلى القيام بالعبادات .

قوله جل ذكره ﴿ ولو شِئْنا لَبَعَثْنا فى كل قريةٍ نذيراً ﴾

(١) الباء في (باتباع) معناها (بسبب) .

إنَّ اللهَ — سبحانه — خصَّ نبينا صلى الله عليه وسلم بأن فضَّله على الكافة ، وأرسله إلى الجملة ، وبألا يُنْسَخَ شَرْعُه إلى الأبد . وبهذه الآية أَدَّبه بأدقِّ إشارة ، حيث قال : « ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً » وهذا كما قال : « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك »[1] .

وقَصْدُ الحقِّ أن يكون خواصُّ عباده أبداً معصومين عن شواهدهم .

وفى القصة أن موسى عليه السلام تَبَرَّمَ وقتاً بكثرة ما كان يُسْأل ، فأوحى الله فى ليلة واحدة إلى ألف نبي من بنى إسرائيل فأصبحوا رُسُلاً ، وتفرَّقَ الناسُ عن موسى عليه السلام إليهم عليهم السلام ، فضاق قلبُ موسى وقال : يا رب ، إنى لا أطيق ذلك ! فقبض اللهُ أرواحهم فى ذلك اليوم .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تُطِـعْ الـكافرين وجاهِدْهُم به جهاداً كبيراً ﴾

أى كُنْ قائماً بحقِّنا من غير أن يكون منك جنوحٌ إلى غيرنا أو مبالاةٌ بِمَنْ سوانا ، فإنَّا نَعْصِمُكَ بكلِّ وجهٍ ، ولا نرفع عنكَ ظِلَّ عنايتنا بحالٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى مَرَجَ البحرين هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وجعل بينهما بَرْزَخاً وحِجْراً محجوراً ﴾ .

البحر المِلْح لا عذوبة فيه ، والعَذْبُ لا ملوحة فيه ، وهما فى الجوهرية واحد ، ولكنه سبحانه — بقدرته — غايَرَ بينهما فى الصفة ، كذلك خَلَقَ القلوبَ ؛ بعضُها مَعْدِنُ اليقينِ والعرفانِ ، وبعضُها محَلُّ الشكِّ والكفران .

ويقال أثبت فى قلوب المؤمنين الخوفَ والرجاء ، فلا الخوف يغلب الرجاء ، ولا الرجاء يغلب الخوف .

---

(١) آية ٨٦ سورة الإسراء .

ويقال خَلَقَ القلوبَ على وصفين : قلبَ المؤمنِ مضيئاً (مشرقاً[1]) وقلبَ الكافر أسود مظلماً ، هذا بنور الإيمان مُزَيَّن ، وهذا بظلمة الجحود مُعَلَّم .

ويقال قلوبُ العوام فى أَسْرِ المطالب ورغائب الحظوظ ، وقلوبُ الخواصِّ مُعْتَقَةٌ عن المطالب ، مُجَرَّدَةٌ عن رِقِّ الحظوظ .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى خَلَقَ من الماءِ بَشَراً فجعله نَسَباً وصِهْراً وكان ربُّكَ قديراً ﴾

الخَلْقُ متشاكلون فى أصل الخِلْقة ، متماثلون فى الجوهرية ، متباينون فى الصفة ، مختلفون فى الصورة ؛ فنفوسُ الأعداء مطاياهم تسوقهم إلى النار ، ونفوس المؤمنين مطاياهم تحملهم إلى الجنة . والخَلْقُ بَشَرٌ . . ولكنْ ليس كلُّ بَشَرٍ كبشر ؛ واحدٌ عدوٌّ لا يَسْعَى إلا فى مخالفته ، ولا يعيش إلا بنصيبه وحظِّه ، ولا يحتمل الرياضة ولا يرتقى عن حدِّ الوقاحة والخساسة ، وواحدٌ ولىٌّ لا يَفْتَرُ عن طاعته ، ولا يَنْزِل عن هِمَّتِهِ ، فهو فى سماء تعززه بمعبوده .

وبينهما للناس مناهل ومشارب ؛ فواحِدٌ يكون كما قال :

﴿ ويَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُهُم ولا يَضُرُّهُم وكان الكافِرُ على ربِّه ظهيراً ﴾

يكتفى بالمنحوتِ من الخشب ، والمصنوعِ من الصَّخْرِ ، والمُتَّخَذِ من النحاس ، وكلُّها جمادات لا تعقل ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع .

أما المؤمنُ فإنَّ من صفاته أنَّه لا يلتفت إلى العرش — وإنْ علا ، ولا ينقاد بقلبه لمخلوقٍ — وإنْ اتصف بمناقب لا تُحْصَى .

---

(١) وردت فى م ولم ترد فى ص .

قوله جل ذكره : ﴿وما أرسلناك إلا مُبَشِّراً ونذيراً﴾ .

رسولاً مِنَّا ، مأموراً بالإنذار والتبشير ، واقفاً حيث وقفناك على نعت التبليغ ، غيرَ طالبٍ منهم أجراً ، وغير طامعٍ فى أَنْ تجد منهم حَظًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ما أسألكم عليه من أجرٍ إلاَّ مَنْ شاء أَنْ يتَّخِذَ إلى ربِّه سبيلاً ﴾ .

« إلاَّ » أداة استثناء منقطع ، إذ ابتغاؤهم السبيل إلى ربِّهم ليس بأجرٍ يأخذه منهم ، فهو لِمَنْ أَقْبَلَ بشيرٌ ، ولِمَنْ أعرض نذير .

قوله جل ذكره : ﴿ وتَوَكَّلْ على الحيِّ الذى لا يموت ﴾ .

التوكلُ تفويضُ الأمور إلى الله . وحقُّه وأَصْلُه عِلْمُ العبدِ بأنَّ الحادثاتِ كلَّها حاصلةٌ من الله تعالى ، وأنه لا يقدر أحدٌ على الإيجاد غيرُه .

فاذا عَرَفَ هذا فهو فيما يحتاج إليه — إذا عَلِمَ أن مرادَهُ لا يرتفع إلا مِنْ قِبَلِ الله — حصل له أصل التوكل . وهذا القَدْرُ فَرْضٌ ، وهو من شرائط الايمان ، فإن الله تعالى يقول : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين »[1] وما زاد على هذا القَدْرِ — وهو سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطرار — فهى أحوال تلحق بالتوكل على وجه كماله .

فإن تقرَّرَ هذا فالناس فى الاكتفاء والسكون على أقسام ، ولكلِّ درجةٍ من هذه الأقسام اسم : إمَّا من حيث الاشتقاق ، أو من حيث الاصطلاح .

فأول رتبة فيه أن يكتفى بما فى يده ، ولا يطلب زيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب الزيادة . . وتسمى هذه الحالة القناعة ، وفيها يقف صاحبها حيث وقف ، ويقنع بالحاصل له

(١) آية ٢٣ سورة المائدة .

والمطلوب منا أن نلاحظ دائماً ظاهرة هامة نبهنا إليها في مدخل هذا الكتاب ، وهى أن القشيرى يحاول أولا استمداد للمصطلح الصوفي من كتاب الله ، (فالتوكل) الذى هو ركن هام من أركان الطريق الصوفى له اصل فى القرآن . ثم تأتى من بعد ذلك مرحلة البحث فى تطور هذا الأصل ونموه في بيئة المتصوفة .

فلا يستزيد . ثم اكتفاء كلِّ أحدٍ يختلف فى القلة والكثرة، وراحة قلوب هؤلاء فى التخلص من الحرصِ وإرادة الزيادة .

ثم بعد هذا سكونُ القلب فى حالة عَدَمِ وجود الأسباب ، فيكون مجرداً عن الشىء ، ويكون فى إرادته متوكلا على الله . وهؤلاء متباينون فى الرتبة ، فواحد يكتفى بوعدهِ لأنه صدّقه فى ضمانه ، فيسكن — عند فقد الأسباب — بقلبه ثقةً منه بوعد ربه . . ويسمى هذا توكلاً ، ويقال على هذا : إن التوكل سكون القلب بضمان الربِّ ، أو سكون الجاش فى طلب المعاش ، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نَقْدِه ، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد .

وألطف من هذا أن يكتفى بعلمٍ أنه يعلم حالَه فيشتغل بما أمره الله ، ويعمل على طاعته ، ولا يراعى إنجاز ما وعَدَهَ ، بل يكلُ أمرَه إلى الله . . وهذا هو التسليم .

وفوق هذا التفويض[1] ، وهو أنْ يَكِلَ أمرَه إلى الله ، ولا يقترح على مولاه بحالٍ ، ولا يختار ، ويستوى عنده وجودُ الأسباب وعَدَمُها ، فيشتغل بأداء ما ألزمه الله ، ولا يفكر فى حال نَفْسِه ، ويعلم أنه مملوكٌ لمولاه ، والسيدُ أَوْلَى بعَبْدِه من العبد بنفسه[2] .

فإذا ارتقى عن هذه الحالة وَجَدَ راحةً فى المَنْع ، واستعذب ما يستقبله من الرَّدِّ . . وتلك هى مرتبة الرضا[3] ، ويحصل له فى هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه مالا يحصل لِمَنْ دونَه من الحلاوة فى وجود المقصود .

---

(١) الواقع أن القشيرى هنا متأثر بالآراء الكثيرة التى أدلى بها الشيوخ فى هذا الموضوع ، وعلى وجه الخصوص بشيخه الدقاق ، الذى يقول : التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض ، فالمتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . ويقول كذلك : التوكل بداية والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية . ويقول كذلك : التوكل صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين . (الرسالة ص ٨٥) .

(٢) يروى فى هذا الباب أن جماعة سألوا الجنيد : أين نطلب الرزق ؟
فقال : إن علمتم فى أى موضع هو فاطلبوه . قالوا : فنسأل الله تعالى ذلك .
فقال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه . فقالوا : ندخل البيت فنتوكل ؟
فقال : التجربة شك . قالوا : فما الحيلة ؟
فقال : ترك الحيلة (الرسالة الصفحة ذاتها) .

(٣) كذلك ربط السراج فى « لمعه » بين التوكل والرضا بوصفهما مقامين متتاليين فى مقامات الطريق (اللمع ص ٧٩ من أسفل) .

وبعد هذا الموافقة ، وهى ألا يجد الراحة فى المَنْع ، بل يجد بَدَلَ هذا عند نسيمِ القربِ زوائدَ الأُنْس بنسيان كلٍّ أَرَبٍ ، ونسيان وجود سبب أو عدم وجود سبب ؛ فكما أن حلاوة الطاعة تتصاغر عند بَرْدِ الرضا — وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجاباً — فكذلك أهل الأُنْسِ بالله .. بنسيانِ كلٍّ فَقْدٍ ووَجْدٍ ، وبالتغافل عن أحوالهم فى الوجود والعدم يعدون النزولَ إلى استلذاذ المنع ، والاستقلال بلطائف الرضا نقصاناً فى الحال .

ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جملته بالكلية ، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الخمود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء .. وأمثال هذا ، وذلك هو عين التوحيد ، فعند ذلك لا أُنْسَ ولا هيبة ، ولا لذة ولا راحة ، ولا وحشةَ ولا آفة .

هذا بيان ترتيبهم[1] . فأمّا ما دون ذلك فالخبر عن أحوال المتوكلين — على تباين شِرْبِهم — يختلف على حسب اختلاف محالِّهم .

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل فى المهد ، لا شىء مِنْ قِبَلِهِ إلا أن يرضعه مَنْ هو فى حضانته[2] .

ويقال التوكل زوال الاستشراف ، وسقوط الطمع ، وفراغ القلب من تعب الانتظار .

ويقال التوكل السكون عند مجارى الأقدار على اختلافها .

ويقال إذا وثق القلب بجريان القسمة لا يضره الكسب ، ولا يقدح فى توكله[3] .

ويقال عوام المتوكلين إذا أُعطُوا شكروا ، وإذا مُنِعُوا صبروا . وخواصُّهم إذا أُعطُوا آثروا ، وإذا مُنِعُوا شكروا .

---

(١) هذا الترتيب الذى ذكره القشيرى على جانب كبير من الأهمية لأنه أولا يكشف عن التدرج فى مراتب التوكل واحدة بعد الأخرى ، والدقائق النفسية المرتبطة بكل منها ، كما أنه يكشف عن مرحلة الانتقال من المقامات — التى هى جهود — إلى الأحوال التى هى من عين الجود . وواضح ان (الرضا) يحمل فى طياته طبيعة هذه المرحلة الانتقالية ، وقد عالج القشيرى هذه الظاهرة فى رسالته ص ٩٧ .

(٢) القشيرى متأثر بأقوال الشيوخ فى ذلك : نحو « المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوى إليه إلا ثدى امه (الرسالة ص ٨٥ وقولهم) (الصوفية اطفال فى حجر الحق) الرسالة ص ١٣٩ .

(٣) هذه نقطة هامة جداً توضح ان التوكل الصوفى الحق لا يتعارض مع الكسب ، ولا يتعارض معه الكسب . . وقد كذب من ادعى التواكل وكذب من اتهم الصوفية بالتكاسل .

ويقال الحقُّ يجود على الأولياء — إذا توكلوا — بتيسير السبب من حيث يُحْتَسَبُ ولا يُحْتَسَبُ ، ويجود على الأصفياء بسقوط الأرب ... وإذا لم يكن الأَرَبُ فمتى يكون الطلب ؟

ويقال التوكل فى الأسباب الدنيوية إلى حدٍّ ، فأمَّا التوكل على الله فى إصلاحه — سبحانه — أمورَ آخرةِ العبد فهذا أشدُّ غموضاً ، وأكثرُ خفاءً . فالواجبُ فى الأسباب الدنيوية أن يكون السكونُ عن طلبها غالباً ، والحركةُ تكون ضرورةً . فأمَّا فى أمور الآخرة وما يتعلَّقُ بالطاعةِ فالواجبُ البِدارُ والجِدُّ والانكماشُ ، والخروجُ عن أوطان الكسل والجنوحِ إلى الفشل .

والذى يَتَّصِفُ بالتوانى فى العبادات ، ويتباطؤ فى تلافى ما ضيَّعه من إرضاء الخصوم والقيام بحقِّ الواجبات ، ثم يعتقد فى نفسه أنه متوكِّلٌ على الله وأنه — سبحانه — يعفو عنه فهو مُتَّهَمٌ معلولُ الحالِ ، ممكورٌ مُسْتَدْرَجٌ ، بل يجب أن يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه . ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستنِدُ إلى سكونه وحركته ، ويتبرأُ بِسِرِّه من حَوْلِه وقوَّتِه . ثم يكون حَسَنَ الظنِّ بربِّه ، ومع حُسْنِ ظنه بربه لا ينبغى أن يخلوَ من مخافته ، اللهم إلا أن يَغْلِبَ على قلبه ما يشغله فى الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة فى العواقب ؛ فإن ذلك — إذا حصلَ — فالوقتُ غالِبٌ ، وهو أحد ما قيل فى معانى قولهم : الوقت سيف[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ الذى خَلَقَ السموات والأرضَ وما بينهما فى ستةِ أيامٍ ثم استوى على العرش ﴾

انتظم به الكونُ — والعرشُ من جملة الكون — ولم يتجمَّل الحقُّ — سبحانه — بشىءٍ

---

(١) فى هذا المعنى يقول القشيرى « أى كما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب ، وكما أن السيف لين مسه قاطع حده فمن لاينه سلم ، ومن خاشنه اصطلم كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا ، ومن عارضه انتكس وتردى ، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت . وسمعت الاستاذ أبا على الدقاق يقول : الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك » الرسالة ص ٣٤ .

من إظهار بَرِيَّتِهِ ؛ فعلوُّه على العرش بقهره وقدرته ، واستواؤه بفعلٍ خص به العرش بتسوية أجزائه وصورته[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمنُ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾ .

أقبل الحقُّ — سبحانه — بلطفه وبفضله على أقوام فلذلك وجدوه ، وأعرض عن آخرين بتكبره وتعزُّزه فلذلك جحدوه ؛ فَطَرَهُم على سِمَةِ البُعْدِ ، وعَجَنَ طينتهم بماء الشقاوة والصدّ ، فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجهل والجحد .

قوله جل ذكره : ﴿ تبارك الذى جَعَلَ فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾ .

زيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح ، وخَلَق فيها البروجَ ، وبَثَّ فيها الكواكب ، وصان عن الفطورِ والتشويشِ أقطارَها ومناكبَها ، وأدار بقدرته أفلاكها ، وأدام على ما أراد إمساكها . وكما أثبت فى السماء بروجاً (أثبت فى سماء قلوب أوليائه وأصفيائه بروجاً)[2] ؛ فبروج السماء معدودة وبروج القلب مشهودة .

وبروجُ السماء (بيوتُ)[3] شمسها وقمرها ونجومها ، وبروجُ القلوب مطالعُ أنوارها ومشارقُ شموسها ونجومها . وتلك النجوم التى هى نجوم القلوب كالعقل والفهم والبصيرة والعلم ، وقمرُ القلوبِ المعرفةُ .

---

(١) كانت هذه الآية وأمثالها فرصة لآراء كلامية خطيرة سواء من ناحية استواء الله — سبحانه — على العرش ومسألة تنزهه عن المكانية ، او من ناحية خاق الله ما بين السموات والأرض وهل المقصود بذلك خالق افعال الانسان . وقد ناقش الباقلانى فى كتابه (التمهيد فى اصول الدين) كلا الأمرين ، والواقع ان القشيرى — تلميذ الباقلانى — متأثر اراء استاذه إلى حد كبير ، وإن كان الباقلانى اقل تأويلا للصفات الخبرية منه .

(٢) غير موجودة فى ص وموجودة فى م .

(٣) فى ص (ثبوت) وفى م (بيوت) وقد رجحنا هذه لأن البرج (بيت يبنى على سور المدينة وفي أعلاها) كما جاء فى المعاجم .

قمرُ السماءِ له نقصان ومحاق ، وفى بعض الأحايين هو بَدْرٌ بوصف الكمال ، وقمر المعرفة أبداً له إشراق وليس له نقصان أو محاق ، ولذا قال قائلهم :

دع الأقمارَ تخبو أو تنير لها بَدْرٌ تذلُّ له البدور

فأمّا شمسُ القلوب فهى التوحيد ، وشمسُ السماءِ تغرب ولكن شمسَ القلوب لا تغيب ولا تغرب ، وفى معناه قالوا :

إن شمسَ النهارِ تغرب بالليل وشمسُ القلوبِ ليست تغيب

ويصحُّ أن يقال إن شمس النهار تغرب بالليل ، وشمس القلوب سلطانُها فى الضوءِ والطلوعَ بالليل أتمُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى جعل الليلَ والنهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أراد أنْ يذَّكَّر أو أراد شُكوراً ﴾ .

الأوقاتُ متجانِسةٌ ، وتفضيلُها بعضها على بعضٍ على معنى أنَّ الطاعة فى البعض أفضل والثوابُ عليها أكثر . والليلُ خلفَ النهار والنهارُ خلفَ الليلِ ، فمَنْ وقع له فى طاعة الليل خَلَلٌ فإذا حضر بالنهار فذلك وجود جُبْرَانه ، وإنْ حصل فى طاعة النهار خللٌ فاذا حضر بالليل ففى ذلك إتمامٌ لنقصانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وعِبادُ الرحمنِ الذين يمشون على الأرضِ هَوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ .

الذين استوجبوا رحمة الرحمن هم الذين وفِّقُوا للطاعات ، فبرحمتِه وصلوا إلى التوفيق للطاعة . وعِبادُ الرحمن الذين يستحقون غداً رحمته هم القائمون برحمته ؛ فبرحمته وصلوا إلى طاعته . . هكذا بيان الحقيقة ، وبطاعتهم وصلوا إلى جنَّتِه . . هكذا لسان الشريعة .

ومعنى « هونا » متواضعين متخاشعين .

ويقال شَرْطُ التواضع وحَدُّه ألا يستَحْسِنَ شيئاً من أحواله ، حتى قالوا[1] : إذا نَظَرَ إلى رِجْلِهِ لا يستحسن شِسْعَ نَعْلِهِ ، وعلى هذا القياس لا يُساكِنُ أعماله ، ولا يلاحظ أحواله .

قوله : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » : قيل سداد المنطق ؛ ويقال مَنْ خاطَبَهم بالقَدْح فهم يجاوبونه بالمدْح له .

ويقال إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم ، الطاعنون فيهم ، العائبون لهم قابلوا ذلك بالرِّفق ، وحُسْنِ الخُلق ، والقولِ الحَسَنِ والكلام الطيب .

ويقال يخبرون مَنْ جفاهم أنهم فى أمانٍ من المجافاة[2] .

قوله جل ذكره ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾

يبيتون لربهم ساجدين ، ويصبحون واجدين ؛ فَوَجْدُ صباحهم ثمراتُ سجودِ أرواحهم ، كذا فى الخبر : « مَنْ كَثُرَتْ صلاتُه بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار » أى عَظُم ماء وجهه عند الله ، وأحسنُ الأشياء ظاهِرٌ بالسجود مُحَسَّنٌ وباطنٌ بالوجود مُزَيَّنٌ .

ويقال متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يقولون ربَّنا اصرِفْ عَنَّا عَذَابَ جهنَّمَ إنَّ عذابَها كان غراماً * إنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقاماً ﴾

يجتهدون غاية الاجتهاد ، ويستفرغون نهاية الوسع ، وعند السؤال ينزلون منزلة العصاة ، ويقفون موقف أهل الاعتذار ، ويخاطِبونَ بلسان التَنَصُّلِ[3] كما قيل :

وما رُمْتُ الدخولَ عليه حتى حَلَلْتُ محلة العبد الذليل

(۱) هذا القول سمعه القشيرى من شيخه الدقاق (الرسالة ص ٧٤) .

(۲) وردت (المكافاة) والصواب ان تكون (المجافاة) بمعنى انهم لا يقابلون الجفاء بالجفاء ، فمن عاداهم أمن من انتقامهم أو على معنى أن مجافاة الأعداء لا تصيبهم بأذى إذ ليس فى مقدور أحد أن يؤذى أولياء الله .

(۳) وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه : « الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » رواه احمد عن عائشة ، والترمذى وابن ابى حاتم ، وقال الحاكم صحيح الاسناد .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَوَاماً ﴾ .

الإسرافُ أن تنفق فى الهوى وفى نصيب النّفْس ، فأمّا ما كان لله فليس فيه إسراف ، والإقتارُ ما كان ادخاراً عن الله . فأمَّا التضييقُ على النَّفْس منعاً لها عن اتباع الشهوات ولتتعودَ الاجتزاء باليسير فليس بالإقتار المذموم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين لا يَدْعُون مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ ولا يقتلون النَّفْسَ التى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ ولا يزنون ﴾[1]

« إلهاً آخر » : فى الظاهر عبادة الأصنام المعمولة من الأحجار ، المنحوتة من الأشجار .

وكما تتصف بهذا النفوسُ والأبْشارُ فكذلك توَهُّمُ المبارِّ والمضارِّ من الأغيار شِرْكٌ .

« ولا يقتلون النفس . . . » من النفوس المُحَرَّم قَتْلُها على العبد نَفْسه المسكينةُ ، قال تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم »[2] . وقَتْلُ النّفْس من غير حقٍّ تمكينُك لها من اتباع مافيه هلاكُها فى الآخرة ، فإنَّ العبدَ إذا لم يَنْهَ مأمورٌ .

---

(١) (عن ابن عباس ان ناساً من اهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً عليه الصلاة والسلام فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزلت الآية : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً اخر . . . . إلى قوله تعالى : غفوراً رحيما) رواه مسلم عن ابراهيم بن دينار عن حجاج . و (عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قال قلت ثم أى ؟

قال : ان تزانى حليلة جارك . فأنزل الله هذه الآية وما بعدها تصديقاً لذلك) رواه البخارى ومسلم عن عثمان بن ابى شيبة ، عن جرير .

و (عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشى إلى النبي (ص) فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرنى حتى أسمع كلام الله ، فقال الرسول : قد كنت احب أن أراك على غير جوار ، فاما إذ أتيتنى مستجيراً فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله . قال : فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت ، فهل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت الآية . . وأسلم وحشى) .

(٢) آية ٢٩ سورة النساء .

ثم دليلُ الخطاب أن تقتلَها بالحقِّ[1] ، وذلك بِذَبْحِهَا بسكين المخالفات ، فما فَلاحُكَ إلا بقتل نَفْسِكَ التى بين جنبيك .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ يفعلْ ذلك يَلْقَ أثاماً ﴾ .

يضاعَفُ لهم العذابُ يومَ القيامة بحسرات الفرقة وزفرات الحرقة . وآخرون يضاعف لهم العذابُ اليومَ بتراكم الخذلان ووشك الهجران ودوام الحرمان . بل مَنْ كان مضاعَفَ العذاب فى عقباه فهو الذى يكون مضاعَفَ العذاب فى دنياه ، جاء فى الخبر : مَنْ كان بحالةٍ لقى الله بها .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا مَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً
فأولئك يُبَدِّل اللهُ سيئاتِهم حسناتٍ
وكان اللهُ غفوراً رحيما ﴾ .

إلا من تاب من الذنب فى الحال ، وآمن فى المـآل .

ويقال « وآمن » أن نجاته بفضل الله لا بتوبته ، « وعمل صالحاً » لا ينقض توبتَه .

ويقال إنْ نقَض توبتَه عَمِلَ صالحاً أى جَدَّدَ توبتَه ، « فهولاء يبدِّل اللهُ سيئاتِهم حسنات » . ويخلق لهم التوفيق بدلاً من الخذلان[2] .

ويقال يبدل الله سيئاتهم حسنات فيغفر لهم ويثيبهم على توبتهم .

ويقال يمحو ذِلةَ زَلاَّتِهِم ، ويثبت بَدَلَها الخيراتِ والحسناتِ ، وفى معناه أنشدوا :

ولمَّا رضوا بالعفو عن ذى زَلَّةٍ   حتى أنالوا كفَّه وأفادوا

قوله جل ذكره : ﴿ والذين لا يشهدون الزُّورَ وإذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً * والذين

---

(١) تذكر كيف يفرق القشيرى بين حظ النفس وحق الله ، ولاحظ كيف أحسن استغلال الاستثناء هنا (قتل النفس إلا بالحق) أى ذبحها بسكين المجاهدات فى سبيل حق الله .

(٢) واضح من هذا الرأى مدى اتساع صدور الصوفية للأمل فى الأخذ بيد العصاة ، فرحمة الله — فى نظرهم — أكثر رحابة من أن تضيق فى وجه من عثرت أقدامه .

إذا ذُكِّرُوا بآيات ربِّهم لم يَخِرُّوا
عليها صُمًّا وعُمْيانًا ﴾ .

يستمكنون فى مواطن الصدق لا يبرحون عنها ليلاً ونهاراً ، وقولاً وفعلاً . وإذا مروا بأصحاب الزلات ومساكن المخالفات مروا متمكنين مُعْرِضين لا يساكنون أهل تلك الحالة .

ويقال نزلت الآية فى أقوام مرُّوا — لمَّا دخلوا مكة بأبواب البيوت التى كانوا يعبدون فيها الأصنام مرةً — متكرمين دون أن يلاحظوها أو يلتفتوا إليها فشَكَرَ اللهُ لهم ذلك .

ثم قال فى صفتهم : « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا » ; بل قابلوها بالتفكير والتأمل ، واستعمال النظر .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يقولون ربَّنا هَبْ لنا مِنْ أزواجنا وذُرِّياتِنا قُرَّةَ أَعْيُن
واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ .

قرة العين مَنْ به حياة الروح ، وإنما يكون كذلك إذا كان بحقِّ الله قائماً .

ويقال قرة العين من كان لطاعة ربه معانقاً ، ولمخالفة أمره مفارقاً .

« واجعلنا للمتقين إماماً » الإمام مَنْ يُقْتَدى به ولا يَبْتَدِع .

ويقال إن الله مدح أقواماً ذكروا رتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع ، ولم يدَّعوا فيها اختيارهم ; فالإمامةُ بالدعاء لا بالدعوى ، فقالوا : « واجعلنا للمتقين إماماً » .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بما صبروا
وَيُلَقَّوْنَ فيها تحيةً وسلاماً ﴾ .

يعطى — سبحانه — الكثيرَ من عطائه ويعده قليلاً ، ويقبل اليسيرَ من طاعة العبد ويعده كثيراً عظيماً ، يعطيهم الجنة ; قصوراً وحوراً ثم يقول : « أولئك يجزون الغرفة » ، ويقبل اليسيرَ من العبد فيقول : « فجاء بعجل سمين »[1] .

---

(١) آية ٢٢ سورة الذاريات .

قوله : « ويلقون فيها تحية وسلاماً » : يسمعون سلامه عليهم بلا واسطة ، ويتجلىَّ لهم ليرَوْه من غير تكلف نقل ، ولا تحمل قطع مسافة(١)

ويقال « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »(٢) : اليومَ يحضر العبدُ بيته لأداء العبادة ، وينقل أقدامه إلى المساجد ، وغداً يجازيهم بأن يكفيهم قَطعَ المسافة ، فهم على أرائكهم — فى مستقرِّ عِزِّهم — يسمعون كلامَ الله ، وينظرون إلى الله .

قوله : « بما صبروا » أى صبروا عمَّا نُهوا عنه ، وصبروا على الأحكام التى أجراها عليهم بِتَرْكِ اختيارهم ، وحُسْنِ الرضا بتقديره .

قوله جل ذكره : ﴿ خالدين فيها حسنت مستقراًّ ومقاماً ﴾

مقيمين لا يبرحون منازلهم(٣) ، وفى أحوالهم حَسُنَ مستقرُّهم مستقراًّ ، وحَسُنَ مقامهم مقاماً .

قوله جل ذكره : ﴿ قل ما يَعْبَأ بكم ربِّى لولا دعاؤكم فقد كذَّبْتُم فسوف يكونُ لِزاماً ﴾ .

لولا عبادتكم الأصنامَ ودعاؤكم إياها باستحقاق العبادةِ وتسميتكم لها آلهةً . . متى كان يخلدكم فى النار ؟ .

ويقال لولا تضرعكم ودعاؤكم بوصف الابتهال لأدام بكم البلاء ، ولكن لما أخذتم فى الاستكانةِ والدعاء ، وتضرَّعتم رحمكم وكَشَفَ الضرَّ عنكم .

---

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيرى فى موضوع الرؤية فى الآخرة .

(٢) آية : ٦٠ سورة الرحمن .

(٣) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيرى فى تابيد تنعم أهل الجنة .

فهرس

الصفحة

● سورة بنى إسرائيل ٥
● سورة الكهف ٤٧
● سورة مريم ٩٠
● سورة طه ١١٦
● سورة الأنبياء ١٦٣
● سورة الحج ١٩٩
● سورة المؤمنون ٢٣٨
● سورة النور ٢٦٤
● سورة الفرقان ٢٩٧

تم المجلد الرابع ويليه المجلد الخامس
وأوله سورة الشعراء

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

فرع التوفيقية